رحلات

الإمام محمد رشيد رضا



جمعها وحققها

الدكتور يوسف إيبش

* رحلات الإمام محمد رشيد رضا
* جمعَهَا وحقّقَهَا: الدكتور يوسف إيبش.
* طبعة نيسان 2000 م.

* الناشر: بدر للنشر والتوزيع
■ ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 790680 - 750053 - 750054 ـ فاكس 961-1-790769

رحلات
الإمام محمد رشيد رضا

ذكرى

وجيها خانم اليوسف

حرم

حسين بك إيبش

المقدمة

ولد الشيخ رشيد رضا عام ١٨٦٥ م. في بلدة القلمون قرب طرابلس الشام ومات عام ١٩٣٥ م. في مصر. وتميزت الفترة التي عاش فيها الشيخ الرائد بظاهرة بارزة هي انحلال المجتمع التقليدي وغرق العالم العربي في صعوبات التفتيش عن صيغ جديدة لتركيب اجتماعي يؤمّن استقلالية الذات العربية من جهة وانتماءها الخلاّق لركب الحضارة الانسانية الحديثة من جهة ثانية. هي أزمة تكوّن حادة تشمل مختلف أنواع العلاقات السياسي منها والاقتصادي والثقافي والروحي، عاصرها الشيخ رشيد معاصرة العقل الواعي والهمّة القوية والجرأة المتحدّية.

لقد كان مولده بعد أعوام خمسة من فتنة عام ١٨٦٠ م؛ ذلك المعلم البارز في تاريخ هذه المنطقة من العالم، التي طغت صفتها كحرب أهلية طائفية على حقيقة معناها كظاهرة تمرّد على غزوة اوروبا للمجتمع العربي التقليدي. ففتنة عام ١٨٦٠ لم تكن في جوهرها إلاّ علامة انحلال «النواة» الاجتماعية تحت تأثير الغزوة الصناعية الاوروبية التي نقلت الى البلاد العربية بضائع لم تستطع الحرف والصناعات المحلية الصمود في وجهها، وتحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية التي عجزت النظم القائمة أن تقارعها. إذ كانت الفتنة انتفاضة دامية لطريقة في الحياة مهددة بالزوال.

نشأ الشيخ رشيد رضا في جو الشعور بالخطر على الوجود والتراث. وقد ألحقه صدقه في هذا الشعور بركب المصلحين أمثال جمال الدين الافغاني المعني بالدرجة الاولى ببناء «السدّ» في وجه المد الأوروبي المتضخم باستمرار عن طريق الدعوة للوحدة الاسلامية والقوة العسكرية الإسلامية، والشيخ محمد عبده صاحب الصوت المدوّي في الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي الذي كان يرى في هذا الإصلاح سبيل التجدد الضروري للمقاومة والبقاء. فكان الشيخ رشيد ثالث ثلاثة في محاولة بناء الذات.

لقد كانت هجرة الشيخ رشيد رضا من طرابلس الشام عام ١٨٩٨ م. الى مصر رمز

عزيمته الجبارة في التصدي للدور الكبير الذي التزم به طيلة حياته. إذ لم يكد يستقر في القاهرة حتى أسس «المنار»، المجلة المنقطعة النظير في سعة الرواج وبعد الأثر واستقطاب أهل العلم والرأي على حوار مستمر ومتجدد وصادق في مصارحة النفس ونقد الذات وإنارة الطريق.

وتوضح المقتطفات التالية من مقدمة العدد الأول لمجلة «المنار» الأغراض التي يسعى اليها الشيخ رشيد رضا إذ يكتب:

«أما بعد، فهذا صوت صارخ بلسان عربي مبين، ونداء حق يقرع من سمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين، ينادي من مكان قريب يسمعه الشرقي والغربي، ويطير به البخار فيتناوله التركي والفارسي».

ويضيف:

«أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه، حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حدّ الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتاً زؤاماً. تنبّه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر الى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الارض غير الارض، ودخل الإنسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير».

«فهذه الجمادات تتكلم بغير لسان، وتكتب من غير قلم ولا بنان، والوحوش مع الانعام، المراكب تجوب السهوب والفيافي وتقترع الاعلام، بل طارت في الهواء تسابق الرياح...»».

«لا يهولنك ما تسمع ولا يروعنك ما ترى، واعلم ان هذا العصر عصر العلم والعمل، فمن علم وعمل ساد، ومن جهل وكسل باد، «وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»... فعليك بالعلم والعمل، رضٍّ بهما نفسك، وربِّ عليهما ولدك، فقد حلّ من لساني عقدة الاعتقال والسكوت، وأطلق قلمي من عقال الدعة والسكوت، استغراق بعض اخوتي واخوتك في النوم، وغرق بعضهم في بحار الوهم، وجهل المريض منهم بدائه، ويأس العالم بمرضه من شفائه، فأنشأت هذه الجريدة إجابة لرغبة من تنبهت نفوسهم لإصلاح الخلل، ومشايعة الساعين في مداواة العلل، الذين أرشدتهم التعاليم الدينية، وهداهم النظر في الآيات الكونية الى أن اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته جلّ علاه، هو عين الكفر والضلال، وآية الخزي والنكال، فأحبوا ان يعملوا لأمتهم، ويقوموا بخدمة لملتهم، فالجريدة تكون وصلة بينهم وبين الأمة، تبعث بإرشادهم روح الهمّة في أفرادها، وتحيي ميت الغيرة من نفوس آحادها، وتجاري الحداة لدى السير في مناهج الترقي، وتنتصب مناراً في آخرات الشبهات ومجاهيل المشكلات»».

لقد كانت «المنار» صدى هموم العالم العربي والإسلامي في القضايا المصيرية كالتساؤل حول سرّ تقدم الغرب وتأخر الشرق، وكالثورة على الاحتلال الأجنبي وكإيجاد أجوبة عن متطلبات الحياة العصرية.

كان الشيخ رشيد رضا يحمل بشخصه القسط الأوفر من المهمّة، فتفسير «المنار»

للقرآن الكريم جاء تحدياً للتقليد، وفتاوي «المنار» وضعت قواعد للتقدم ورفعت عن الإسلام تهمة التحجر، ورسائل القراء والأجوبة عليها أوجدت عروة وثقى بين المسلمين والعرب. كانت الاسئلة ترد من أندونيسيا ومن مراكش ومن أواسط آسيا ومجاهل افريقيا. وكانت الأجوبة تبلغ أحياناً من الجودة وذيوع الأثر ما بلغه جواب الأمير شكيب ارسلان على سؤال لأندونيسي: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» وهو الجواب الذي نشر أولاً في المنار ثم طبع كتاباً.

وكان الشيخ رشيد رضا، خارج «مناره»، العربي المسلم ذا الشخصية الفذة والأثر المشعّ حيثما وجد. كان القطب في المؤتمرات والندوات والحلقات، الفكرية المنصبّة على هموم العقل والروح، والسياسة المركّزة على طلب الحرية والاستقلال والاصلاح.

كان في القاهرة وفي استبول وفي دمشق وفي الحجاز والهند وأوروبا داعية التجدد الروحي والسياسي، وكان الرائد زارع البذور الجديدة.

ان وعي الجغرافيا السياسية هو مقياس الوعي الحضاري للأفراد والمجتمعات. ورحلات الشيخ رشيد رضا هي جزء أساسي من سيرة حياته، وهذا الجزء المتضمن في هذه الصفحات يسد النقص في التعريف بسيرة الشيخ رشيد رضا وهو الذي لم يكتب إلا جزءًا يسيراً من سيرته الذاتية. ويضع أمام القارىء أسلوب الشيخ رشيد في التفاعل مع الأشخاص والأحداث في ظروف طارئة ومستجدّة وأحوال ليس له بها علم سابق.

والرحلات هي أحد منابع المعرفة والتجربة الأساسية ولا عوض عنها في أكثر الأحوال، أقبل عليها الشيخ رشيد رضا بذهنية من يريد العيش الحي والمباشر للأحداث والاستفادة والتأثير في مجرى الأمور، والاستمتاع بدوره في تكييف الأوضاع وفقاً لمثله ومقاييسه.

والرحلة مع الشيخ رشيد رضا هي على التأكيد من أرقى ما يمكن القارىء العربي ان يقوم به من أجل التعرف على ماضيه القريب.

يوسف إيبش

سياحة صاحب المنار في سوريا(*)

(١)

بيروت

وافيت بيروت في السادس والعشرين من شهر شعبان وقد صحا الجمهور من نشوة الفرح بالدستور، وثابوا الى التفكر والتأمل بعد تلك الرياضة في روض الوجدان والشعور، وكان مما يحمد عليه أهل بيروت ويذكرون به أنهم قد انتقلوا من خمول الاستبداد إلى نشوة السرور بالحرية ومن هذه النشوة الى السكون والروية، ولم يكن منهم غلوّ مذموم كما يحصل عادة في مثل هذا الانتقال بمقتضى قاعدة «ردّ الفعل» وقد اشتهر ما كان من تحوّل الضغائن والأحقاد بين المسلمين والنصارى منهم الى المسالمة والوداد وكان المسلمون هم البادئين بهذا الخير، كما كانوا في الغالب يبدأون وكما يقال بالشر،

وقد رأيت فضلاء المسلمين في هذه الأيام مهتمين بأمرين عظيمين أحدهما مشترك بين جميع العثمانيين وهو ما تفكر فيه جمعية «الجامعة العثمانية» من إنشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية أو نحو ذلك من الأعمال. ولا بد أن يكون فضلاء النصارى متّفقين معهم على ذلك وإنما أسندت الاهتمام به الى المسلمين عن علم وجعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي لأنني لم أجتمع بأحد من علماء هؤلاء وفضلائهم فأعرف بالاختبار ما يهتمون به من الأعمال في عصر الدستور إذ كان أهل العلم والفضل من المسلمين هم الذين استقبلوني في البحر وأكرموا مثواي في البرّ. وما كانت إقامتي بينهم إلا ثلاثة أيام ضاقت عن ردّ الزيارة لجميع الزائرين منهم، ولو طالت لتصديت للقاء أهل الرأي من غيرهم،

والأمر الثاني مما يهتم به المسلمون خاص بهم وهو ما توجهت اليه همة «الجمعية العلمية» من إحياء المدارس التي أسستها من قبل جمعية المقاصد الخيرية وكانت تدير نظامها شعبة المعارف التي قضى عليها الاستبداد فجعل هذه المدارس أثراً بعد عين. ولا أذكر ما سمعته من الآراء في إيجاد المال لهذه المدارس واختيار كتب التعليم لها بعد النظر

(*) المنار ج ١١ (١٩٠٨ . ١٩٠٩) ص ٧٠٦ . ٧١٦.

في ما بين الأيدي منها وجلب مثله من مصر وإنما أرجو أن أكتب بعد قليل من الزمن من أخبار أعمال هذه الجمعية ما يحقق أفضل الآراء وأنفعها.

رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني ورأيت فيهم نفراً من أهل الغيرة الملّية والميل للأعمال التي تنهض بالأمة وترقي شأن البلاد وقد أحببت ان يكون لي حظ من معرفتهم وسعي في جمع صفوة أهل الاخلاص منهم ومكاشفتهم بما أراه من أصول الاصلاح وقد سرني من حديث من اجتمعت به منهم انني رأيت التفاوت بينهم غير بعيد، والخلاف بين طبقاتهم غير شديد، والتنافس بين أهل الظهور لم يهبط الى دركة الحسد، ومقاومة الجامدين للاصلاح لم ترتق الى درجة المقاومة.

والسبب في ذلك على ما ظهر لي أن أذكياء النابتة الذين يحبّون الاصلاح لم يتربّوا تربية أوروبية تبعدهم من الدين وتشوّه مدنية سلفهم في أعينهم وتحبب اليهم الانسلاخ من كل قديم، وتزين لهم الافتتان بكل جديد، كما فتن كثير من المتفرنجين في الآستانة ومصر وتونس، ولم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما مع فنون العربية كل المطلوب لارتقاء المسلمين، ولم يحرموا منهما حرمان من يعادي الشيء لجهله به . وان المشتغلين بالعلوم الدينية والفنون العربية لا يوجد كثير من المتقنين لها والبارعين فيها الذين يخشى أن يكونوا زعماء قادرين على تأليف العصبيات لمقاومة الاصلاح كما هو شأن رجال الدين الجامدين في كثير من بلاد المسلمين.

ونتيجة هذا ان قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لا يرتقي المسلمون بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنّة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية.

رأيت من النابتة العصرية من يقول يجب علينا أن نعمل بمعزل عن الشيوخ الجامدين ولا نبالي بهم رضوا أم سخطوا، ومن يقول لا بد من مقاومتهم والقضاء على نفوذهم، ومن يتوسط فيقول بوجوب مسالمتهم ومداراتهم والاستعانة بمن لان جانبه منهم، والمرجّح عندي ان العاملين في بيروت لا يجدون مقاومة يعتدّ بها، وأحوج ما يحتاجون اليه المال والزعيم الذي تجتمع عليه القلوب ومتى وجد أصحاب الهمم من الرجال، سهل عليهم إيجاد المال، والزعيم إنما يشترط لإتقان العمل وكماله فلا يتعذر على أهل الغيرة الابتداء بالعمل مع فقده. ومتى تكونت الاعضاء تكوّناً طبيعياً ثبت لها رأس طبيعي.

أما حكومة بيروت فهي سائرة في طريق النظام بهمّة واليها ناظم باشا وحزمه ودرايته ولكن هذا الوالي لم يأت بعمل ما في ملحقات الولاية كما يعلم من الكلام الآتي عن طرابلس ولولا قرب عهده بالمجيء الى الولاية لقلنا ان حسن حال الأهالي هو الذي حسّن حال الحكومة في مدينة بيروت فهو لا يدل على فضله ولا يقوّي الرجاء في إصلاح حال الولاية بحسن إدارته ولكنه لقرب عهده لم يتمكن من تنظيم إدارة داره فلا مجال للومه.

طرابلس الشام

وافيت هذه البلدة وقد أهوت شمس يوم الجمعة (وهو التاسع والعشرون من شعبان) الى الغروب والناس يرقبون غروبها ورؤية هلال رمضان بعده فأقبلوا يستهلّون فبدا الهلال لعين واحد منهم فحكم القاضي بشهاده وأصبح الناس من ليلتهم صائمين.

مكثت في دار صديقي الصدّيق الشيخ محمد كامل الرافعي اسبوعاً كاملاً استقبل وفود الزائرين المهنئين من العلماء وعمال الحكومة والوجهاء ورجال الجمعيات الثلاث: جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الجامعة العثمانية والجمعية العلمية. وقد ظهر لي مما دار بيني وبين صفوة الناس من الطبقات العليا والوسطى ان استعداد مسلمي طرابلس للإصلاح الديني والمدني دون استعداد مسلمي بيروت.

ذلك بأن مسلمي طرابلس اكثر من أهل بيروت اشتغالاً بدرس كتب الفنون العربية والعلوم الاسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين وضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد لأنه يشغل الفطرة ولا يكملها فيكون عائقاً لها عما سواه كما أشرنا اليه في الكلام عن استعداد أهل بيروت وربما نوضحه في فرصة أخرى، على ان أهل طرابلس قد قلّ اشتغالهم في السنين الأخيرة لحكم الاستبداد، التي اضطهد بها العلم وكتبه أشد الاضطهاد.

هذا سبب معنوي من أسباب ضعف استعداد أهل طرابلس وسيعدّه أكثرهم غريباً او باطلاً بالبداهة محتجين بأن من كان أوسع علماً في فن أو علم ما كان أقوى استعداداً لغيره، ولا محل هنا لدحض هذه الحجة أو إبطال هذه الشبهة. وثم سبب آخر وهو الفراغ والبطالة في طائفة كبيرة منهم وعدم المنافسة والارتقاء في العمل عند أكثر العامّين.

ومن الأسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والأعمال من الأجانب والعثمانيين فإن طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني، لا يهاجر اليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولا تعليم فيها ولا المرتقون في الأعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية إذ لا رجاء لأحد في الكسب منها.

ومنها ما هو أثر طبيعي لما قبله من عدم وجود الجرائد اليومية فيها وعدم وصول الجرائد اليها من بيروت لأنها غير متصلة بها بسكة حديدية فالمقيم فيها لا يعرف شيئاً يعتدّ به من أحوال العالم.

من أجل هذا وذاك كانت حكومة طرابلس شراً من حكومة بيروت في وقت الاستبداد، ولم تنل نصيباً من الاصلاح في زمن الدستور وقد كان فسادها الماضي وضعفها الحاضر علة لكثرة الاشقياء فيها المستعينين بها على السلب والنهب والنيل من أعراض الناس ودمائهم، فإن لهؤلاء الاشقياء زعماء يشترون ذمّة كبراء الحكّام ويشاركونهم بما يتمتعون به من أموال الناس وأعراضهم ويخضعون لأفراد الشرطة والزبانية بدريهمات يستعبدونهم بها فإذا رفعت على أحدهم قضية كفاه أمرها رجال المحاكم فإذا جاء البلد حاكم جديد وحاول أن يقرر فيها الأمن ويقيم ميزان العدل وأنفذ الشرطة الى بعض هؤلاء الاشقياء المتهمين

بالقتل والضرب أو السلب والنهب عادت اليه الشرطة قائلة انهم قد فرّوا هاربين فلا يعلم مكانهم وإنما يكونون هم الذين لقّنوها ما تقول.

حادثة الاعتداء عليّ وسببها

ما كنت لأذكر هذه الحادثة في المنار، لو لم تشتهر في الاقطار، ويظلم بها أهل طرابلس على الاطلاق، حتى وجب عليّ ان أبرىء المظلومين، وأبين سبب تقصير المقصرين.

حقيقة الحادثة انني دخلت طرابلس باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فيها فقد استقبلني عند الباخرة في البحر جمهور من أهل العلم والوجاهة ووفود من الجمعيات الثلاث: جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العلمية وجمعية الجامعة العثمانية، وكان في الانتظار على رصيف الجمرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقى أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي فلما أقبل عليهم الزورق الذي يحملنا مرفوعاً عليه العلم العثماني (أعزه الله تعالى) صدحت الموسيقى وبعد السلام على كثير من المستقبلين ذهبنا الى موقف الترام الذي بين الميناء والبلد فإذا بمركبة كبيرة من مركبات الترام معدّة لنا من قبل جمعية الاتحاد فتبوأناها مع خواص اعضاء الجمعيات وجوقة الموسيقى في مقدمتها والناس من حولها يطلقون البارود. فوقفت في نافذة من نوافذ المركبة وشكرت للقوم أريحيتهم وسارت المركبة حتى إذا ما بلغت الموقف من البلد استقبلنا فيه جمهور آخر وسرنا حتى إذا كنا بالقرب من الدار التي نؤمها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأنا شقي من اولئك الاشقياء الذين أشرنا اليهم اسمه كامل المقدم فقال أين هذا الذي تسلّمون عليه؟ فعرفني بالقرينة فضربني بعصا في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان عن يساري في مقدمة الناس. فأخرج الشقي مسدساً وأطلق منه رصاصة واحدة اعتقدت انه يريد بها قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما يظهر فإنهم أرجعوني وأحدقوا بي وأرادوا إدخالي لأحد البيوت المجاورة لذلك المكان. وتقدم اليه أكثر من واحد منهم فطردوه ثم استأنفنا السير الى دار الرافعي وكانت قريبة منا وهنالك أخبرني القوم بالمعتدي وانه ابن عبد الرحمن أفندي المقدم الذي كان يجلّني وأنا طالب علم أشد الإجلال على ما كان عليه رحمه الله من كبرياء حتى انه كان يستقبلني ويشيعني عند الباب.

ذلك انه كان قد اعتدى على اخوتي من قبل بإيعاز عصبة من تلك العصب التي اشرنا اليها «والشر داعية الشر» فالظاهر ان تلك العصبة ثقل عليها ان يعتز من اعتدت عليهم بأخ لهم لأنها تحب ان يكون شرها دائماً لا ينقطع. وقد رأيت جميع الناس من جميع الطبقات يعتقدون ذلك ولولا هذا الاعتقاد لأظهروا استياءهم ولقامت قيامتهم على هذا الشبح البالي من حكومتهم على عدم ثقتهم بها بل لاستنهضوا همة حكومة الولاية الى معاقبة ذلك المعتدي الذي عدّوا جريمته إهانة لهم كلهم أي إهانة لأهل البلد لأنه أساء الى المئات من فضلائهم بالتعدي على الضيف الذي يحدقون به تعظيماً له وتكريماً، وقد سمعت من الناس وعنهم ما جزمت به وأيقنت بأن الاستياء العام كان شديداً وأن بعض أهل

الجرأة جهروا لزعماء عصبة ذلك الشقي وله بسوء هذا العمل وبمقت الناس لهم لأجله وحدثني بعض الكبراء والمتوسطين ان اولئك الزعماء أقسموا جهد ايمانهم بأن هذا الأمر لم يكن بإيعاز منهم وانهم وبخوا الشقي الفاعل وكادوا يطلقون عليه الرصاص! ولكنهم مع هذا يهددون من دعتهم الحكومة للشهادة ليكتموها او يحرفوها ويخفون الشقي عن عين الحكومة ويطلبون المصالحة قبل القبض عليه!!.

هذا هو السبب في سكوت جمهور أهل طرابلس وإغضائهم على القذى ولو وثقوا بحكومتهم وأمنوا بقوتها شر تلك العصبة لأظهروا سخطهم لها وللناس قولاً وكتابة فهم معذورون في سكوتهم. على ان فيهم من تحمس ليذهب بوفد الى الولاية ليخاطبوا الوالي في الامر فلم أرض بذلك، ومن شجعانهم من تمنى لو كان حاضراً لينتقم من المعتدي عند الاعتداء.

أقول هذا جواباً لأولئك الفضلاء الاخيار الذين كتبوا الينا من بيروت ولبنان والشام ومصر يقولون اترك «فيحاء الاشقياء» تنعي من بنى أول حجر فيها وارحل الينا حيث تلقى من الكرامة كيت وكيت، ويقولون لو كنا معك لعلمنا أهل طرابلس كيف يوجد من عارفي قدرك من يفديك بدمه.

وكتب إليّ صديقي رفيق بك العظم ينصح لي بأن أقضي بقية إجازتي في بيروت ودمشق وحمص وحماه. وقد تحمس أهل النجدة من بيروت وائتمروا بينهم ليرسلوا وفداً منهم يحضرني في طرابلس وعصبة من الشجعان لينتقموا لي من المعتدين بالقوة اذا كانت الحكومة عاجزة عن ذلك وقد تطوع نحو خمسين رجلاً من فدائية بيروت (الابضايات) بذلك فكتبت الى بعضهم انه لا حاجة الى ذلك وانني في طرابلس عزيز كريم.

أراد ذلك الشقي ان يحط من قدري غلّوا في الانتقام من اخوتي، فكان عدوانه مزيداً في كرامتي، وإهانة له ولعصبة الاشرار، في القرى والأمصار والاقطار، بل إهانة لأهل الاخيار منهم والفجار، فقد طار البرق بالحادثة منذ تلك الليلة الى بيروت ونشر الخبر في جرائدها فعلم به الناس في سوريا ولبنان ومصر فطفقوا يذمون طرابلس وأهلها قولاً وكتابة وقد نقل ذلك اليها كثير ممن كان من أهلها في بيروت. وتلك سنّة الله: رجل يهين أمة ورجل يشرف أمة، كما أطروني برسائل البرق والبريد وتحدثوا بخدمتي الصغيرة للاسلام وللدولة والملة فكبروها تكبيراً بمثل البرقية التي وردت الي من شيخين من أشهر أهل العلم والأدب في مصر ونصّها «نهنىء العلم والدين بنجاة ركنهما الركين» ومثل البرقية التي وردت من فاضلين من أشهر أهل بيروت علماً وأدباً ونصّها «الهناء لكم ولنا وللمسلمين بسلامتكم التي تهمنا جميعاً» وهناك برقيات كثيرة بهذا المعنى من بلاد كثيرة منها برقية بإمضاء بضعة عشر رجلاً وهم خيرة أهل بيروت ولا تسل عن رسائل البريد، وما فيها من الاطراء والتنديد.

وليست الرسائل الواردة بما ذكر كلها من المسلمين بل منها ما جاء من فضلاء النصارى فكانت الحماسة فيها أشد، ولسان الاطراء والقدح أحد، كرسالة صديقنا نقولا أفندي شحادة من زحلة التي يتمثل فيها بقول السيد المسيح عليه السلام الذي معناه انه لا يهان نبي إلا في قومه وبلده»، ورسالة صديقنا رئيف افندي شدودي من جونيه الذي تمنى

فيها كما تمنى كثير من أهل بيروت لو كان معي وقت الحادثة فيرى أهل طرابلس كيف يفديني بدمه (حماه الله) فأشكر لجميع اولئك المهنئين أريحيتهم وفضلهم وأكرر لهم الاعتذار عن أهل طرابلس في المنار كما اعتذرت عنهم فيما كتبته الى الكثير من المهنئين، وأصرح لهم بأنهم لم يقصروا في الحفاوة بي بل بالغوا وأغرقوا حتى كنت أخجل مما أسمعه من شيوخ العلم وكبار الوجهاء، من جمل الثناء والاطراء، مثل: بيّضتَ وجوهنا بيّضَ الله وجهك، شرفت بعملك سوريا والعرب، أحييت بخدمتك العلم والدين، عملت للدولة كيت وكيت. حتى قال لي أحد العلماء ان هذا المجد الذي نلته لم ينله أحد من أهل طرابلس فيها. وقال لي أحد ادباء النصارى ان الناس يستقبلونكم ايها الاحرار كما يستقبلون الفاتحين، لا كما يستقبلون الاعزاء الغائبين. وانني أشهد قراء المنار على نفسي بأنني لا استحق هذا الثناء والاطراء ولا بعضه، وانني ذكرت منه ما ذكرت وأنا في خجل شديد ولولا قصد تبرئة أهل وطني الذي ربيت فيه مما جناه عليهم ذلك الشقي المسكين لما ذكرت ما ذكرت من الاشارة اليه. وسأذكر في رسالة أخرى ما كان من اهتمام دولة الوالي بالحادثة وما كان من أثر ذلك.

ومن آيات رضى أهل طرابلس عن هذا العاجز دعوة الكثيرين من أهل الرأي والمكانة منهم إياه لترشيح نفسه لمجلس المبعوثين وتصريحهم في الملأ بأنه أجدرهم بذلك. ولكنني لم أترك ما عندي من اليقين بعجزي لحسن ظنّهم بي ولذلك كنت أعتذر لكل داع بما أرى أنه يقبله مني.

طلاب العلم الاستقلالي بطرابلس

وقد سرني في طرابلس سروراً عظيماً ان رأيت فيها فئة من طلاب العلوم الدينية يرغبون عن التقليد ويذمونه، ويميلون الى الاستقلال في العلم وينتحلونه، ويعترفون بأن حياة الدين انما تكون بالرجوع الى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وترك ما عداهما من الآراء الكثيرة، رأيت هؤلاء وذاكرتهم بعد ان كتبت ما تقدم من المقابلة بين أهل طرابلس وأهل بيروت ولم أر مثلهم من الطلاب في بيروت ولكنني أظن انه يوجد فيهم من هم على هذه الشاكلة وربما كان عددهم أقل لأن الطلاب في طرابلس أكثر.

وقد رغبت من لقيت من هؤلاء الطلاب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة العصرية، فألفيت آذاناً واعية وقلوباً راغبة وأذهاناً مستعدة، ولكن وسائل العلم غير متيسرة لهم الان وربما لا يتيسر السعي له إلا بعد حين من الزمن. ولهذا لم أرجع بعد لقيّ هؤلاء النجباء عن رأيي في ترجيح استعداد مسلمي بيروت للعمل على استعداد مسلمي طرابلس وان كان في الكلام على هؤلاء الطلاب نوع من الاستدراك على ما تقدم.

الجمعيات في طرابلس

ألّف أهل طرابلس ثلاث جمعيات غير فرع جمعية الاتحاد والترقي كما فعل أهل بيروت. الاولى جمعية الجامعة العثمانية ولها ناد يجتمع فيه اعضاؤها وهم الآن يفكرون في عمل مالي

يكون لهم منه ريع يمكنهم من الخدمة النافعة للبلاد التي توثق بها عرى الجامعة العثمانية وما أظن ان ذلك ميسور لها الآن ففائدتها محصورة في اجتماع اعضائها في ناديها فنقترح عليهم ان يطالعوا فيها الكتب النافعة التي تغذي العقول وترقي الافكار والآداب ككتب التربية والاخلاق والمجلات العلمية، وأن يتمرنوا فيه على الخطابة في السياسة والآداب وشؤون الاجتماع والعمران، وأن يكون لهم في كل شهر مناظرة في مسألة علمية او سياسية او اجتماعية، فبذلك تكون جمعيتهم نافعة مذ اليوم، فإن تيسر لهم بعد ذلك جلب المال وإنفاقه على عمل من الاعمال، كانوا به أبصر، وعليه أقدر.

والثانية الجمعية العلمية ورأيت بعض اعضائها يتحدثون بجعل تعليم الفنون العربية والعلوم الشرعية بطريقة منتظمة في مدرسة كبيرة يتخرج فيها المستعدون للتدريس والقضاء الشرعي والمحاماة. ويقول آخرون منهم ان انشاء هذه المدرسة لا يكون إلا بمال كثير، وهو عسير علينا غير يسير، على انهم لو وجهوا همتهم الى جمع المال لتيسر لهم جمع مقدار يكفيهم لاستئجار دار يعلمون فيها، وأكثر الشيوخ لا يسألون على التعليم أجراً، والطلاب هم الذين يشترون الكتب لأنفسهم، وليس من مقاصد الجمعية تعليم العلوم الطبيعية التي يتوقف تعليمها على الآلات والمعلمين بالأجور فتحتاج الى المال الكثير، ولكن اعضاء الجمعية مختلفون في الامر وهو غير عظيم، فبعضهم يشعر بهمّة في نفسه تصغر له الكبير، فيرميه الآخرون بالغرور والتغرير، ولعلهم يشرعون في التعليم بالطرق المستحدثة والكتب المختارة ولو في المساجد الى ان يتيسر لهم ولغيرهم من المسلمين تحويل معظم الاوقاف الخيرية للتربية والتعليم، وعسى ان لا يكون ذلك بعيداً.

وأما الجمعية الثالثة فقد أطلق عليها الجمعية الخيرية، والذي يفهمه القراء من هذا الاسم انها جمعية تجمع الاموال لإعانة الفقراء والعجزة، ولكن الذي وصل الينا من خبرها انها شركة مالية أسسها بعض الاغنياء لأجل استغلال أموالهم بالأعمال الكبيرة التي يرجى ربحها، وسمعت كثيرين من اعضاء الجمعيات الاخرى يطلقون على مؤسسي هذه الجمعية او الشركة لفظ «حزب التقهقر» ويقولون ان أكثرهم من الذين عزلوا بعد اعلان الدستور لخيانتهم وفسادهم في الحكومة الماضية او استقالوا لعلمهم بأنهم لا بد ان يعزلوا ان لم يبادروا بالاستقالة. ويقولون انهم اعداء الدستور ويطعنون دائماً بجمعية الاتحاد والترقي ويكابرون أنفسهم فيدّعون انها لم تعمل عملاً. وقد ذكر لي اسم ثلاثة منهم لم أسمع من أحد منهم شيئاً مما يحكونه عنهم، ولكنني سمعت من شابين من حملة الاقلام كلاماً صريحاً وتهكماً شديداً في ذلك، وقيل لي ان هذين الشابين من اعضاء هذه الجمعية او انصارها وربما كانا لسان الجمعية وقلمها الكاتب.

وفي هذا المقام أشكو مما سمعت في طرابلس من طعن الناس بعضهم ببعض حتى في المحافل والأندية العامة، وأرجو ان يفتح الله لهم في أيام الدستور من الاعمال، ما يشغلهم عما يضر ولا ينفع من الاقوال.

العمران في طرابلس

رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ احدى عشرة سنة كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء، حتى خُيِّل لي ان ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه، وقلما رأيت أحداً ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان مالكاً أم مستأجراً. وأما ضواحي البلد فقد تجدّدت فيها دور وقصور كثيرة على عدم نموّ الثروة الطبيعية. فالزراعة لا تزال على حالها وعليها مدار معيشة السواد الاعظم. والصناعة كذلك على حالها وليس في طرابلس منها ما يعد مصدراً لارتقاء ثروتها ولم تتصل بها سكك حديدية ترتقي بها تجارتها فأكثر الذين أثروا فيها هم من عمال الحكومة أكلة أموال الناس بالباطل.

شعائر الدين

لعل أهل طرابلس أشد أهل سوريا محافظة على شعائر الدين من صلاة وصيام، وأبعدهم عن الجهر بالمعاصي، وحسبك من هذا ان صاحب قهوة احضر في هذه الايام بعض النساء الراقصات ليروّج بها قهوته فقامت قيامة أهل العلم من المسلمين عليه، وتعصب لهم الجمهور حتى ألزموا الحكومة بمنعه من ذلك.

رحلة صاحب المنار في سوريا(*)

(٢)

القلمون

مكثت في طرابلس اسبوعاً زارني في أثنائه أكثر أهل القلمون وأخذوا يستعجلونني بالخروج اليها فلما كان يوم الموعد الذي ضربته لهم انقسم أهلها شطرين أحدهما جاء طرابلس لأجل ان يكون معي وأكثر افراده من الشبان والكهول، والآخر خرج لاستقبالنا مسافة ربع الطريق وثلثه ونصفه بين القلمون وطرابلس وأكثره من الشيوخ والنساء والاطفال والمسافة كلها ساعة ونصف.

كان عدد كثير من الشبان يحملون السلاح فطفقوا منذ أن خرجنا من طرابلس يطلقون بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فرغبت اليهم ان يكفّوا عن ذلك فامتثلوا حتى اذا ما وصلنا الى الموضع المعروف بأبي حلقة الفينا فيه نفراً من شبان طرابلس فحيّونا بإطلاق البارود والرصاص في الهواء فأجابهم من معنا بمثل تحيتهم بل بأحسن منها فلم أنكر عليهم ذلك لعلمي بأن العرف يقضي بتسجيل العار عليهم اذا لم يفعلوا. وكذلك فعلوا عندما أشرفوا من رابية «ظهر الرويسات» على القلمون لإيذان من بقي فيها بقدومنا وعندما وصلنا الى دارنا أيضاً لأنه من قبيل سلام المفارقة. وقد ذكرت هذا لأنه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل وسيأتي ذكر شيء آخر في معناه.

وكان من حفاوة أهل القلمون بي ان حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس الى القلمون وكان في من خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضاً. وقد راعني وأثّر في نفسي رؤية الاولاد الصغار من بنين وبنات في الخامسة والسادسة فما فوق يتعسفون عن الطريق ويتسلقون الروابي بين الأشواك والحجارة، تبعوا في ذلك آباءهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم وكانت النساء يغنّين ويزغردن ولهنّ في ذلك أغاني مناسبة للمقام، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها. وقد ورد في هذا الباب ان النساء استقبلن رسول الله صلّى الله عليه

(*) المنار ج ١١ (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) ص ٨٧٤ ـ ٨٧٩.

وسلم عند قدومه الى المدينة وهّن يضربن بالدفوف وينشدن الاناشيد ومنها قولهن:

طلع البدر علينا	من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

وكان في من خرج للقائنا مسافة نصف ساعة شيوخ وعجائز في عشر التسعين وعشر المئة من السن وهم صائمون وصحتهم جيدة بل مشى الى طرابلس أكثر من واحد من هؤلاء المعمّرين. وأهل القلمون يعمّرون لاعتدالهم في معيشتهم ورياضتهم الدائمة بالعمل في الارض مع جودة الهواء والماء فالخمر لا تدخل القلمون ولا يشربها أحد من أهلها والفاحشة غير معروفة فيها ولله الحمد والمنّة، وهاتان الكبيرتان هما أفتك بصحة الناس من كل ما يأتيه الناس.

سألت رجلاً من هؤلاء الشيوخ (هو الحاج علي طوط) عن سنّه فقال: أربع وسبعون سنة. وهو يواظب على صلاة الفجر في المسجد غلساً وربما يجيئه قبل طلوع الفجر حتى في أوقات المطر والبرد كهذه الايام. ويمشي عدة ساعات في النهار وهو صائم. وسألت رجلاً آخر (هو السيد عبد القادر علي) عن سنّه فقال لا أدري ولكنه ذكر لي حكايات منها انه كان ملاحاً في البحر فجاءه مرة علي طوط ليعمل معه عمل البحر فلم يقبله لأنه صغير لا يستطيع ان يحرك المجذاف. فالظاهر من هذا انه يكبره بزهاء خمس عشرة سنة فهو قد ناهز العشرة الاولى بعد المئة او جاوزها ولا يزال يصوم ويعمل في ارضه بالعزق وشيبه غير تام. فليعتبر بهذا بعض الشبان والكهول المتفرنجين في مصر وغيرها الذين يزيّن لهم الترف والتهاون بالدين ترك الصيام محافظة على الصحة!! ولو عقلوا لعلموا ان البطنة هي التي تفسد عليهم صحتهم حتى ان اكثرهم ليتناول الادوية والعقاقير والمياه المعدنية لأجل إصلاح المعدة والمعي وتسهيل الهضم وهم في سن الشباب فماذا تراهم يفعلون ان شاخوا؟ على انه قلّما يشيخ منهم أحد!.

ومما يفيد ذكره في هذا الباب: باب الاعتبار بحال الناس في الدين ان أهل القلمون كانوا بهدي بيتنا أبعد مسلمي بلادنا عن البدع كما انهم أبعدهم عن المعاصي. ولما انتهى دور الارشاد فيهم اليّ رأيت عندهم من البدع انهم يوقدون السرج والشموع عند قبرين أحدهما قبر السيد محمد القصيباتي الحسني المشهور في المقبرة القديمة وهو أحد أجدادهم وأجدادنا من جهة الامهات، وثانيها قبر بني حديثاً عند علّيقة على شاطىء البحر وكانوا يربطون بهذه العليقة خرقاً صغيرة يقطعونها من ثيابهم الخلقة يسمونها آثاراً لأجل شفاء المرضى، وكل من هذا وذاك معروف في جميع البلاد. فما زلت أنهاهم وأعظهم حتى تركوا البدعتين نساء ورجالاً وصار من يزور القبور منهم يكتفي بالسلام على الموتى والدعاء لهم والتفكر في الموت والآخرة كما هو المأثور.

وكان أكثر النساء من غير أسرتنا تاركات للصلاة وجاهلات بأحكامها وأحكام الطهارة

وآداب الزوجية فجعلت لهنّ مكاناً أعظهن وأعلّمهن به كما أعلّم الرجال في المسجد فصلحت حالهن في زمن قريب وكنّ أسرع امتثالاً من الرجال. وكذلك كان يوجد رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدرس في المسجد فكنت اختلف اليهم في بيوتهم وأذكر انه استعصى واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه سحباً ولكنه لم يواظب وأعيانا أمره فاكتفيت منه بوعد مكذوب. وكان فيها رجال يسرقون الثمرات كثيراً وغيرها من المتاع قليلاً، فندر ذلك ندوراً، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، وكان عمدتي في وعظهم وتعليمهم كتاب احياء العلوم وكتاب الزواجر وشرح المنهاج فصار فيهم متفقهون في دينهم يستحضرون ما لا يستحضره كثير من العلماء المدرسين وكلهم من الفعلة والفلاحين والصيادين.

على هذا تركت القلمون عندما سافرت الى مصر ولذلك قال أزهد الزاهدين، وبقية السلف الصالحين، العالم الاصولي السائح المعتبر الشيخ عبد الباقي الافغاني رحمه الله تعالى: لو بقي رشيد في بلده يعلّم الناس ويرشدهم لكان خيراً له من الذهاب الى مصر حيث لا يستطيع ان ينفع كما ينفع هنا. قال هذا عندما ذكر سفري له وهو لا يعلم ان قصدي بالسفر التصدي لإرشاد اعظم، وتعليم أعم وأشمل.

ولما عدت اليها في هذه الايام علمت انه قد فتن كثير من أهلها فتركوا الصلاة واتصل بعضهم بالذين اعتدوا على بيتنا من اشقياء طرابلس فأغراهم هؤلاء بقطع الاشجار وشهادة الزور وإضاعة الحقوق وكادوا يجذبونهم الى الخمر والفحشاء والقيادة. أغروهم بالمال وغروهم بأنهم يحمونهم من الحكومة وإن سلبوا ونهبوا وضربوا وقتلوا، فسلسوا لهم وساعدوهم على نهب بيتنا، وتقطيع الاشجار من بعض بساتيننا وكرومنا، ونحمد الله ان كان هؤلاء المغرورون قليلين، وان كان أكثر الاهالي لهم ولمضليهم من الكارهين، ونحمده ان جعل الشر أضعف من الخير.

عدت إلى هؤلاء الناس وهم قومي الذين أغار عليهم ما لا أغار على سواهم وكنت أظن ان ما لي من مثال الهداية والدين في نفوسهم قد صغر وتضاءل في هذه الفترة فإذا هو قد كبر وعظم حتى صار خيالياً مقروناً بشيء من الخرافات فقد كان الرجال والنساء والاطفال يفدون على دارنا ليلاً ونهاراً ومعهم الضعفاء والمرضى والمخدجون يلتمسون الشفاء مني باللمس والرقي وكتابة النشرات وما يعبّرون عنه بالحرز والحجاب على ان في رجالهم من يعرف رأيي في ذلك فكنت أتلطف في بيان الحق لهم بقدر ما يسمح به المقام ويليق بحال المخاطب وأحثهم على المداراة الصحية والتداوي ومراجعة الاطباء عند الحاجة وقد سبق للمنار البحث في هذه المسائل والجمع بين الاحاديث الواردة في الرقي كحديث إقرار الذين رقوا الملدوغ بسورة الفاتحة وحديث وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم لا يسترقون على ان إقناع النساء بلباب الحق في هذه المسائل عسير، ولا يتم ولو مع الارشاد في زمن قصير، ونسأل الله تعالى أن لا يجعلنا فتنة لأنفسنا، ولا لمن يحسن الظن بنا.

قلت مرة لعبد الرحمن أفندي الكواكبي (رحمه الله) لو تيسر لنا ان نجعل بعض محبي

المعتصمين بالكتاب والسنة شيوخاً للطريق لأمكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخاً لطريقة من الطرق. فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلاً من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم الى طريق الدين السويّ فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سبباً لضلاله بدلاً من ان يكون سبباً لهدايتهم وخسرناه خسارة لا مطمع في رجوعها (راجع تفسير قوله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ الآيات في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم او في المنار).

عقدت في القلمون عدة مجالس للوعظ والتذكير قلّ من تخلّف عنها من حاضري القرية فتاب الناس توبة يغلب على ظني انّ أكثرهم صادق فيها ولا أخشى من الاصرار على الفساد الا على نفر قليل من الموالين لبعض الاشقياء الغرباء الذين أشرت اليهم في ما سبق من القول. وقد ألّفت لهم جمعية عنوانها قوله تعالى ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ وجعلت لها صلة بجمعية التعاون التي سعيت بتأسيسها في طرابلس.

ددِّه وسائر الكورة

بدأت الوفود تفد من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى وقد نزل معظم أهل «ددِّه» - وهي على قمة الجبل بإزاء القلمون على الساحل - بعد العشاء وهم يطلقون البارود من بنادقهم والرصاص من مسدساتهم ويهزجون بالأغاني فتلقّاهم شبان القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ما هم فيه وقد قيل لي ان من الرسوم المعتادة في ذلك انه لو لم يخرج شبان القلمون للقائهم لما دخلوها لأن ذلك يعدّ من الاهانة في عرفهم. وعند وصولهم الى دارنا تحلقوا أمامها وطفقوا يهزجون ويطلقون العيارات النارية الى قريب من نصف الليل ثم انصرفوا مشيعين مشكورين وكان زعيمهم في هذا الاحتفال الامير علي عبد الرحمن الايوبي.

وجميع الاناشيد التي هزجوا بها مناسبة لمقتضى الحال ولعل أكثرها ارتجالي فإنه في الترحيب بالقادم (صاحب هذه المجلة) وفيها إطراء له بالأعمال السياسية والعلمية وقد ذكر بعض القوّالين المسلمين في ما أنشده عبارة معناها: لولاك يا فلان لما ارتفع شأن الاسلام فأجابه رفيق له من النصارى بعبارة معناها انه ليس لكم وحدكم وانه قد طبع لنا الانجيل يعني بذلك إنجيل برنابا! وقد أضحكتني هذه العبارة وأضحكت كل من سمع بها من العارفين بإنجيل برنابا. فحبذا هذه السذاجة مع هذا الاتفاق بين المسلمين والنصارى الذي حمدت عليه أهل ددِّه حمداً جميلاً.

رحلة صاحب المنار في سوريا(*)

(٣)

دمشق الشام

عدت في ٢٣ رمضان الى بيروت وفاء بوعدي لأصدقائي وللوالي فأقمت فيها أربعة أيام كنت ألقي في كل يوم منها درساً دينياً بعد العصر في أحد المساجد، وفي اليوم الاخير استبدلت بالدرس خطبة سياسية في حظيرة الموقع العسكري إجابة لطلب الكثيرين.

وفي صبيحة الخميس ٢٧ منه ركبت القطار الحديدي الى دمشق الشام وهو قطار رديء، الدرجة الاولى منه دون الدرجة الثانية من القطار الذي بين رياق وحمص؛ فبلغ بنا محطة دمشق قبيل المغرب فإذا بانتظارنا صديقنا الكريم عثمان بك العظم وجمهور ممن نعرف ومن لم نعرف من المحبين العلماء والوجهاء، نخص منهم بالذكر أعلم علماء الشام الاستاذ الاكبر بركة الوقت بقية السلف الصالح الشيخ عبد الرزاق البيطار والاستاذ العامل المجدّ الذي يقتل وقته كله في التدريس والتصنيف وتصحيح الكتب النافعة الشيخ جمال الدين القاسمي أدام الله النفع بعلمهما وعملهما.

نزلنا في دار عثمان بك فأقبل للسلام علينا فيها كثير من الوجهاء، فرأينا من أدبهم وحسن محاضرتهم ما ينطبق على ما هو مشهور عنهم، وسمعنا منهم مذ الليلة الاولى أخباراً سيئة عن جمعية الإخاء العربي التي أسست في الآستانة فقال بعضهم انها أسست بإيعاز من السلطان لتكون عضداً له وعوناً على جمعية الاتحاد والترقي، وقال آخرون انها «ضد الترك» وقالوا ان ندره بك المطران جاء الشام ليدعو الى هذه الجمعية، وهو يذم الترك ويدعو الناس الى العصبية الجنسية العربية وينفر من جمعية الاتحاد والترقي. وذكروا ان سيرة بعض اعضاء هذه الجمعية غير محمودة وان بعض أفرادها يحتقرون وجهاء البلد ويفطرون في رمضان جهراً وان هذا مما يمهد السبيل لندره المطران ويجعل دسائسه مقبولة عند كثيرين.

هذا ملخص ما سمعته من أكثر من واحد وكنت أبين لهم ولغيرهم ان تنفير العرب من

(*) المنار ج ١١ (١٩٠٨ . ١٩٠٩) ص ٩٣٦-٩٥٣.

الترك مفسدة من أضر المفاسد واننا في أشد الحاجة الى الاتحاد بالترك والاخلاص لهم لأن مصلحتنا ومصلحتهم في ذلك، على اننا أحوج اليهم منهم الينا فمن يسعى الى التفرقة بيننا وبينهم فهو عدوّ لنا ولهم فإن كان سعيه لهواه فهو شر الشياطين وان كان سعيه لغيره فهو شر الاجراء الخائنين ولا عجب في صدور ذلك من بني المطران المفسدين.

نعم يجب على العرب ان لا ينسوا في اتحادهم بالترك أنفسهم ويتكلوا على غيرهم بل يجب عليهم مباراة اخوانهم في التربية التي تقتضيها حال العصر وتحصيل العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ليكونوا يداً واحدة في إحياء الدولة وليقدروا على ترقية شأن بلادهم واستخراج خيراتها العظيمة ثم ليكونوا أهلاً لإدارتها بأنفسهم إذا غلب في المستقبل حزب صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان على غيره من الاحزاب التي ينتظر ان تتكون في الدولة وهو أي رأي صباح الدين ان تكون كل ولاية من ولايات الدولة مستقلة في إدارتها الداخلية ويعبّر عن ذلك بعدم المركزية (Décentralisation) ويرى بعض علماء السياسة انه لا بد في المستقبل من استقلال كل جنس بنفسه ويروي هذا عن نابليون وإذا صح هذا في المستقبل البعيد وكان الجنس العربي غير أهل للادارة التي تقتضيها حال مدنية ذلك العصر الذي سيكون أرقى من عصرنا هذا - وإن قرب - وغير أهل لمشاركة سائر الامم في السياسة العامة والحقوق المتبادلة بين الاجناس على أصول المساواة فكيف تكون حاله يومئذ؟ ألا نكون (لا قدّر الله) تحت وصاية غيرنا من الاجناس المرتقية في العلوم والاعمال؟ ومن هو الجنس الذي يتولى هذه الوصاية؟ وكيف تكون سيرته فيها؟ يجب علينا ان نفكر في حالنا الحاضرة وفي مستقبلنا القريب ومستقبلنا البعيد وأن نعلم ان حسن المستقبل متوقف على ما قبله والنهاية اثر البداية ويجب ان يكون الأساس الذي نبني عليه في حاضرنا ومستقبلنا الاخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية ما دامت هذه العناصر متحدة بالدولة مخلصة لها وان نكون الآن من أشد الاعوان لجمعية الاتحاد والترقي على بث روح الدستور في جميع الطبقات ورقباء على الحكومة في سيرها وأعمالها حتى ترسخ فيها الديمقراطية وتسير بعد اجتماع المبعوثان على الاصول الدستورية.

هذا ما كنت أبثه من الافكار في مثل هذا المقام واستطرد منه الى بيان وجوب العناية بتأسيس المدارس لنشر التعليم الاهلي في جميع طبقات الاهالي وان ذلك يتوقف على تأسيس الجمعيات الخيرية في كل لواء من ألوية كل ولاية لأجل تعليم اولاد الفقراء بغير اجرة وتعليم اولاد الاغنياء بالأجرة. ثم أنوه بالتعليم العالي والرحلة الى حيث توجد الى ان يوجد في كل ولاية مدارس عالية يستغنى بها عن الرحلة وهذا ما كنت أقوله في كل بلد.

ومما سرني بدمشق وأهلها سروراً عظيماً حياة كثير من الصناعات فيها. وكيف لا ينشرح صدري لذلك وقد رأيت ذلك الجامع الفخم الذي كان هو الاثر العظيم في هذه العاصمة لأول دولة عربية تأسست فيها فدمره عصر الظلم والاستبداد بالنار فأعاده أهل دمشق الى ما كان عليه لا ينقصه إلا ما كان فيه أولاً من زينة الفسيفساء التي يعجز عنها

حتى الافرنج من أهل هذا العصر، ثم انني رأيت معظم أثاث البيوت ورياشها من صنع أهل البلد حتى في بيوت الكبراء كبيت عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة وأعلاهم جاهاً ومنزلة فقد تأملت أثاث بعض الحجرات ورياشها في داره فلم يقع نظري على شيء فيها من غير صنع الشام إلا السجاجيد العجمية حتى إن القناديل الكهربائية النحاسية التي فيها هي من صنع الشام قلنا ان نفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والنجارة وغير ذلك وأن نجتهد في توسيع دائرتها بالطرق الحديثة.

رغب إلي أحد الفضلاء في ان أقرأ درساً في الجامع الاموي كما فعلت في بيروت وطرابلس فأجبتهم الى ذلك لرميهم فيه عن قوس عقيدتي وموافقتهم لرغبتي واستحسنت ان يكون ذلك بعد صلاة الجمعة فقيل ان هذا هو الوقت الذي يختم فيه المدرسون الرسميون دروسهم فيرونك فيه مزاحماً عليهم فيثقل عليهم، فالأولى ان يكون درسك بعد العصر، فوافقتهم على ذلك. وقد صلينا الجمعة في الجامع الاموي ورجونا ان نسمع فيه خطبة تناسب في حسنها المعنوي ما في ذلك الجامع من الحسن الحسي ولكن خاب رجاؤنا فسمعنا ما ملّته أسماعنا من عهد الحداثة وهو مدح رمضان وتغرير العامة بحديث العتق فيه الذي بينا في المنار من قبل ما قيل في وضعه. وشهدنا بعد الصلاة دروس المدرسين فجلسنا زهاء ثلث ساعة في درس الكزبري الذي حضره الوالي والمشير حسب العادة المتبعة وخلق كثير. ووقفنا هنيهة على درس رجل يقال له الشيخ صالح التونسي يحضره زهاء ١٥ او ٢٠ رجلاً ثم على درس الشيخ بدر الدين فإذا هو رجل يسرد الاحاديث الشريفة بأسانيدها بالضبط الصحيح ويورد في معناها كل ما قاله بعض العلماء في شرحها او جلّه وينتقل من المسألة الى ما يناسبها من غير تلعثم ولا مكث.

درسنا الاول في الأموي

ثم خرجنا من المسجد وعدنا اليه في وقت العصر وبعد صلاة الفريضة تلا بعض القرّاء آيات من الكتاب العزيز فجعلتها موضوع الدرس واستطردت منها الى غيرها من الآيات الواردة في صفات المؤمنين وما وعدهم الله تعالى به في الدنيا والآخرة مع تنبيه الأذهان الى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا... وذكرت ما يطلب من المسلمين في هذا العصر ليحافظوا على دينهم الذي يرشدهم الى ما فيه سعادة الدارين ويعدهم بذلك جزاء على نصره والقيام بحقوقه وكون ذلك يتوقف في هذا العصر على العلوم والفنون التي يرتقي بها الاجتماع البشري وتعتز بها الأمة ويرفع شأن الدولة الا وهي العلوم والفنون الرياضية والطبيعية والاقتصادية. ومما قلته وكررته: انني أرفع صوتي قائلا اننا لا تقوم لنا قائمة الا بالأخذ بهذه العلوم والفنون التي يتوقف عليها امتثال قوله تعالى ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فإننا نستطيع ان ننشئ المدرّعات البحرية ونعمل المدافع والبنادق وقذائف الديناميت لأجل حماية حقيقتنا وتعزيز دولتنا، وأن نعمل السكك الحديدية وغيرها من الأمور التي ترقي مدنيتنا وتحفظ

ثروتنا، وكل ذلك يتوقف على العلوم الرياضية والطبيعية التي لا حياة لأمة في هذا العصر بدونها، إن علماءنا السابقين الذين كانوا يذمون العلوم الطبيعية وينهون عنها لم يكونوا يعنون بها الا تلك النظريات اليونانية التي تبحث في الإلهيات بحثاً يخالف أصول الدين وقواعده، والعلوم الطبيعية في هذا العصر مباينة لتلك النظريات وناقضة لها لأن أساسها التجربة والاختبار والعمل فمن فروعها علم الكهرباء الذي ترون من آثاره النور الذي يتألق في مسجدكم هذا ليلاً، والمركبات التي تجري في شوارعكم وأسواقكم، ومنه علم البخار الذي تسير به قطارات السكة الحجازية من بلدكم الى مدينة الرسول ﷺ. فهل يمكن ان يكون هذا العلم معارضاً للدين؟ كلا انه لا يضر الدين وأهله ولكن يمكن ان يتسخدم لحفظ الدين ورفعة شأن أهله فكل من يصد المسلمين عنه فهو إما صديق جاهل بحقيقة هذاالعلم وفائدته وإما عدّو غاش للمسلمين.

ثم بينت لهم ان الاسلام على جمعه بين مصالح الدنيا والآخرة دين يسر لا عسر ولا حرج فيه وانه يمكن للمسلمين ان يجمعوا بينه وبين جميع العلوم والفنون العصرية التي نوّهت بفائدتها إذا أحسنوا التربية الدينية وأصلحوا طرق التعليم وان ذلك إنما يكون بانشاء المدارس الأهلية، وهذه المدارس لا يقوم بها حق القيام إلا الجمعيات فالذي يجب ان يبدأ به أهل بلادنا في هذا العصر هو تأسيس الجمعيات التي تنشر التعليم في جميع طبقات الأمة وذكرت لهم موقع دمشق ومكانها من جزيرة للعرب وما ينبغي من السعي في جعلها ينبوعاً للمعارف والمدنية فيها ثم قلت في آخر الدرس انه يمكنني ان أبين لكم في مجلس آخر كيف يمكن الجمع بين الاسلام تربية وتعليماً وبين تحصيل العلوم العصرية الكثيرة التي تقوى بها الأمة وتعتز الدولة ان شئتم فأظهر الرغبة في ذلك الجمهور. وقد حضر الدرس عدد كثير من الناس يبلغ المئات على ما قدره بعض الحاضرين. ومنهم العلماء الرسميون الذين أقبلوا عليَّ بعد الدرس بالتحية والثناء وإظهار الاعجاب بالدرس والدعاء بأن ينفع الله بي وبه، والوجهاء كأحمد باشا ومحمد باشا العظم وعلي باشا الامير وعبد الرحمن باشا اليوسف وشكروني على ما أبديته وألحوا علي بأن أعيده في اليوم الثاني.

درسنا الثاني في الاموي والحادثة المشهورة

تحدث الناس في الدرس الاول في ليلتهم تلك وانه على غير ما يعهدون في الموضوع وهو الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة والاستناد على آي القرآن - وفي الأداء وهو أسلوب الخطابة، فرغب الناس بعضهم بعضاً في حضور الدرس الثاني فلم نكد نصلي العصر في اليوم الثاني وننفتل الا وقد تحلق الناس في مكان الدرس الاول (تحت القبة) وصار يلزّ ويزحم بعضهم بعضاً فلما اتسعت مساحة القاعدين طفق الناس يتحلقون حولهم وقوفاً ثم ازدحموا فصاروا كالقاعدين على غير نظام حتى صاروا يقدرون بالألوف فرأى بعض المتهمين بأمر الدرس انه لا يمكن اسماعهم الا بالقعود على شيء مرتفع فأحضروا الكرسي الذي يقرأ عليه خطباء المسجد قصة المولد ونحوها في المواسم المحدثة في الاسلام

فصعدت اليه وشرعت في الدرس بعد ذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على البشير النذير جزاه الله عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته.

كان موضوع الدرس تعريف الدين وكونه هادياً الى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وكون الاسلام عاماً لجميع البشر موافقاً لمصالحهم في كل زمان ومكان وبيان إمكان الجمع بين هدايته وبين جميع العلوم والفنون التي عليها مدار العمران في هذا العصر إذا صلحت طريقة التربية والتعليم.

قلت ان القاعدة التي ينبغي لنا ان نبني عليها أساس اهتدائنا بالإسلام هي قول الامام مالك بن أنس رضي الله عنه «لا يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها» فيجب علينا ان نرجع الى سيرة الصدر الاول فننظر كيف تلقى الصحابة عليهم الرضوان دينهم عن النبي ﷺ وكيف كانت سيرتهم في العمل به وكيف تلقى عنهم التابعون فنهتدي بهديهم في ذلك.

ثم بينت ان ما جاء به الاسلام ينقسم الى ثلاثة أقسام: قسم العقائد وقسم الأخلاق والآداب وقسم الاعمال من العبادات والمعاملات، وشرعت في بيان طريقة التعليم التي ينبغي سلوكها لاحياء الاسلام في زمن قليل لا تحتاج فيه الى مدارسة هذه الكتب الكثيرة في الكلام والفقه وغيرها التي لا يتفق تحصيلها في عشرات من السنين الا للعدد القليل من المنقطعين لتحصيلها وهؤلاء المنقطعون عشر معشار الامة. فإذا كان الدين لا يؤخذ الا من هذه الكتب التي اختارها علماؤنا للتعليم العام في هذه القرون الاخيرة فكيف السبيل الى تعليم الدين لجميع المسلمين؟ وههنا قلت كم عدد مسلمي هذا البلد؟ فقال بعضهم مئتا ألف او يزيدون فقلت هل فيهم ألفا عالم فهم كتب الكلام وكتب الفقه المتداولة؟ قيل ولا ألف. فقلت اذا كان هذا مبلغ تعلّم الدين في مدينة تعد من أعظم أمصار الاسلام في الارض فكيف يكون حال مسلمي القرى وأهل البوادي ومثل مسلمي الصين؟.

ثم شرعت في بيان الطريقة السهلة لتعميم تعليم العقائد فقلت ما معناه: ان كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب علهيم اعتقاده وإنما وضعت لرد شبهات الفلاسفة والمبتدعة عن العقائد الاسلامية والاحتجاج على حقيتها وقد انقرض اولئك الفلاسفة والمبتدعة الذين عني المتكلمون بإقامة الحجة عليهم وظهر بطلان مذاهبهم الا قليلاً من مسائلها وحدثت لفلاسفة هذا العصر ومقلدتهم شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة يجب ان يعنى متكلمو هذا العصر بكشفها ولا ينبغي ان يذكر شيء منها لعامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقينهم الدين وإنما يخص بذلك طلاب العلوم الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام.

المسلم لا يحتاج الى الاستدلال على وجود الله تعالى بالطريقة الكلامية وان الدلائل التي تبني على فرض خلاف المطلوب قد يكون إثمها أكبر من نفعها لأنها تثير الشبهات وتوقع كثيراً من السامعين في الشك وإنما الطريقة المثلى لذلك طريقة القرآن الحكيم وهي عرض محاسن الخليقة وأسرارها على العقل وتذكيره بحكمة مبدعها البالغة وقدرته

العظيمة وعلمه الواسع وتفرده بالخلق والتكوين والرحمة والإحسان (وذكرنا بعض الآيات في ذلك).

لماذا تقول للمسلم الخالي الذهن من الشبهات والشكوك لو لم يكن للعالم إله للزم الدور أو التسلسل وكل منهما باطل فما أدّى اليه وهو عدم وجود الإله باطل ـ فثبت نقيضه وهو ان للعالم إلهاً ـ ثم نحاول ان نفهمه معنى الدور والتسلسل والبرهان على بطلانهما وما أصعبه مركباً وأبعده مطلباً! وقد رأينا كثيرين من المتصدرين لتدريس علم الكلام يذكرون ما كتب من الاستدلال على بطلان الدور والتسلسل وهم لا يفهمون ما يقولون.

ان الايمان بوجود واجب جل شأنه عام في البشر باديهم وحاضرهم حتى قال كثير من العلماء انه فطري مودع في النفوس بأصل الخلقة فأكثر علماء اوربا وفلاسفتها يؤمنون بذلك وكذا المؤمنون الذين ارتقت وثنيتهم كالبراهمة والبوذية حتى اليوم ومشركي العرب في زمن البعثة. ومن شذ من البشر فأنكر وجود البارىء تعالى لشبهة أثارتها في نفسه تقاليد دينه او نظريات فكره الضعيفة فهو لا يمنع ان يكون لهذا الاعتقاد أصل في الفطرة البشرية فقد قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى: ان الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون في مجموع البشر فهم مرضى الارواح ـ او قال العقول ـ من هذه الجهة وان صحّت أفكارهم من جهة او جهات أخرى ومرض الروح والعقل عرض يطرأ على بعض الناس كمرض البدن، فمرض الجسد مهما كثر لا يعد هو الاصل في المزاج وكذلك مرض العقل والروح لا يعد في الاصل وان كثر المرضى به.

قلنا ان أكثر البشر يؤمنون بوجود الله تعالى ونقول ان الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بعلمه وقدرته وإرادته ويعظمونه ويقدسونه وقلما أخطأ الكفار في غير وحدانية الألوهية والربوبية من مسائل الإلهيات. فأما وحدانية الألوهية أي العبادة فهي عبادة غير الله تعالى بالدعاء ونحوه، وأما وحدانية الربوبية فهي اتخاذ البشر شارعين يشرعون للناس من الدين ما لم يأذن به الله. وقد بين الله ذلك في كتابه الحكيم فقال في بيان عقائد مشركي العرب **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾** وقال لنبيه ﷺ **﴿قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ❁ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ❁ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ❁ سيقولون لله قل أفلا تتقون ❁ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ❁ سيقولون الله، قل فأنى تسحرون ❁ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعل بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾** فقد أثبت لهم الايمان بوجود الله وانه هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء وقال فيهم مع ذلك **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾** فما هو شركهم؟ هو ما بيّنه في آيات أخرى كقوله عز وجل **﴿والذين اتخذوا من دونه اولياء: ما نعبدهم الا ليقربونا اليه زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾** وقوله سبحانه **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض! سبحانه**

وتعالى عما يشركون﴾ وقال في أهل الكتاب ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ وقد روي في الصحيح ان عدي بن حاتم أسلم وكان نصرانياً فلما سمع هذه الآيات قال للنبي ﷺ انهم لا يعبدونهم فقال ما معناه: أليس يحلّون لهم ويحرّمون عليهم فيتبعونهم؟ قال نعم قال فذاك. فهذا وما قبله هو الذي فتن به الوثنيون والذي طرأ على أهل الكتاب وقد بينه القرآن الكريم تبيناً.

قلت كل هذا تمهيداً لبيان ما يجب اتباعه من تلقين المسلمين عقائد دينهم على طريقة القرآن المثلى وأردت ان أشرع في المقصد فإذا أنا برجل مغربي قد اخترق جمهور الواقفين حتى انتهى الى دائرة القاعدين وصاح يا إخواننا المسلمين اسمعوا لي كلمتان وشرع في الكلام فاضطرب الناس وكثر اللغط وقام كثير من القاعدين فرغبت اليهم في السكوت والاستماع له. فأما إحدى كلمتيه فكانت في مشروعية زيارة القبور والتوسل بالصالحين الميتين الى الله تعالى ليقربوهم اليه! ويقضوا حوائجهم عنده! وأما الكلمة الثانية ففي وجوب تقليد الأئمة المجتهدين في الدين والثناء عليهم وكون العمل بما في كتب الفقه هو عين العمل بالكتاب والسنة!. وكان يقول ما مثاله: يا إخواننا هل الذي يتوسل الى الله تعالى بالأولياء يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يحب الصالحين ويعظمهم يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يؤمن بكرامتهم يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يعظم الأئمة ويعمل بمذاهبهم يكون مشركاً بالله!!!.

فلما أتم كلامه قلت أيها الاخوان: ان من يسمع كلام هذا الشيخ ممن حضر في اثناء كلامه يظن ان ما قاله في درسي ليس الا رداً عليّ وإنني كنت أتكلم في هذه المسائل بخلاف ما قاله ومن حضر المجلس من أوله يعلم انني لم أتعرض لهذه المسائل بنفي ولا بإثبات وليست هي من موضوع كلامي فإن الذي قصدت اليه في هذا الدرس ووعدت به أمس هو بيان طريقة تعميم تعليم الدين لجميع المسلمين بأسلوب سهل وزمن قليل يبعث فيهم روح الدين ولا يشغلهم عما هم في أشد الحاجة اليه من أمر الدنيا وقد أشرت في ما قلت الى ان هذه الطريقة هي طريقة القرآن الحكيم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في تلقين الدين لا طريقة المتكلمين وقد سبقني الى ذلك حجة الإسلام الغزالي فقال بمثل ما قلته في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) وغيره، فصرح بأن كتب الكلام وضعت لحماية العقيدة من هجمات المخالفين، لا لإفادتها وتقريرها لعامة المسلمين، وان طريقة القرآن هي التي يجب الاعتماد عليها في التعليم، وكل ما قلته تمهيد لبيان ذلك بعبارة ممحّصة قريبة من الأذهان. وما خطر في بالي ان أحشر في درسي شيئاً من هذه المسائل التي قطع بها الرجل على كلامي قبل ان أصل الى المقصد منه. وكأني بأناس يقولون الكذب ويتجرّمون علي ويأخذون من كلامه تهماً يلصقونها بي فحسبي أن يعلم هذا الجمهور العظيم الذي سمع كلامي عني ويسمعوا مني بأنني ما أنكرت ولا أنكر زيارة القبور لأجل الاعتبار وتذكر الآخرة والموت كما ورد في حديث الإذن بها بعد النهي عنها وانني أزورها بالفعل، وأحب الصالحين ولا أنكر ما لهم من الكرامة عند الله تعالى فإن من لا يحب الصالحين يكون

أشقى الاشقياء، وأعظم الأئمة المجتهدين وأعتقد انهم كانوا على هدى وإخلاص في خدمة الدين وان من التوفيق والسعادة اتباعهم في الاهتداء بالكتاب والسنة. ثم صعد الكرسي الشيخ عبد القادر الخطيب وأراد ان يتكلم فأنزله عثمان بك العظم عن الكرسي وصده عن التكلم ووقف عليه وقال ما معناه: أيها الاخوان انه لا ينبغي للعوام الخوض في ما يختلف فيه العلماء فانصرفوا الى شأنكم ومن كان من العلماء يريد مناظرة الاستاذ في هذه المسائل او غيرها فليتفضل بعد العشاء الى منزلي. ثم نزل وقال لي تفضل فنزلت ومشينا معاً فمشي معنا جمهور عظيم من الحاضرين وسمعت بعض من بجانبي يقولون ما معناه لا تخف ولا تحزن فلا قيمة لهذا الرجل ولا تأثير لكلامه وبعضهم يقول هلمّ واسرع. وكان اللغط والضوضاء على أشدهما حتى خرجنا من باب صحن المسجد وحينئذ رغب إليّ الشيخ أديب تقي الدين ان أدخل داره وهي بقرب المسجد للاستراحة وردّ الزيارة (فكان قد زارني في دار عثمان بك) فأجبته الى ذلك فلما دخلت داره طفق يقبل رأسي ويثني علي ويطري درسي ويهوّن عليّ ما جرى ويحلف الايمان بأنني ما قلت إلا الحق وان ما عورضت به ليس بشيء. فعجبت من ذلك كله لأنني لم أكن أعدّ ما جرى في الجامع من قطع الدرس عليّ أمراً عظيماً ولا مصاباً يعزّى عنه. وظننت ان السبب في كل ما رأيت من لهف الناس وعنايتهم بتسليتي هو عدم تعودهم في تلك المدينة مثل ما رأوا من ذلك الافتيات. وخطر في بالي ان الباعث لذلك الرجل على ما فعل هو حب الظهور والشهرة او سوء الظن والظنة فإنه هو الرجل الذي ذكرت انني رأيته يقرأ درساً لا يحضره إلا قليل من الناس وقد علمت بعد ذلك ان اسمه الشيخ صالح وأنه داعية لأبي الهدي الصيادي أرسله الى دمشق ليبث دسائسه فيها.

قبيل المغرب من ذلك اليوم ذهبت مع عثمان بك الى دار عبد الرحمن باشا اليوسف لأننا كنا مدعوين للفطر عنده فلما كنا إلى المائدة جاء أسعد بك بيكباشي أركان حرب وهو وكيل الشرطة في دمشق وأحد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين يشكو منهم أكثر وجهاء دمشق فجلس معنا وأخبرنا انه قبض على الشيخ الصالح وأودعه في السجن. فقال له عثمان بك اخطأت في هذا العمل فيجب ان نذهب بعد الفطور لأجل إخراجه لأن ما حصل يجب ان يقف عند الحد الذي وصل اليه. وكان الأمر كذلك فقد ذهب أسعد بك بين المغرب والعشاء لأجل إطلاق الشيخ صالح على ما فهمنا وبعد صلاة العشاء في بيت عبد الرحمن باشا خرجت انا وعثمان بك فركب هو مركبته وتبع أسعد بك لينظر ماذا فعل وركبت أنا مركبة أخرى الى دار عثمان بك.

ولما عاد عثمان بك أخبرني بأنهم أخرجوا الشيخ صالحاً من الحبس وان فتنة عظيمة أثيرت في الشام فحمل ألوف من الناس السلاح واحتشدوا في الأسواق والشوارع وذهب جمهور عظيم منهم الى مجلس البلدية وجمهور الى دار الحكومة. قال وهذا الذي كنت أخشى بادرته في الجامع فأحببت ان تختم الدرس وتخرج ولا تطيل الرد على الشيخ صالح. قلت له ما هو سبب ذلك فإن ما حصل في الجامع لا يصح ان يكون سبباً لحمل

السلاح ولا للفتن لأنه لا يزيد على إساءة رجل بقطعه الدرس عليّ وأنا لا أحب الانتقام وليس لي عصبة تنتقم لي ان أحببت ولا هذا الذنب مما يعاقب عليه بالسلاح وان أدري ألذلك الرجل عصبة قوية عظم عليها أمر حبسه فأرادت ان تنتظر له؟ وهل يكون الانتصار في الشام دائماً مثل هذا؟ أعني إذا حبس رجل له أنصار يطلب أنصاره من الحكومة إطلاقه بقوة السلاح!!؟ قال انني علمت من حال بعض الحاضرين في الدرس أن هناك فتنة مدبرقيراد إيقاعها في الجامع بأدنى مناسبة او بخلق مناسبة ولست أنت المقصود بها. وانه ليس للشيخ صالح عصبة ولا محبون والذين هيجوا الناس ودفعوهم الى المطالبة باطلاقه لهم بذلك أغراض يتوسلون اليها بكل وسيلة تتيسر لهم لا يهمهم فيها ان يعظم من لا يستحق التعظيم ويؤذى من لا يستحق الإيذاء ولا حاجة الى شرحها ولكن أقول بالإجمال انها تتعلق بانتخاب المبعوثين. ولا أكتم عنك انه لا يكاد يوجد أحد في الشام يخرج من بيته بغير سلاح. قلت إذاً ليس في الشام حرية شخصية تحميها الحكومة فأنا مسافر في الصباح حتماً، ولا أقيم في هذا البلد يوماً، فرضي مني بذلك على كره منه وحرص على أن أقيم عنده أياماً أرى فيها معاهد البلد وأعرف أحواله. فهذا ما دار بيني وبينه في الليل ثم نمت طائفة من الليل واستيقظت وقت السحور ولما طلع النهار سافرت من الشام قاصداً رياق.

اجتمعت في قطار سكة الحديد ببعض ادباء دمشق وتجارها فسمعت منهم شيئاً كثيراً من أخبار الفتنة الظاهرة والفتن الباطنة، منهم شابان ذكيان من محبي الإصلاح والعلوم العصرية كاشفاني بما في صدورهما وذكرا لي اسماء شبان آخرين على مشربهما وقالا انهم يكتمون ميلهم ورأيهم ولا يحبون ان يعرف شيء عنهم. ثم اجتمعت ببعض باشوات الشام في بعلبك فحدثني بما يعلم من أمر الحادثة ومن أحوال الشام وهو ممن حضر الاجتماع عند الوالي ليلاً. واجتمعت أيضاً هناك ببعض اعضاء جمعية الاتحاد والترقي فسمعت منهم انباء وآراء فعلمت من ذلك ومما سمعته في حمص وقرأته من المكتوبات التي بعث بها من الشام الى حمص وغيرها جميع ما كان من المكايد والفتن وهذا مجمل ما وصل الي.

أسباب فتنة دمشق

الأصل في ذلك كله امتعاض بعض الوجهاء أصحاب النفوذ من أسعد بك وسليم بك الجزائري كلاهما قائد ألف «بكباشي» من أركان الحرب والدكتور حيدر وكلهم من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وكراهتهم لهذه الجمعية لإنها جعلت لهؤلاء منزلة ونفوذاً في الشام يعلو نفوذ اولئك الوجهاء المتعضين الذين يرون انهم سادات الشام وانه يجب ان يكون النفوذ فيها مقصوراً عليهم ومحصوراً فيهم وخاصاً بهم!.

قهرتهم جمعية الاتحاد بظهورها مؤيدة بالقوة العسكرية ولكنهم لم يتجرأوا على الوقوف في وجهها ومناجزتها جهراً فتربصوا بها الدوائر حتى إذا ما جاء زمن انتخاب المبعوثين ورأوا من ذكرنا من اعضائها يشتغلون بأمره عيل صبرهم ولجأوا الى الكيد

وجرأهم علية ندره بك المطران الذي جاء الشام ليرشح نفسه للانتخاب ويستعين عليه بمن يستميلهم الى جمعية الاخاء العربي فإنه كان يهون على الناس أمر جمعية الاتحاد والترقي، ويكبر في نفوسهم شأن جمعية الافتراق والتدلي، أي التي تفرق بين الترك والعرب وتنصر الاستبداد وتخذل الدستور. فاندفع اولئك الوجهاء الى الفتنة بقوة وهمة وبثوا دسائسهم في العامة الذين هم أتباع كل ناعق كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه حتى دخلت طائفة منهم الجامع الأموي مدججة بالسلاح للتنكيل ببعض المشايخ المدرسين لأنه ختم من بعض العوام ورقة يطلب فيها ترشيح مبعوث ولكنه كان يقول لمن يطلب منه الختم اننا نطلب بهذه العريضة إبطال رقص النساء في بعض الملاهي!!. ووقعت فتن ومشاغب أخرى أطلق عليها الرصاص وأصيب بعض الناس كما قيل لنا ولا نحب أن نخوض في ذلك.

ولكن موقظي الفتن ومثيري الشغب لم يكن لهم سبيل للنيل من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في ما جرى الا بالكلام كقولهم انهم علة اختلال الأمن وحدوث الاضطراب في البلد «رمتني بدائها وانسلّت» وانهم يريدون إبطال الدين بتجريئهم الناس على الفطر في نهار رمضان علناً وباحتقارهم لوجهاء البلد وعلمائه!!.

هذا ما كانت عليه دمشق عند قدومي اليها كانت تتمخض بالفتن التي يدبر أمرها رجال لا يزيد عددهم على عدد الذين دبروا أمر الصحيفة من قريش وكان أشدهم إفساداً أحد الباشوات الذي يرى انه بعظمة بيته يجب ان يكون صاحب الامر المطاع في البلد والقول المتبع في حكومتها وأهلها. واستعانوا على كيدهم ببعض أصحاب العمائم الجاهلين الذين جعل لهم الحكم الاستبدادي رئاسة دينية علموا انها لا تلبث ان تمحى وتزول في عهد حكومة العدل والشورى.

رآني هؤلاء الكائدون تحت قبة الجامع الأموي أبين للناس انهم دخلوا في طور جديد من الحكومة يمكنهم ان يحيوا فيه دينهم علماً وعملاً وأخلاقاً وآداباً، وان يرقوا فيه دنياهم حتى يكونوا فيه من أوفر الأمم ثروة وأعلاها جناباً، ورأوا ان الناس قد قبلوا هذا الإرشاد ولهجوا بالثناء عليه، فقالوا ان هذا السيل الأتيّ يأتي على بنينا من صروح الآمال، ويجرف ما نضع في طريق الدستور وجمعية الاتحاد والترقي من العقبات ولكن الشعب يراه عذباً فراتاً، يطفيء غليلاً ويحيي مواتاً، فيجب ان نبادر الى تحويله عن هذه الديار، قبل ان تروى منه القلوب والأفكار، فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون، وعهدوا الى أفراد من الجمعية العلمية ان يقطعوا عليّ الدرس الثاني فولوا وهم يعتذرون، فقالوا ان هؤلاء لا يملكون لنا نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فما لهذا الامر الا رجل يشتري ما يراد منه بالمال، وقد مرد على أمثال هذه الدسائس والأعمال، وما ذاك إلا داعية ابن صياد الدجال، المعروف في جميع البلاد بأبي الضلال، فذلك المغربي يطيعكم في ما يترفع عنه أهل الشام، إذا وعدتموه بالتعويض عن مرتبه الذي قطع في هذه الأيام.

فلما لبى الشيخ صالح داعية أبي الهدى دعوتهم، وقبل صلتهم، أوعزوا الى بعض أفراد حزبهم بأن يحضروا الدرس مستعدين للكفاح والصيال، إذا جر الى ذلك ما ينتظرون

من القيل والقال، وقد علم هذا كثير ممن كانوا معنا في مجلس الدرس من الأهالي الواقفين على حال البلد وكان هو السبب في رغبة عثمان بك في عدم إطالة المراجعة والمدافعة وان لم يصرح لي به وفي تحويم الفضلاء عليّ وتسليتهم إياي كما تقدم.

لطف الله تعالى ولم يقع في المسجد ما كانوا يرومون من العدوان، وعلم أسعد بك - وهو أخبر من هناك بكيدهم - أنهم لا يقفون عند ذلك الحد، والخيبة في هذه تدفعهم الى ما هو شر منها وان الشيخ صالحاً هو الذي رضي ان يكون مثيراً لفتنتهم ورأى أعوانهم قد أدلوا اليه يوسوسون له ويمدونه في الغي ثم لا يقصرون، فظن ان حبسه يسد باب الفتنة فحبسه فطاروا بذلك فرحاً، وفتح لهم باب جديد أقرب الى مقصدهم لأنهم يصلون منه الى الايقاع بعدوهم أسعد بك نفسه وجمعيته بلا وسيلة ولا واسطة، فأنفذوا أناساً الى المساجد يتسغيثون المسلمين ويستنفرونهم لإعانة الدين وحماية علمائه من ظلم جمعية الاتحاد والترقي والحكومة الجديدة! فصاح أولئك المنفذون صيحتهم بعد صلاة التراويح، فأقبل الناس يتساءلون: أي خطب دهى الإسلام وأي بلاء نزل بالعلماء؟ ويجيبهم خطباء الفتنة إن فلاناً العالم الفاضل دافع عن الدين فقبض عليه أسعد بك وزجه في السجن فإذا لم نبادر الى إنقاذه بقوة الشعب فإن هذه الحكومة تقضي على جميع العلماء وتمحو دين الإسلام من الشام!!. ويقال انهم أنفذوا أناساً آخرين يقولون مثل ذلك في الأسواق وأعطوا كل واحد منهم «بشلكاً»(١) فاجتمع الناس من كل فج حتى صاروا يعدّون بالألوف وصاروا ينادون: ليسقط أسعد بك لتسقط جمعية الاتحاد والترقي. وبلغني انهم قالوا أيضاً ليسقط القانون الاساسي وليعش الوالي! (ولكن الله أسقط الوالي ورفع الجمعية والقانون الأساسي فكان دعاؤهم في ضلال) ولولا ان توارى أسعد بك لقضوا عليه كما قيل.

وقد ظهر من ضعف الوالي (شكري باشا) وأفن رأيه، ما لا ينتظر أكثر منه من مدمني السكر وأسرى الشهوات مثله، فإنه لما رأى الجموع قد حشرت، وزمرة الوجهاء قد حضرت، وعظمت عليه الامر وأرجفت، رجفت في قلبه الراجفة، وتلتها الرادفة، فخنع لمكرهم، وخضع لأمرهم، وأمر بأن يؤتى بالشيخ صالح فجيء به، وطاف بالناس في مركبته (مركبة الوالي) من بعدما آذنه المشير بأن لديه من الجند ما يكفي لقمع الفتنة الاهلية بل لإعلان الاحكام العرفية، ولو أخذ الوالي يومئذ بالحزم، لاستقرت هيبة الحكومة في النفوس مذ ذلك اليوم، لا أقول في دمشق وحدها، بل في الولايات السورية كلها.

فعلم من هذا الشرح الذي أخذته من مصادر كثيرة انني لم أكن مقصوداً بالإيذاء الذاتي، ولا مؤاخذاً عليّ قول زل به في الدرس الثاني لساني، (لأنني لم أذكر فيه نعمة الدستور ولا نوهت بجمعية الاتحاد!) وإنما كثر فيّ القيل والقال لكثرة من كان يسأل بماذا دافع فلان عن الدين حتى حبس؟ فكان كل مسؤول يجيب بجواب حتى كان مما سمعته في بعلبك وحمص انه قام رجل في الجامع الأموي فأنكر القرآن وقال آخرون إنه سبّ الانبياء!.

---

(١) البشلك ضرب من نقود للدولة العثمانية يزيد عن نصف فرنك قليلاً.

نال محرّكو الفتنة من أسعد بك ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي وعجزها عما كانت تحاول من أمر الانتخاب وذلك جل ما كانوا يبغون في الشام نفسها فكان من المعقول مع هذا ان يسكتوا عني لأني لم أكن الغرض الذي يرمون سهامهم اليه، وانما عرضت بينهم وبينه فرموني لأتنحى فتصل سهامهم اليه وحده، فما هو السبب ياترى في استمرار عدواتهم لي ومكاتبة الجرائد بسبّي وثلبي؟ يظهر لي ان لذلك أسباباً: منها ان الشر داعية الشر وان الرجل الخبيث إذا حاول شراً فتم له كما يجب تضرى نفسه بالشر فإذا ظلم إنساناً بالإهانة والتسخير مثلاً فذل له المظلوم ولم يجد له نصيراً فإنه يستمر على إهانته وتسخيره له استلذاذاً بذلك وتبجحاً، ومنها انه اغتنم هذه الفرصة رجل من أدعياء العلم حاقد عليّ فزج نفسه في حمأة هذه الفتنة وطفق يكتب ويستكتب غيره مقالات في الطعن عليّ ولكن الجرائد ترفعت عن نشر ما بعثوا به اليها من السخف فلم تقبله الا مثل جريدة بيروت التي هي جريدة المتقهقرين اعداء حكومة العدل والدستور وأعداء الإصلاح. ذلك الرجل الذي كان قد استأجر أحد أرباب العمائم فكتب له رسالة في الرد على المنار في مسألة طهارة الكحول زاد هو فيها ما زاد فرد عليه المنار يومئذ رداً صريحاً صرح فيه باسمه ففضح جهله وجهل من كتب له[1] ولعل هذا الرجل هو الذي تصدى للكتابة بيده وماله، وأعانه عليها نفر من أمثاله، ولي ههنا استدراك وهو ان أكثر الجرائد التي انتصرت للحق في هذه الحادثة قد أسندت البغي والعدوان فيها الى أهل دمشق الشام على الاطلاق لاستخفاء المعتدين منهم وذلك تساهل في التعبير أدى الى خلاف ما يريده الكاتبون فبني عليه حكم فاسد خفي عن الأكثرين فساده لخفاء المراد من العبارة التي أخذ منها. أعني انه صار يقال ان أهل الشام ناصبوا صاحب المنار العداء وآذوه بالكلام وأن أهل بيروت انتصروا له وأهانوا أهل الشام بما كتب في جرائدهم ودار في محافلهم... والصواب ان صاحب المنار لم يسمع من أحد من أهل الشام كلمة شاذة عن النزاهة والأدب بل سمع من كل من لقيه منهم أرق الكلام وأعذبه، وألطف عبارات الترحيب والثناء، وإنما تصدى لقطع درسه وإيهام العامة انه أخطأ فيه رجل غريب عنهم لم يكن محبوباً عندهم لأنهم يعدونه من جواسيس الشيخ أبي الهدى والدعاة له، وشاب آخر من طلاب العلم أراد ان يسأل عن شيء سؤال متبرم مستاء فكفاه ذلك الرجل الغريب ما كان يريده من ذلك. وأما زعماء الحركة الذين أشرنا إلى كيدهم آنفاً فهم لا يتجاوزون جمع القلة على انني لم أكن غرضهم وإنما عرضت أمام غرضهم كما تقدم. على اني لو بقيت في دمشق لتصدوا لإيذائي بتحريض العامة على ذلك ولكن لا يؤخذ من هذا ان أهل الشام فعلوا ذلك. وقد زارني في ليلة الحادثة بعض الوجهاء المحبين للمنار الذين كانوا يقرأونه في زمن الاستبداد ونصح لي بأن أسافر ثم كتب إليّ بعد ان عدت الى طرابلس كتاباً قال فيه «واني لمخجول وايم الله من فضيلتكم ومقابلتي إياكم بدار عثمان بك تلك المقابلة لكن

---

(١) راجع مقالات طهارة الاعطار ذات الكحول (ص ٨٢١ و٨٦٦ م ٤).

ربنا عليم بأني لم أحضر تلك الليلة لمقابلتكم وتكليفكم السفر إلا خوفاً عليكم وحفظاً لكرامتكم من سفهاء العمائم المتزيين بزيّ العلم والعلم بعيد عنهم بعد السماء عن الارض فنرى ان الواحد منهم يظن انه إذا كبّر العمامة وطول الذقن ووسع أكمام الجبة وركب البغلة وغش البسطاء بهيكله ـ وان لم يكن تحت القبة ولا حبة ـ انه صار عالماً» ومع هذا كله أقول انني لست على يقين من طعن رجل معين من أهل الشام فيّ إلا ذلك الحاقد الذي أشرت اليه آنفاً، فأهل الشام ليسوا خصماً لي ولا لأهل بيروت وليس أهل بيروت خصماً لهم.

وجملة القول ان الذين ابتغوا الفتنة من أهل الشام نفر لا يخرجون من مضيق جمع القلة ومن صدقهم من العامة يندر في الجملة وانه لم يتصدَّ أحد من علمائهم للردّ عليَّ في شيء سمعه مني او قرأه من كلامي مظهراً نفسه مبيناً اسمه وقد حضر كثير منهم درسي فإن كانوا يعلمون اني اخطأت فلماذا سكتوا على الخطأ وقد سألت مفتيهم وكان من حاضري درسي ان يكتب إليّ مبيناً خطإي إن كنت أخطأت. سألته ذلك في مقالة نشرتها في جريدة الاتحاد العثماني واسأله هو وسائر علماء الشام ذلك بلسان المنار وأنا أنشر لهم ما يكتبون في المنار وأذعن له إن كان حقاً وأبين ما عندي فيه ان كان خطأ. وهذه هي حجتي عليهم فإذا هم سكتوا عن هذا البيان فهم لا يخرجون عن أحد أمرين: إما انه لم يثبت عندهم انني قلت شيئاً مخالفاً للشريعة وهذا كاف لتكذيب اولئك المدّعين الذين خاضوا في الاثم، وإما انهم يكتمون الحق وهم يعلمون ولا يخفى عليهم ما ورد في القرآن والأحاديث من وعيد الكاتمين.

سياحة صاحب المنار في سوريا(*)

(٤)

حمص وحالها الاجتماعية

سافرت في اليوم الثاني من شوال من بعلبك الى حمص والمسافة بينهما في القطار الحديدي ثلاث ساعات وقد وصل القطار الى محطة حمص الساعة ٨ و٤٥ دقيقة مساء فإذا بالصديق الكريم والولي الحميم السيد عبد الحميد أفندي الزهراوي ينتظرني فيها مع طائفة من أهل العلم وكرام البلد في مقدمتهم الشيخ أحمد نبهان الذي حببه الينا على البعد ما نمي الينا من عقله وأخلاقه وحبه للإصلاح مع علمه وحسن سيرته.

أقمت في حمص أربع ليال وثلاثة أيام في دار الزهراوي ولقيت فيها أكثر أهل العلم والمكانة من المسلمين والنصارى إذ كانت الدار غاصة بهم ليلاً ونهاراً وقد رأيت في هذا البلد من الوفاق بين الفريقين وحسن الالفة ما لم أر له نظيرا في سائر البلاد السورية ولا بيروت فإن جلّ ما مدحناه من أهل بيروت هو ترك التقاتل والتسافك ولا يزال كل فريق فيها بعيد عن الآخر في المعاشرة والمعاملة الا ما لا يخلو منه مكان بحكم طبيعة الاجتماع وحاجة بعض الناس الى بعض حتى انني قلت لكثيرين منهم انني أرى الوفاق الذي حمدناه لكم على البعد سلبياً لا إيجابياً وصرحت بذلك في نادي الجامعة العثمانية ودعوت الناس في خطبة خطبتها في ذلك الى التزاور والتعامل وغير ذلك من أعمال الوفاق الايجابي.

وقد كنا توهمنا ونحن بمصر إن الشقاق بين مسلمي حمص ونصاراها شديد لحادثة جرت في الاحتفال بعيد الحرية كبرتها الجرائد فوجدنا الامر على ضد ما كتب في ذلك فإنني ما رأيت في بيت من بيوت طرابلس ولا بيروت مثلما رأيت في بيت الزهراوي من اجتماع الفريقين كل ليلة من ليالي الشتاء للسمر ومبادلة الآراء.

ثم انني لم أر في حمص ما رأيت في غيرها من الاضطراب والاعتصاب والافتيات على الحكام والتبرم من جمعية الاتحاد والترقي. ومن أسباب ذلك ان اعضاء لجنة الجمعية المركزية كانت مؤلفة من أناس مؤتلفين متعارفين لا ينقم الناس منهم شيئاً ولا يشكون منهم

(*) المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٥٠-١٥٩.

إهانة ولا شذوذاً وقلما اتفق هذا للجنة أخرى كما يعلم مما نكتبه بعد عن الجمعية.

نعم انه ينتقد على أهل حمص ما ينتقد على أهل طرابلس من الخمول والسكون فهم لم يشرعوا في عمل مفيد للبلاد. وقد حثثت طائفة من الوجهاء على تأليف جمعية خيرية إسلامية لأجل إنشاء المدارس الاهلية ومساعدة الفقراء على تربية اولادهم وتعليمهم فألفيت منهم ارتياحاً واستحساناً وقد مرت الشهور ولم يشرعوا في العمل ولكننا لم نيأس من همتهم وغيرتهم فعسى ان يسمع منهم عن قريب ما تقر به العين.

هذا وإن عمران حمص ينمو نمواً عظيماً والزراعة والصناعة تتقدم فيها تقدماً مبيناً ولكنها متخلفة عن طرابلس في ترف الحضارة وان كانت سابقة لها في مضمار العمران بل هي وسط في التأنق في الاطعمة بين مثل طرابلس وبيروت ودمشق وبين القرى الكبيرة التي يوجد فيها اغنياء يعيشون في بلهنية[1] فالظاهر ان التأنق في حمص خاص ببعض أهل السعة والبيوت المطروقة وان الفقير في طرابلس ليتنوّق[2] في طعامه ما لا يتنوق الاغنياء في كثير من المدن، وإني لأعلم ان المصري المقيم في القاهرة نفسها الذي يزيد دخله في الشهر على دخل الطرابلسي في السنة لا يأكل من الحلوى في السنة كلها بقدر ما يأكل الطرابلسي منها في شهر واحد. فقلة التنوّق في الاطعمة بحمص محمدة لها عندي إذا كانت تحتفظ ثروتها من التلف في غير ذلك من السرف وتجعل حظاً منها عظيماً للتعليم والتربية.

طرابلس أيضاً

سافرنا من حمص قبيل الفجر من يوم السبت سادس شوال (٣١ اكتوبر) في مركبة من مركبات «شركة الشوسة» فوصلنا الى طرابلس بعد العصر وطفقت أتهيأ للسفر الى مصر، وكنت عازماً على السفر في يوم السبت التالي لهذا السبت (١٣ شوال و٧ نوفمبر) ولكن عرض ما حال دون ذلك.

جمعية خيرية اسلامية بطرابلس

في يوم الاربعاء (١٠ شوال) رغبت الى مفتي طرابلس ان يقوم بتأليف جمعية خيرية إسلامية كالجمعية التي بمصر وذكرت له موضوعها وأعمالها ووجوه الحاجة الى مثلها في طرابلس وأهمها انشاء المدارس لتعليم اولاد الفقراء على نفقة الجمعية وأولاد الاغنياء بالأجرة. فأجاب بأنه مستعد لذلك بماله وحاله واستحسن ان أدعو الوجهاء والاغنياء الى ذلك فقلت له أنت كبير البلد وزعيمها وأنا صرت غريباً او كالغريب لأنني مسافر بعد ثلاثة أيام فإذا لم تقم أنت بهذا العمل لا ينجح. ثم رضي بأن يكون هو الداعي لهم إلى الاجتماع على انهم متى اجتمعوا أخطب فيهم فإن أجابوا الدعوة التي أوضحها لهم وأبين وجه الحاجة اليها كان هو أول العاملين والمساعدين في التنفيذ.

وأقول ههنا ان رشيد أفندي كرامي مفتي طرابلس على كونه سيد بلده وأوسع أهلها ثروة وجاهاً هو أقرب وجهائها وأغنيائها الى الخير وأبعدهم عن كل شر وأطيبهم نفساً

---

(١) الرخاء وسعة العيش.

(٢) تنوق: بالغ في التجويد والنطق وسواه.

وأبسطهم مع القصد والروية يداً كما يظهر ذلك لمن يعاشره خلافاً لما عليه أكثر الاغنياء في بلادنا فهو لا يدع لطالب الاصلاح في العلم او العمل حجة عليه بل يجيب كل داع الى خير كعبد الرحمن باشا اليوسف في دمشق ولكن لا يقدم واحد منهما على ابتكار العمل والنهوض به بل يقولان مثلما كان يقول هنا حسن باشا عاصم (رحمه الله تعالى) أوجدوا العمل وطالبوني بالمساعدة أجبكم اليها. وإنما كان هذا يساعد بالعمل وذانك يساعدان بالمال فهما خير اغنياء بلادهما.

كان عذر حسن باشا عاصم في عدم الاقدام على الابتكار وإيجاد «المشروعات» هو عدم الثقة بإجابة الناس وثباتهم على العمل ولابن اليوسف في دمشق وابن كرامي في طرابلس مع مثل هذا العذر أعذار أخرى ككثرة أعمالهما وما لا حاجة الى بيانه الآن من حال البلاد وغير ذلك.

ذهبت في ذلك اليوم (الاربعاء) الى القلمون فهيأت ثيابي وحاجي وأرسلتها الى الميناء في يوم الجمعة وعدت الى طرابلس مع كثرة الامطار مساء لأن المفتي كان قد وعدني بجمع الوجهاء ليلة السبت لأجل تأسيس الجمعية الخيرية فألفيته قد أرجأ دعوتهم للاشتغال بانتخاب المبعوث عن طرابلس لأن الولاية أمرت بإتمام الانتخاب يوم السبت ولكثرة الامطار التي كان يظن انها تحول دون عودتي من القلمون على قرب المسافة وقال ان أقرب وقت يمكن أن يجتمعوا فيه إذا نحن دعوناهم بعد انتخاب المبعوث غداً هو ليلة الثلاثاء فرأيت ان أرجىء السفر اسبوعاً لأجل إتمام هذا العمل الشريف.

ملخص خطبته

وفي ليلة الثلاثاء اجتمع في دار عمر باشا المحمد نحو من عشرين رجلاً إجابة لدعوة المفتي وهم من وجهاء لواء طرابلس لا المدينة نفسها فقط فخطبت فيهم خطبة بينت فيها فوائد الجمعيات وأنواعها وتأثيرها في ترقية البشر في العلوم والأعمال الدينية والدنيوية وكون الخيرية منها من الضروريات التي لا يخلو منها بلد من البلاد المرتقية حتى ان الرجل الافرنجي إذا مر في سياحته على بلد وأراد ان يبذل شيئاً من ماله لمساعدة فقراء أهله فإنه إنما يرسله الى الجمعية الخيرية في ذلك البلد وربما وضع أحدهم حوالة مالية في كتاب وكتب عليه «الجمعية الخيرية» ووضعه في صندوق البريد من غير أن يسأل هل في هذا البلد جمعية خيرية أم لا كأن الجمعيات الخيرية من الامور الضرورية التي لا يمكن ان يخلو بلد منها. وذكرت ذلك المشعوذ الذي جاء القاهرة وأراد بعد ان ربح بألعابه فيها ربحاً عظيماً ان يخصص ليلة يجعل دخلها للجمعية الخيرية الاسلامية فيها فكان ذلك سبب تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية.

ثم قلت: أيها السادة، ان حكومتكم قد دخلت في طور جديد فصارت ديمقراطية أمرها بيد الشعب بعد ان كانت استبدادية شبه الارستقراطية بما للاغنياء والشرفاء من النفوذ فيها. واعلموا ان كثيراً من الاحرار الذين انقلبت السلطة الاستبدادية بسعيهم متطرفون في الديمقراطية وان معظم الاحكام ستكون في ايديهم عاجلاً او اجلاً وأن

الشعب سيشعر بهذا فتدب اليه كراهة الكبراء والاغنياء فيكرههم وتنفخ فيه روح الاشتراكية فيهيج عليهم بالفعل فإذا جاء طرابلس متصرف متطرف من الديمقراطيين الذين أشرت اليهم وكان والي الولاية منهم أيضاً فاعلموا ان ما تعودتموه من الجاه والكرامة في وطنكم لا يبقى إلا إذا كان الشعب يحبكم بتحببكم اليه قبل ذلك وإلا دهوركم وأسقطكم كما فعلت قبله الشعوب الإفرنجية بأولئك النبلاء الذين كانوا يملكون أوربا ويتصرفون فيها تصرفاً لم تصلوا الى مثله من كونت ودوق ومركيز ثم يقوم من طبقات الشعب الدنيا من يتولى الزعامة في البلاد بحق او بغير حق. وما أظن ان صدوركم تنشرح لتلك الحال ولا ان أعينكم تبتهج برؤيته. وانني أحب ان تكونوا أنتم زعماء بلدكم في زمن الحرية وتحت ظل الدستور بأن تتحببوا الى الشعب مذ اليوم بنشر التربية والتعليم فيه ومواساة الفقراء والمساكين من أهله.

انني لا أحب الارستقراطية وان كنت من بيت شريف، وإنني ما زلت من دعاة الديمقراطية بلسان السياسة ولسان الدين، وإنما أميل الى بقاء زعامة وطني في وجهائه وإياكم أعني لاعتقادي انه لا يوجد في دهمائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عندما صارت ديمقراطية.

الفرق بيننا وبين فرنسا بعيد، ان فرنسا كانت قبل ثورتها المشهورة قد استعدت ما لم نستعد بمثله نحن اليوم حتى نبغ فيها من دهماء الشعب من يصلحون للزعامة بعلومهم وأعمالهم وآرائهم وأخلاقهم.

انني لعلمي بهذا الفرق ولما رأيت في بلاد مصر التي تمتعت بالحرية قبل بلادنا من العبر وهبوط قوم وصعود آخرين أقول ما أقول عن خبرة وبصيرة وأحب ان نعتبر نحن العثمانيين بحال الأمة الانكليزية التي هي أعرق الامم في الحرية وأكثرهن استفادة منها فهي الأمة التي حافظت على كرامة النبلاء وحرمة البيوتات فيها بعد الديمقراطية الراسخة واستفادت من ذلك كثيراً وأرى ان اسقاط الشعب لكرامة أصحاب البيوتات منا وتسلق أفراد الطبقات الدنيا للزعامة فينا مع ما هم عليه من الجهل يقف في طريق نهضتنا وان عناية وجهائنا بحفظ كرامتهم وحرصهم على أن يكونوا هم زعماء الشعب يكون أسرع في تقدمه إذا هم أتوا البيوت من أبوابها فإنهم في الغالب على شيء من الاخلاق والعلم او الاختبار.

ثم قلت ان خدمة الأمة والتحبب اليها إنما يكونان بالتعاون على تربية أولادها وتعليمهم ما به قوام حياتهم ومواساة المنكوبين والمعوزين من فقرائها وذلك لا يتيسر إلا بتأليف جمعية خيرية يجعل معظم ريعها لإنشاء المدارس وباقيه لإعانة المنكوبين والمعوزين وهذا ما أدعوكم الى الاكتتاب له بلسان فضيلة المفتي الحريص على هذا العمل المبرور الراغب في هذا السعي المشكور وسيجمعكم في ليلة أخرى لأجل المذاكرة في القانون الذي يوضع لذلك وانتخاب الاعضاء العاملين. ثم شرعنا في الاكتتاب وافتتحه المفتي في ورقة كتبت في أعلاها ما نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى﴾

هذا بيان ما تبرع به الذوات المذكورة أسماؤهم بخطوطهم أدناه لتأسيس جمعية خيرية إسلامية في طرابلس الشام لنشر التعليم الديني والدنيوي على الطريقة العصرية ولإعانة المصابين والمنكوبين المعوزين بمقتضى قانون يجري العمل بموجبه بعد إقرار المكتتبين له في اجتماع خاص وقد جرى هذا في ليلة ١٦ شوال سنة ١٣٢٦ للهجرة الشريفة.

(أسماء المكتتبين لتأسيس جمعية خيرية اسلامية بطرابلس الشام)

ونذكر اسماء المكتتبين مع الألقاب وهم كتبوها مجردة كما هي العادة ونرتبها على حسب قيمة الاكتتاب:

ليرة عثمانية

١٠٠ مفتي اللواء رشيد أفندي كرامي

١٠٠ عمر باشا المحمد من أعيان اللواء

٠٣٠ عثمان باشا المحمد من أعيان اللواء

٠٢٠ علي باشا المحمد من أعيان اللواء

٠٢٠ مصطفى أفندي عز الدين من كبار التجار.

٠١٠ عبد القادر باشا الملا رئيس شركة الترام والشوسة.

٥.. ابراهيم بك الأحمد من الاعيان.

٥.. أحمد أفندي سلطان وكيل الدعاوى (المحامي).

٠٠٥ خير الدين بك عدره من كبار التجار.

٠٠٥ عبد الحي أفندي الملك من الوجهاء.

٠٠٥ عبد القادر أفندي القباني البيروتي الشهير (وكان في طرابلس).

٠٠٥ عبد القادر أفندي الذوق من كبار التجار.

٠٠٥ محمد فؤاد أفندي الذوق من كبار التجار.

٠٠٥ محمد سعيد بك (مميز قلم متكوبجي الولاية) الذي كان وكيل المتصرف يومئذ.

٠٠٥ محمد كامل بك البحيري صاحب جريدة طرابلس.

٠٠٣ عبد اللطيف أفندي الغلاييني وكيل الدعاوى.

٠٠٣ محمود أفندي الحداد من التجار.

٠٠٢ الشيخ اسماعيل افندي الحافظ رئيس كتاب المحكمة الشرعية.

٠٠٢ صبحي بك شريف.

٠٠١ عبد الرحمن أفندي أديب من التجار.

٣٣٦ المجموع

وقد وعدني بعض هؤلاء بأن يدفعوا أكثر مما كتبوا منهم مصطفى أفندي عز الدين

والشيخ اسماعيل افندي الحافظ كما وعد بعض من حضر وكتب اسمه ولم يعين مبلغاً كعبد الله أفندي الثمين من كبار الوجهاء أصحاب النفوذ الادبي في اللواء وعضو مجلس الادارة الآن،

هذا وان الذين أجابوا الدعوة وحضروا الاجتماع هم زهاء خمس من دعاهم المفتي. وقد أبى حضورها بعض المفتخرين بالمجد التليد الذين يرون انهم يستغنون به عن المجد الطريف ومنهم من صار يسعى بعد ذلك في إبطال العمل ويثبط عنه وكان لسعيهم هذا تأثير اوقف التنفيذ الى أجل ولولا ذلك لما ذكرت من أمر هذه الجمعية إلا ان جماعة من أهل الفضل في طرابلس أسسوا جمعية خيرية اسلامية فلهم الشكر والثناء.

يوجد في كل بلد أفراد مجردون من حب الخير ويرون أنهم أهل لأن يوصفوا بكل خير ويؤلمهم منظر الخير في غيرهم لأنه بعمله تحلى ما أعوزهم وأعوجهم فهم يقصدون بكل طريق من طرق الخير يصدون عنها ويبغونها عوجاً. لاجل هؤلاء أحب مفتي طرابلس ان لا تؤسس الجمعية الخيرية إلا بعد دعوة جميع الوجهاء حتى لا يعتذر بعد ذلك أعداء الخير بأنهم لا يساعدون هذا العمل لأنهم لم يدعوا اليه عند التأسيس ونعم ما أحب وما رأى.

على ان بعض من دعي ولم يجب ممّن ذكرنا وصفهم انتدبوا لإحباط العمل والتثبيط عنه حتى ان منهم من لم يستح من مخاطبة المفتي نفسه بذلك ولما لم يجد وجهاً وجيهاً للتثبيط قال انه لا ينبغي لسماحتكم ان تقوموا بهذه الجمعية عن دعوة فلان فأجابه المفتي جواب العاقل الفاضل فقال أولاً ان هذا العمل خير لا ريب في نفعه وفائدته فسواء كان من دعاني اليه دوني او مثلي او فوقي لا فرق في ذلك، وثانياً ان الداعي الى ذلك هو واحد منا ومن أهل العلم والشرف فينا وليس له منفعة شخصية ولا غرض ذاتي حمله عليه ولا هو يريد الإقامة في هذه البلاد فتقول انه ينفرد بشرف العمل فيه حباً بالشهرة الخ...

إنني لما علمت بمثل هذا القول الذي قيل للمفتي ولغيره كففت عن السعي في ما كنت آخذاً فيه من تأليف لجنة موقتة لإدارة العمل والدعوة اليه الى ان يشترك في الجمعية عدد كثير تتألف منه الجمعية العمومية التي تنظر في القانون وتنتخب من أفرادها اعضاء للإدارة. وكنت أسعى الى من أظن فيهم الخير في بيوتهم ومجال عملهم. وإنما كففت لأرى ماذا يصنع المعذّرون او المثبطون هل يتفقون مع المفتي وينهضون بالعمل أم يرتاحون الى السكوت عنه لأنه هو المقصود لهم بالذات؟ فتبين بعد ذلك انهم لا يريدون الا إحباط العمل لأنهم لا يعملون الخير ولا يحبون ان يعمله غيرهم.

وقد كتبت في مذكرتي في أوائل شهر ذي القعدة ما نصه: ذكر لي غير واحد من الوجهاء ان نجاح الجمعية الخيرية الاسلامية بطرابلس لا يرجى وان الذين اكتتبوا انما استحيوا مني وهم لا يعتقدون انهم يدفعون شيئاً بل قالوا ان المفتي نفسه يسايرني مسايرة ويعدني بأنه سيبذل جهده وهو يعتقد ان التقصير سيظهر من غيره. وألحّ عليّ (فلان)... بأن أترك التشبث بالجمعية. وظهر لي انه يرى ان ذلك ينفر القوم مني من حيث لا أستفيد مما أريد شيئاً الخ ما كتبته في شأن أفراد معينين من قائل ومقول فيه.

أكتب هذا ليعلم أصحاب النية الصالحة في طرابلس كالمفتي وغيره السبب في اكتفائي بعد ذلك بانتقاء نفر من يرجى نجدتهم لإدارة الجيعية موقتاً وإيذان المفتي بذلك في يوم الاربعاء ٢٣ ذي القعدة (١٦ دسمبر ك ١) بعد دعوة كل واحد منهم على حدته ووعده لي ببذل الجهد في ذلك الا واحداً منهم (وهو محمود أفندي الملا) قال انه لا يدخل في العمل الا بعد ان يشرعوا فيه بالفعل. وان لي رجاء قوياً في همة المفتي وغيرته وهمة اولئك الأنجاد بأن ينهضوا بهذه الجمعية نهضة صالحة بعد هدوء الاضطراب الذي ضعف الحكومة الجديدة والاستواء على حال ثابتة. وانني أساعدهم بالقلم من هنا وأكون عوناً لهم على اليائسين الذين لم أكتب ما كتبت الآن إلا ليعلموا ان كيدهم في تضليل «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

حقوقنا المهضومة ونائب طرابلس الشرعي

لقد علم القاصي والداني من عثماني وغير عثماني ان حكومة الاستبداد الماضية قد أسرفت في الجور على بيتنا وظلم أهلينا انتقاماً مني (راجع فاتحة السنة الثانية عشرة في الجزء الماضي) وكان من ذلك الظلم انه لما توفي والدنا تغمده الله برحمته صرت انا المستحق بعده للتولية على جامع القلمون الذي جدده فيها جدنا الثالث بحسب نظام التوجيهات الناطق وفاقاً للشرع بأن يوجه ما ينحل عن الوالد من الوظائف المتعلقة بالأوقاف الى أكبر أولاده ولكن حكومة الرشوة والاستبداد وجهت تولية مسجدنا على رجل آخر اسمه عثمان النصري واشتهر انه أعطى القاضي (نوري أفندي) على ذلك اربعين ليرة فعزل عثمان النصري بعد دعوى ملفقة ووجه التولية على محمود حسن.

فلما أردت السفر من طرابلس الى مصر قدمت دعوى الى المحكمة الشرعية ملخصها ان تولية محمود حسن على جامع القلمون غير صحيحة وانني أنا صاحب الحق في هذه التولية فأطلب توجيهها عليّ عملاً بالنظام وإذا فرضنا ان توليته صحيحة فإنني أثبت خيانته بترك معاهد الوقف عرضة للخراب وترك عمارة ما خرب منها في زمن توليته والزيادة في النفقات والنقص من الريع. ووكلت عني وكيلين شرعيين ثم تهيأت للسفر فحدث ما ذكر آنفاً على التشبث بتأسيس جمعية خيرية ثم جاء نبأ برقي بأن نيابة طرابلس (أي قضاءها الشرعي) وجهت الى عبد المجيد أفندي الجعفري وانه سيسافر من الاستانة قاصداً طرابلس ثم لم يلبث ان حضر.

عرضت الدعوى على هذا النائب فقال لي انني أقول لك وان كان لا ينبغي للقاضي ان يصرّح برأيه قبل الحكم ان حقك ظاهر وانني سأعيده لك بعد استيفاء المعاملة الشرعية. ولما كنت على ثقة من ظهور هذا الحق اعتقدت ان الدعوى تنتهي في اسبوع او اسبوعين فأجلت السفر وتابعت سير الدعوى بنفسي وأنا أظن في كل اسبوع انني أفرغ فيه من الدعوى وأسافر في الذي بعده وكنت عازماً على الإقامة في سورية خمسة أسابيع فقط لكثرة شغلي في مصر فأقمت ستة أشهر والدعوى على حالها يزيدها النائب كل يوم تعقيداً.

إنني لم أكد أجالس هذا القاضي مرتين او ثلاثاً الا وقد جزمت بأنه سيهان في

طرابلس إهانة لم يسبق لها نظير فكنت حريصاً على إنجاز قضيتي قبل ظهور حقيقة حاله التي تقتضي ما توقعته بالفراسة وكاشفت به غير واحد ولكن هذا القاضي لا ينجز عملاً لمن يعتمد مثلي في نيل حقه على انه محق وقادر على إثبات حقه.

أنشأ هذا القاضي يؤجل جلسات الدعوى ويحثّ وكيلي الخصمين على كتابة ما شاء في جريدتها ويماطل في قراءة ما كتبا وقد ثبت لديه ان تولية المدعى عليه غير صحيحة وانه خائن تارك للعمارة الواجبة شرعاً كما تبين بالكشف من قبل المحكمة وشهادة الشهود ومع هذا لم يحكم بشيء حتى آن الأوان وضج الألوف من الناس بالشكوى منه واجتمعوا عند المحكمة وهم ألوف ينادون فليسقط القاضي الخائن المرتكب وشكوا أمره للمشيخة الاسلامية فأمرت بالتحقيق وهم يشكون منه أموراً كثيرة ذكرت في جريدة لسان الحال وغيرها منها التطويل في المرافعات وعدم الحكم فيها بعد انتهائها كما حدث معنا حتى امتنع الوكلاء (المحامون) عن المجيء الى المحكمة ومنها انه قد يحكم ثم يرجع بحكمه بعد كتابته ومنها كراهته للحكومة الدستورية واعتزازه بكونه من جمعية «فدا كاران ملت» وقد علمنا بعد ذلك انه كان نائباً في صيدا فأحدث فيها فتنة حتى هرب منها ليلاً وان ذلك شأنه في كل بلد كان فيها حاكماً.

رحلة الى القسطنطينية(*)

(١)

رحلت في العام الماضي - وهو العام الأول للدستور - الى الديار السورية لصلة الرحم التي قطعها الاستبداد عليّ إحدى عشرة سنة، ولاختبار حال البلاد، بعدما عاثت به فيها حكومة الاستبداد، وللوعظ والإرشاد، والحث على الاتفاق والاتحاد، وبيان مزايا الدستور وفوائده، وما يجب على الأمة من العمل للتقدم في عهده، وقد نشرت في المنار ملخص تلك الخطب والدروس فعرفها قراؤه.

ورحلت في هذا العام - وهو العام الثاني للدستور - الى القسطنطينية عاصمة الدولة لأسعى في أمرين عظيمين أحدهما وهو أجلهما خدمة للدين الاسلامي ولجميع المسلمين، وثانيهما خدمة للدولة العليا من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ولعنصري الامة العثمانية الكبيرين.

أما الأول فهو إنشاء معهد ديني علمي في العاصمة للتربية الاسلامية الصحيحة الكاملة بالتزام آداب الاسلام العالية وأخلاقه الفاضلة وعبادته المطهرة للأرواح من الفرائض والنوافل كالقيام والصيام وكثرة ذكر الله عز وجل - والجمع بين هذه التربية والتعليم الاسلامي الذي يكون وسيلة لسعادة الدنيا والآخرة كالتفسير والحديث والتوحيد وحكمة التشريع والأخلاق والسيرة النبوية الشريفة وتاريخ الاسلام وأصول الفقه وفروعه ووسائل ذلك من اللغة وفنونها وكالفنون الرياضية والطبيعية والصحية والاقتصادية التي هي وسائل عمران الدنيا وتقوية الملة والدولة.

من منافع المعهد الاسلامي تعزيز دولة الخلافة وتأييدها بجعل عاصمتها ينبوعاً للإسلام وكعبة معنوية لطلاب علومه وآدابه. ومنها تخريج العلماء الذين يقدرون على الدفاع عن الدين على النحو الذي كان يدافع به الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) مثل (رنان) و(هانوتو) وما أشد الحاجة الى مثل هذا الدفاع في عهد الحرية والدستور - ومنها تخريج الدعاة الى الخير والمرشدين للأمة الذين يقومون بما فرضه

(*) المنار ج ١٢ (١٩١٠) ص ٩٥٦-٩٥٩.

الله تعالى على المسلمين من الدعوة والارشاد وحرّمه عليهم من التفرق في مثل قوله عز وجل ﴿٣: ١٠٤ **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ وأقرب فوائد المرشدين إرسالهم الى البلاد التي فشا فيها الجهل وكثرت المشاغب (كاليمن والعراق والاناضول) للوعظ والارشاد الذي ينفر عن الشرور والفتن، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويرغب في البر والتعاون بين جميع أهل الوطن، والاخلاص للدولة العلية في السر والعلن، وتعليم أحكام الدين بأسلوب يكون في منتهى السهولة، مع مبادىء حفظ الصحة والثروة، فهؤلاء الوعاظ الذين يمكن تخريج طائفة منهم في مدة أربع سنين او خمس سنين هم الذين يطهرون البلاد بتأثير الدين من الثورات والقلاقل، ويؤلفون بين جميع الطوائف والعناصر، ويفعلون بالتصرف في القلوب والسرائر، ما يعجز عن بعضه من لا تأثير لهم إلا في الظواهر، كأصحاب الجرائد والحكام والعساكر.

ليس الغرض الذي أسعى اليه ان تكون الحكومة العثمانية هي التي تنشىء هذا المعهد الاسلامي فإن الحكومات تعجز عن مثل هذه الاعمال، وان كانت قادرة على بذل المال واستخدام الرجال، لأن الحكام رسميون فأعمالهم كلها رسوم لا يمسّ شيء منها سواد القلوب، ولأن ما تقوم به الحكومة تدخل فيه السياسة، والسياسة ما دخلت في شيء إلا أفسدته كما قال الاستاذ الامام. وإنما الغرض ان تقوم بهذا العمل جمعية من محبي الاصلاح العلماء وأن تساعدهم الحكومة بما يمكن من الاوقاف الخيرية وبغير ذلك كاستثناء طلاب العلم من الخدمة العسكرية واتخاذ الوعاظ منهم بالمرتبات الشهرية.

عرضت هذا المشروع على رئيس حكومتنا الصدر الاعظم حسين حلمي باشا وعلى بعض اعضاء وزارته وعلى بعض الكبراء والعلماء هنا ومنهم محمود شوكت باشا وعلى بعض اعضاء مجلس الأمة العمومي من الاعيان والمبعوثين وعلى أشهر رجال جمعية الاتحاد والترقي فكلهم أظهروا الاعجاب به والاعتراف بفوائده ومنافعه وشدة الحاجة اليه وقال بعضهم انه فكر في مثله من قبل. وكذلك قال من ذاكرتهم فيه بمصر وسورية وقد وعدت بالمساعدة الممكنة من كثيرين وسأبين ذلك في وقته ان شاء الله تعالى.

وأما الأمر الثاني الذي سعيت اليه فهو إزالة ما وقع أخيراً من سوء التفاهم بين عنصري الدولة الأكبرين - العرب والترك - وقد شرحت هذا في مقال مطول مؤلف من ست نبذ او فصول نشرت في جريدة (إقدام) مترجمة بالتركية فصادفت استحساناً عند فضلاء الترك. وسيراه قراء المنار مجموعاً في الجزئين الاخيرين ١١ و١٢.

المشهور عندنا عن ساسة الترك انهم يخافون ويحذرون من قيام العرب بتكوين دولة عربية او خلافة عربية في جزيرتهم وان هذا الخوف قديم فيهم ولكن أليس قد مرت القرون ولم تظهر من زعمائهم الدعوة الى ذلك حتى في الازمنة الاخيرة التي كاد اليأس

من الدولة يستولي فيها عليهم؟ بلى! فأي حجة لهم على استمرار هذا الخوف والحذر وبناء الاعمال عليه وكثرة الكلام فيه؟

يقول بعضهم ان هذا غير ممكن ولذلك لم يتشبثوا به ولم يحاولوا تنفيذه ونرد عليهم بأن العرب إذا كانوا يعلمون ان هذا غير ممكن فكيف يريدونه والارادة لا تتعلق بالمحال كما هو معلوم وإذا كانوا لا يعلمونه فلماذا لم يسعو اليه سعيه؟.

هذه وساوس وأوهام يجب ان لا تذكر ولا يبنى عليها قول ولا عمل في هذا العصر لئلا يصير الوهم حقيقة!. وان جميع من أعرف من عقلاء العرب متفقون معي على وجوب تدارك ما قوي الآن من سوء التفاهم ولما جئت الآستانة رأيت كثيراً من عقلاء الترك يميلون الى هذا ولكن العقلاء من الفريقين يرتابون في سياسة بعض الزعماء في العاصمة!.

بلغ من سوء ظن بعض ساسة الترك بالعرب ما أشرنا الى بعضه في المقالات التي نشرناها هنا مترجمة بالتركية ولا سيما مسألة الشام. وهناك أمور كثيرة لم نكتب فيها شيئاً كاهتمام الكثيرين بحج الخديو، وبما يتعجب المصريون من إدخاله في باب السياسة كحضور عزت العابد دعوة الشيخ علي يوسف اليوم الاربعين لابنته الجديدة، وبلغ من سوء ظن العرب بالترك ان قال لي اكثر من واحد من اذكيائهم وأهل الرأي فيهم بمصر والآستانة ان وزراء الدولة ورجال جمعية الاتحاد والترقي لا يقدرون مشروعيك الاصلاحيين حق قدرهما ولا يعرفون لك قيمة إخلاصك وغيرتك فيهما لأنك عربي... فلما رأيت من عناية بعض الوزراء ولا سيما رئيسهم الصدر الاعظم وعناية كبراء رجال الجمعية ما رأيت وسمعت من الوعود المؤكدة منهم ما سمعت ذكرت ذلك لبعض الظانين ظن السوء فقالوا ان الاعمال بالخواتيم وسترى هل أنت المخطىء أم نحن المصيبون، وإني لأرجو ان تطيش هذا الاوهام بما أنتظر من محاسن الاعمال، وعلى الله الاتكال في تصديق الآمال.

صاحب جريدة وطن الهندية وتفسير القرآن

جرى ذكر صاحبنا (مولوي محمد انشاء الله) صاحب جريدة (وطن) الهندية في بعض المجالس فرأيت القوم يسيئون به الظن فذكرت لهم ما أعرف من فضله وغيرته على الاسلام ودولته وأهله، حتى انني ذكرت للصدر الاعظم ولبعض الكبراء وأصحاب الجرائد انه لم يدفعه الى جمع تلك الاموال الكثيرة للسكة الحجازية الا غيرته وان من دلائل غيرته الدينية انه كتب إليّ قبل الدستور كتاباً قال فيه ان هذا التفسير الذي تنشرونه في المنار هو أنفع ما كتب للمسلمين وانه لا شيء يرشدهم الى ما يحييهم مثله فأقترح عليكم ان تتركوا كل عمل وتصرفوا همتكم الى إتمامه وأنا أرتب على نفسي مساعدة مالية أقدمها لكم في كل شهر إلى أن يتم التفسير. هذا معنى ما كتبه فأجبته بأنني لا أقبل على خدمة الدين مالاً من أحد وإنني أجتهد في إتمام التفسير ما استطعت. فكتب إليّ ثانياً يشكر لي ذلك ويطلب الاشتراك بمئة نسخة من كل جزء

يصدر من التفسير يجلّد ويوزع على المساجد في البلاد العربية لأجل ان يرشد الخطباء والمدرسون الأمة به، ويطلب أيضاً ان يرسل اليه عدة نسخ من كل جزء لأجل ان ينشرها في الهند ويبيعها لنا. وقد أرسل عدة حوالات مالية من ثمن النسخ التي اشترك فيها.

ذكرت هذا للصدر الاعظم ولغيره فأعجبوا بفضل الرجل وغيرته وترجّح عندهم صدق قولي في إخلاصه فيما كتبه بشأن الانقلاب العثماني وستريهم الايام أكثر من ذلك متى ظهر للناس كلهم إصلاح الحكومة الدستورية للدولة العلية مع محافظتها على الدين الذي يكفله مقام الخلافة الاسلامية على ما قرره القانون الأساسي.

رحلة الى القسطنطينية(*)

(٢)

ذكرت في النبذة الاولى التي كتبتها لتنشر في (ج ١١ م ١٢) فنشرت في (ج ١٢ ص ٩٥٦) انني رحلت الى عاصمة الدولة للسعي في أمرين عظيمين: إنشاء معهد علمي إسلامي، وحسن التفاهم بين عنصري الدولة الاكبرين العرب والترك، وأشرت الى ما صادفته من الارتياح للعملين كليهما عند وزارة حسين حلمي باشا ولكن استقالت تلك الوزارة قبل ان يتم على يدها ما وعدتني به من المساعدة على إنشاء المعهد العلمي الاسلامي والعناية باللغة العربية وأهلها، وكنت أظن ان وزارة ابراهيم حقي باشا تتجز ما كانت عزمت عليه وزارة حسين حلمي باشا لوجود بعض اعضاء الوزارة الاولى في الثانية فكنت أراجع بعض هؤلاء الاعضاء فأسمع كلاماً حسناً ووعوداً جميلة وعناية شخصية بالدعوة الى الطعام والسمر كما لقيت من الصدر الاول ولكن طال الأمر على ذلك فرأيت ان أرفع أمر المساعدة على إنشاء المعهد الاسلامي لتخريج المرشدين الى الصدر الاعظم رئيس هذه الوزارة ففعلت ووجدت ان عنايته بالمشروع ليست دون عناية سلفه بل أعظم. نعم قال لي ان ما كان من السعي على عهد الوزارة السابقة قد ذهب بذهابها وانه ينظر في ذلك من جديد ولكنه ما أرجأ ولا سوّف بعد ذلك بل أحالني على شيخ الاسلام وناظر المعارف ووعدني وعداً جازماً بتنفيذ ما يتفقان معي عليه وكنت قد مهدت السبيل الى ذلك أمام هذين الركنين العظيمين لعلوم الدين والدنيا في الدولة فلما لقيتهما بعد ان عهد إلي واليهما الصدر الاعظم بالمذاكرة شرحت المشروع لكل منهما فوجدت منهما منتهى الاصغاء والارتياح. كنت ذكرت المشروع لمولانا شيخ الاسلام بالاجمال فأهتم به وقال لا بد لنا من تخصيص ليلة للبحث التفصيلي فيه ثم انه دعاني إلى الطعام والسمر عنده قبل أن يعهد اليه الصدر الاعظم بالبحث معي في المشروع ثم تكلما في ذلك واتفق ان قابلت الصدر يوم موعد دعوة الشيخ فأخبرني بما عهد اليه - وذكر ذلك بلفظ الرجاء - وكان الشيخ قد دعا في تلك الليلة خالص أفندي وكيل الدرس في المشيخة ليشاركنا في البحث. والمراد بوكيل الدرس مدير المدارس الدينية الذي ينظر في شؤونها بالوكالة عن شيخ الاسلام الذي هو الرئيس العام

(*) المنارج ١٣ (١٩١٠) ص ١٤٥-١٥٠.

لهذا القسم ولغيره من أقسام باب المشيخة. وقد كان سبق لي الاجتماع بوكيل الدرس أكثر من مرة فرأيته في مقدمة علماء الترك علماً وفضلاً وهمة ومروءة وسعة اطلاع في الآداب العربية بل لم أر في علماء العاصمة مثله في هذا ولما لقيته للمرة الأولى قال لي بعد التحية والثناء في حضرته الغاصة بالعلماء: لا نقول في مناركم كما قال أبو الطيب المتنبي:

على لا حب لا يهـــتـــدي بمناره

بل نقول ان مناركم يهتدي به العالم الاسلامي كله وقد ذكرت الآن ما تفضل به مولانا شيخ الاسلام عندما لقيته أول مرة في المنار، قال رفع الله منار العلم والدين على يده ولسانه: إنني أتمنى لو كان كل أحد يعرف العربية ليقرأ المنار. ولسان الشيخ حفظه الله قد صقل اللغة العربية بإقامته زمناً طويلاً في بلاد اليمن، وقد استنسخ منها كتباً نفيسة في العلوم الشرعية واللغة والتأريخ والادب لا يوجد لها نظير في الآستانة ولا في مصر فضلاً عما دونهما من الامصار، وله عناية عظيمة بنفائس الكتب فهو قد انفرد باطلاع لم يشاركه فيه أحد ممن نعرف من علماء هذه البلاد ولا علماء مصر والشام.

كان بدء سمرنا بالفكاهات الأدبية ثم انتقلنا الى البحث في المشروع فشرحت لهما ولمن حضر السامر وسائله ومقاصده، ومقدماته ونتائجه. فرأيت الوجوه تندى تهللاً، والأسارير تبرق بشراً وسروراً، ووافقني الشيخان حياهما الله تعالى، وزادهما إنصافاً وكمالاً، على كل رأي رأيته، وكل اقتراح اقترحته، حتى خروج مدرسة «دار العلم والارشاد» من دائرة المدارس التي تحت رئاستهما، بحيث لا تكون تحت إدارتهما ولا مراقبتهما، على اننا لا نستغني في ذلك عن الاستضاءة برأيهما المنير، والاستفادة من علمهما الغزير، ولكن بصفاتهما الشخصية، لا مكانتهما الرسمية، ومن ثم وعدتهما باطلاع خالص افندي على نظام المدرسة الاداري وترتيب الدروس التي تقرأ فيها وعلى قانون الجمعية أيضاً.

وقد حدثني خالص افندي انه كان منذ سنين سمع من بعض فضلاء مسلمي روسية انني عازم على إنشاء هذه المدرسة الاسلامية العليا في مصر فسرّ بذلك سروراً عظيماً ولما سافر الى الحجاز في آخر زمن الاستبداد عرّج على مصر واراد أن يزورني متنكراً ليتحدث معي في ذلك ولكنه بصر عن جنب بعين من عيون عبد الحميد «السلطان المخلوع» يتبعه أينما سار فكان هذا هو المانع له من الزيارة فهذه آية من آيات اغتباط هذا الاستاذ بهذا المشروع الذي هو خدمة عامة للاسلام والمسلمين تقوي رجاءنا في دوام مساعدته الثمينة له. وأذكر له على سبيل الاستطراد خلقين آخرين من أعلى الاخلاق ولا سيما للعلماء وهما الانصاف والشكر وآيتهما انني زرته مرة فرأيته ساخطاً على ناظر الاوقاف خليل حمادة باشا لتأخير إصلاح بعض المدارس التي يريد تنفيذ النظام الجديد للمدارس الدينية فيها، فقلت له ان هذا الناظر محب للإصلاح ولا يرضيه هذا التأخير وأنا ذاهب الآن لمراجعته في ذلك وأضمن على همّته أن يأمر في الحال بإنجاز العمل. وقمت من حضرته فركبت مركبة أوصلتني الى نظارة الأوقاف وذاكرت ذلك الناظر الحازم في ذلك فأمر من ساعته بالاسراع بإنجاز إصلاح تلك المدارس وبلغ المشيخة ذلك. وانني لم أر

خالص افندي بعد ذلك في مكان إلا وكان يشكر لي ذلك ويحدّث به الناس قائلاً ان فلاناً قد ساعدني في مسألة المدارس مساعدة عظيمة... وذكر هذا لمولانا شيخ الاسلام وغيره فما أثمن وأجّل مساعدة من كان متخلقاً بهذه الأخلاق ومتصفاً بهذه الآداب!.

وممن اطلع على حقيقة المشروع من أركان المشيخة الإسلامية الشيخان الجليلان ومن أصحاب الدرجة العليا في علماء العاصمة ولا سيما علوم المعقول محمود أسعد افندي ناظر الدفتر الخاقاني واسماعيل حقي افندي المناسترلي وموسى كاظم أفندي كلاهما من الاعيان والمدرسين في المكاتب العالية - كل واحد من هؤلاء الاساطين قد أقرّ المشروع بل أعجب به كل الاعجاب فهو يعدّ من خير الاعوان والمساعدين عليه فإن مشروعاً دينياً كهذا المشروع لا يمكن تنفيذه في عاصمة السلطنة والخلافة إذا كان رؤساء العلماء وأساطينهم معارضين له او غير راضين عنه.

هؤلاء هم العلماء الاعلام الذين أسعدني التوفيق بلقائهم ومذاكرتهم في المشروع ولقيت عندهم من العناية والقبول فوق ما كنت أظن وأكثرهم قد كلّم ولاة الأمور ورغبهم في إنفاذه في الوزارة السابقة والوزارة الحاضرة.

وممن ساعدني في هذا العمل بجد وإخلاص الصديقان الفاضلان أحمد نعيم بك بابان مدير المكاتب الرشدية بنظارة المعارف ويوسف ضياء بك في قلم الترجمة بنظارة الخارجية فهذا كان الترجمان بيني وبين الصدر الاعظم وغيره من الوزراء وله سعي آخر يشكر وان لم يذكر. وأما أحمد نعيم بك فمساعدته لا تقدّر قيمتها، ولا يستغنى عنها بسواها، وأن ما يرجى منه في المستقبل من المساعدة على التمهيد، فأسأل الله عز وجلّ ان يكافىء بكرمه وجوده جميع المساعدين، وبوفقنا جميعاً لخدمة الملّة والدولة والدين.

ما له حيلة سوى حيلة العا   جز إما توسّل او دعاء

وإنني أبشّر قرّاء المنار في جميع ارجاء العالم الإسلامي بأنه سيشرع في شهر ربيع الأول، الذي ولد فيه المصلح الاعظم ﷺ، بتأسيس مدرسة (دار العلم والارشاد) العالية التي يتربى فيها المرشدون الذين يقفون نفوسهم على خدمة الدين من الطريق الذي يجمع بينه وبين العلم والمدنية الصحيحة ويدفع عنه الشبهات بحيث يجمع المسلمون بين حقوق الروح والجسد وحسنتي الدنيا والآخرة وربما ننشر في الجزء الآتي نظام هذه المدرسة العليا. وأسرع الآن بذكر شيء منه:

يتربى ويتعلم في هذه المدرسة طائفة من الطلاب على نفقة المدرسة فهي تنفق عليهم لا يكلّفون طعاماً ولا شراباً، ولا لباساً ولا كتاباً، ومما يشترط فيهم ان يكون لهم إلمام باللغة العربية والنحو والفقه، وأن تكون سيرتهم حسنة في اخلاقهم وآدابهم وعبادتهم. وسيكون من الشدة في المحافظة على الاخلاق والفضائل وآدابهم وعبادتهم. وسيكون من الشدة في المحافظة على الاخلاق والفضائل في المدرسة ان الكذب يكون موجباً للطرد منها. ويشترط فيها أيضاً حفظ القرآن ولكن بتسامح في هذا الشرط الآن ويكون للمدرسة سنة تمهيدية

لحفظ القرآن ولبعض العلوم والفنون التي تقرأ في المدارس الابتدائية. وإدارة المدرسة هي التي تختار هذا القسم الداخلي من طلاب المدرسة وتفضل بعضهم على بعض بالامتحان.

اللغة العربية في البلاد العثمانية

وأما مسألة العناية باللغة العربية وتقوية الرابطة بين الترك والعرب التي سعيت لها سعيها منذ قدمت دار السلطنة فقد بلغني من الثقات ان رئيس الوزارة الحاضرة ابراهيم حقي باشا يقدرها قدرها، ووعد بأن يهتم بها وانني لم أوفق الى مذاكرته في ذلك بنفسي ولكنني ذاكرت غيره من أولي الشأن.

وقد ذكرت جريدة العرب التي نشرت حديثاً في العاصمة انه تقرر ان تكون اللغة العربية رسمية في الدولة كاللغة العثمانية بحيث يكون للدولة لغتان رسميتان وسمعت أكثر من واحد من الناس هنا يقولون ان هذا صحيح واستدل عليه بعضهم بوضع مبلغ من المال في ميزانية المعارف للسنة المالية القادمة لمعلمين للعربية وهو لا يدل عليه وانني متتبع لهذه المسألة وواقف على أطوارها فقد كانت النظارة تذاكرت في توظيف عشرة معلمين ثم في خمسة عشر معلماً للغة العربية ثم استقر الرأي على خمسة فقط سيعهد اليهم تعليم اللغة نفسها على أسهل الطرق الحديثة لصنفين من الناس أحدهما بعض المرشحين للتعليم في المدارس وثانيهما بعض عمال الحكومة الذين يراد إرسالهم الى البلاد العربية لأن الحكومة اقتنعت بأن من لا يعرف لغة قوم لا يستطيع ان يقيم العدل او النظام فيهم وأكثر المرشحين لأعمالها من الترك الذين لا يعرفون العربية فهي تريد ان تعلّم هذه اللغة لمن تريد ان ترسلهم الى البلاد العربية. نعم إن في تعليم هذه اللغة لطائفة من المرشحين للتعليم في نظارة المعارف تمهيداً لتعليمها على وجهها وقد كان تعليمها مقرراً رسمياً من زمن الاستبداد ولكنه لم يكن ينفّذ بل كان ولا يزال يعهد الى من لا علم لهم بهذه اللغة ان يكونوا مدرّسين لها في مكاتب الدولة حتى في البلاد العربية فترى المعلم التركي او الأرمني يعلم النحو العربي لأبناء العرب باللغة التركية!!.

المدارس الدينية في الآستانة

تألفت في العام الماضي لجنة من العلماء للنظر والبحث في إصلاح التعليم في المدارس الدينية الاسلامية وقد رغب إلي الصدر الاعظم للوزارة الماضية ان أكون عضواً فيها وقال انه يكلم شيخ الاسلام في ذلك فاعتذرت لأسباب منها انني لم أكن أريد المكث في الآستانة أكثر من شهر. وقد أتمت هذه اللجنة عملها بهمة خالص أفندي وكيل الدرس وكان من الاصلاح الجديد التوسع في اللغة العربية وفنونها وزيادة الفنون الرياضية والحكمة الطبيعية والتأريخ وتقويم البلدان. وقد سرّ أهل الآستانة سروراً عظيماً بهذا الاصلاح. وقد احتفل بالشروع في هذا الاصلاح احتفالاً حضره الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وكثير من العلماء والوزراء والاعيان والمبعوثين فنسأل الله تعالى ان يوفق لإنفاذه على وجهه المؤدي الى احياء علوم الدين والدنيا.

رحلة الى القسطنطينية(*)

(٣)

حال الآستانة العمرانية والاجتماعية

موقع هذه المدينة مشهور في جماله ومحاسنه الطبيعية ولو كانت هذه الدولة التي استولت عليها من عدة قرون دولة عمران ومدنية لجعلتها زينة الارض ومثابة الأمم، ولكان لأهلها من السائحين مورد من أغزر موارد الثروة، ولكنك لا تجد فيها أثراً من آثار العمران القديم للسلاطين السابقين الذين دوّخوا الدول الا المساجد، ولا شيئاً يعتدّ به من آثار العمران الحديث الا المعسكرات من الثكنات والمدارس، فصوفية عاصمة البلغار وأثينا عاصمة اليونان والقاهرة عاصمة مصر، كل اولئك أرقى من عاصمة الدولة عمراناً، فالآستانة موقع جميل، ومعسكر كبير، لا تغيب الجنود عن عينيك فيها دقيقة من الزمان، فعسى الله ان يسخّر لها الرجال الذين يعمرونها بعمران المملكة، لا بالاستقراض من الاجانب بالربا الذي يجعلها تحت سيطرتهم، وعرضة عند الحوادث لمداخلتهم.

أما العمران المعنوي وهو العلم والأدب فلها حظ منه تفضل به مصر وسورية وهو ان التعليم فيها أعم وأشمل، وتربية النساء أسمى وأنبل، ذلك بأن أموال المملكة كانت تجبى اليها حتى لا يبقى في كل ولاية إلا الضروري الذي لا يمكن الاستغناء عنه مع إباحة الرشوة والسلب والنهب فكثرت فيها المدارس للذكور والإناث، على ان الآداب الاسلامية الموروثة لا تزال أقوى في بيوت هذه المدينة منها في بيوت مصر فلا ترى امرأة في نافذة ولا على سطح إلا ان تكون مستورة البدن والرأس كما تكون في السوق ولا تسمع من البيوت ولا في الاسواق والشوارع صخباً ولا هجراً من القول كما تسمع في أسواق القاهرة وشوارعها، ولا يتبرجن بمصر إلا في بعض المواسم كآصال أيام رمضان في جهة الشاه زاده، وإلا في بعض الضواحي حيث يسرحن ويمرحن متنزهات مظهرات لزينتهن، على ان الكثيرات منهن يسفرن عن وجوههن في الاسواق والشوارع ولكنهن مع ذلك يغضضن من أبصارهن كما أمر الله تعالى. وإذا خرجن في الليل من دار الى دار يخرجن بالجبة او العباءة العربية المعروفة

(*) المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣١٤ ـ ٣١٧.

وبالقناع الابيض وذلك يكون زيهن الغالب في المتنزهات. فجملة القول ان آدابهن حسنة في خروجهن في الاسواق والشوارع وبيوتهن نظيفة مرتبة ولأولادهن حظ عظيم من النظافة والآداب. ويقول المختبرون من أهل البلد ومن الغرباء المقيمين فيه ان آداب غير المتعلمات او المتعلمات على الطريقة القديمة منهن أعلى أخلاقاً وأقوى عفة وأبعد عن الريبة من المتعلمات على الطريقة الحديثة الافرنجية وهن أشد عناية بالنظافة أيضاً فالتفرنج في البيوت هو الخطر الاكبر الذي ينذر البيوت الإسلامية بالفساد، في هذا البلد وغيره من البلاد، ويقال ان أحمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثين يريد ان يربي بنات المسلمين في المدرة التي يسعى في إنشائها مع بنات الافرنج والروم والأرمن تربية ليس لها من صبغة الدين شيء!! فإذا تم هذا المقصد فبشّر بيوت هذا البلد بالخراب المعنوي والفساد الذي لا يفوقه فساد.

ان علم النساء المسلمات في الآستانة دون علم الأوربيات ولكن تربيتهن الدينية والأدبية أعلى من تربية الاوربيات كما شهد بذلك غير واحدة من هؤلاء بعد الاختبار التام ومنهن من صرحت بأن التفرنج آفة مفسدة لنساء الترك. نعم انه يمكن ان تترقى معارفهن وآدابهن ولكن يجب ان يكون الدين هو أساس التربية وان تكون العناية به فوق العناية بالعلم وليس في اوربا شعب يربي البنات على الالحاد او ترك الدين، ان أثبت الشعوب الأوربية مدنية هو أشدها عناية بتربية النساء والاطفال تربية دينية.

ان بين استانبول وقسم غلطه وبك أوغلي تبايناً عظيماً في العادات ونظام المعيشة وحالة العمران على أنّ المسافة بينهما تقطع بدقيقتين إذ الفاصل بينهما هو الخليج المشهور وعليه جسران للمشاه والركبان ومنهم من يقطعه بالزوارق: تشبه استانبول في عاداتها بلاد المشرق الإسلامية القديمة كطرابلس الشام فأزياء النساء فيها كأزياء النساء في مدن سورية الا ما امتزن به وقد ذكرناه آنفاً وأزياء الرجال فيها كأزياء الرجال في مدن سورية: الطربوش والعمامة البيضاء المطرزة والعمامة الخضراء والمناديل الملونة - كل ذلك من ازياء الرؤوس وكله كثير وأما سكان قسم غلطه فتكثر فيه مزاحمة الكمم والقلانس للطرابيش المجردة ويقلّ فيه غير ذلك.

يتعشى أهل استانبول بُعَيد المغرب كأهل سورية وتقفل أكثر المطاعم بعد العشاء بقليل على حين يبتدىء أهل القسم الآخر بالطعام وتظل مطاعمهم مفتوحة الى قرب منتصف الليل ويسهرون كثيراً ولا يسهر اولئك إلا قليلاً. ويكثر الفسق العلني والسرّي في قسم غلطه والفسق العلني ممنوع في استانبول.

وآداب الرجال العمومية حسنة كآداب النساء فلا تكاد تنكر على رفيع لا وضيع قولاً خشناً ولا كبراً وترفعاً ولكنك كثيراً ما تنكر عليهم إخلاف الوعد وما في معنى الاخلاف حتى يقلّ ان يثق المختبر بقوله يسمعه وسبب ذلك تأثير الاستبداد الشديد، وما كان من الضغط والمراقبة على عهد عبد الحميد، فذلك هو السبب الطبيعي لفشو الكذب والاخلاف والتقلب في كل الأمم، ولهذه العلة كثر الكذب والاخلاف والتقلب وعدم الثبات

في جميع البلاد العثمانية كما كثر ذلك من قبل في مصر ولا على عهد اسماعيل باشا.

كنت كتبت في المنار وقلت في بعض الخطب التي القيتها في العام الماضي بالبلاد السورية ان أرقى البلاد العثمانية الآستانة وما يقرب منها من ولايات الرومللي وأوسطها سورية وأدناها العراق والحجاز واليمن. وقد تبين لي ان هذا القول خطأ فالآستانة لا تفوق سورية الا بكثرة عدد المتعلمين من الرجال والنساء وبالاداب الاجتماعية كما تقدم فهي ليست أرقى في العمران الحديث من بيروت ولا في العمران القديم من دمشق. وليس النابغون من أهلها كالنابغين من سورية في العلوم الإسلامية ولا في الفنون والعلوم الاوربية ولا في الأدبيات ولا في التجارة والزراعة. ولا أهل الادارة والقضاء منهم أرقى ممن تسنى لهم ان يشتغلوا بهما من السوريين بمصر، وكذا في بلاد الدولة على قلتهم وليس الضباط المتعلمون في المدرسة الحربية من أهل الآستانة بأرقى في الفنون الحربية من الضباط السوريين ولا العراقيين الا انهم أكثر. وأما ولايات الرومللي وكذا الاناضول فهي دون الولايات السورية في الجملة.

وأما بالنسبة بين الآستانة ومصر فهي ان عامة أهل الآستانة أرقى من عامة أهل القاهرة وخاصة أهل القاهرة النابغين أرقى من خاصة أهل الآستانة النابغين الا في الجندية. وأما من جهة الثروة والعمران فمصر أغزر ثروة وأرقى عمراناً، وقد تقدمت النسبة بين البلدين في النساء وتربية الاولاد.

هذا ما تبين لي في هذه الأشهر نصصته على غرّه، غير متحرف الى جهة، ولا متحيز الى فئة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

رحلة القسطنطينية(*)

(أو إقامة عام، في عاصمة الإسلام)

علم قرّاء المنار كافة سبب رحلتنا في أواخر رمضان من العام الماضي الى هذه العاصمة وشيئاً من خبر عملنا وسعينا فيها، أما وقد عدنا منها الى مصر، في أوائل هذا الشهر، فإننا نذكر لهم ملخص ما بلغ اليه السعي.

مسألة العرب والترك

أشرنا في أول مقالة كتبناها عن الانقلاب العثماني عند حدوثه الى العقبات التي يخشى ان تعوق سير الدستور ومنها تعصب العناصر العثمانية لجنسياتها وقد وقع ما توقعنا فقد قام كل عنصر يسعى لتقوية عنصره. فأما اليونان والبلغار والأرمن فلا تسأل عما قالوا او فعلوا، ولا تعجب مما اقترحوا وطلبوا، على ان الأرمن أعطوا حتى رضوا، ولا سبيل الى مرضاة قوم لهم دولة تنازع الدولة العلية في أملاكها، وتطمع حتى في عاصمة ملكها، وأما الأرنؤد والكرد والجركس فقد قاموا يسعون لتدوين لغاتهم، وترقية اجناسهم، ولكل منهم في العاصمة أندية وجمعيات، وأما العرب فأسسوا عقب الانقلاب جمعية سموها جمعية الاخاء العربي فكنت أنا وكل من أعرف من العرب العثمانيين في مصر وسورية كارهين لتأسيسها ولما زرت سورية كنت أنفر الناس منها. ثم الغيت لأن الرأي العام العربي لم يأخذ بيدها لأنه لم يكن يحب ان يعمل عملاً ما في الدولة بإسم العرب، ذلك بأن رأينا ان بقاء الدولة يتوقف على اتحاد الترك بالعرب فيها ولكن قام بعض أصحاب الجرائد التركية في الآستانة بالدعوة الى الجنسية التركية وحفظ السيادة للعنصر التركي والتنفير من العرب ودعوة الترك الى الاستغناء عن اللغة العربية حتى عن القرآن العربي بترجمته الى اللغة التركية وبتطهير التركية من الالفاظ العربية، فتألم العرب من هذه الاقوال وزادهم تألماً أفعال أخطأت فيها الحكومة بيناها في مقالات (العرب والترك) التي نشرناها في جرائد الآستانة التركية والعربية فلا نحب إعادتها.

(*) المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٧٤٨ - ٧٥٢.

رأينا الحديث قد كثر في هذه المسألة وتناولتها أقلام الكتاب والشعراء فخفنا ان تعمّ وتصير مقررة عند العامة فيصعب نزع سوء التفاهم ويتعسر ما نحب من الاتحاد والاعتصام فكان أول سعينا في الآستانة موجهاً الى إزالة سوء التفاهم بين العنصرين فكتبنا تلك المقالات الست واخترنا لنشر ترجمتها بالتركية جريدة إقدام لأنها كانت من الجرائد التي آذت العرب بعصبيتها الجنسية عسى ان يزول ذلك بما ننشر فيها، ثم كان أول من كلمناه في ذلك هو الصدر الاعظم فاعترف لنا بأن الحكومة والجمعية اخطأتا في بعض تلك الامور قال ولكن ليس هنالك سوء نية وانه سيتدارك ذلك بالفعل. وكلمت في ذلك أيضاً محمود شوكت باشا وناظر الداخلية وغيرهما من الكبراء، وقد اتهمني بعض النابتة العربية في أول الامر بمصانعة الترك او الحكومة ثم بلوني وخبروني وعلموا اني مخلص في ما أوافقهم وفي ما أخالفهم فيه وبذلك تيسر لي ان اقنعهم بما اقتنعت به بعد طول اختبار الآستانة ورجالها وهو ان العرب والترك عنصران يكوّنان حقيقة واحدة كالعنصرين المكونين لحقيقة الماء او الهواء وان الاسلام قد ألف بينهما هذا التأليف وزادته قوة مصلحة بقاء هذه الدولة بهما والخطر عليها من تفرقهما، وان الذين تحاملوا على العرب واللغة العربية من المتفرنجين المختلفي الاصول فمنهم من أصله تركي ومنهم من أصله عربي ولعلنا لو بحثنا عن انسابهم لوجدنا أكثر آبائهم من الروم والارمن واليهود والنور وانه لا يجوز لأحد من العرب ان يجعل ذنبهم للعنصر التركي ولا ان يحمل سعي الترك لترقية شعبهم منافياً لأخوة العرب ما دام خالياً من العصبية الجنسية كما لا يجوز لطلاب ترقية العرب ان يقصدوا بذلك الا التمهيد للاتحاد بالترك والقيام معهم بتأييد الدولة وإعزازها هذا هو رأيي الذي وافقني عليه العقلاء من الترك والعرب في العاصمة وان كان يوجد فيها من المتعصبين المبغضين للعرب الذين يسترون بغضهم بأماديح النفاق من يحرف كلامنا في التوفيق والتأليف عن مواضعه لينفروا إخواننا الترك منا والله من ورائهم محيط. وقد تداركت الحكومة بعض خطأها بإلغاء ما كانت أمرت به من وجوب جعل المرافعات في محاكم البلاد العربية باللغة التركية وعدم قبول ما يقدم الى الحكومة من شكوى وغيرها باللغة العربية، كانت شرعت في هذا وذاك ثم علمت بتعذره وبسوء أثره فمنعته، ثم انها عيّنت في مدارسها الإعدادية عشرة معلمين للغة العربية وذلك فاتحة خير ان شاء الله تعالى.

مشروع العلم والارشاد

هذا هو المشروع الاعظم الذي هو المقصد الاول لي من الرحلة بل من الحياة كلها وهو إذا نُفِّذ يقوّي الرابطة والاخوة بين العرب والترك وبين غيرهم من المسلمين كالأرنؤد والكرد بل يؤلف بين المسلمين وغيرهم من الملل كما يقتضي الاسلام - لأن كل ما أتصوره وأدركه في إصلاح حال المسلمين محصور فيه ولذلك كان جلّ السعي أوكله في هذه السنة لهذا المشروع وبعد العناء الطويل والمراجعات الكثيرة واللجان المتعددة التي عقدت للمناقشات فيه وفقنا لتأسيس جمعية العلم والارشاد كما عرف القراء وقد وافقت الحكومة على

تأسيسها رسمياً وعرف القراء مما نشرناه في الجزء السادس ان من اعضائها المؤسسين موسى كاظم افندي الذي صار بعد التأسيس شيخ الاسلام للملكة ورئيس الشرف للجمعية ومنهم مستشار المشيخة، والرئيس الثاني لمجلس المبعوثين، ورئيس كتاب مجلس الشورى وغيرهم من خيار رجال العاصمة فليراجع من شاء أسماء وقانون الجمعية في ذلك الجزء من منار هذه السنة.

بعد التصديق الرسمي على نظام الجمعية توسلنا بمولانا شيخ الاسلام الى الحكومة لتقرر لنا ما وعدتنا به من المساعدة المالية لتأسيس مدرسة «دار العلم والارشاد» فكتب أحسن الله جزاءه مذكرة للصدر الاعظم بعد مذاكرته في ذلك والاتفاق معه طلب فيها ان تعطى جمعية العلم والإرشاد ثلاثة آلاف ليرة لأجل تأسيس المدرسة المذكورة في نظامها الأساسي وان يقرر مجلس الوكلاء جعل نفقات هذه المدرسة بالغة ما بلغت في ميزانية نظارة الاوقاف من ابتداء السنة المالية القابلة. فوضعت مذكرة الشيخ موضع المذاكرة في مجلس الوكلاء الخاص فقرر المجلس قبول المذكرة والموافقة على المبلغ المطلوب واستحسان نظام الجمعية الا انه ذكر في صورة القرار الذي بلغ من مقام الصدارة الى المشيخة ونظارتي الاوقاف والمعارف ان المجلس استحسن ان يعبّر عنها «بانجمن علم وإرشاد» بدل (جمعية العلم والارشاد) وأن تكون المدرسة تحت إدارة ومسؤولية شيخ الإسلام.

بلغنا شيخ الاسلام قرار مجلس الوكلاء فاجتمع مجلس ادارة الجمعية يوم الجمعة (١٩ رمضان - ٢٣ سبتمبر) للمذاكرة فيه فقرر الاعتراض على جعل المدرسة تحت مسئولية شيخ الإسلام لأنها تكون بذلك رسمية وقد بلّغ الكاتب العامّ للجمعية شيخ الإسلام ذلك كتابة وتكلم معه في وجوب جعل المدرسة خاصة بالجمعية خالية من الصفة الرسمية فوافق الشيخ على ذلك ووعد وعداً مؤكداً بالكتابة الى الباب العالي بوجوب تعديل قرار مجلس الوكلاء وجعل المدرسة مما يطلقون اسم «المكاتب الخصوصية» وكذلك قال ناظر المعارف ووعد بعض اعضاء الجمعية بالكتابة الى الباب العالي بذلك وصرح بأن جعل المكتب ذا علاقة بالحكومة ضار وانه خلاف ما كان اتفق عليه، ولماذا يكون ضاراً؟.

صرحنا في المادة الثالثة من نظام الجمعية الأساسي بأن هذه الجمعية لا تشتغل بسياسة الدولة العلية الداخلية ولا الخارجية ولا سياسة غيرها من الدول ولكنها تراعي القانون الأساسي وتؤيده، ونص المادة الثانية المبينة مقصدها هو.

«المادة الثانية - مقصد هذه الجمعية الجمع بين التربية الإسلامية وتعليم العلوم الدينية والدنيوية والتصنيف فيها وتتوسل الى ذلك بإنشاء مدرسة كلية في دار السعادة باسم «دار العلم والإرشاد» لتخريج العلماء والمرشدين».

فالمراد من الجمعية ومدرستها الكلية هو الإصلاح الديني الاجتماعي أي إنارة عقول المسلمين بالعلوم النافعة وتربية نفوسهم تربية صالحة ليعلموا كيف يعمروا دنياهم مع حفظ دينهم ذي الآداب العالية ان ينال منه الخراب. ويدخل في ذلك اقتباسهم لما لا بد لهم منه من المدنية العصرية وفنونها وأعمالها. فإذا دخلت السياسة في مثل هذا العمل

أفسدته. ولا شك ان الدول الاوربية تعد جعله تحت ادارة شيخ الاسلام عين السياسة وتتهم الدولة بأنها تريد به تهييج التعصب الاسلامي لأن شيخ الاسلام هو العضو الاول في مجلس وزراء الدولة وإذا قاومت اوربا هذا المشروع لا يثمر الثمرة المطلوبة ولا تتقى مقاومة اوربا إلا بجعله في معزل عن السياسة والحكومة ظاهراً وباطناً لأن الذين اكتشفوا الاشعة التي تخترق الكثائف حتى يُرى ما وراءها ووضعوا المناظير المكبرة التي يرى بها ما لم تكن ترى مثله زرقاء اليمامة لا يسهل على أمثالنا في ضعفنا وجهلنا ان نخدعهم، وإذا كان هذا العمل في أيدي جمعية مخلصة ليس لها صفة رسمية لا يمكنهم ان يعترضوا عليها اعتراضاً رسمياً، وإذا اتهموها بالسياسة باطلاً سهل عليها مع الصدق والإخلاص إقناعهم ببراءتها كما وقع للجمعية الخيرية الاسلامية بمصر اتهمت بالسياسة ومساعدة مهدي السودان على الحرب ولكن لم تلبث ان ظهرت براءتها بإخلاص رجالها.

هذا هو رأيي ورأي محمود شوكت باشا ذكره لي قبل ان أذكره له ووافق عليه شيخ الاسلام وناظر المعارف وهو رأي اعضاء الجمعية المؤسسين أيضاً ولأجل هذا يسعون في تعديل قرار مجلس الوكلاء. ولولا هذا لوافقت ناظر الداخلية أولاً وشيخ الاسلام أخيراً على جعل نفقات المدرسة من المالية دون الأوقاف ولكنني ما زلت أراجع في ذلك من أول السعي الى آخره إذ قال لي شيخ الاسلام في يوم الاثنين ١٦ أو ١٧ شعبان (٢٢ أغسطس غ) إنّ الوكلاء الفخام يرون من المناسب أن تكون نفقات المكتب السنوية في ميزانية العلمية (التابعة للمشيخة الاسلامية) وأنا أرى ذلك لأن هذه خدمة دينية من جنس خدمة المشيخة فنحسن أن تكون نفقتها تابعة لها فما تقول انت يا عزيزي (قلت) ما ترونه حسناً فهو حسن ولكني لا أزال أرى ان تجعل نفقات مكتبنا في ميزانية الاوقاف حتى لا يكون للمشيخة وجه للتداخل في أمره إذ الاولى ان يكون مستقلاً تمام الاستقلال دونها الى آخر ما قلته ووافقني عليه بل قلت لغيره من العظماء لولا انني خشيت ان تسيء الدولة الظن بالمشروع لاقترحت ان يكون في الحجاز او في مصر وأقول الآن اذا لم يعدّل مجلس الوكلاء القرار كما وعد شيخ الاسلام وناظر المعارف فالمسلمون لا يستغنون عن جمعية أخرى كهذه الجمعية يكون مركزها مصر لأن جمعية الآستانة لا تأتي بالفائدة المطلوبة اذا كانت رسمية او شبه رسمية.

رحلتنا الهندية ـ شكر علني (*)

كنت أرى من حقوق إخواني مسلمي الهند وعُمان والعراق والذين أكرموا مثواي في رحلتي، وأحسنوا ضيافتي وبالغوا في مودتي، ان أكتب الى كل واحد منهم كتاب شكر خاص به، وكنت أتربص فرصة فراغ أوفيهم فيها حقهم هذا. ولكن قد طال العهد والزمان لم يجد عليّ بهذه الفرصة. وذلك ان زمن الرحلة قد امتد في العودة فلم ابلغ القاهرة إلا في النصف الثاني من شهر شوال، فالأعمال التي كانت متأخرة من مدة ستة أشهر، وما يجب من الاهتمام والعمل لفتح مدرسة الدعوة والإرشاد ـ وكان قد جاء موعد فتح المدارس ـ وما يجب من جمع الهيئة العامة لجماعة الدعوة والارشاد في النصف الاول من ذي القعدة، وما عرانا من انحراف المزاج ـ ثم ما شغل البال والوقت من هذه الحرب المشؤومة ـ كل ذلك كان حائلاً دون سنوح الفرصة المنتظرة.

لهذا رأيت انه يجب عليّ في عرف الوفاء والأدب ان استعيض عن الشكر التفصيلي الخاص، بشكر إجمالي عام، لأولئك الاصدقاء الكرام، والعلماء الاعلام، والامراء الفخام، وإنني أرجو وقد وفقت للكتابة الى قليل منهم، ان أوفق الى مكاتبة سائرهم أو أكثرهم، وانني أخص بالذكر من أتذكر الآن اسماءهم.

أولهم وأولاهم بالشكر من جالية العرب في بمبي ومن أهلها صديقي الحميم، المحسن العظيم، الكريم ابن الكريم ابن الكريم، الشيخ قاسم بن محمد آل ابراهيم، فهو الذي قام بحسن ضيافتي، في غدوتي وروحتي، وأعدّ لي سيارة كهربائية خاصة مدة إقامتي في بمبي. ثم ابنا اخيه الشيخ عبد الرحمن ابراهيم، والشيخ يعقوب ابراهيم، والشيخ محمد المشاري رئيس شركة البواخر العربية وعبدالله فوزان، وسائر الجالية العربية في بمبي الذين استقبلوني على رصيفها هم وبعض كرام اهلها كالحاج سليمان عبد الواحد شريف البلد والحاج اسماعيل صوباني رئيس (انجمن اسلام) الذي حياني على رصيف البحر بخطبة بليغة، وميان محمد حاجي جان محمد شوتهاني كبير طائفة الميمن وأشهر تجّارهم

(*) المنارج ١٦ (١٩١٣) ص ٧٧ ـ ٨٠.

نجدة ومروءة، والحاج عبدالله ميان الكهندواني من كبار طائفة ا لميمن أيضاً، وهؤلاء قد أدبوا لنا مآدب حافلة اجتمع لها مئات من الكبراء والفضلاء ثم أشكر فضل باي من أكابر سروات البلد جماعة آغا خان، وكنت أتمنى لو كان زعيمهم محمد سلطان (امام الاسماعيلية) يومئذ في بمبي فإني كنت حريصاً على لقائه، وقد سررت من اهتمام فضل باي بأمر الجامعة الاسلامية لأنها كانت جلّ حديثنا في تزوارنا.

وممن أخصهم بالشكر والثناء السيد علي الحسن معاون البوليس في (آكره) الذي أحسن ضيافتي واطلاعي على الآثار العظيمة التي فيها، ومحمد شعيب مفتش مصلحة الآثار في آكره ودهلي.

وأما أهل دهلي فأجدرهم بثنائي وشكري النواب محمد اجمل خان حاذق الملك الطبيب الشهير كبير سروات دهلي وأحد افراد المسلمين الممتازين في الهند بالعلم والفضل وعلو الجناب، وقد أحسن حفظه الله ضيافتي وجمعني في داره بأكبر علماء البلد ووجهائه، وخصص لي سيارة كهربائية تيسر لي بركوبها رؤية جميع الآثار القديمة في ضواحي تلك المدينة في مدة قصيرة. ولا أنسى اولئك العلماء الكرام الذين انسنا بهم هناك وأخص بالذكر منهم (مولوي) الشيخ سيف الرحمن المدرس الاول والناظر لمدرسة (فتح بوري) الدينية وقد زرنا مدرسته وسمعنا واسمعنا ما فتح الله به فيها. وتكلمنا معه في إصلاح التعليم والعناية باللغة العربية فلقينا منه ارتياحاً لرأينا في ذلك، ومولوي الشيخ عبد الله الغازيبوري، ومولوي احمد الله المبارك بوري، وميرزا ضمير الدين احمد اللوهاري. ولا أنسى مودة التاجر الصادق الحاج التّقي عبد الغفار بن الحاج علي جان، الذي كان يترك محل تجارته الكبير ويصاحبني في كل مكان. وقد صحبنا معه في رؤية آثار دهلي النواب ضمير الدين. وبالقرب من الاثر العظيم الذي هو أكبر آثار دهلي (منارة قطب أوليا) بلدة اسمها (مهرولي) عرجنا فيها على دار الشيخ رياض الدين من كبراء اهلها وكان أعدّ لنا غداء طيباً نوّع فيه الوان الاطعمة الهندية، وكان من مظاهر الكرم الاسلامي في تلك الديار.

وإن أنس لا أنسى زيارة مدرسة (مظاهر العلوم) في مدينة (سهارنبور) ولقاء ناظرها وأكبر مدرّسيها (مولوي) الشيخ خليل احمد الذي لم أر في علماء الهند الاعلام أشد منه إنصافاً ولا أبعد عن التعصب للمشايخ وللتقاليد، وما ذلك الا لإخلاصه وقوة دينه ونور بصيرته.

وابدأ من شكر اهل (لاهور) الكرام بالثناء على الامير الجليل، والسري النبيل النواب (فتح على خان قزلباش) الذي أحسن ضيافتنا، وأكرم وفادتنا، ولا غرو فقصره في تلك المدينة القديمة معهد الكبراء والفضلاء، وموئل السائحين والغرباء، وأثني بالثناء على الصديقين الفاضلين، والرصيفين الكريمين (مولوي محبوب العالم) صاحب جريدة (بيسه اخبار) و(مولوي محمد انشاء الله) صاحب جريدة (وطن) وكان هذان الفاضلان يتسابقان لضيافتي، ويرى كل منهما انه أولى بي: الاول لأنه تكرّم بزيارتي في مصر عند منصرفه من

اوربة، الثاني لما بيني وبينه من صلة المكاتبة وعنايته بنشر تفسير المنار، ولكن النواب الجليل قال انه هو الاحق بذلك فلم يسعهما إلا الاذعان، لأنه هو البدء الذي لا يختلف في تقديمه اثنان. ثم اثني الثناء الاوفى على الكاتب البليغ والخطيب المصقع (مولوي علي خان) صاحب جريدة (زميندار) الذي بالغ في الترحيب بي قبل وصولي الى الهند واقترح ان تعقد لجنة لوضع برنامج لحفاوة مسلمي الهند بي، وكان يريد ان يحتفل بي احتفالاً عاماً يجتمع له الالوف من جميع طبقات الشعب فاعتذرت له عن ذلك، بأنني مضطر الى السفر الى ندوة العلماء لقرب موعد احتفالها العام، ومما أذكره مع الشكر والثناء مواتاته لي في الصلح بينه وبين صديقي صاحب جريدة وطن الذي أشكر له مثل هذه المواتاة، وكانت جرت بينهما مناظرة حادّة أدّت الى الجفوة وآلمت فضلاء المسلمين في جميع البلاد الهندية حتى رغب إلي كثير من كبرائهم في السعي للصلح بينهما عند زيارة لاهور. ومما أشكره لصديقي (محبوب عالم) شكراً خاصاً تركه لنجله الكريم مريضاً يعالج وطوافه بي على مساجد البلد ومدارسها ومعاهدها الأثرية فيها وفي ضواحيها.

وأما أهل (لكهنؤ) فلا أستطيع ان أوفيهم حقهم من الشكر والثناء فقد استقبلني الالوف منهم بحفاوة قلّما يستقبل بمثلها الملوك حتى خجلت واستحيت، وكلما رجوتهم ان يختصروا في التكريم غلوا فيه وأفرطوا، حتى انهم جرّوا المركبة التي ركبتها بأيديهم. وأخص بالشكر والثناء رجال ندوة العلماء الكرام، وفي مقدمهم رئيسهم صديقي العلامة الهمام شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني، والسيد ممتاز حسين رئيس لجنة المستقبلين فيها وهو الذي خصص داره الفيحاء لنزولي فيها، وتأنق في إتقان الضيافة ما شاء فجمع بين مقتضى اصله العربي الصميم، وفرعه الهندي الكريم، واحتشام السلطنة أمين اموال الندوة، وسائر علماء الندوة وغيرهم كالعلامة الكبير السير ناصر حسين كبير علماء الشيعة. ثم عظماء البلد الذين أدبوا لنا المآدب الحافلة: (مشير حسين القدوائي) الذي كان كاتب السر لجمعية الجامعة الاسلامية في لندن وأخوه (شاهد حسين) و(السيد محمد علي حسن خان) ابن امير العلماء وعلامة الامراء المرحوم السيد صديق حسن خان نواب بهوبال صاحب التصانيف الشهيرة. والامير الكبير النواب (محمد علي راجا ولاية محمود آباد) وهو من أعظم امراء الهند وسرواتهم من طائفة الشيعة الامامية، وأركان النهضة الاسلامية، فإنه يبذل المال لمدرسة العلوم الكلية في عليكره بألوف الجنيهات، كما يبذل للمدارس الخاصة بأهل عسنة كمدرسة ندوة العلماء، فنسأل الله ان يكثر في المسلمين من أمثاله، وكانت خاتمة الدعوات الحافلة في لكهنؤ دعوة الطبيب الشهير الحكيم (محمد عبد الولي) حياه الله تعالى.

وقد سرت من لكهنؤ الى (بنارس) مدينة البراهمة المقدسة ومقر اقدم اصنام في الارض فلم أعرف من مسلميها الا مضيفنا الكريم (محمد ممنون حسن خان) المعاون المسلم للحاكم الانكليزي فيها وهو افغاني الاصل فقد تفضل أحسن الله جزاءه مع حسن الضيافة بمساعدتنا على رؤية الاثار القديمة الوثنية الثابتة من ألوف السنين والمكتشفة

حديثاً في ضواحيها، صرفنا كل وقتنا هنالك في رؤية الآثار والعاديات فلم نتعرف لأحد على ان أكثر مسلمي بنارس من الصناع والزراع وقلما يوجد فيها أحد من أهل العلوم والاداب في ما نعلم.

(أبو سعيد العربي الهندي)

كان هذا الرجل في (درنه) يتردد على أنور بك وحاشيته مثل الشيخ صالح التونسي وجاء مصر فاتصل بأخلاط الحزب الوطني فلحقه الفريقان بالطعن في صاحب المنار فكتب في بعض الجرائد الهندية ينكر عليها فيها إطراءه وتسميته مصلحاً وبلغني انه ادّعى في بعضها انه يتكلم في شزني عن معرفته بي وهو لا يعرفني إنما رآني مرتين إحداهما في لجنة الهلال الاحمر وثانيهما في الطريق دعوته فيها الى دائرة المنار للتعارف والمذاكرة فاعتذر. فإذا كان قد كتب ما كتب بسوء الفهم وهو مخلص فستظهر له عاقبة المنافقين الذين كذبوه وخدعوه (والله يعفو عنه) وان كان مثلهم فجزاؤه على الله تعالى والعاقبة للمتقين.

رحلتنا الهندية. شكر علني (*)

(٢)

مدرسة عليكره

أبدأ من شكر مدرسة عليكره ومدبري شؤونها وطلابها بذكر الشيخ الجليل، والمولي النبيل (النواب وقار الملك بهادر مولوي مشتاق حسين) سكرتير (عمدة) المدرسة وأحد زعماء مسلمي الهند وأركان النهضة العلمية فيها. وبالعلم الاصولي التحرير، والمحامي الشهير المقبل على شأنه، الخبير بأهل زمانه (آفتاب احمد خان) رئيس مؤتمر التربية والتعليم في الهند، وبالعالم، المهذب الفاضل (مولوي محمد حبيب الرحمن) رئيس الشرف للشعبة الدينية في المدرسة، ثم بسائر العلماء الاعلام المدرسين ووجهاء البلد المقدمين، وفي طليعتهم الدكتور محمد أشرف، والدكتور ضياء الدين، والاستاذ يوسف هردوتس الالماني استاذ الشعبة العربية في المدرسة. والسيد سليمان أشرف البهاري معلم الشعبة الدينية على مذهب أهل السنّة، ومولوي فدا حسين) معلم الشعبة الدينية على مذهب الشيعة الامامية. وعبد المجيد خواجه المحامي، وأبو الحسن معاون سكرتير المدرسة.

تفضل هؤلاء العلماء الاجلاء باستقبالي على محطة السكة الحديدية خارج البلد مع جمهور عظيم من أهل المدرسة ووجهاء البلد، وبتوديعي كذلك، وبالحفاوة الفائقة بي مدة إقامتي بينهم، وقد بالغ النواب الجليل وقار الملك في التأنق بضيافتي وأعد لي دار صديقه السري الكبير (خان بهادر نواب محمد فرمل الله خان) الفسيحة الفيحاء، ذات الحديقة الغنّاء، وكان يدعو لمؤانستي على الطعام كل يوم أكابر العلماء والأدباء، وقد استفدت من فضلاء عليكره علماً وخبرة بأحوال اخواني مسلمي الهند لم أجدهما عند غيرهم.

ثم أشكر لناظر المدرسة الهمام (مسترجي ايشتول بهادر) ترحيبه بي هو وقرينته الفاضلة ودعوتهما إياي الى شرب الشاي في دارهما، ووعد الناظر إياي بالإجابة الى ما اقترحته عليه من العناية بتوسيع نطاق تعليم اللغة العربية في المدرسة، وأشكر مثل هذا الوعد لأستاذ الشعبة العربية (يوسف هردوتس) الالماني. أما النواب وقار الملك وعمدة

(*) المنارج ١٦ (١٩١٣) ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

المدرسة وأساتذتها فإن ارتياحهم لاقتراحي هذا عليهم لم يكن إلا تذكيراً بما لا يغيب عن أذهانهم، بل رمياً عن قوس عقيدتهم، وقد وعدوني بأنهم سينشئون نادياً في المدرسة لا يتكلمون فيه إلا بالعربية ولعلهم أنجزوا الموعد، فإنهم أهل الوفاء والصدق. وقد ذكّرني رأيهم هذا - وكان وعداً مفعولاً - ما حدثني به بعض علماء المسلمين في روسية وهو انهم توسلوا الى التمرن على اللغة العربية باتفاق أهل العلم وطلابه على التزام التكلم بالعربية دون سواها في مدة شهر رمضان.

أما النواب الجليل فقال كما قال هردوتس انه لا يتيسر لهم اتقان تعليم اللغة العربية ما دامت المدرسة تابعة لنظارة معارف (اله آباد) قال النواب واننا قد جمعنا المال الكافي لتحويل المدرسة الى جامعة مستقلة فمتى تم لنا ذلك فإننا نجتهد في ما اقترحتموه علينا من إتقان تعليم الدين وتعليم العربية أتم الاجتهاد. وقد أحزنني بعد عودتي ما بلغني من استقالة النواب الجليل من المدرسة ولا أدري أحق ما قيل من ان المال الذي كان جمع لجعلها جامعة قد دفع لإعانة الدولة العثمانية على الحرب أم لا. وإذا صح فهل تصدّوا لجمع غيره أم لا؟ أما المبلغ فهو مئتا ألف جنيه انكليزي وبضعة آلاف من الجنيهات.

ولا يسعني من شكر طلاب المدرسة والثناء عليهم الا الاجمال، فقد قرّت عيني بما رأيته من أمارات النجابة والاجتهاد عليهم، وما توسمته من شعور الاخاء الإسلامي في وجوههم، وما قابلوا به خطبتي عليهم في التربية من الارتياح والقبول، وقولهم انهم نقشوها في الواح النفوس وصحف القلوب، ثم ان طلاب القسم العالي والأعلى منهم لم يكتفوا بإظهار سرورهم واحترامهم بالقول الحسن، والزيارة والسؤال، وغير ذلك من شعائر الاحترام، بل استأذنوا النواب الجليل في مأدبة حافلة للعشاء باسمهم فكانت مأدبتهم أكبر مأدبة أكرمني بها امراء الهند وأغنياؤهم، فإن اصحاب الدعوة من الطلبة بضع مئين ودعوا معي اساتذة المدرسة من الوطنيين والأوربيين ووجهاء البلد. على انهم قدروا نفقات دعوة لزهاء ألف رجل يقدم لهم أنفس ما يأكل الامراء والكبراء من الطعام، ثم اكتفوا بعد مذاكراتي ورضائي مع الاعجاب والسرور بأن يجعلوا المأدبة في الدرجة الوسطى ويجعلوا باقي ما قدروه من نفقتها إعانة لأيتام وجرحى المجاهدين في طرابلس الغرب فكان ذلك ثلث ما قدروه. وكذلك فعل العالم العامل التقي الحفي مولوي حبيب الرحمن الذي أسرّ بأن أسميه صديقي المحبوب في دعوته إياي الى حفلة الشاي فحيا الله هؤلاء الاخوة الكرام.

مدرسة ديوبند

قد بيّنت في العجالة التي كتبتها عن رحلتي وأنا في العراق ما كان من سروري وارتياحي في مدرسة ديوبند الدينية وان الخبر لها كان خيراً من الخبر عنها، فأشكر لعلمائها الاعلام، وطلابها النجباء، تواضعهم وكرمهم بالحفاوة بي، والعناية باستقبالي وتوديعي، إذ خرج لهما رؤساؤهم وجمهورهم الى محطة السكة الحديدية البعيدة عن البلد، وفي مقدمتهم مولانا العلامة الشيخ محمود حسن رئيس المدرسين، ومولانا الحافظ محمد احمد ناظر المدرسة، ومولانا العلامة الشيخ عبيد الله رئيس جمعية الانصار، ومولانا

العلامة الشيخ أنور شاه، ومولانا العلامة الشيخ محمد حبيب الرحمن من كبار المدرّسين. وكان من ذوقهم ولطفهم ان وضعوا على باب المدرسة قطعة كبيرة من النسيج، مرسوماً عليها حديث «ان الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» وقد حيوني بالخطب والشعر حياهم الله تعالى، وبالغوا في الاعتذار عن التقصير في الضيافة بأن حالهم وحال بلدهم الصغيرة لا يمكنانهم من كل ما يرونه لائقاً من كثرة الالوان، وضروب الاتقان، وأقول انهم والله ما قصّروا ولقد كانت كيفية ضيافتهم انهم زودونا بأطعمة نفيسة حملوها الى القطار الحديدي عند توديعنا، فأكلنا منها في الطريق وأفضنا على الفقراء في بعض المحطات، وهذا من الكرم الذي انفردوا به دون سائر الكرماء.

وإنني أختم الشكر والثناء بذكر من يستحق ان يشارك أهل كل بلد زرته هنالك في شكري لهم، وهو صديقي الصفي الوفي، السيد عبد الحق حقي الاعظمي البغدادي مدرّس اللغة العربية، في مدرسة العلوم الكلية، فإنه كان رفيقي وأنيسي وترجماني في كل هاتيك البلاد، وإنني ما لقيت في حياتي رفيقاً أخف روحاً وأكبر مروءة وأشد تواضعاً وأحسن تصرفاً من هذا الأخ الكريم، والولي الحميم؛ فإنه وضع نفسه مني - وهو الكفيّ الكريم - في موضع التلميذ المجتهد من الاستاذ المحقق، والمريد الصادق من المسلك العارف، والولد البار من الوالد، بل الخادم الامين، من المخدوم القمين، ثم كتب رسالة في ملخص رحلتي لقب نفسه فيها بهذه الالقاب. وطبعها ونشرها في البلاد، ولولا ذلك لما أَبَحْتُ لنفسي ان أذكرها ولو لأشكرها، وأبين ان فضله وكماله هما اللذان حملاه على التفضل بها، فهي أياد له يمنّها عليّ وليس لي يدٌ أمنّها عليه، وإنما أسأل الله أن يحسن جزاءه، ويديم وفاءه، وأن يقرّ عينه بولده، حتى تتصل بهم سلسلة الولاء والوفاء من بعده.

رحلتنا الهندية العربية(*)

(شكر علني لأهل عمان والكويت)

شكرنا في الجزءين الاول والثاني لإخواننا مسلمي الهند حفاوتهم بنا وحسن ضيافتنا ووعدنا بأن نشكر مثل هذه الحفاوة لإخواننا العرب الكرام في مسقط والكويت والعراق، وقضت كثرة المواد التي لا يمكن تأخيرها ان نرجىء الوفاء بهذا الوعد الى هذا الجزء.

سافرت من بمبي صباح الجمعة لتسع خلون من جمادى الاولى للعام الماضي في سفينة انكليزية قاصداً مسقطاً عن طريق كراجي، وكنت حريصاً على السفر في احدى بواخر الشركة العربية التي يديرها في بمبي مؤسسها من أصدقائنا تجار العرب، وكان ذلك يسرهم أيضاً، وقد تحدثنا به مع مدير الشركة الهمام الشيخ محمد المشاري في قصر الزعيم الكبير صديقي ومضيفي الشيخ قاسم ابراهيم فعلمنا ان انتظار مواعيدها يضع عليّ أياماً كثيرة. وقد انتقلنا في ميناء كراجي الى سفينة انكليزية أخرى حملتنا الى مسقط فوصلنا اليها ضحوة يوم الاثنين (١٢ ج ٢٩ ابريل) وعندما رست كان قد وصل اليها زورق بخاري من السلطان الكريم السيد فيصل ملك عمان يحمل بعض رجاله لاستقبالي وكان كلّف من يعتمد عليه في بمبي ان يخبره عن سفري منها ببرقية يعرف بها موعد وصولي فصعدوا ومعهم صديقي الفاضل السيد يوسف الزواوي أكبر سادات مسقط بعد اسرة السلطان وأكبر تجارها قدراً وجاها وشهرة، فعرف الجماعة بي وبعد السلام نزلنا الى الزورق فحملنا الى رصيف قصر السلطان فصعدنا القصر وبعد السلام والمكث مع السلطان ساعة من الزمان ذهبنا الى دار ضيافته التي أعدّها لنا. وكان صديقنا السيد الزواوي أعد داراً جديدة له على الطراز الحديث لأكون فيها مدة وجودي في مسقط فنفس عليه السلطان ولم يسمح له بذلك.

أقمت في مسقط أسبوعاً كان يختلف إليّ كل يوم وكل ليلة منه وجهاء البلد وأذكياؤه ويلقون عليّ الاسئلة الدينية والفلسفية والادبية والاجتماعية، وزارني السلطان في دار الضيافة أيضاً ومكث معي عدة ساعات، وزرته في مجلس حكمه عدة مرات وكان يلقي عليّ

(*) المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩.

في كل مرة الاسئلة المختلفة، وكان معه في مجلسه أخوه السيد محمد وهو كثير المطالعة في الكتب ولكنه لا يحب البحث في المجالس في كل ما يطّلع عليه من المسائل. وقد عهد السلطان الى كاتبه من أهل السنّة الزبير بن علي ان يتولى أمر العناية بضيافتي وإلى كاتبه الآخر الشيخ ابراهيم بأن يتعاهدني معه أيضاً.

وأدب لي صديقي السيد الزواوي حفلتين إحداهما في داره العامرة في مسقط نفسها دعا اليها علماء ووجهاء البلد والاخرى في دار له بقرية (سداب) وهي على مسافة ميل من مسقط ذهبنا اليها بزورق السلطان في البحر وعدت انا ماشياً مع بعض المدعوين براً لأجل الرياضة ورؤية ثنية الجبل التي يسلك منها الى مسقط المطوقة بالجبل وقد دعا الى هذه المأدبة مع وجهاء القرى المجاورة لها فأجاب الدعوة عشرات منهم وكان الغرض من ذلك ان يسمعوا كلامي وتذكيري بآيات الله، وقد فاض معين السخاء العربي الهاشمي في هذه المأدبة على فقراء القرية الذين اعتادوا ان يعشوا الى ضوء نار السيد الزواوي الذي هو مظهر لقول الشاعر ❖ ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا » فتراه بين مظاهر الكرم والنعيم، لا يغفل عن مراعاة ما يمكن تحصيله من فوائد العلم والدين، بنى لنفسه عدة دور فخمة جميلة في مدخل البلد على البحر وهو موقع غير واسع يشارك هو فيه السلطان وقنصل الانكليز في الملك، ويسكن في دار له فيه قنصل امريكة. وبنى لله مسجداً هو أنظف مساجد البلد وأزهاها، وقد جر اليه الماء بأنابيب الرصاص (المواسير) وجعل له عدة حنفيات، وعلى هذه الطريقة اقترح عليّ يوم المأدبة الاولى وكانت للغداء في يوم الجمعة ان أعظ الناس في مسجده بعد صلاة الجمعة فأجبت، وكان من تأثير الكلام فيهم ان ارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب والنشيج، واقترح عليّ أيضاً ان أتكلم وأذكر من يحضر المأدبة الثانية من الوجهاء والخواص فأجبت. ونجله الكبير الشيخ عبد القادر له ذوق في النظام وميل إلى الصناعة وقد مد من دارهم في سداب الى دارهم في مسقط مسرّة (تلفون) فكانت هي الوحيدة في تلك القرية.

وسافرت من مسقط ضحوة يوم الاثنين لتسع عشرة خلوْن من الشهر ومكثت في مجلس السلطان زهاء ثلاث ساعات من أول نهار السفر وكان يلقي عليّ الاسئلة الكثيرة في العقائد وما يتعلق بها والاحكام الشرعية والاجتماعية والتاريخية وتارة يشير الى رجاله بأن يسألوا وكانوا جميعاً يسرّون من الأجوبة، ثم نزلنا الى البحر فودعني السلطان على رصيف قصره ونزل معي في زورقه البخاري جميع من كان ثم من أنجاله الكرام وهم خمسة أكبرهم السيد نادر، ومعهم بعض كتّابه وحاشيته (ومن سوء حظي ان كان ولي عهده السيد تيمور مسافراً فلم أره) وظل هو واقفاً على الرصيف حتى بَعُدَ الزورق عنه، فودعته الوداع الاخير بالإشارة، ونزل معنا أيضاً صديقنا السيد الزواوي ونجله والسيد علي ابن عم السلطان وصهره وقد سافر معنا قاصداً البصرة، فرأيت منه رفيقاً تقياً نقياً صفياً. وقد مكث معنا أولاد السلطان والزواوي ساعة من الزمن في الباخرة ثم ودعناهم الوداع الاخير وعادوا الى مسقط موشحين بجلابيب شكري الخالص وودّي الدائم إن شاء الله تعالى

(وسنصف مسقط ونتكلم على حالة أهلها الاجتماعية في الرحلة):

جرت السفينة بنا من مسقط ظهر يوم الاثنين وهي إنكليزية تقطع في الساعة ١٢ ميلاً فقط، وفي ضحوة اليوم الثاني خرجت بنا عن محاذاة جبال عُمان ودخلت في الخليج الفارسي فصرنا نرى برّ فارس عن اليمين وبرّ العرب عن اليسار. ووقفت بنا فجر يوم الخميس في موضع من عرض البحر وكان ينتظرنا فيه مركب شراعي كبير ارسله الينا الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت. وكان قد علم بأننا نصل اليه في هذا الوقت في هذه الباخرة مما كتب اليه من بمبي ومسقط، فنزلنا فيه قبل طلوع الشمس فأقلع بنا والريح ليّنة والبحر رهو، ثم قويت الريح قليلاً في النهار فبلغ بنا الكويت قبل غروب الشمس. وكان رجال الشيخ مبارك قد حملوا فيه خروفين كبيرين وكثيراً من الحلوى والمشمش والخيار فأفطرنا وتغدينا فيه (وقد أعجبني جداً طبخ الطاهي الذي كان معهم للخروف بالرز الهندي وهو طاه متفنن وطبخ للعشاء ألواناً متعددة لئلا نتأخر الى الليل فبقيت للبحارة) وقد استقبلنا اولاد الشيخ مبارك وبعض الوجهاء في زورق صغير خارج الميناء.

انزلني الشيخ مبارك في قصره الجديد الذي هو قصر الامارة وتولى مؤانستي ومجالستي في عامة الاوقات نجله الشيخ ناصر رئيس لجنة مدرسة الكويت لأنه هو الذي يشغل عامة أوقاته في مدارسة العلم ومراجعة الكتب حتى صار له مشاركة جيدة في جميع العلوم الاسلامية، وأقمت في الكويت اسبوعاً كنت كل يوم ـ ما عدا يوم البريد ـ ألقي فيه خطاباً وعظياً في أكبر مساجد البلد فيكتظ الجامع بالناس، وكان يحضر مجلسي كل يوم وليلة وجهاء البلد من أهل التقوى وحب العلم يسألون عما يشكل عليهم من أمر دينهم، وأما الشيخ ناصر فكان يسأل عن دقائق العلوم في العقائد والاصول والفقه وغير ذلك، على انه لم يتلق عن الاساتذة فهو من مظاهر الذكاء العربي النادر.

ومما أحب ان أذكره هنا ـ وهو من مباحث الرحلة ـ مسألة علاقة الشيخ مبارك بالدولة العثمانية والانكليز. كنا نسمع المنافقين لرجال الدولة يصفون صاحب الكويت بالخيانة للدولة ويعيبونه بطلب حماية الانكليز له، فسألته عن ذلك فقصّ عليّ قصة سألت عنها بعد ذلك السيد رجبا نقيب البصرة مندوب الحكومة إليه فيها فكان جوابه موافقاً لجواب الشيخ مبارك. ثم ذكرت ما قاله للشيخ فهد بك الهزال شيخ قبائل عنزه في العراق إذ كنت في ضيافته على نهر الفرات مع صديقي مراد بك (أخي محمود شوكت باشا) فصدق ما قاله الشيخ مبارك وزادني فوائد هو أعرف الناس بها.

وملخص ما قاله الشيخ مبارك انه في أواخر مدة عبد الحميد ساقت الدولة بعض العسكر مع عربان ابن الرشيد الى قرب الكويت وأرسل المشير فيضي باشا السيد رجبا النقيب ومعه نجيب بك ابن الوالي الى الكويت فبلّغاه انه قد صدرت إرادة سنية بوجوب خروجه من الكويت الى الآستانة او الى حيث شاء من ولايات الدولة والحكومة تعيّن له راتباً شهرياً يعيش به فإن لم يخرج طائعاً دخل الجند مع عرب ابن الرشيد وأخرجوه

بالقوة. فسألهم ما هو ذنبه الذي استحق به النفي من بلده وعشيرته؟ وذكر نقيب البصرة بما يعرف من إخلاصه للدولة وإعانته لها بالمال عند كل حادثة وبما كان من محاربة سلفه وعشيرته لقبائل المنتفك المالكين للبصرة وإخراجهم منها وجعلها في حكم الدولة كما ملّكهم هو وعشيرته بقوتهم الاحساء وغيرها. وطلب منه ان يعود الى البصرة فيقنع المشير بمراجعة الآستانة. فقال له إنما علينا البلاغ وليس في يدنا غيره، قال فخرجت من عندهما بقصد مشاورة أهلي وكانت حكومة الهند الانكليزية قد علمت بكل ما دبرته الدولة في ذلك وبمجيء عشيرة ابن الرشيد مع العسكر الى جهة الكويت فأرسلت مدرعتين فوقفتا تجاه البلد فلما عدت رأيت اميرالاً انكليزياً قد نزل من إحدى المدرعتين ومعه بعض الجند فسألني عما جرى فأخبرته الخبر فقال ان حكومتنا متفقة مع حكومة الترك على ان تبقى الكويت على حالها، لا يتعرضون ولا نتعرض لها، وإذ قد غدروا وخالفوا فقد صار لنا حق الدخول في أمرها، ولا يمكن ان نسمح لجندي عثماني ان يدخلها، وإذا دخلوا برضاكم دمرناها على رؤوسكم ورؤوسهم، ثم بلغ الاميرال ذلك لنقيب البصرة رسول الحكومة فقفل راجعاً وبلّغ المشير ذلك فأمر المشير بصرف الجنود والعربان. (قال) فما كان من تدخّل الانكليز في أمر الكويت لم يكن بطلب مني بل كان هذا سببه. وقد عرضوا عليّ ان اختار لنفسي راية أرفعها على البلد وأعلن الاستقلال تحت حمايتهم فأبيت ذلك وهذه الراية العثمانية تراها كل يوم مرفوعة فوق رأسي. وقد تعجبوا من قولي لهم انني اختار أن أكون دائماً عثمانياً. قيل لي أتقول هذا بعد ان رأيت منهم ما رأيت؟ قلت ان الوالد إذا قسا في تربية ولده أحياناً لا يخرج بذلك عن كونه والده الذي تجب عليه طاعته!! وسأذكر في الرحلة ما أيّد به نقيب البصرة وشيخ عنزه هذا الكلام. فليعتبر المعتبرون بإخلاص العرب للدولة على سوء معاملتها لهم.

رحلة الحجاز(*)

أحمد الله تعالى ان وفقني في هذا العام لتلبية دعوة أبينا ابراهيم، عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، بأداء فريضة الحج، وإكمال المناسك بالعج والثج[1]، ثم أحمده عوداً على بدء ان وفقني للوفاء لوالدتي بالحج معها. بعد ان حالت دونه الأقدار بالأعذار تارة من قبلي وتارة من قبلها. بل أحمده قبل ذلك كله ان سخّر من سخّر من الدول لإزالة ما أحدثته الحرب الاوربية العامة من موانع السفر بالبحار الى الحجاز، ولتكلف إعداد السفن لحمل الحجاج، بعد ان وفّق الشريف امير مكة للقيام بأمر استقلال العرب في تلك الاقطار، ولمعاهدة تلك الدول المتصرفة في جميع البحار، فسبحان من سخّر من شاء لما شاء بتوفيق أقدار لأقدار، وأظهر حجته على الخلق في كل عصر من الاعصار، من آيات يزداد بها إيمان المؤمنين، ويحق بها القول على الجاحدين. - والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، الاميّ الذى أرسل لتعليم الأميين والكاتبين، العربي المبعوث لتوحيد الامم باللغة والدين، وعلى آله وأصحابه الكرام، الذين أخذوا عنه المناسك وأحيوا شعائر الاسلام.

أما بعد فإن ركوب الألوف من المسلمين لمتون البحار، وجذبهم من أقصى المغرب والمشرق لأداء فريضة الحج في هذا العام، يصح ان يعد من تأييد الله تعالى للاسلام ومن المعجزات الدائمة لخليله ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومصداقاً لحديث «ان الله سيؤيد الاسلام برجال ما هم من أهله» وقد ورد بلفظ آخر صرحوا بصحة سنده. أو ليس خذلانه - جلّت قدرته - لحكومة الاتحاديين الملحدين، بما أقدموا عليه من التنكيل بالعرب وانتهاك حرمات الدين، وتوفيقه - عمت رحمته - لأمير مكة ومن معه من المسلمين، بالخروج على البغاة المارقين، وتسخيره - بهرت حكمته - لدولتي الفرنسيين والبريطانيين الكتابيين، يحمل الحجاج من الغرب والشرق الى البلد الامين، أليس هذا كله أقداراً تتابعت، وأسراراً تشايعت، فانجلت عن استجابته سبحانه وتعالى لدعوة ابراهيم خليله، وإحياء

(*) المنار ج ١٩ (١٩١٦ - ١٩١٧) ص ٣٠٧ - ٣١٠.

(١) ومنه الحديث الشريف، أفضل الحج العج والثج. والمراد بالعج رفع الصوت في التلبية وبالثج سيلان دماء الهدى.

شريعة محمد عبده ورسوله، بعدما كاد يظن ان أسباب الحرب الظاهرة، حالت دون تلك الدعوة الطاهرة، **﴿١٤: ٢٩ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾** بلى وانها لتؤيد ما روي عن ابن عباس، من تلبية الناس لتلك الدعوة في عالم الارواح، إذا قام عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من بناء البيت العتيق، ممتثلاً قول الله له **﴿٢٢: ٢٥ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ٢٦ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ٢٧ ثم ليقضوا ثفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾** (*) فقد روي عنه ما معناه ان الله تعالى أمره بأن ينادي بذلك وقال له عليك النداء وعليَّ البلاغ. وانه قام في مقامه (المعروف الآن بمقام ابراهيم) وقيل في الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبي قبيس فنادى يا أيها الناس ان الله قد اتخذ بيتاً فحجّوه. فأجابه كل من كتب الله له الحج الى يوم القيامة قائلين ﴿لبيك اللهم لبيك﴾ فإن لم تكن الإجابة حقيقة في عالم الارواح، ولا عبارة عن الإجابة بالقوة ولسان الاستعداد، فهي تمثيل لما تظهره مجاري الاقدار، من وراء حجب الاستقبال، فتشاهده الاجيال في كل حول من الاحوال.

لقد كان النزوع الى حج بيت الله الحرام، هوى ساكناً في القلب يحركه الموسم في كل عام، وتحول موانع الاقدار دون جذبه البدن الى تلك المشاعر العظام، وأهمها ما كان أولاً من عدم الأمن على النفس من ظلم الحكومة الحميدية، ثم ما هو شر منه وأنكى من إلحاد الحكومة الاتحادية، ومنها ما كان في بعض السنين من عدم استطاعة السبيل، او عجز السيدة الوالدة عن الرحيل.

فلما دعت الحكومة المصرية المسلمين في هذا العام الى الحج بألسنة الصحف المنتشرة، والتزمت حمل من يحج الى جدّة ذهاباً وإياباً بأجرة قليلة، تاركة ما كانت تتقاضاه من كل مريد للحج من التأمين المالي، وعلمنا ان هذه الدعوة مبنية على تأمين الشريف أمير مكة للبلاد، وإزالته كل ما كان هنالك من أسباب العبث والفساد، ـ لاقت هذه الدعوة في أنفسنا أتم الاستعداد والاستطاعة، وانتفاء جميع الموانع دون هذه الطاعة، بل تأكدت داعية الفريضة، بما يرجى في اثناء ادائها من واجب النصيحة، التي تقتضي الحال الحاضرة اداءها لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فقد علمنا ان طريق الحج، قد مهد لمسلمي الشرق والغرب، الذين حالت بيننا وبينهم من الطاق ولا من الباب، ولا للتناصح بخطاب ولا كتاب، ونحن الآن أحوج ما كنا الى التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والتعاون على ما يجب من التقوى والبرّ، فهل نتوانى في أداء هذه الواجبات، وقد

(*) التأذين والأذان بالشيء النداء للاعلام به. والرجال جمع راجل وهم المشاة. والمعنى يأتوك مشاة وركبانا على كل ضامر من الابل وغيرها وهو المهزول من طول السفر، ويأتين صفة لكل ضامر. والفج الطريق والمسلك المنفرج بين الجبال ونحوها، والعميق البعيد الغور او المدي، والايام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق بعده، وكذا يوم عرفة في قول، والامر بالأكل من لحوم ذبائح الهدي التي تذبح بمنى في تلك الايام. ومثلها الاضاحي في سائر البقاع. للندب عند الجمهور وللوجوب عند طائفة. والتفث المناسك، او التحلل من الاحرام الذي يزال به الوسخ بالحلق والطيب اذ أصل التفث الوسخ. والمراد بالطواف هنا طواف الافاضة الذي تتم به اركان الحج فيتم التحلل منه.

أبيحت لنا في أشرف الامكنة وأفضل الاوقات، إذ نؤدي المناسك في بيت الله ومشاعره العظام مني والمزدلفة[1] وعرفات؟

نعم ان حكومة هذه البلاد آذنتنا بإباحة الحج في هذا العام، فذكّرتنا بإيذانها به أذان أبينا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، فلبى القلب داعي الله قبل تلبية اللسان وسعي الاقدام،: ﴿لبيك اللهم لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك﴾ فلم نكن ممن يثنيهم عن هذه التلبية إرجاف المرجفين، ولا خرص الخرّاصين، ولا إفك المذاعين، الذين أذاعوا في طول البلاد وعرضها ان من يقصدون الحج في هذا الأوان، يلقون بأيديهم الى التهلكة بما أعد لهم من مدافع الترك وطيارات الالمان، ولا قولهم إن صاحب المنار مرسل مع وفد العلماء الذين أرسلهم سلطان مصر لمبايعة شريف مكة بالخلافة، ولا قول بعضهم إنه هو الذي يريد ذلك دون العلماء ولا قول بعضهم بالعكس، فالفرائض والواجبات لا تترك لتقوّل غوغاء الناس، ولا لأوهام العوام ولا الخواص، وحسبي ان أعلم انني أحج لوجه الله تعالى منفقاً من مالي الذي أعتقد حلّه وقد ادخرته لذلك في هميان منذ سنين، وانني ابتغي زيادة الأجر عند الله تعالى بصحبة والدتي وخدمتها في هذا السبيل، وإنما أبغيه من الازدياد من العلم النافع والاختبار والاستفادة من أهل العلم والبصيرة، وبما أنويه من النصيحة لكل من أرى الفائدة في نصحه ومن اخواني المسلمين في تلك البقاع الطاهرة الشريفة، بما أرى فيه الخير والمصلحة لأمتي في أمري دينها ودنياها، لا أحابي في ذلك شريفاً ولا أميراً، ولا أغش فيه سوقة ولا فقيراً، وإنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى. كما قال الصادق المصدوق ﷺ.

على ان حبل الكذب ـ كما تقول العامة ـ قصير، ولا سيما إذا كان في شيء كالحج موعده قريب، فسفر الحج في هذا العام كان أقل من خمسة اسابيع، فما أسرع ما ظهر كذب تلك الاقاويل.

لم يبق أحد في مصر الا وقد علم ان حجاج بلاده قد دخلوا المسجد الحرام بمشيئة الله تعالى آمنين، وأدوا مناسكهم وقضوا تفثهم[2] محلقين رؤوسهم ومقصّرين، وعادوا الى أوطانهم سالمين مغبوطين، وان الشريف لم يدع أحداً من الحجاج الى مبايعته، ولا يزال الخطباء يدعون للسلطان العثماني في بلاده، وان صاحب المنار لم يكن بينه وبين وفد العلماء السلطاني خلاف في أمر المبايعة المخترعة بمصر ولا في غيره وانه عاد مع والدته الى أهله وولده وموطن عمله كسائر الحاج، إذ لم يذهب مدعواً الى منصب قاضي القضاة ولا مشيخة الإسلام، وها هوذا يقص خبر رحلته، على جميع من يطلع على مجلته، بما يعهد قراؤها من صدقه وصراحته، إذ كان ـ ولا يزال ـ يشرح ما طرأ من الفساد على الرؤساء والحكام، وما سرى من الضلال والخرافات الى العوام، غير مبال بسخط الخاصة، ولا مهتم باستمالة العامة، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل).

---

(١) موضع بين عرفات ومنى.

(٢) تفثهم أي مناسكهم.

رحلة الحجاز(*)

(٢)

ضربت وزارة الداخلية يوم السبت الخامس والعشرين من شهر صفر[1] (الموافق لأول الميزان ٢٣ سبتمبر) موعداً لسفر ركب المحمل المصري من القاهرة الى السويس وآذنت مريدي الحج بأن يكونوا قبل ذلك اليوم في السويس ليأخذوا فيها أهبتهم ويتبوّأوا أمكنتهم من الباخرتين اللتين أعدّتها لحملهم الى جدة. وبينما أنا منهمك في الاستعداد للسفر بشراء ما ينبغي شراؤه، وترتيب ما تقرر حمله، وإعداد ما تحتاج الدار وإدارة المنار، خطر في بالي ان أكتب رسالة في مناسك الحج أبين فيها أحكامه بعبارة سهلة، مأخوذة مما صحّ في السنّة، وأن أطبعها وأحملها معي هدية للحجاج الذين أصحبهم وألقاهم. فشرعت في ذلك وقت الظهر من يوم الاربعاء فكنت أكتب عدة أسطر ثم أترك الكتابة عدة دقائق للاشتغال بشيء ضروري، ثم انني اضطررت الى ترك الكتابة من ظهر يوم الخميس الى ضحوة يوم الجمعة، ثم قضيت أصيل ذلك النهار وغسق الليل خارج المكتب والدار، فتعذر الجمع بين إكمال المناسك والسفر في يوم الجمعة فأكملت كتابتها في هذا اليوم (الجمعة) فكانت أكثر من كراستين وقد ضاق الوقت على طبعهما قبل السفر، إذ تبيّن ان يكون آخر موعد له قبل الظهر بساعة من يوم السبت، فاضطررت بعد جمع حروفهما ليلاً الى اختصار الأولى بالحذف من عدة مواضع منها، وطبعت بعد ان تمت فلم أتمكن من تصحيحها، فلذلك كثرت أغلاطها، وتعذر على المطبعة ان تجهز لنا ضحوة السبت جميع النسخ فاكتفينا بحمل مئات منها.

ركبنا القطار الحديدي مع السيدتين الوالدة والشقيقة قبيل انتهاء الساعة الحادية عشرة من يوم السبت ببضع دقائق، وكان ركب المحمل قد سافر في قطار خاص في أول هذا اليوم، وودّعنا في المحطة الأهل والاخوان، وخاصة من علم بموعد سفرنا من الخلاّن، وقد كنا بلونا لوعة الوداع بتعدد الاسفار، وكان أشجاها وداع الوالدين والأقربين والاصدقاء عند الهجرة الى هذه الديار، ولكنني لم أذق قبل هذا اليوم لوعة توديع الاهل والاولاد لأنني لم أكن في حال سفر من أسفاري السابقة زوجاً ولا والداً.

(*) المنار ج ١٩ (١٩١٦ . ١٩١٧) ص ٤٦٦ . ٤٧٢.

(١) كذا في الاصل!.

(نبذة فلسفية شعرية في الوداع وما فيه تهذيب الطباع)

قرأت قبل سفري الاول كثيراً مما قال الادباء والشعراء في الوداع، وحفظت من أشعارهم ما لا يسهل عليّ ان أتذكره الآن، ولا أحب ان اشغل بالتطويل في هذا الموضوع قراء هذه الرحلة، ولا ان أترك الإلمام به وهو من أهم مسائل علم النفس التي تفيد بصيرة في علم التربية.

إنني عند وداع الوالدين وذوي القربى والاصدقاء في سفر الهجرة الى مصر وجدت في نفسي وفي من ودعت منهم مصداقاً لقول الشاعر:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا	ورأيت كيف نكرّر التوديعا
لرأيت ان من الدموع محدّثاً	وعلمت ان من الحديث دموعا

فقد كان الحديث للدموع وحدها لأن لسان الفم حبس فخرس، ولسان العينين أنطق بالكلام المنسجم، وقد كتبت الى بعضهم بعد الوصول الى مصر عبارة شعرية كنت شعرت بأنها حقيقة وجدتها في نفسي، وهي انني وجدت وجد المودّع ولوعته يساويان وجد جميع من ودعوه وان كثروا، لأن كل واحد منهم فارق محبوباً واحداً وهو قد فارق أحباباً كثيرين يجد في نفسه من الالم لفراق كل منهم مثل ما يجده ذلك الفرد لفراقه أهو الصواب ان لكل نوع من أنواع الوجدان والشعور حداً يختلف باختلاف أمزجة الناس ويتفاوت في الافراد بتفاوت ما يثيره في قلوبهم. ولو أمكن ان يوضع للادراكات النفسية موازين كموازين الحرارة والرطوبة والثقل لعلمنا بها أقصى حد لألم الفراق في نفس العاشق الواله، وفي نفس مثل الزوج والوالدة والوالد، وهو إنما يبلغ حده الاقصى إذا كان الفراق بعيد الشقة، او عرضة للهلاك أو شدة المشقة، كسفر ابن زريق من بغداد الى المغرب في ذلك العصر، فهو لولا الخوف من الفراق الابدي لمن أحب لما قال في وداعه يومئذ قول العاشق الممثل في فؤاده، لا قول الشاعر المصور لما في خياله:

ودعته وبودي لو يودعني	طيب الحياة وأني لا أودّعه
كم قد تشفع بي الا أفارقه	وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث في يوم الرحيل ضحى	وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق	عني بفرقته لكن أرقعه

ذلك بأن وداع الاحباب عند سفر قاصد (قريب)، الى خيره جو في حرم أمن، ليس كالوداع في سفر بعيد يضعف فيه الامل، في ما يثيره من الوجد والألم، بل أقول إن الأنفس تهوى بعض الآلام الخفيفة، وتجد في باطنها لذة خفية، كلذة العاشق المستكنة في هجر محبوبه إياه هجر دلال او هجر ملال، بما فيه وما يتلوه من تهييج عواطف الحب والوجد والاشتياق، الذي يشبه كله الذهن وأتعابه في حل المسائل العلمية العويصة، او إجهاد البدن

في بعض الاعمال الواجبة او الرياضات المستحبة، في ان كلا من ذلك جامع بين الألم واللذة: او بما يترتب عليه من لذة الشكوى والعتاب كما قالت عليه بنت المهدي:

وأعذب أيام الهوى يومك الذي ... تروّع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

وإذا كان لكل شعور ووجدان نفسي غاية وحد فسواء كان السبب الذي بلغ به منتهى حده واحداً او متعدداً، وإذا كان الغلو في حب الولد او العشق او غيره من شأنه ان يترتب عليه بلوغ تلك الغاية وهو قلما يكون الا في حب الآحاد من الاولاد والأحباب فإن الحب المتفرق على المحبوبين المتعددين من جنس واحد كالأولاد او من عدة اجناس لا يكاد يكون الا دون الحد الاقصى - إذا كان ما ذكر كما ذكر وهو ما نراه، فتلك القاعدة الشعرية التي كنت كتبتها لا تصدق بالاطراد، بل الاكثر ان لوعة الفراق المتفرقة على الكثيرين تكون دون اللوعة المقصورة على الافراد.

هذا وان سفرنا الى الحجاز سفر قاصد لأداء فرض لازم في عام يقل فيه عدد الحجاج فتسهل فيه مراعاة الحكومة لصحتهم والبلاد سالمة من الاوبئة فالرجاء قوي بأن نؤدي الفريضة فيه بالسهولة في مدة شهر واحد، ففراق الاهل والصب في مثل هذا السفر ليس من شأن وداعه ان يثير منتهى الأشجان، وينطق الدموع ويخرس اللسان، وناهيك بمن كان مثلي مسافراً مع أشد الناس حباً له - والدته وشقيقته، وكم ودّع الناس بعضهم بعضاً في مثل هذه الحال ضاحكين مسرورين، وكذلك ودعنا الاهل والاصدقاء في محطة مصر ودخلنا القطار، ولما وقفت في النافذة وقدم اليّ محمد شفيع ونعمى لأجل القبلة الاخيرة، اضطربت عاطفة الابوة في جميع اعماق النفس، فاضطرمت لوعة فراقهما في سويداء القلب، ففاضت العينان، واعقل اللسان، وخانتني تلك الإرادة التي كنت أكابر بها الاشجان، والعزيمة التي تعودت ان أملك بها أزمة الوجدان وحتى عند الصدمة الاولى بموت الاخوة والاخوان، وما ذاك الا أن ألم توديع الاولاد مشوب بلذة، لا تستجمع لمقاومته كل قوة الارادة، وألم مثل تلك الصدمة، هو الذي توجه لاحتماله كل العزيمة.

تذكر في هذا المقام ما قاله صديقنا عبد الحميد الرافعي شاعر طرابلس الشام في توديع أولاده عند سفر له الى الآستانة، وهو قوله من قصيدة:

لست أنسى ساعة البين وما ... هي إلاّ فكّ روح من جسد
رمت فيها الصبر لكن لم أطق ... وحبست الدمع لكن لم يكد
وبروحي غرراً قبلتها ... لجبين الحسن منها مستمد
من صغار كالآلي لجلجت ... منهم الألسن والجفن اطرد
بعضهم أبكاه مرأى من بكى ... ليس يدري قط ما اليوم وغد
والذي لاح له معنى النوى ... أطبق الدمع عليه فارتعد

هل سمعتم يا لقومي عاشقاً — أنس الظبي به وهو شرد
ليتني فارقت عيني والحشا — قبلما فارقت أهلاً وولد
أودعوني عندما ودعتهم — حسرة كانت من الموت أشد
كلهم ينشدني قرب اللقا — حاسباً للعود أياماً تعد
والذي لا يعرف النطق غدا — نطقه الإيما بعين او بيد

وما بيني وبين هذا الصديق الا ان سفري خير من سفره، وولدي أصغر من ولده، فقد كان بعض ولده يفهم معنى الفراق والسفر، ونعمى لم تكن أتمت السنة الثالثة وشفيع كان في أول الشهر الخامس عشر، وكان سفره ان الشيخ أبا الهدى الشهير غضب عليه غضبة مضرية، قطعت عليه موارد الرزق بعزله عن أعمال الحكومة، فرحل الى الآستانة يستعطفه ويسترضيه، عسى ان يعود بجاهه الى عمله او عمل يفوقه او يساويه، معلق القلب بين الفوز بالأمل، وبين الخزي والفشل، لا يدري أيعود كما رجا أهله بعد أيام تعد، او بعد شهور او سنين لا تعد، حسب القاعدة المطردة في كل عمل يطلب من حكومة الآستانة، فأين السفر الى تلك العاصمة، لطلب الرزق من اولئك الباخلين المخلفين، من السفر الى مكة المكرمة، لطلب الغفرة والرحمة من أرحم الراحمين؟ لقد كان ذلك الشاعر جديراً بأن لا تعود اليه السكينة، الا بعد ان ينقلب الى أهله بما يرجو من الوظيفة، وأما هذا الكاتب فقد عادت اليه سكينته بعد سير القطار بساعة زمانية، وإنما كان يفكر أحياناً فيما يرجو من الاهتمام بصحة ولديه في غيبته، واستشارة الطبيب حتى عند الحوادث التي لم يكن يستشيره في مثلها، وقد ضعف التفكر في ذلك وفي غيره من أمور الدنيا منذ الاحرام الى التحلل التام منه بأداء المناسك كلها، حتى كأن الإنسان يدخل بمجرد الإحرام في عالم آخر.

والعبرة فيما بيناه من فلسفة الوداع ان نذكّر القارىء بأن ألمه هو أول فوائد السفر المهذبة للنفس ولا سيما نفس الوالد، وقد غفل عنها من حصر ذلك في خمس فوائد. وانني رأيت بعض من آثر العزبة وبعض من حرم للنسل يظنون ان الولد من منغصات العيش في الدنيا، لأن غبطة النفس به، وقرة العين برؤيته، ولذة الأمل بطول عمره وحسن مستقبله، لا توازي آلام وداعه عند السفر، والحذر عليه من الموت أو المرض والضرر. دع همّ الوالد في تربيته وتعليمه في حياته، والخوف من سوء حاله بعد مماته، ولا سيما إذا كان قليل المال، وكثر عليه العيال. وما هذه الظنون، إلا من أوهام الكسالى والمحرومين، إلا ان عدم إقدام فاقد المال او قليله على الزواج، له وجه في هدي الشرع وآراء الناس. وأما ما يدخل في موضوعنا منها وهو لوعة الفراق، وما يتلوها من حرارة الاشتياق، فهو من أعظم فوائد نعمة الاولاد على الوالدين في تهذيب أنفسهم، وتثقيف عواطفهم، وإعلاء هممهم، وتقوية أريحيتهم، وهي على ما فيها من الفوائد، حلوة الطعم في ذوق الوالد، كما يستحلي العشاق تجني الحبيب، ويقولون ضرب الحبيب زبيب، ولو قيل للمشتاق أتحب ان تخمد حرارة هذا الشوق في قلبك فتمسي لا تذكر من تشتاق ولا تحنّ الى لقائه ـ لقال لا.

وفي معناه قول قيس العامري:

وقــالوا لـو تشــاء سلوت عنهــا   فـــقلت لـهم وإني لا أشـــاء

ذلك بأن ما يهيج الوجد مما ذكر يشبه نغمات الالحان، المثيرة للأشجان، والمحركة للأحزان، على شهداء الحق في سبيل الايمان او الاوطان، الحافزة الى الاخذ بثأرهم، والرغبة في اقتفاء آثارهم، وهي مما يرغب فيه الفضلاء، ويحث عليه الحكماء؛ وإن بكاء الفراق، الذي يرجى بعد التلاق، كالبكاء من خشية الله عزّ وجلّ يحسبه من لم يذق طعمه عذاباً وألماً، وما هو إلا نعيم وغبطة، ولذلك قال من ذاق فعرف: أهل الليل في ليلهم، أطيب نفساً من أهل اللهو في لهوهم. وقال بعضهم: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف. ولا تكمل تربية أحد إلا بركوب الصعاب وحمل الآلام والاثقال .

وأبعد تلك الظنون بل الوساوس عن الحقيقة وأوغلها في الوهم ما توسوس به النفس لبعض المحرومين: ان خوف الوالد ان يموت قبل ان يرشد ولده ويستقل نفسه في معيشته، او يكون له مورد واسع من الرزق يعيش به، ينغص عليه غبطته وسروره بوجوده. وقد سمعت مثل هذا ممن يعد نفسه ويعده بعض الناس من علماء الاخلاق، وما هو إلا من أسرى الوساوس والاوهام، فإن تفكر الناس في مستقبل أولادهم من بعدهم او احتمال موتهم من قبلهم، ما كان لينغص عليهم هناءهم وغبطتهم بهم. لا من شذ من غلاة الموسوسين، الذين وصلوا او كادوا ان يصلوا الى درجة المجانين، وكل نعمة يخوّلها هؤلاء تكون عليهم نقمة يحرمون لذة وجودها، ويعذبون بتوهّم فقدها، او احتمال حدوث مصاب بسببها، ومن غلاة هؤلاء المساكين ديك الجن الذي قتل وصيفه ووصيفته لاشتداد شغفه بهما وخوفه ان يموت ويتمتع بهما غيره، ويقرب منه ذلك العاشق المسكين، الذي خلق من ماء الدموع وصلصال الأنين، لا من الماء والطين، فاستوى عنده القرب والبعد، والوصل والصدّ، فهو يبكي من يحب في كل حال، كما وصف نفسه فقال:

فــأبكي ان نـأوا شــوقــاً اليــهـم   وأبكي ان دنوا خـــوف الفـــراق

اننا بعد توديع من ذكرنا ركبنا وحدنا في مخدع من مخادع مركبات الدرجة الاولى من القطار الحديدي ولكننا لما انتقلنا مع سائر الركاب في الإسماعيلية الى القطار الآخر ألفيناه قطاراً رديئاً وقد اكتظ بالجنود البريطانية حتى ان المخادع الخاصة بالنساء المخدّرات لم تكن تخلو منهم، فاضطررت الى وضع السيدتين في مخدع منها رأيت فيه مواضع لي ولهما، واثقاً بأننا لا نرى من هؤلاء الجنود ما نكره، وكذلك كان ولله الحمد، وآداب الجنود الانكليزية الخلص معروفة عند جميع المصريين يندر ان يرى أحد من سكران منهم تعدياً او إساءة فكيف يكون أدبهم في حال الصحو؟ وقد وقف القطار في محطات جديدة كثيرة خاصة بالجنود المعسكرة على جانبي الطريق قريبة من الخط الحديدي او بعيدة عنه، وبسبب ذلك يتأخر القطار قليلاً عن موعده المعتاد.

وصلنا الى السويس قبل المغرب وكان قد سبقنا اليها أمس مع جماهير الحجاج

المصـريين مـحـمـد نجـيب افندي المعـاون في مـديرية الجـيـزة وهـو صـهـرنا على بنت أخي، والشـيـخ خالد النقشبندي، فكانا رفيقين لنا في السفـر في كل حال وترحال، وكل منزل من منازل الحـاج، وقد بتنا تلك الليلة في دار اختارها لنا الرفيـقـان من دور الأهـالي التي يأوي اليـهـا الحـجـاج في هذه الايام، وهم يتـقـاضـون من الاجـرة في كل ليلة فـوق مـا يعـهـد في الفنادق الكبيـرة التي تفوقها خدمة ونظافة، وكذلك اصحاب المركبات في السويس يزيدون أجورها على الحجاج أضعافاً.

وفي ضحوة اليوم التالي ذهبنا الى مكتب الصحة لأجل ما فرضته الحكومـة على كل حج من تلقيح اطبائها إياه بالمصل الواقي من الهيضة الوبائية (الكوليرا).

رحلة الحجاز(*)

(٣)

(باخرتا الحجاج ـ المنصورة والنجيلة)

استأجرت الحكومة للحجاج باخرتي (المنصورة والنجيلة) وهما من أقدم سفن شركة البواخر الخديوية ـ وأما المحمل المصري فقد حمل مع أميره وعسكره على سفينة حربية انكليزية ـ ولما كنا آخر من جاء السويس من الحجاج علمنا من اصدقائنا الموظفين في هذا الشأن ان المنصورة أسرع الباخرتين وانه لم يبق في الدرجة الأولى منها موضع لي وللسيدتين لأن وفد العلماء المرسل الى الحج على نفقة سلطان مصر المعظم قد ركب المنصورة قبل مجيئنا وتسابق اليها الناس وقد يوجد فيها موضع واحد لي، وإن النجيلة تفضل المنصورة بأنها أقل منها نودانًا وإنه يمكن ان نجد في الدرجة الاولى منها بيتاً أو مخدعاً (قمره) خاصاً بنا. فنزلنا فيها مع رفيقنا في يوم الاحد لأربع بقين من ذي القعدة، وقد علمنا بعد سفرها انها أبطأ بواخر الدنيا سيراً قيل لنا انها تقطع ثمانية اميال في الساعة ولعلها لا تتم الستة الا بالجهد، وهي قديمة وسخة ليس فيها ضوء كهربائي ولا أجراس ولا مقاعد للاستراحة الا كراسي المائدة في الدرجة الاولى، ولكن المخدع الذي خصص لنا فيها واسع جداً قلما يوجد في البواخر الكبيرة مثله في سعته وهو معدّ لنوم ستة او سبعة، وفيه عدّة نوافذ. ثم ان ربانها سالم أفندي البدن من أحسن الناس أخلاقاً وعناية بالحجاج، وهو من أقدم المستخدمين بهذه البواخر وقد حج مراراً، وطبيبها مهذب حسن المعاشرة وهو طلياني يتكلم بالعربية والعامية بطلاقة ولهجته فيها سورية، فنشكر لهذين الرئيسين في الباخرة حسن عشرتهما وعنايتهما بنا خاصة وبسائر الحجاج أيضاً، ولا نبخس خدم الباخرة حقهم من الثناء على حسن خدمتهم. ولعل باخرتنا كانت تفضل المنصورة فيما عدا سرعة السير. وقد زارنا في الباخرة قبل سفرها محافظ السويس ثم صار الى المنصورة لزيارة وفد العلماء السلطاني فيها.

(*) المنار ج ١٩ (١٩١٦) ص ٥٦٣ ـ ٥٧٤.

(حجاج باخرتنا النجيلة)

وأنسنا في الباخرة بصحبة كثير من ركاب الدرجتين الاولى والثانية وحمدنا صحبتهم وعشرتهم وأخص بالذكر منهم عالماً من أكبر علماء القطر المصري وأديباً من أفضل ادبائه. أما العالم فهو الاستاذ الشيخ عبد الفتاح الجمل شيخ علماء بور سعيد وقد كنت أسمع له ذكراً حسناً فرأيته فوق ما كنت أسمع علماً وفضلاً وهدياً وأدباً وإنصافاً في المذاكرة واستقلالاً في الفهم، وله مشاركة حسنة في التاريخ والأدب ومعرفة أحوال العصر، ولعله يندر وجود مثله في علماء مصر، وأما الأديب فهو محمد توفيق علي (اليوزباشي) في الجيش المصري، وهو يفضل من نعرف من أدباء مصر وضباطها في الاخلاق الدينية والمحافظة على العبادات، وكثرة النظم في ذم الفواحش والمنكرات. وقد كان معه والدته وهي امرأة تقية زكية الفطرة واتفق ان كان مخدعهما ملاصقاً لمخدعنا فكانت والدتي وشقيقتي تأنسان بإلمامها بهما وصحبتها لهما، وهي أقل منهما دواراً، وأكثر على مشقة البحر اصطباراً، وقد حجّت قبل هذه المرة. وكذلك كنت أنا آنس به. فقد كنا أكثر الرفاق تلازماً قلّما نفترق إلا في وقت النوم، وكان اكثر حديثنا وسمرنا أول الصحبة في الشعر والأدب وأقلّهما في المسائل الدينية والعلمية والشؤون الاجتماعية، إلا إذا حضر المجلس الاستاذ الجمل فإن الحديث يكون بعكس ذلك، كما كان في أواخر العهد بالصحبة.

وقد وزعت بعض نسخ المناسك على حجاج الباخرة قبل ان أقرأها وأصحح أغلاطها وبعضها بعد ذلك، ولما علم الناس انها بغير ثمن كثر الطلب لها حتى من الأميّين فصرت أشترط على من يأخذها من القارئين، ان يقرأها لمن يجاوره من الرفاق الأميّين، وكان انتشارها في المركب سبباً لكثرة اختلاف الحجاج الينا للسؤال عن أحكام النسك ولا سيما واجبات الاحرام.

كان سفرنا من مصر في أول الميزان وقد بدأ هواء الخريف المعتدل يطرد هواء الصيف الحار ويجليه عن أفق مصر، وكأن ما كان يرحل منه عن مصر يذهب الى الحجاز ليحل محل هواء صيفه الذي هو أشد منه حرارة، لذلك كنا كلما أوغلنا في الجنوب نشعر بأن جوّنا يرجع بنا القهقرى الى الصيف فكان عامة من في السفينة لا يكادون يبرحون ظهرها الا الى حاجة غير النوم إذ كان جميع ركاب الدرجة الثالثة ينامون على الظهر وكذلك بعض ركاب الدرجة الثانية، وكان جلّ ركاب الدرجة الثالثة من أدنى طبقات المصريين قد دعهم الى الحج دعا ما كان من عناية الحكومة يبعث حجاج يحجون وحملها الاغنياء على مساعدة الفقراء على الحج بالمال، فوق ما كان من تسهيل سائر الاسباب، فكان أكثرهم يقطعون أوصال الليل باللهو واللعب، والغناء والطرب، ومنه ما يسمونه في اصطلاح أهل الطرق بالذكر، وهو ان يقف جماعة يتثنون ويرقصون ويصيحون بأصوات منكرة: أه أه، أو: هو هو، أو حي حي، على صوت مغن يغنيهم ببعض الاغاني الحديثة او الاشعار القديمة، فيكونون بذلك من الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وأقبح اللهو وأنكره

وأقربه من غضب الله وأبعده عن مرضاته ما جعل ديناً، فهولاء الذين يسمّون أنفسهم ذاكرين لله يظنون انهم خير من الذين يتغنون ببعض الاغاني لأجل التسلي عن فراق الاهل والولد مثلاً، وما ذلك اللهو الذي سموه ذكراً الا معصية، وما هذا اللهو الا ظنوه حراماً او مكروهاً الا مباح، ولهم في ذكرهم هذا شر مكاناً ممن قال فيهم بعض العلماء:

أقـــال الله حين عـــبــــدتموه كلوا أكل البـهـائم وارقـصـوا لي

ولذكرهم هذا دون الذكر مع الغفلة او الغيبة الذي قال فيه الشيخ محي الدين ابن العربي:

بـذكـــــــر الله تـزداد الـذنـوب وتـنطمس الـبـصـائر والقلوب

ومن مظاهر الدين الباطلة في هؤلاء العوام ما كان يمثله رجل منهم شر تمثيل: كنا نسمع كل ليلة صوتاً منكراً أجش ينادي به صاحبه السيد البدوي بألقابه المشهورة في هذه البلاد، ويكثر من ذلك ويلح فيه بعد نوم الناس، متنقلاً على ظهر السفينة من مكان الى مكان، وكثيراً ما كان يقف بالقرب من بعض نوافذ مخدعنا فيزعج السيدتين وينغص عليهما نومهما، ولما تكرر ذلك منه بحثنا عنه فإذا هو بزيّ أهل الطريق المتصنعين الذين يراؤون الناس بلحاهم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم، فتلطفنا في وعظه وإقناعه بترك ذلك الصياح ولكنه أقل منه ولم يتركه البتة.

هذا وإننا لما حاذينا رابغ آذن ربان السفينة الحجاج ببلوغ ميقات الاحرام فطفقوا يحرمون، وإننا نرجىء الكلام على الاحرام الآن لنذكره في هذه الرحلة مع غيره من أعمال المناسك متصلاً بعضها ببعض، ونسترسل في وصف السفر فنقول:

(الوصول الى جدّة)

وصلت المنصورة الى ثغر جدة ضحوة يوم الاربعاء وهو التاسع والعشرون من ذي القعدة ولم يلبث ركابها ان نزلوا منها، وأما باخرتنا النجيلة فوصلت عشاء ليلة الخميس فلم تستطع التقدم الى موقف البواخر من الميناء لكثرة الصخور الخفية هنالك فأرست في مكان بعيد عنه، وإنما دخلت الميناء وأرست فيه ضحوة يوم الخميس فكان تأخر ركابها عن ركاب اختها ٢٤ ساعة، والسفن ترسو على بعد شاسع من البر في ذلك الثغر لرقة الماء وكثرة الصخور، فلما رأت الوالدة والشقيقة ذلك عراهما الغمّ لأن الدوار يشتد عليهما في الزوارق الصغيرة ذات الشرع او المجاذيف ويولمهما طول المسافة فيها، وخافتا ان لا تصلا الى البر الا بحالة لا ترضيهما، ولكننا لم نكد نستعد للنزول الا وكان صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف وكيل سيدنا الشريف الاعظم صاحب الحجاز[1] قد جاء الباخرة في زورق كهربائي او بخاري (لنش) مع جماعة من سراة جدة وكبرائها لأجل استقبالنا، وقد أخبرونا

(١) يعلم القراء ان هذا وقع قبل مبايعة أهل الحجاز للشريف بالملك ونشر الرحلة بعد المبايعة لا يقتضي استعمال لقب الملك فيما يحكى فيها عما كان قبل ذلك.

بعد السلام انهم قد نزلوا أمس للسؤال عنا في باخرة المنصورة، ثم اننا بعد استراحة الزائرين نزلنا وأنزلنا معنا في الزورق ما خف من متاعنا وصغر حجمه وأرسلنا ما بقي في مراكب النقل الشراعية. وكان الرفيقان الشيخ خالد ومحمد نجيب افندي قد نزلا في بعضها.. فسار بنا الزورق كالسهم فوصلنا بغاية الراحة، ونزلنا ضيوفاً مكرمين في دار صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف، وهي دار فسيحة واسعة الحجرات كثيرة النوافذ، تفيض عليها الشمس أشعتها من الشرق والغرب، ويتخلل النسيم حجراتها من كل مهب، فهي في الذروة من دور جدة، وكان الهواء معتدلاً في هذا الثغر لا يشتكى برد منه ولا حر، وقد بلغني الصديق المضيف، تحية سيدنا الشريف، وصدور أمره العالي اليه بالعناية بنا، وكان قد بلغ الديوان الهاشمي العالي موعد وصولنا كما بلغه مندوبه بمصر خبر سفرنا بالبرق ثم بلغ مضيفنا بمكة خبر وصولنا بالمسرة (التلفون) وتكلمت به مع إخواننا محرري جريدة القبلة. وفي صبيحة اليوم التالي ورد على مضيفنا في البريد من المقام الهاشمي الأعلى رقعة شريفة هذا نصها:

نومرو ١٩٥

وكيل شرافة مكة المكرمة وإمارتها بجدة

معتمدنا الأعز

كتابك رقيم ٢٧ الجاري وصل وعلم ما له لا سيما من خصوص السيد رشيد رضا فقد أرسلنا قبله وبتاريخه كان قصدنا نشعرك بالاستعداد لمقابلته بما يقتضي له من الحفاوة وللمعلومية تحرر في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٣٤.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

لم نكد نستقر في الدار إلا وأقبل الزائرون والمهنئون يفدون علينا أفراداً وجماعات وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى فهمي معاون نائب الحضرة الهاشمية في جدة جاء بالإصالة عن نفسه وبالنيابة عن سيادة رئيسه الشريف محسن معتذراً عنه بالاشتغال بشوون المحمل المصري. وقد تذكرنا فتذاكرنا بعد التحية والسلام، في ما كان من تلاقينا أول مرة منذ بضعة أعوام، ذلك انني زرت سورية عقب إعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٧ فأقمت فيها أشهراً ثم عدت الى مصر على سفينة فرنسية من شركة المساجري واتفق ان كان في هذه السفينة مصطفى بك فهمي هذا قاصداً بور سعيد للسفر منها الى الحجاز فرأى اسمي بين ركاب الدرجة الاولى ولم يرني على مائدتها ولا على ظهرها مع الركاب لأنني أصبت بدوار خفيف لزمت لأجله مخدعي ولم يكن معي أحد فيه، فسأل عني فدلّ عليّ فالتقينا وتعارفنا، قال إن سيادة أمير مكة الجديد سيدنا الشريف حسين طلبني لأكون كاتب السر له. وكان موظفاً بولاية حلب في عمل لا أذكره الآن. وإنني لما علمت بوجودك هنا رغبت في لقائك واغتنام الفرصة في الاستفادة من رأيك فيما ينبغي لبلاد الحجاز من

الاصلاح في عهد الدستور فإن أميره الجديد لا بد ان يوجه همّته الى إصلاح عظيم في هذه البلاد المقدسة وأنت أولى من يستشار برأيه في هذا الأمر... فذكرت له ما خطر في بالي في ذلك الوقت القصير من وسائل حفظ الأمن ونشر العلم وإصلاح حال البدو وسكة الحديد الحجازية، وتواعدنا على المكاتبة في كل ما يتجدد من الشؤون بتجدد الاعمال، وقد بدأ بالوفاء بوعده بعد وصوله الى مكة المكرمة بمدة وجيزة فكتب إلي كتاباً ذكر فيه انه عرض ما سمعه مني من الآراء على سيد الجميع فلقي القبول والارتياح، وقد أجبته بما اقتضته الحال، وكان من غرائب عهد الدستور أنني أرسلت اليه كتاباً مسجلاً فيه كلام يتعلق بخدمة الدولة وتمكين سيادتها في البلاد العربية فأعيد إلي هذا الكتاب ولم توصله اليه إدارة البريد التركية ولا يزال عندي وقد وعدته باطلاعه عليه عندما التقينا في جدة لأنه كان في أوراقي ولكن لم يتيسر لي إخراجه في ذلك الوقت.

أقمنا في جدّة من ضحوة يوم الخميس الى أصيل يوم السبت ولم أخرج من الدار في هذه المدة إلا الى صلاة الجمعة في أقرب المساجد اليها، وقد سمعنا خطيب المسجد يدعو السلطان محمد رشاد في خطبته كالعادة. ولم أرد الزيارة لأحد لأن الزائرين كانوا لا يكادون يفارقوننا إلا وقت النوم، وكان جل حديثنا معهم في المسائل الدينية والعلمية، والعبرة الاجتماعية والسياسية، وإنما اختلست منهم ساعات متفرقة كتبت فيها نبذة من التفسير للمنار ومكتوبات أرسلتها الى مصر.

كنت أتمنى لو ملكت وقتاً أرد فيه الزيارة للزبائن الكرام فلما غلبت على الوقت قلت لعلّي أملك بعد العودة من مكة المكرمة ما لا أملكه الآن، ولكن وقت العودة كان أضيق كما يعلم في محله، ولذلك طلبنا من صديقنا ان يكتب الينا أسماءهم لنؤدي لهم الشكر بالكتابة، جزاء ما استحقوه علينا من الزيارة، فكتب الينا زهاء ثلاثين منهم وهم الذين تذكرهم فمن أهل العلم منهم الاساتذة الشيخ محمد حسين ابراهيم والشيخ أحمد الزهرة والشيخ احمد طه رضوان والشيخ اسحق بن حسن العباسي والشيخ محمد سعيد درديرخطيب مسجد عكاش.

ومن رجال الحكومة عدا من ذكرنا مدير الشرطة مساعد اليافي ومدير الصحة الدكتور أمين معلوف وقائد حامية الثغر عبد الرؤوف عبد الهادي ورئيس كتاب الحجر الصحي رشيد باغفار ومحمد راغب الصنعاني من الكتّاب، وحسين ملوخية مأمور نقل البريد، وكل هؤلاء يطلق عليهم لقب الشيخ للتكريم، وقد أعجبني من الدكتور معلوف وعبد الرؤوف ومساعد زيهم العربي فكانوا أبهج في عيني منهم في زيهم الإفرنجي التركي.

ومن كبراء الوجوه والتجار في الثغر الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية والمشايخ زينل علي رضا وعبد الله علي رضا ومحمود زاهد ومصطفى درويش عبد ربه ومحمد بن أحمد الهزاز ومحمد باحفظ الله وعبد الله المحمد الفضل ومحمد عبد الرحمن الفضل.

ومن أصحاب الحرف ووكلاء الاعمال المشايخ حمزة جلال نقيب وكلاء المطوفين وحسين بحيري من المطوفين وبكر وخميس وسليمان عزابه من وكلاء المطوفين ومحمد

سعيد كيال شيخ السماسرة وعبد الرحمن فائق من كتاب شركة البواخر العثمانية.

فنشكر لهؤلاء ولسائر من تفضلوا بزيارتنا (كالشيخ عبد الرؤوف الصبان من طلبة دار العلوم المصرية وقد فاتنا ذكره مع علماء جدة) مودتهم وفضلهم، وقد علموا ما جال دون ما كنا نبغي من زيارتهم، وإن التقصير من الزمن لامنا، والعذر عند كرام الناس مقبول.

(عبرة للمعتبرين ❖ وجناية المفسدين على المصلحين)

أظهر لي صديقي المضيف سروره وارتياحه لرؤيته إياي بثوبي الاحرام (الازار والرداء) وقد أثار عجبي وحزني انه ظن ان من المحتمل ان أترخص بترك لباس الاحرام اعتماداً على الفدية. وقال لي لو رأيتك لابساً ثياب الحل لعزمت عليك ان لا تنزل جدة الا بلباس الاحرام، لئلا يظن بعض الناس انك من قبيل هؤلاء المتهاونين الذين يجيئون هذه البلاد غير محرمين بحج ولا عمرة، وذكر لي شيئاً يسيراً مما علمته بعد ذلك تفصيلاً من حال بعض الشبان الذين جاؤوا الحجاز ودخلوا مكة المكرمة نفسها، وكأنهم لا يعرفون شيئاً من مكانتها، ولاحق بيت الله وشعائره فيها، فدخلوها غير محرمين، ومروا ببيت الله تعالى غير طائفين ولا مصلين، وترددوا بين الصفا والمروة غير ساعين ولا مرملين، فكانوا مضغة في أفواه الحجازيين، ومثالاً مشوهاً لشبان المدنية العصريين، وحجة قاطعة لألسنة الذين يلغطون منهم بتكفير الاتحاديين، لأنهم يساوونهم في ضلالتهم وهدمها لشعائر ملّتهم، ولكنهم يقصّرون عنهم في الغيرة والاخلاص لأمتهم، والتفاني بخدمة دولتهم، وبذل النفس والنفيس في إحياء جنسيتهم.

لقد أحزنني وأمضني وساءني وآسفني ما قاله هذا الصديق الذي اعتقد انه ما أحبني في الله تعالى إلا لأجل اعتصامي بديني وغيرتي عليه، ودعوتي الى إحياء كتابه وسنته. وقلت في نفسي يا سبحان الله! إذا كان مثل هذا المحب الحسن الاعتقاد قد بلغ سوء تأثير بعض اولئك الشبان في نفسه ان تصور ذهنه في مثلي جواز دخول جدة بغير ثياب الاحرام ولو على سبيل الرخصة، والقيام بما يجب بدل ذلك من الفدية، فكيف يكون رأيه واعتقاده في من لا يعرف لأحد منهم حظاً من علم أو عمل، ولا يحفظ لأحد منهم في قلبه بعض ما يحفظ لي من الظن الحسن؟.

وقلت له محاولاً كتمان أسفي ومكابرة امتعاضي: لو كان هذا اللباس (لباس الاحرام) مستحباً لا واجباً لما تركته تهاوناً ولا إيثاراً لما في اللباس المعتاد من الحشمة والزينة او الرفاهة، وأنا أرجو ان أكون من أعلم الناس بفوائده وأحرصهم على إدراكها بالعمل، ولو تركته لما استطعت أنت ولا أحد من الناس ان يقنعني بإتيانه، لأنني لا أتركه - لو تركته - الا لعذر شرعي ملجىء، كأن أعتقد انه يضرّ بصحتي ضرراً يجعل الواجب محظوراً، وأكون بلبسه عاصياً لله تعالى لا طائعاً، وأما نظر الناس فلا أبالي به في أمر الدين، وأعوذ بالله ان أكون من المرائين، بل تعودت - ولله الفضل والمنة - ان لا أتصنع للناس ولا أدهن لهم ولا أتحرى مدحهم ولا أخاف انتقادهم في المصالح الدنيوية والأمور العادية بحيث يحملني

ذلك على ترك شيء أراه حقاً او مصلحة او فعل شيء أراه باطلاً او مفسدة.

وأقول مستطرداً إنه قد عاداني كثير من الناس في هذا الخلق وآذوني لأجله ولم أؤذ أحداً منهم، وأرى انني غير مغبون معهم، وإن هذا الخلق خير لي من مودتهم، ولا سيما من أعرف منهم سوء النية، وفساد الطوية، ولكن يسوؤني انه لا بد ان يوجد في أمثال هؤلاء من هو حسن النية يخدع بالشبهة او يقلّد غيره فيما لا علم له به، وأنه يعسر العثور على هؤلاء والتناصف معهم باقتناع كلامنا بحسن نية الآخر وإخلاصه، ورجوع المخطىء الى رأي المصيب ان ظهر صوابه، وعذره إياه فيما لم يظهر له. ولم أذكر هذا التفصيل كله للصديق وإنما خطر في بالي عند الكتابة ان بيانه مفيد لأن مثله يقع لكل صادق مستمسك بعروة الحق لا يحابي ولا يداهن الناس فيه.

ومن دقائق هذا البحث ان الانسان كثيراً ما تغشه نفسه وتخدعه بتسمية العجب والكبر والإصرار على الهوى اعتصاماً بالحق وصلابة فيه وقلة اكتراث بالمبطلين، فينبغي للمخلص في اعتقاد نفسه ان يمتحن نفسه ويناقشها الحساب في ما يعاب به وينتقد منه، وهذا أمر عسير غير يسير، إذ يقل في الناس من يبلغ من يحب ما ينتقده هو او غيره عليه ويطلعه على عيوب نفسه، كما يقل فيهم من يسلم من غيبة صديقه. وأكثر ما يبلغ الناس من الانتقاد عليهم وانتقاصهم، ما ينقل اليهم عن خصومهم وأعدائهم، وقلّ من ينظر في مثل هذا نظر الروية والإنصاف فيستفيد منه، وإنما تستحوذ على الاكثرين عند سماعة ثوران الغضب وخواطر الدفاع او الانتقام. وأحمد الله تعالى ان وفقني في ريعان الشباب وأوائل العهد بالرشد الى حمل اصدقائي على إرشادي الى عيوبي ومكاشفتي بما يرونه او يسمعونه من الانتقاد عليّ، ولا أزال أسأل عن ذلك من أتوسم فيه النصح وإن كان أصغر مني سناً وأقل تجربة ومعرفة، وإني لأحوج الى نصيحة واحدة أستعين بها على إصلاح نفسي، من سبعين مسألة أستعين بها على إصلاح غيري. وقد توجد هذه النصيحة عند عاميّ يزيد ما عندي من العلم والاختبار على ما عنده منهما سبعين ضعفاً، فيكون أعلم مني بما أنا أحوج اليه مما أفضله به.

وأما ما أكتبه فإنني أطالب الناس بالانتقال على ما يرونه منه خطأ او باطلاً، أطالبهم بذلك كتابة بما أنشره في المنار كل عام، وكل ما يكتب إليّ من ذلك أنشره في المنار على حسب الوعد الذي أعد به عند طلب الانتقاد، فإن تعمدت إغفال شيء - وذلك نادر جداً - فإنما أغفله لتكريم غيري، لا لإخفاء عيبي، ولا أذكر من ذلك الآن إلا رسالة أرسلها إليّ صديق مخلص من أشهر علماء الاقطار هفا فيها هفوات تزري بقدره لو نشرت ونقدت وان تلطف الناقد جهد الطاقة، وبالغ في الأدب حتى بلغ حد الاستطاعة، فرأيت من الوفاء له ان أراجعه فيها، وأستأذنه بنشرها بعد التنبيه لما فيها، فلم يأذن. من أجل هذا أعتقد كما يعتقد جمهور قرّاء المنار ان آية الإخلاص في انتقاد ما ينشر فيه ان يكتب ويرسل اليه، لا ان يقال او ينشر في غيره من الصحف، فإن نشر النقد في المنار نفسه هو الوسيلة لتمحيص الحقيقة عند من اطّلعوا على الكلام المنتقد فيه، وإنما فائدة الانتقاد عند

المخلص فيه بيان الحق والصواب لمن ينتقد عليه باطله او خطأه، ولمن اطلع على ذلك وخشي ان قد يكون قد ضلّ به وهم قرّاء كلامه، وأما انتقاد ذلك في بعض البيوت او الاندية او الصحف التي لا يطّلع أكثر قرائها على ما يدّعي المنتقد انه باطل وضلال فهو إذاعة للباطل ضارة لا يحمل عليها إلا هوى النفس، وذلك من شأن المرائين المفسدين، لا من شأن الصادقين المصلحين.

وقد ذكرني ما قاله الشيخ محمد نصيف في مسألة الاحرام والسبب الحامل له على هذا القولِ ما أنبأني به أخي في الله عز وجل العلامة الشيخ محمد مكي بن عزوز التونسي في الآستانة سنة ١٣٢٨ قال رحمه الله تعالى ما حصاله: كتب إلي أحد إخواني من علماء تونس بعد العلم بتلاقينا هنا: اننا نعرف قيمة السيد محمد رشيد رضا العلمية ومقاصده الإصلاحية من مناره... ولكننا نرى بعض الذين يلهجون بطلب الاصلاح حتى الديني منه لا تنطبق أعمالهم على أفواههم فهم لا يؤدون فرائض الدين ولا يقيمون أركانه فضلاً عما دونها من آدابه وأحكامه، فكيف رأيت صاحب المنار، بعد المعاشرة والاختبار؟ قال فكتبت اليه بعض ما رأيت ومنه ان زيارته الاولى لي في داري كانت بعد العصر فصلى صلاة العصر عندي وكنت قد صليّتها قبل قدومه منفرداً فأعدتها مقتدياً به، فلم أر صلاة أكمل انطباقاً على السنة من صلاته. وزرته مرة مع بعض الإخوان فقدم لنا الشاي ولم يشرب معنا لأنه كان صائماً. الخ...

أليس من آية ضعف الدين، وابتلاء الصادقين بالمنافقين، وغمّة الأمر على المؤمنين، ما دار من المكاتبة بين العالمين التونسيين في الصلاة والصيام، ومن الحديث بيني وبين محمد نصيف في مسألة لباس الاحرام؟ بلى وإنني تذكرت في هذه اللحظة مسألة أخرى من هذا القبيل أذكرها إتماماً للعبرة.

دخلت مرة على الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد في نهار رمضان فرأيت عنده ابراهيم بك المويلحي جالساً يدخن بلفيفة من التبغ (سيكارة) فذكر المنار ومنع الحكومة الحميدية إياه من دخول البلاد العثمانية فجعل المويلحي يرميها بالجهل ويقسم ان المنار خير لها من فيلق من العسكر لما فيه من خدمة الدين الذي لا تنهض الأمة بدونه، وأطنب في مدح الدين وتأثيره في الإصلاح الديني. علم بهذه الواقعة ابراهيم بك الهلباوي فأشار اليها في مقالة أرسلها الى المؤيد من أوربة يذكر فيها بعض عبر السفر، مستطرداً الى العبرة بها على سبيل التشبيه والمثل، قال في وصف رجل - على ما أذكر - كذلك الرجل الذي كان يكلم صاحب المنار في مدح الدين... في شهر رمضان ولفيفة التبغ بيده يدخن بها. - او ما هذا مؤداها ففهم بعض الناس من عبارته ان الذي كان يدخن هو صاحب المنار المخاطب لا المتكلم الذي يخاطبه، وان كان المتبادر من العبارة العكس وهو الذي يجري عليه الكتاب عادة في مثل هذه المسألة، أعني انهم لا يصرحون باسم من ينتقدونه في مقام الاعتبار، فإذا صرح أحدهم بإسم المنتقد عليه او بوصفه بما يعرف به لهوى له وقصد الى ذمّه، لا تؤاتيه الجرائد المعتبرة (كالمؤيد) ولا تنشر ذلك له، فلو أن صاحب المؤيد فهم من

العبارة ما فهمه بعض الناس او خطر في باله انه قد يفهم منها ذلك لتصرّف فيها بما يحول دون هذا الفهم.

بلغني وبلغ صاحب المؤيد رحمه الله ذلك في وقته فلم نحفل به، وقال هو ان هذا الفهم لا يخطر إلا ببال بعض العوام، وهو لا يؤثر أدنى تأثير في سمعة صاحب المنار حتى عند من لا يعرف مكانته من هداية الدين، وإذا كتب شيء لإيضاح الحقيقة ربما كان سبباً للقيل والقال. ثم علمنا أن هذا الفهم قد سبق الى أذهان بعض الناس في نائي الاقطار، جاءتني يوماً برقية من بمباي الثغر الهندي المشهور من محمد باشا عبد الوهاب شيخ دارين احد ثغور نجد الجنوبية يقول فيه انه مسافر الى السويس في باخرة كذا بقصد الحج، فلما كان موعد وصول الباخرة رأيت من المروءة ان أذهب الى السويس للقائه وان لم أكن أعرفه او أعرف عنه شيئاً من قبل، فوافيته فيها وكان معه جمهور من العرب ومسلمي الهند جاء بهم ليحجوا على نفقته. فقدم لنا لفائف التبغ (السكاير) على حسب العادة فاعتذرت، فعرضوا علي النارجيلة (الشيشة) فاعتذرت أيضاً فسألني الباشا عن السبب فقلت انني أكره هذا الدخان وقد حفظني الله تعالى من اعتياد التدخين في الصغر، فلا أتكلفه بعد العلم بضرره في الكبر، فقال إذاً انت لم تدخن في حياتك قط، قلت الامر كما ذكرت، فالتفت الى أصحابه وذكرهم بما دار من الخلاف في عبارة الهلباوي وكيف ظهر ان الصواب ما قاله من نزه صاحب المنار عن ان يكون هو المفطر في رمضان. على ان المسألة مسألة مجاهرة بالفطر، وهي أفحش من الفطر في السر، لما فيها من سوء القدوة، وانتهاك الحرمة.

بعد هذا الاستطراد الطويل أقول ان بعض شباننا الذين أفسدت المدارس التركية او الافرنجية عقائدهم، وشوهت حرّية الكفر والفسق أخلاقهم وآدابهم، ولم يكن لديهم من التجربة والخبر، ولا من حكم العقل وصحة الفكر، ما يفكرون به بين الحجاز وبين الآستانة ومصر، لم يقفوا عند حد ترك الاحرام، قبل دخول البلد الحرام، وترك الطواف والصلاة والصيام، بل تجرّأ أحدهم على التصريح بالاعتراض على القرآن. وتجرأ آخر على الطعن في بعض الخلفاء الراشدين، بل على ما هو أكبر من ذلك من الضلال المبين.

من أجل هذا صار بعض الحجازيين يسيء الظن بجميع أفراد هذه النابتة الجديدة وبعضهم يجعل سيرة هؤلاء الغاوين، حجة حتى على من ظهرت عدالتهم من الوافدين. أما طبيعة الحرم بل طبيعة جزيرة العرب، فلا تطيق الصبر الطويل على إلحاد الملحدين، ولا على توسيد الاعمال الى الفساق المجاهرين، وأما ما عدا الجزيرة من البلاد العربية فستحذو نابتتها حذو الناتبة التركية، وان فيها من يود تقليد جمعية الاتحاد، في السياسة والعصبية والإلحاد، ولكن آمالهم أدنى من آمالهم، ومآلهم شر من مآلهم، فإنهم لا يرجون ان يكون لهم دولة كالدولة العثمانية يغلبون على أمرها، ويعتزون بقوة ما لها وقوة جندها وسيظهر حالهم ومقصدهم، وما يكون من تأثيره في بلادهم وأمتهم.

رحلة الحجاز(*)

(٤)

(السفر الى مكة المكرمة)

في صبيحة يوم السبت سافر ركب المحمل المصري من جدة قبل شروق الشمس وفي ضحوته سافرت الوالدة والشقيقة ومعهما الصديق الكريم الشيخ خالد النقشبندي والصهر الحميم محمد نجيب افندي وقد استأجرنا لهم أربعة جمال بجنيهين إثنان للركوب واثنان لحمل المتاع (العفش) وأرسلت حكومة جدة معهم جنديين عربيين من جنود الشريف الهجانة للخفارة وزودهم صديقنا ومضيفنا الشيخ محمد نصيف بأنفس الزاد الكافي. وتأخرت عنهم لإتمام ما كنت بدأت به من كتابة نبذة من التفسير للمنار لإرسالها مع البريد من جدة مع كتابة ما لا بد من كتابته الى مصر. ثم سافرت بعد صلاة العصر من هذا اليوم على حمار استأجرته بمئة قرش عثماني ولم أكد أظفر به لولا مساعدة الاصدقاء لأن المغاربة والمصريين قد سبقوا الى استئجار جميع حمير البلد أو أكثرها، وسافر معي جنديان من هجانة العرب بأمر الحكومة لأجل التكريم لا الحفظ فإنها واثقة بأمن الطريق، وركب معي الشيخ محمد نصيف والشيخ مساعد اليافي مدير الشرطة في جدة وبعض الاصدقاء مشيعين مودعين ثم عادوا عند غروب الشمس الى جدة وقد زودني الصديق المضيف بالزاد النفيس الكافي كما زوّد الآل والصحب واختار لي شاباً نشيطاً من أهل جدة للخدمة في الطريق وأخذ الحمار في مكة وأدركنا في الطريق أحد الحجاج المصريين على حمار فرافقنا.

العناية بأمر الماء في السفر

ولم أهتم لنفسي إلا بملء إبريقي المعدني الذي يحفظ ما يودع فيه من بارد وحار زمناً طويلاً بقطع الثلج وملء قربة من الماء النقي. ذلك بأني أُعنى بأمر ما لا أعنى بأمر الطعام ولا سيما في السفر، ولا يشق علي فقد شيء من طيبات الدنيا التي اعتدتها إلا الماء البارد النقي. وهذا الإبريق من نوع الروايا او المزاود (أوعية الماء للسفر) الإفرنجية التي يسمّون

(*) المنارج ٢٠ (١٩١٧ - ١٩١٨) ص ١٠٨ - ١٢٦.

واحدها (ترموس) وأكثر هذا النوع عمودي الشكل وهو يحفظ ما يودع فيه من بارد وحار يوماً وليلة بالتقريب، وابريقي الذي ذكرت يخالفها في الشكل والجودة فهو نوع جيد يحفظ الثلج او الجليد عدة أيام لا يذوب منه إلا القليل وقد ملأته بالثلج مرة في طرابلس الشام وسافرت قاصداً مصر فبت في بيروت ليلتين وفي البحر ليلتين بعدها لم أحتج فيها اليه لأنني أعده لشرب الليل والماء المثلوج متيسر في الباخرة عامة النهار وناشئة[1] الليل، وقد اتفق ان كان منزلي (القمرة) من الدرجة الاولى بجانب مستودع الماء المثلوج للباخرة، وفي ضحوة اليوم الخامس نزلنا في محجر الاسكندرية الصحي فتعاهدت الابريق فإذا بالثلج فيه لم يذب إلا بعضه. وقد كان هذا الابريق هدية من سلطان مسقط السابق السيد فيصل رحمه الله تعالى. ولم أرَ هذا النوع إلا عنده أهداه إلي عند سفري في مسقط سنة ١٣٣٠ إذ رأى انني حين كنت في ضيافته لم أسأل عن شيء إلا عن الماء المثلوج. وكان عنده آلة لصنع الثلج ولكنها كانت معطلة في فصل الشتاء وكان وصولي إلي مسقط في أول فصل الربيع والشمس في برج الحمل (شهر ابريل ـ نيسان) فأمر بإصلاح الآلة واستعمالها قبل الموعد المعتاد عندهم لأجلي، ووضع عندي في دار الضيافة إبريقاً من هذا النوع الذي نتكلم عليه ليتيسر وجود الثلج عندي في كل ساعة من الليل والنهار، ولما سافرت وجدت مع متاعي في الباخرة إبريقاً آخر منه جديداً لم يستعمل من قبل، فاستفدت منه في سفري ذاك، وكان أكبر نفعه في السفر من البصرة الى بغداد في شط العرب ودجلة إذ قل الثلج في الباخرة بين العمارة وبغداد ثم نفد، ثم في السفر من بغداد الى حلب، ولا يوجد الثلج بينهما الا في مدنية دير الزور وهي بين العراق وسورية، وكان شأننا في تدبير ماء الشرب في ذلك الطريق ـ الذي قطعناه في ١٨ ليلة في مركبات (عربات) سفرية تسير على ضفاف الفرات لا تبعد عنه في بعض الاحيان إلا قليلاً ـ اننا كنا كلما نزلنا منزلاً في المساء نبادر الى تقطير الماء في قدور من الفخار ثم نبرده بهواء الليل الجاف البارد في أكواز (قلل) الماء البغدادية وفي قلة معدينة مغشاة بقماش يبلل بالماء فيبرد المعدن بضرب الهواء له ويبرد الماء ببرده ـ وهذه القلة أهداها إلي الطبيب النطاسي محمد عبد الولي في مدينة لكهنؤ بالهند ـ وكنت قبل الادلاج في آخر الليل أملأ الابريق المعهود من هذا الماء وترمساً آخر عمودياً من النوع المعروف لكثرته في هذه البلاد كان أهداه إلي صديقي السيد يوسف الزواوي أكبر سروات مسقط بعد بيت السلطان فيها، فكنت أشرب في بكرة النهار من هذا وأدّخر ذاك الى العشي لأنه أحفظ والتغير فيه أبطأ، وقد انكسر العمودي معي في حماه، ولا أسف عليه لأن مثله كثير، إلا انه أثر من صديق، ثم انكسر الاول في مصر فآلمني كسره لطرافته وفائدته ولكونه أثراً من ذلك السلطان الكريم سقى الله لحده، ولكن نجله البر الوفي صديقي السيد نادر قائد الجيش الاول لسلطنة مسقط أهدى إلي إبريقاً آخر عوضاً عنه، وهو الذي كان معي في الحجاز وكان ما حملت فيه من الثلج كافياً لي بين جدة ومكة إلا ان ماء قربة الجلد تغيّر في الطريق لأنها كانت بعيدة العهد بالاستعمال.

---

(١) ناشئة: أول.

وسبب حفظ الترمس لما يودع فيه مدة طويلة هو انه مؤلف من إنائين أحدهما وهو الظاهر معدني وثانيهما زجاجي باطنه كالمرآة وظاهره مغشى بمادة من المواد البطيئة التوصيل للحرارة والبرودة ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلاً عنه ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة صمام (سداد) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الابيض ويكون فوقها غطاؤه المعدني المتصل به، فإذا رفع الصمام قليلاً أمكن صب الماء من بلبل الابريق.

أطلت في مسألة الماء ليستفيد مما كتبت من يعنون بأمر صحتهم ورفاهتهم في السفر. والعناية بأمر الماء محمودة بل ضرورية، فالماء الرديء يكون سبباً لأمراض كثيرة، إذ الماء يحمل من جراثيم الامراض والاوبئة ما لا يحمل غيره. وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد ولا يذمّ طعاماً ولكنه لم يكن يشرب من كل ماء يوجد بل كان يستعذب له الماء من آبار السقيا وهي على مسافة يوم من المدينة او أكثر، وكان أحب الشراب اليه العذب البارد. والماء الذي يوجد بين جدة ومكة في القهاوي - أي الاكواخ التي يأوي اليها المسافرون للاستراحة وشرب القهوة والشاي - كله قذر فلا أصله جيد ولا أوانيه نظيفة، وماء (بحرة) التي ينزل فيها جميع الحجاج للاستراحة رديء غير عذب. ويقال ان بالقرب منها بئراً لا بأس بمائها ولكن لا يسهل إلا على الاقلّين الوصول الى شيء منها. فمن الضروري للمسافر الذي يعنى بصحته ان يحمل ما يكفيه من الماء بين جدة ومكّة في سفره من كل منهما الى الأخرى. وللشقادف[1] قلل من الفخار يربطونها في مؤخرتها فيكون ماؤها مقبولاً ولا سيما في الليل.

القهوات والدكرور في طريق مكّة

نزلنا بعد المغرب في أول قهوة من القهوات التي أشرنا اليها آنفاً فأذنت وصليت المغرب والعشاء جمعاً وقصراً وصلى معي الرفاق وشربت الماء المثلوج وشرب الرفاق القهوة وبعد ان استرحنا قليلاً أعطيت صاحب القهوة عنهم أضعاف المعتاد فدعا لنا، وركبنا حمرنا وركب الجنديان هجانهما وسرينا لا نرى من الحجاج في الطريق إلا سودان الدكرور مشاة على أرجلهن رجالاً ونساء وأطفالاً يحمل الرجال حرابهم والنساء أطفالهن على ظهورهن وما لديهن من المتاع والزاد على رؤوسهن، وكنا نرى بعضهم نياماً على جانبي الطريق، فهم ينامون إذا تعبوا فإذا استيقظوا في أي ساعة في ليل او نهار مشوا لا يخافون اللصوص ولا قطّاع الطريق، وقد قيل لنا انه لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأنه لا يكاد يوجد معه شيء له قيمة ينتفع به اللصوص من الاعراب هنالك فأكثرهم عراة لا يملكون من اللباس ما يزيد على ستر العورة ولباس جميع رجالهم ونسائهم الأبيض وهم مع ذلك يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال بحرابهم السودانية فلا يستهان بهم مع كثرتهم، فإنهم منتشرون طوال الطريق لا تبعد ثلة منهم عن أخرى إلا قليلاً: واللصوص قلما يكونون كثيرين إلا إذا كانوا يقصدون سلب القوافل الكبيرة.

---

(١) الشقدُف: مركب معروف في الحجاز وهو أكبر من الهودج.

أمن الطريق وحادثة اعتداء

وقد كان الطريق في هذا الموسم آمناً مطمئناً لم يبلغنا انه وقع فيه اعتداء على أحد إلا ما حدث بالقرب منا فإننا سمعنا قبل انتهاء الثلث الاول من الليل صوت طلق رصاص استفز الحارسين اللذين معنا فسألتهما ما هذا؟ قالا «قوم» وهم يعنون بكلمة القوم اللصوص وقطّاع الطريق، وأشار علينا بأن نسرع في السير ما استطعنا ونقصد قهوة كنا نرى ضوءها فننزل فيها، وتركانا مسرعين بهجانهما الى الجهة التي سمع منها صوت الرصاص، وطفقنا نحن نلكز حمرنا مسرعين بها الى تلك القهوة فبلغناها بعد جهد وعناء فاسترحنا فيها ساعة وشرب رفيقاي الجندي والمصري الذي الفيناه في الطريق الشاي ورأينا هناك أناساً من الفقراء يطلبون من القهوة طعاماً. ثم جاء الجنديان مع رجل آخر فأخبر ان القوم (قطاع الطريق) الذين سمعنا صوت رصاصهم قد شرّدوا بعيرين للرجل الذي عاد معهما ولرفيق له وكانا عائدين من جدة بعد بيع ما كانا حملاه اليها وان خفراء الطريق ما زالوا يقتفون أثرهم، وقال الرجل انه لم ير هو ورفيقه إلا لصاً واحداً ولكنه مسلح وهما أعزلان.

النزول ببحرة

وبعد استراحة الجنديين وشربهما الشاي أكرمت صاحب القهوة واستأنفنا السري فبلغنا (بحرة) في منتصف الليل تقريباً ورأينا أنوار ركب المحمل المصري بالقرب من الخصاص التي يأوي اليها الحجاج وغيرهم من المسافرين. والخصاص جمع خص وهي البيوت من عيدان الاشجار او القصب او غيره من النبات، وهي هنالك كثيرة تسع الالوف الكثيرة من الناس وعلى جانبي الطريق سوق منها فيه الحوانيت والقهوات وان شئت قلت الخانات او الفنادق لأيواء المسافرين فيجد المسافرون فيها الماء والخبز واللحم والبيض وأنواعاً أخرى من الاغذية وقهوة البن والشاي، والموسرون من المسافرين قلما يحتاجون الى شيء منها لأنهم يحملون زادهم من جدة او مكة لعلمهم بأن ما يوجد هنالك غير نظيف ولا جيد. والخصاص التي وراء هذه السوق التي في الطريق العام عبارة عن دور يتألف كل منها من عدة بيوت يمكن ان يجعل بعضها للنساء وبعضها للرجال ولها مراحيض وراء المساكن. وقد نزلنا في قهوة كبيرة كنا أوصينا بالنزول فيها فاسترحنا فيها ساعتين كاملتين وكنا قد جعنا فأكلنا مما نحمل من لحوم الضأن والدجاج والسمك والخضر والفاكهة وشربت الماء المثلوج وحمدت الله تعالى حمداً كثيراً. وأحببت ان أعرف أين نزل جماعتنا فتعذر عليّ ذلك.

السري من بحرة ومسألة أمن الطريق

ولما أردنا استئناف السري استأذنني الجنديان في البقاء ببحرة لأنهما يريدان العودة صباحاً الى جدة، وجاءني بجنديين عربيين من المشاة فقالا هذان من جنود سيدنا الموكلين بحراسة الطريق وهما يقومان مقامنا، فسرنا ومشيا أمامنا يحمل كل منهما بندقية من الماوزر على كتفه شاداً منطقة من رصاصها المنضود في وسطه وهو حافي القدمين ليس عليه إلا قميص قصير فسألت أحدهما عن أمن الطريق فقال ان الأمن تام ولا خوف

عليكم في الطريق، قلت أرأيت إذا هجم علينا قوم كثيرون فماذا تغني عني أنت وصاحبك؟ قال ان القوم الكثيرين لا يعتدون على الافراد او الجماعة القليلة من المسافرين وإنما يقصدون القوافل الكبيرة التي تحمل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه، والقوم القليلون لا يتجرأون على جنود سيدنا وان كانوا أقلّ منهم، وفي الطريق على طوله مخافر متقاربة يمكن إيصال انباء الاعتداء من بعضها الى بعض بسهولة. وحقاً ما قال فإنّا كنّا بعد مفارقة جدة بقليل نرى تلك المخافر على جانبي الطريق وكثير منها في الروابي والهضاب وهي كثيرة متقاربة، وكان هذان الجنديان كلما أبصرا أحداً في الطريق على مقربة منا أسرعا اليه قبل وصوله الينا وعرفا حاله. وقد رأينا في طريقنا قبل بحرة وبعدها كثيراً من القوافل قاصدة جدة إما من مكة وإما من الطائف وهي التي تحمل الفاكهة كالرمان والعنب والسفرجل، ورأينا أيضاً كثيراً من الافراد والجماعات يقصدون جدة. وفي اثناء الساعة الثانية وصلنا الى قهوة استرحنا فيها قليلاً واستأذنني الجنديان بالتخلف وأوصيا جندياً كان هنالك بأن يصحبني الى مكة، وكانت المسافة قد قربت وعلمت منهما انهما جائعان وليس معهما شيء فأعطيتهما ما تيسر من الدراهم.

ثم أدلجنا وسألت الجندي عن حال الأمن في تلك البقعة فقال ان هذه الارض أرض هزيل الذين انا منهم وهم لا يسرقون ولا يعتدون على أحد وان ماتوا جوعاً بل يعيشون بمواشيهم وإنما اللصوص وقطاع الطريق هم عرب الشمال. وبعد ان أصبحنا وصلنا الى مكان فذكر لي حادثة من الحوادث المثبتة لأمانتهم قال مات في هذا المكان رجل من حجاج المغاربة يظهر انه كان مريضاً فتعب في الطريق فتحوّل عنه الى هذا المكان للاستراحة فمات فيه وكان له ولد منفرد عنه وصل مكة فلم يجد والده فعاد ينشده في الطريق وكان بعض عربنا قد رأوا الميت ووجدوا معه كيساً كبيراً فيه نقود كثيرة فحفظوه ولما رأوا الولد دلوه على والده وأعطوه نقوده وأعانوه على دفنه ولم يأخذوا من الكيس شيئاً ولو شاؤوا لأخذوه كله.

وجملة القول ان العناية بحفظ الأمن في هذا الموسم كانت كبيرة وانني لم أسمع من أحد من الحجاج شكوى اعتداء على نفس ولا مال، ولكن حدثتني الوالدة بعد الوصول الى مكة المكرمة انه عرض لهم في الليل رجل ادّعى انه من الحجاج المصريين من المنصورة وانه فقير لم يجد ما يركبه وكان يحاول ان يركب البعير الذي عليه أسفاطنا وصناديقنا فينهره أحد الجنديين اللذين معهم بالكلام فيتحول قليلاً ثم يعود، ولم ينصرف حتى هدده بالضرب واتهمه بأنه يريد ان يركب البعير ليشرده ويذهب به وانه لا بد ان يكون له رفاق ينتظرونه. ويجوز ان يكون الرجل صادقاً ولكن اساءة الظن في هذا المقام من الفطنة. والفضل الاول في هذا الامن الذي لم يسمع بمثله منذ قرون لشخص الشريف الحسين بن علي[1]. وقد كان السيد الزواوي قال لي منذ بضع سنين انه لم ير أقدر من هذا الامير على حفظ الامن في الحجاز كله وسياسة العرب فيه.

---

(١) نبهنا قبل على أن حوادث الرحلة حدثت قبل المبايعة بالملك فبقي التعبير فيها على ما كان عند وقوعها.

بحث لغوي في الحجر والفهر والصخر

لم أستفد من حديث هذا الاعرابي الجندي ولا من حديث من قبله فائدة لغوية تذكر على اني أكثرت من الكلام مع هذا ما لم أكثر مع الآخرين ورأيته أفصح منهم وذكرت له أبياتاً من الشعر العربي فرأيته لا يفهم جميع مفرداتها، ولكنه امتحنني بالسؤال عن شيء أبيض في الجبل ـ ولون الجبل اسود بل أصهب ـ قلت أي شيء هو؟ قال ما مثل الشاة؟ ـ والغنم هناك أبيض اللون ـ قلت نعم. قال هذا فهر. وأقول إن المشهور في كتب اللغة أن الفهر الحجر الصغير الذي يؤخذ باليد ويدق به الجوز ونحوه، وقال بعضهم الذي يملأ الكف، وذلك الحجر كبير لا يمكن رفعه بيد واحدة ولذلك رجعت الى معاجم اللغة فرأيت في لسان العرب بعد تعريفه بما ذكرت آنفاً «وقيل هو الحجر مطلقا» ومن العجيب انه قد فسر هو والفيروزبادي الحجر بالصخرة، والصخرة بالحجر العظيم الصلب. وهو تساهل او تقصير في تحديد المعاني. والصواب ان الحجر اسم جنس لهذه الاجسام المعروفة يطلق على صغيرها وكبيرها وعلى الصلب الشديد اليبوسة منها وغيره. وقالت العرب: استحجر الطين أي يبس فصار حجراً. والصخر ما عظم من الحجارة واحدته صخرة، والحصى صغار الحجر واحدتها حصاة وجمعها حصيات وحصي. قالهما ابن سيده في المخصص، وهذا ما يفهمه جميع الناطقين بالضاد من معنى الحجر والصخر والحصى. وقول اللسان في الفهر «وقيل الحجر مطلقاً» على ضعفه لا يؤخذ على اطلاقه والذي ظهر لي من قول أهل اللغة ومن كلمة الاعرابي الهذيلي ان أكثر العرب كانت تطلق الفهر على الحجر الذي يؤخذ باليد الواحدة للدق به والكسر او الحذف والرجم، وقليل منهم أطلقه على ما يؤخذ بكلتا اليدين لدق شيء او ضربه، وأكثر العرب تؤنث الفهر، وورد تذكيره في حديث حمالة الحطب فإنها أخذت فهراً وجاءت لتضرب به النبي ﷺ فلم تره فقالت لأبي بكر (رض) ـ وهو معه ـ: لو وجدت صاحبك لشدخت رأسه بهذا الفهر. نقله شارح القاموس بهذا اللفظ عن الروض. قال صاحب الهمزية:

وأعدّت حمالة الحطب الفهـ ... ـر وجاءت كأنها الورقاء
يوم جاءت غضبى تقول في مثـ ... ـلي من أحمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أيـ ... ـن ترى الشمس مقلة عمياء

قهوة سالم

وقد بلغنا قهوة سالم مصبحين وهي في حدود الحرم على مقربة من مكة ـ وكنا قد مررنا ليلاً بالعلمين المنوبين لحدوده ـ فصلينا فيها صلاة الفجر ثم لم أملك نفسي من التعب والنعاس ان اضطجعت فنمت حتى طلعت الشمس. وكنت عازماً على الاغتسال في هذه القهوة لدخول مكة عملاً بالسنة وسألت في جدة وفي الطريق عن مكان يمكنني ان أغتسل فيه فقيل لي قهوة سالم، ولكنني خشيت على نفسي المرض من الاغتسال وقتئذ

بالماء البارد مع شدة الاعياء فاكتفيت بالوضوء. ورأيت ان أمشي ميلاً او ميلين لتلين عروق رجليووركي وأعصابهما المتيبسة من طول الركوب الذي طال عليّ عهده ففعلت وضايقني دخول الرمل في نعلي فمشيت حافياً ضاحياً (أي بارزاً للشمس) كسودان الدكرور الذين كنت أراهم أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي منذ خرجت من جدّة الى ان دخلت مكة.

أسرى الترك

ولما قربنا من مكة وظهرت لنا ضواحيها رأينا أسرى الترك الذين أسرهم العرب في الطائف خارجين منها مشاة في الطريق اليسرى مرسلين الى جدة يخفرهم قليل من الجنود العرب، وفي اليوم الثاني من دخولنا مكة رأينا فيها ضباطهم ركوباً على الإبل متلفعين لا ترى إلا أعينهم وأنوفهم وهم مرسلون الى جدة يخفرهم قليل من جنود الاعراب الهجانة وكان قد بلغنا في جدة خبر فتح الشريف الامير عبد الله للطائف بعد ان حاصرها عدة أشهر وتسليم قائد الحامية التركية غالب باشا الذي كان والي الحجاز كله.

وفد الامير لاستقبال العبد الفقير

ولما بلغنا قهوة المعلم وهي آخر قهوة بين جدة ومكة رأيت صديقنا الاستاذ الكبير عبدالله الزواوي مفتي الشافعية بمكة المكرمة مع بعض ولدة وبعض المكيين فأقبل لاستقبالي ونزلت عن دابتي فتعانقنا وتصافحنا وجلسنا للاستراحة وبعد السلام قال لي ان هذا الوقت هو وقت دخول سيدنا الشريف عبد الله نجل سيدنا الامير مكة قادماً من الطائف بعد ان تم فتحها على يديه وقد أعد له احتفال كبير وخرج سيدنا بجميع الشرفاء والوجهاء ورجال الحكومة الى خارج البلد لاستقباله، ولما علم بأن قدومك يتفق في هذا الوقت أوفدني من قبله لأجل استقبالك وأرسل اليك بغلته هذه مع من ترى من حجّاب سيادته لتدخل عليها مكة. وأشار الى بغلة دهماء مشدودة مع حاجبين أبيضي اللون بثياب حمر كالثياب التي يلبسها قواسة وكلاء الدول. ولو جئت قبل هذا الموعد لرأيت من العناية باستقبالك ما يسرّك ولكنت معنا الآن في استقبال صديقك سيدنا الشريف عبدالله، ولدخلت بك مكة من الطريق التي دخل منها سيدنا الرسول ﷺ، فقابلت هذه العناية الهاشمية بالشكر والثناء وخالص الدعاء.

هذا وإنني كنت عازماً عند الوصول الى جدة ان أكتب الى هذا الصديق الوفي أكلّفه ان يستأجر لي ولمن معي داراً ننزل فيها ولكنه كلمني بالمسرة (التلفون) من مكة فقال ان سيدنا الامير أعزه الله قد أمر بإعداد منزل لك مؤلف من دارتين إحداهما للرجال والأخرى للنساء وفيه جميع ما يحتاج اليه من الاثاث والماعون والخدم وهو بقرب الحرم الشريف. وعلمت من هذا الصديق انه كان يتمنى ان ننزل في داره ضيوفاً عليه لو لم يتفضل (سيد الجميع) بتشريفنا بضيافته السنية الهاشمية.

وقد تذكرت الآن - والشيء بالشيء يذكر - ان صديقي السيد يوسف الزواوي كبير تجار مسقط وسرواتها - الذي مر ذكره في هذه الرحلة وهو من آل هذا البيت - كان قد

كتب إلي وأنا في بمباي ثغر الهند الاول سنة ١٣٣٠ يقول انه بلغه انني عازم على زيارة مسقط ويدعوني الى النزول في داره ولم يكن يعلم ان سمو سلطانها السيد فيصل رحمه الله وطيب ثراه قد أمر مندوبه في بمباي بدعوتي الى ضيافته وبأن يخبره عن يوم سفري بالبرق (التلغراف) فلما جئت مسقط ونزل السيد الى الباخرة مع من نزل من ولد السلطان وحاشيته في زورقه الخباري لاستقبالي فيها أخبرني بما كان تمناه واستعد له من حسن الضيافة لولا ان سمو السلطان نفس عليه بذلك وقال له انت تنتظر مثل قدوم فلان على بلدنا وتريد ان تستأثر بضيافته من دوننا؟ ولكن السيد يوسف أحسن الله اليه أدب لي مأدبة عظيمة في مسقط نفسها دعا اليها جميع كبرائها ووجهائها ومأدبة اعظم وأفخم منها في دار له بمزرعة في ضواحي مسقط دعا اليها كبراء مسقط ووجهاء البلاد المجاورة لها حضرها عشرات منهم فقضينا معهم يوماً كاملاً من أطيب ايام الحياة ذكرناهم فيه بآيات الله فألفينا آذاناً صاغية وقلوبا واعية. وكذلك الاستاذ السيد عبدالله حياه الله تعالى فإنه أدب لنا عدة مآدب فخمة، حضر بعضها أهل العلم والوجاهة من حجاج المغاربة، وسيجيء ذكر هؤلاء المغاربة في هذه الرحلة.

(دخول مكة المكرمة والطواف والسعي)

بعد ان استرحنا قليلاً ركبت البغلة التي تفضل بإرسالها إليّ سيدنا الامير، ومشى أمامي حاجباه وركب السيد الزواوي فرسه اللينة السير ونجله السيد عبد الرحمن دابته وسارا الى جانبي، وركب مطوّف بلدنا (طرابلس الشام) الشيخ محمد الحريري ونجله دوابهما وسارا وراءنا، فلما دخلنا مكة ومررنا في أسواقها جعل الناس يقومون على الجانبين تكريماً لمن كرّم أميرهم ومنقذهم من الهلكة، وان كانوا لا يعرفون شخصه ولا صفته، حتى اذا ما بلغ السير بنا بيت الله الحرام، دخلناه ومررنا فيه من باب نبي شيبة[1] حيث دخله سيد الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام، فلما وقعت العين على الكعبة المعظمة، التي كساها الله تعالى حلل المهابة والعظمة، قلت كما كان يقول عمر بن الخطاب عليه الرضوان: اللهم انت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام. وقفيت على ذلك بالدعاء الذي ورد، وان لم يصح به السند،: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه او اعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً.

وطفت طواف القدوم والعمرة سبعة أشواط، وطاف معي مطوفنا رافعاً صوتاً بما يحفظه من الثناء والدعاء. وهو ما اعتاد المطوفون تلقينه للحجاج. وأنا ادعو وأثني بما أعلم وما ألهم. وقد ذكرني المطوّف بماكدت اذهل عنه من الرمل في هذا الطواف، وما يسن فيه من كشف المنكب الذي يكون بالاضطباع، وبعد الطواف صليّت ركعتين وشربت من ماء زمزم، ثم خرجت من باب لصفا لأجل السعي بين الصفا والمروة.

---

(١) هو الآن في صحن الحرم كأنه قوس منصوب ويقابله في جدار الحرم الشرقي بابان يسمى احدهما باب العباس والثاني باب علي وفي وسط هذا الجدار الباب الذي يسمونه باب النبي (ص) يليه في الجانب الشمالي باب السلام الذي يدخل منه أكثر الحجاج.

كنت أحب ان أطوّف بالصفا والمروة ماشياً ولكن السعي بينهما سبع مرات عبارة عن قطع ثلاثة كيلو مترات مشياً وذلك ما كنت أعجز عنه في ذلك الوقت لما عرض لوركي من التعب والالم من الركوب عامة الليل على حمار غير فاره لولا الاشناق[1] له طول الطريق لخرّ بي مراراً، وكم ثنى ركبتيه للركوع، ومنعه جذبي الرسن من السجود فسعيت راكباً على البغلة وهو جائز ورملت بها في موضع الرمل وهو ما بين الميلين (العمودين) الاخضرين الناتئين من جدار الحرم. وقد بينت في المناسك ان جميع مناسك الحج قد شرعها الله تعالى على لسان ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام الا الرمل في الطواف والسعي فإنه من آثار نبينا ﷺ فعله مع الاضطباع وهو عبارة عن كشف المنكب الايمن وإظهاره ليظهر قوة المسلمين للمشركين في عمرة القضاء، إذ كان بلغه انهم قالوا ان محمد وأصحابه لا يستطيعون ان يطوفوا بالبيت من الهزال، وكان بلغه عنهم في الحديبية انهم قالوا في المؤمنين: أوهنتهم حمّى يثرب.

وبعد السعي عدت الى دار السيد الزواوي إجابة لدعوته فمروا بي من طريق آخر وحجّاب الامير أمامي والكثيرون من الناس يقفون في دكاكينهم وفي الطريق من الجانبين فأحييهم بالسلام وبالإشارة حتى إذا ما جئت الدار أعدّ لي ماء للاستحمام فاغتسلت وتغديت مع السيد وولده ونمت وكان الحر قد اشتد فلم أنم إلا قليلاً. وقد سألني متى تحب ان اذهب بك لزيارة سيدنا الاميرِ؟ فقلت له إنني كنت محرماً بالعمرة وقد أديت طوافها وسعيها وسأقصّر شعري وأتحلل منها، ولكن ثيابي مع الوالدة والرفاق فمتى وصلوا ألبس ونذهب، ورغبت اليه في الذهاب الى الدار المعدّة لنا لأجل انتظارهم فيها، ولما جئت الدار وجدتها على الشارع العام بجوار باب الحرم الغربي الكبير المسمى بباب ابراهيم، وقد تأخر وصول الجماعة الى قرب المغرب فلم نتشرف بتلك الزيارة الا ليلاً، وسأذكر لقاء الأمير وشمائله في فصل آخر.

الحالة الروحية عند أداء المناسك وحكم التلبية والطواف والسعي

الحج عبادة روحية جسدية اجتماعية فهو تربية عالية للإنسان منفرداً ومجتمعاً. أي تربية كاملة له، فإن الانسان مركّب من جسد وروح، وقد خلق ليعيش مجتمعاً، وفي الحج تقوية لجسده ولروحه ولروابطه الاجتماعية.

أما كونه رياضة بدنية مقوية للجسد فظاهر في جميع المناسك فالاحرام ضرب من الرياضة والسفر كذلك قد وصفت لك ايها القارىء سفري من جده الى مكة، وعلمت بالإجمال ما قاسيت فيه من المشقة، مع استكمال أسباب الراحة وقرب الشقة. وفي الطواف والسعي رياضة المشي التي يصف الاطباء نفعها ويوصون بها، فدائرة المطاف حول الكعبة المعظمة لا يقل متوسطها عن مئة متر وأقل الطواف سبعة أشواط (مرات) ومن الناس من يطوف في اليوم والليلة أسابيع كثيرة متصلة ومنفصلة، أما انا فلم استطع ان

(١) الإشناق هو شدّ زمام البعير لرفع رأسه.

أزيد على سبعة أسابيع في أمثل الاوقات وأعدلها وهو وقت السحر، لما كنت عليه من ضعف البدن، وكان رفيقي وأخي في الله الشيخ خالد يطوف ضعفي ذلك او يزيد. وإذا كان أقل الطواف وهو اسبوع عبارة عن مشي ثلاثة ارباع الكيلو متر فإن السعي بين الصفا والمروة سبع مرات يقرب من مشي ٣ كيلو مترات.

وأما كونه مقوياً للروابط الاجتماعية فلما فيه من التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة في افضل بقاع الارض وفي أحسن الاحوال التي يكون عليها الانسان في هذه الحياة وهي التجرد من شواغل الدنيا والتوبة الى الله تعالى من جميع المعاصي والآثام.

وأما كونه عبادة روحية مهذبة للنفس بتقوية شعور الايمان فهو المقصود بالذات الذي يجب ان يتحرى وينوى ويلاحظ عند كل عمل من أعمال المناسك، وهاك خلاصة وجيزة من العلم والاختبار في ذلك.

الحالة الروحية في طريق مكّة وتأثير التلبية

كنت قبل عودة المشيّعين لي من جدّة ألبّي في السرّ قليلاً، وأتكلم معهم كثيراً، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه، وأقبل الليل بوحشته وظلمائه، هدأت المشاعر، وقرّت النواظر، وخشعت السرائر، وتزاحمت الخواطر، فكان الغالب منها على الفكر والقلب، ما يثيره تأثير الزمان والمكان وزيّ الاحرام في النفس؛ فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام، وأما المكان فهو الطريق الى بيت الله الحرام، وأما زي الاحرام فهو الذي كان يتزيّا به ابراهيم خليل الله، واسماعيل ذبيح الله، ومحمد خاتم رسل الله، وغيرهم من رسل الله الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وكل من حجّ البيت أو اعتمر، من اصحابهم وأتباعهم هداة البشر، فيا لها من ذكرى لذي اللب، يخشع لها القلب، ويرجى بها رضوان الرب، بما تثمره من قوة الايمان، وطهارة الوجدان، وخلوص السر والإعلان، ولو لم يقترن بها ذكر لسان، ولا عمل اركان، فكيف اذا صحبها تكرار التلبية، التي تزيد حرارتها تذكية؛ وإخلاصها تزكية: لبيك اللهم لك لبيّك، لا شريك لك لبيّك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

تأملت نفسي في تلك الليلة الليلاء، والطريق الجرداء، فرأيتني حاسراً حافياً في إزار ورداء، غير مبال بما يكون من تأثير الهواء، وهي حال لم أعهدها في سالف الأيام، إلا بين جدر الحمام، وقد كان الهواء عند خروجنا من جدة حاراً رطباً، وكانت الدابة وهي في أول السير تنهب الارض نهباً، وهذه ثلاثة أسباب، يتفصّد بها العرق من الاهاب، ثم كنا كلما أوغلنا في السري وتغلغلنا في البيداء، نشعر بجفاف الجو وبرد الهواء، حتى اضطررت الى اخراج سجادة صلاة كانت تحتي، فوضعتها على عاتقي فلم تغن عني، فأخرجت العباءة فتلفعت بها، جاعلاً لأجل الاحرام أعلاها أسفلها، ولم اخف من أذى يصيبني من برد الليل ولا ضرر، ولم يعرض لي سأم من طول السري ولا ضجر، فإن مسّني طائف من شيطان الوسوسة، ذكرت الله تعالى فطردته بالتلبية: لبيك اللهم لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وياللّه ما أحلى التلبية في تلك الفلوات، وما أعظم الانس بها في حنادس الظلمات، اذا خشعت بها الاصوات، واستمطرت بها العبرات، ومن دقائق حكم الشرع استحبابه رفع الصوت بها للرجال، وتجديدها بتجدد المناظر واختلاف الاحوال، فرفع الصوت بها ينفي الوسواس، وإذا كان في الليل يطرد النعاس، وهو اجلب للخشوع، واذرف للدموع، واستئنافها عند اختلاف الاحوال وتجدد المناظر، أدعى الى دوام الذكر وعدم تفرق الخواطر، فكنت كلما علونا نجداً، او هبطنا غوراً، او نزلنا مكاناً، او استأنفنا سرانا، او لقينا مشاة او ركباناً، جارت الى اللّه تعالى: لبيك اللهم لبيك لبيك، ولا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

تأثير رؤية الكعبة والطواف بها

تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيماناً وتوحيداً، وتجرده من الحظوظ والاهواء تجريداً، وتعدّه لزيارة بيت اللّه والطواف، وهو في أحسن حال وأتمّ استعداد، حتى اذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة، وراع القلب ما جلّلها من المهابة والعظمة، تذكر انها أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين، وخصّه اللّه بالآيات البينات الباقية على بقايا الايام والسنين، ورأى أمامها مقام ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام، ووجد نفسه حيث كان بدء دين اللّه الإسلام وحيث الختام، فإذا دنا من مهبط الروح الامين، ومطاف الملائكة والنبيين، والصديقين والشهداء والصالحين ـ فلا تسل ثم عن الدموع كيف تنسكب، وعن الضلوع كيف تضطرب، وعن الاعناق كيف تخضع، وعن القلوب كيف تخشع، ولا عن وجدان الايمان، كيف يتألق نوره في الجنان، ويفيض بيانه على اللسان، فيحركه بما يلهم من الثناء، وما يشعر بالحاجة اليه من الدعاء، وما يذكره او يذكر به من المأثور، من مرفوع او موقوف، لا تسل أيها القارىء عن شيء من ذلك، ولا عن غيره مما يكون عند اداء المناسك فمن ذاق عرف، ومن حرم انحرف.

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس، طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس، فتأتي الركن الاسود، حيث العظمة والسؤدد، فتقول: بسم اللّه، اللّه اكبر، فيصغر في قلبك كل شؤون البشر، ثم تبدأ الطواف، مع النية والاخلاص، بلمس الحجر وتقبيله ان قدرت، وبالإشارة اليه ان انت عجزت، ولا بأس بأن تتذكر ما روي من انه رمز الى يمين اللّه التي لا تشبه الايمان، وان استلامه وتقبيله في معنى تحية رب البيت ومبايعته على الايمان والإسلام والإحسان، ومن انه يشهد لمستلمه يوم القيامة كما تشهد الاعضاء ـ وبأن تقول بلسانك او قلبك، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من قبلك: انني أعلم انك لا تضر ولا تنفع، ولولا ان رسول اللّه ﷺ قبّلك[1] لما قبّلتك، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية، ولا لمنفعة فيك مرجوة او مضرة مخشية، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ او عندك يختتم، في

(١) عبارة عمر: «ولولا اني رأيت رسول الله (ص) يقبلك» الخ. رواه الجماعة كلهم.

معنى عبادة الوثن وتعظيم الصنم، وإنما هو خضوع لأمر الله، واقتداء برسل الله، وتعظيم لما عظم الله، وأنس بالقرب مما نسب الى الله،يكمل به توحيد الله، وتنمي به محبة الله، فمن شأن المحبين الأنس بكل ما ينسب الى المحبوب، ولا سيما اذا تعذر اللقاء وعز الوصول، وكم نظموا من الاشعار، في الوقوف بالأطلال والطواف بالآثار:

أمــــر على الديار ديار ليلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

ومـا حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

ولما كان الرب العلي العظيم، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، ولا يراه عباده في هذه الدار، كان من رحمته بالمؤمنين المحبين، ان وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين، ونسبه اليه، ليكون تعظيمه تعظيماً له.

فإذا مضيت في الطواف يميناً مصاحباً لهذه الذكرى، جاعلاً البيت من الجهة اليسرى. فاشغله بالثناء على الله والدعاء لنفسك. ولآلك وصحبك، ولأمتك وأولي أمرك، فإذا بلغت الركن اليماني، وهو الجنوبي الغربي، فاستلمه ان سهل عليك فإنه على قواعد ابراهيم، التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم، ومتى انتهيت الى مقابله وهو الركن الاسود، فقد أتممت من طوافك الشوط الاول، وبقية الاشواط مثله في الشروط والآداب، كالخشوع والتذكر وترك غير الضروري من الكلام، وعدم التهافت على استلام الركن والحجر عند الزحام، فإذا أتممت السبعة الاشواط، فاختم دعاءك بين الركعتين بقوله تعالى ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ ثم صلِّ ركعتين سنّة الطواف، والأفضل ان تصليهما وراء المقام.

تأثير السعي وحكمته

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة، وليس له نفل فلا يفعل في كل منهما أكثر من مرة، ويجب ان يكون بعد الطواف، ولا يشترط فيه شروط الصلاة. فإذا جئت الصفا، فاقرأ كما قرأ الرسول **﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله﴾** وقل كما قال «نبدأ بما بدأ الله» ثم اصعد درجة او اكثر واستقبل البيت الحرام، فإذا رأيته فقل كما كان يقول عليه الصلاة والسلام: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلاّ الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده!» وادع الله تعالى مكرراً ذلك ثلاث مرات.

وتذكر عند السعي انه ذكرى سعي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان، أم أبينا اسماعيل عليه الصلاة والسلام، وعلى أبيه، وصفوة بنيه. ويا لها من ذكرى لمجد العرب الكرام، ومعجزات الاسلام، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الملة، وعنايته بهذه الأمة، حفظتها العرب بالعمل المتواتر، وكم حفظت ما هو دونها من المأثر. وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة، يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات، ولكنهم مزجوا مناسك الحنيفية، بخرافات الوثنية، فإن كانوا قد وضعوا صنمين على الصفا والمروة، فقد وضعوا ٣٦٠ صنماً على

الكعبة، ثم طهر الله تعالى هذه البقاع بالاسلام، وأعادها الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما وآلهما الصلاة والسلام، روى البخاري وغيره من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان بين ابراهيم وبني أهله ما كان[1] خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شَنَّة[2] فيها ماء، فجعلت أم اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة - زاد في الرواية الاخرى فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ولا بها ماء ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء - ثم رجع ابراهيم الى اهله فاتبعته ام اسمعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا ابراهيم الى من تتركنا؟ قال الى الله، قالت رضيت بالله - وفي الرواية الاخرى انها قالت اذاً لا يضيعنا، وفيها انه لما كان عند التثنية أي ثنية كداء حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال **﴿ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾** قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنّة ويدرّ لبناً على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعليّ أحس أحداً - زاد في الرواية الأخرى حتى اذا نفد ما في السقاء (أي الشَنّة) عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر اليه يتلوى او قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه - (قال) فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحداً فلم تحس أحداً، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطاً ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل تعني الصبي فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ[3] للموت فلم تقرّها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحداً حتى أتمت سبعاً - زاد في الرواية الأخرى قال ابن عباس قال النبيﷺ (فذلك سعي الناس بينهما) ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هي بصوت فقالت أغث ان كان عندك خير فإذا جبريل - وفي الرواية الاخرى فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند زمزم - قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الارض قال فانبثق الماء فدهشت ام اسمعيل[4] فجعلت تحفر (قال) فقال أبو القاسم ﷺ (لو تركته كان الماء ظاهراً) - ولفظ الرواية الاخرى (يرحم الله أم اسمعيل لو تركت او قال لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً) أي جارياً على وجه الارض - (قال) فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير

---

(١) أهله امرأته سارة غارت من هاجر لما ولدت وحملته على طردها مع طفلها اسماعيل. وفي الفصل ٢١ من سفر التكوين (التوراة) ان ابراهيم استاء من كلامها فأمر الله تعالى باخراجهما ووعده بأن يجعل اسماعيل ابنه أمة، وفيه انه زود هاجر بخبز وقربة ماء وأعطاها ابنها فتاهت في برية بئر سبع وانه لما نفد ماؤها وتوهمت ان يموت ولدها، ناداها ملاك الرب وأراها الماء ووعدها بجعل ابنها أمة عظيمة. وان الله كان مع الغلام وإن سكن برية فاران. أقول فاران من أسماء مكة كما في معجم البلدان وما يخالف هذه الرواية مما هنالك نعده تحريفاً. وقالوا ان ابراهيم جاء مكة على البراق.

(٢) بفتح الشين والنون المشددة القربة اليابسة.

(٣) بوزن يفتح معناه يشهق من صدره.

(٤) قوله فقال يعقبه هكذا أي فعل. وقوله ودهشت بفتح الهاء والدال ولأبي ذرّ بكسر الهاء.

ـ وفي الرواية الاخرى: فرأوا طائراً عائفاً أي يحوّم على الماء ـ كأنهم أنكروا ذاك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل اتأذنين لنا ان نكون معك او نسكن معك ـ وزاد في الرواية الأخرى فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا نعم ثم قال مصرحاً بالرفع «فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم». اهـ المراد منه ويليه ذكر عودة ابراهيم الى مكة لتفقد تركته أي ما تركه فيها وخبر بنائه البيت. وجرهم كقنفذ هو ابن قحطان ولكن رجح الحافظ ان قحطان نفسه من ذرية اسمعيل.

فهذا حديث صرح فيه ابن عباس بما يدل على رفعه كله وان لم يسنده الى النبي ﷺ في أوله، وفيه نص صريح في بيان حكمة جعل الصفا والمروة من شعائر الله التي يحيا شعور الايمان بها، ووجوب التطوف بهما والسعي بينهما. فإنه تمثيل يذكر بتلك الواقعة التي هي من أكبر آيات الله ومظاهر قدرته، وعنايته بتلك السيدة العظيمة القوية الايمان به والاتكال عليه والثقة به، وبولدها الذي أراد سبحانه ان يباركه ويجعله أمة عظيمة، كما هو منصوص في سفر التكوين من أسفار التوارة القديمة، وأي شيء أجدر بأن نتذكره هنالك ونمثله كما وقع لأجل الاعتبار به، واحياء شعور الايمان بتصوره، من رضاء أم مرضع بأن تقيم مع طفلها منفردين بعيدين عن العمران، في واد غير ذي زرع ولا ماء، لأن الله تعالى قد أمر بذلك أبا ولدها الذي لقنها الايمان، ورأت ما أيده الله به من الآيات البينات، وكيف نصره وحده على قومه المشركين الظالمين الاقوياء؟.

أليس تمثيل حال تلك الام جائعة ظامئة، والهة حائرة، تشاهد طفلها يتلوّى ويتمرغ من شدة الجوع والظمأ، ويضرب بنفسه الارض كالمصاب بالصرع، وينشغ اي يشهق من صدره للموت في ذلك القفر، فيسوقها ذلك الالم الى الفرار من رؤيته بتلك الحال، والسعي بين ذينك الجبلين القريبين من ذلك المكان، تصعد هذا مرة وتلك أخرى، ضارعة الى الله راجية ان تجد من عنده غوثا، حتى اذا ما انتهت من الشوط السابع ارسل الله تعالى روحه الامين الذي يؤيد به الانبياء، فأنبع لها ذلك الماء، وجعل فيه الري والغذاء، ثم ساق ذلك الركب من جرهم اليها، وسخرهم للإقامة عندها، ليتربى فيهم ويتذراهم ولدها، ثم يجعله أصلاً لهذه الامة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صدفة لدرة الكعبة اليتيمة، إذ جعله بلداً يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وجعل قلوب الناس تهوي اليه من جميع الاقطار إيماناً ونسكاً، ورزق اهله من الثمرات، وسخر لهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا العام معجزة من معجزات هذا التسخير؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الامم الغنية القوية، المتصرفة في البلاد العامرة الخصبة الغنية، بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات، بهذه الحرب الاوربية التي تقطعت بها الروابط وقلّت المواصلات، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمرتها، ان تضرب الدول المحاربة لها حجراً بحرياً على جميع سواحلها، فكان الضيق على سكان حرم الله تعالى أليماً شديداً،

حتى اذا ما أوشك ان يفتك بهم الموت جوعاً، سخر الله تعالى لهم تلك الدول تحمل اليهم الاقوات والاموال، وتنقل اليهم وفود الحجاج، وأراهم بهذه الاغاثة العامة، مثالاً لتلك الإغاثة الخاصة، أعني إغاثة هاجر اسماعيل، استجابة لدعاء الخليل، «فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات» وكثيراً ما ذكرت الناس بذلك، في أثناء أداء المناسك.

فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكر متذكراً له معتبراً به، فإنه يشعر في قلبه بنماء الايمان بالله وبرسل الله، ويفهم سرّ قوله تعالى **﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله﴾**.

رحلة الحجاز(*)

(٥)

(مقامنا بمكة قبل الحج)

تقدم انني دخلت مكة ضحوة يوم الأحد (وهو الثالث من ايام ذي الحجة بحسب تقاويم مصر وهو ما ثبت لدى حكومة مكة بعد وكانوا يعدونه الرابع في تقاويمها) وانني كنت متمتعاً بالعمرة الى الحج، وانني لم اتجاوز يوم الاحد دار السيد الزواوي التي جئتها بعد الطواف والسعي الا مساء اذ جئت المنزل الذي أعده لي الامير أحسن الله كرامته، وانني لم اخرج منه الا ليلاً بعد وصول السيدة الوالدة والرفاق الى قصر الامير للتشرف بزيارته. ولقيت في القصر نجله النجيب صديقي الشريف عبدالله، وليس في مكة من انجاله النجباء سواه، إذا كان قد وجّه الامراء الثلاثة علياً وفيصلا وزيداً الى فتح المدينة المنورة والامير عبدالله الى فتح الطائف، وتقدم ان فتح الطائف قد تم على يديه قبيل قدومنا، وانه دخل مكة منصرفاً عنها في وقت دخولنا.

وفي اليوم الثاني وهو يوم الاثنين رابع ذي الحجة علم الناس بوصولي الى مكّة مع الحجاج المصريين، وذكرته جريدة القبلة في عددها الخامس عشر الذي صدر فيه، فأقبل الكثيرون من الشرفاء والعلماء والوجهاء لزيارتنا وفي مقدمتهم الامير الشريف عبدالله وبعض من يشار اليهم بعد، وبقينا الى يوم التروية هو يوم الجمعة ثامن ذي الحجة لا عمل لنا إلا عبادة الله تعالى وأخصها التطوف ببيته، والا لقاء الناس في الدار وفي الحرم والاستفادة من مذاكراتهم.

وقد كنت مدة إقامتي بمكة ضعيف البدن بنزف دم كان قد عرض لي لم يسبق لي مثله، فكنت لا استطيع الطواف الا في وقت الاصيل ووقت السحر، وثقل علي الحرّ على انه لم يكد يتجاوز الدرجة ٣٥ من ميزان سنتكراد الا قليلاً، ولم أكن أجد راحة في جسمي الا حيث كانت راحة روحي، وما ذاك الا في الحرم الشريف. ولا يوجد في بطن مكة مكان كالحرم يتخلله هواء لسعته وكثرة الفجاج الموصلة اليه من الجهات الاربع. ولولا ان وصفه مبيّن بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين والرحالين لوصفته في هذه

(*) المنار ج ٢٠ (١٩١٧. ١٩١٨) ص ١٥٠. ١٥٩.

الرحلة الوجيزة. وكنت أصلّي الفجر كل يوم بجانب مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام، وأصلي المغرب والعشاء في الجانب الشرقي من الحرم مع صديقنا الشريف أبي نمي الذي يعشق فضله وأخلاقه كثير من فضلاء المصريين، إذ عرفوه بإقامته في القاهرة عدة سنين، وكانت داره في مصر بجوار دارنا من شارع درب الجماميز، واتفق ان زاويته في جدار الحرم الشرقي بالقرب من باب ابراهيم. وكذا داره. فهي بجوار المنزل الذي انزلنا فيه كما علم مما تقدم. وكان خدمه يفرشون له في كل أصيل سجادة او سجادتين تجاه زاويته حيث يصلي مع بعض أصحابه وكنت انا والسيد الزواوي منهم، وكنا نجيئه في الاصيل ونخرج بعد صلاة العشاء.

لم أجد قوة على ردّ الزيارة على كل من زارني ولم أتمكن من إحصائهم، فنويت ان أرجىء النظر في ذلك الى ما بعد الانتهاء من اعمال النسك، ولكنني زرت فوزي بك البكري من سروات دمشق الشام في داره وعبد العزيز بك المصري في منزله وكلا من الشيخ كامل القصّاب، أحد علماء الشام، ومحب الدين افندي الخطيب وفؤاد افندي الخطيب في إدارة جريدة القبلة وكلهم يعملون فيها، وكثر التلاقي بيني وبين هؤلاء والحديث معهم في الشؤون السياسية الحاضرة، وتعرّف اخبار الحجاز منهم.

ولم أدخل دار أحد من المكّيين زائراً الا زاوية الشريف أبي نمي ودار الشيخ محمد صالح الشيبي فاتح بيت الله الحرام (ورئيس مجلس الشيوخ في الحكومة الجديدة كما يأتي) ثم لم يتيسر لي بعد الحج زيارة أحد ممن زارني كما يعلم مما يأتي الا نائب الشرع الشريف الشيخ يونس افندي فإنني زرته في المحكمة الشرعية وكنت عرفته مجاوراً في رواق الشوام بالأزهر إذ كان يحضر دروس الاستاذ الإمام[1]، وزرت الشيخ عبد الملك الخطيب من ادباء مكة قبل السفر منها بيوم واحد. وكنت أود ان أزور الشيخ عبدالله سراج قاضي القضاة ووكيل رئيس النظار في الحكومة الجديدة وأخلو به في داره ساعة للمذاكرة في الشؤون الحجازية فلم أجد فرصة لذلك، وكان قد تفضل بزيارتي في دار الضيافة الهاشمية وأثنى لي على تفسير المنار وطلب مني جميع ما طبع منه. وقد رأيت انه في أقرب منزلة من ثقة الامير وقلّما جئت قصر الامارة الا ورأيته معه او منتظراً لقاءه.

وأما الشيخ الشيبي فهو كبير بني شيبة حجبة الكعبة المعظمة ووارثي مفتاحها في الجاهلية والاسلام، وبيتهم من اكبر بيوت قريش بعد بيوتات الهاشميين عامة والعلويين منهم خاصة، وهم ينسبون الى شيبة بن عثمان بن ابي طلحة، وهو ابن عم عثمان بن طلحة ابن ابي طلحة الصحابي الذي فتح باب الكعبة للنبي ﷺ يوم الفتح ودخلها معه كما في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة والسير والتاريخ. وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة ثم دعا عثمان بن طلحة فقال «ائتني بالمفتاح» فذهب الى أمه فأبت ان تعطيه فقال: والله

(١) الشيخ محمد عبده.

لتعطينّه او ليخرجنّ هذا السيف من صلبي (يعني انه يقتل نفسه يطعن بطنه به حتى ينفذ من ظهره) قال فأعطته إياه فجاء به الى النبي ﷺ فدفعه اليه ففتح الباب. وظاهر هذه الرواية ان النبي ﷺ هو الذي فتح الباب، وورد التصريح بذلك في رواية عنه أيضاً سندها ضعيف في تاريخ مكة للفاكهي قال (أي ابن عمر) كان بنو ابي طلحة يزعمون انه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم فأخذ رسول الله ﷺ المفتاح ففتحها بيده. ولكن روى عنه البخاري من طريق فليح انه قال: وقال لعثمان: «ائتنا بالمفتاح» فجاءه بالمفتاح ففتح له الباب فدخل. وفي هذه الرواية أيضاً انه كان مردفاً لأسامة على القصواء وهي ناقته ﷺ وفي رواية أخرى للبخاري وغيره انه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد الحديث. وقال الحافظ في الفتح: روى عبد الرزاق والطبراني من جهته من مرسل الزهري ان النبي ﷺ قال لعثمان يوم الفتح «ائتني بمفتاح الكعبة» فأبطأ عليه ورسول الله ﷺ ينتظره حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول «ما يحبسه!» فسعى اليه رجل وجعلت المرأة التي عندها المفتاح وهي أم عثمان واسمها سلافة بنت سعيد تقول انه أخذه منكم لا يعطيكموه أبداً، فلم يزل بها حتى أعطت المفتاح فجاء به ففتح ثم دخل البيت ثم خرج منه فجلس عند السقاية. فقال علي إنا (يعني بني هاشم) اعطينا النبوة والسقاية والحجابة، ما قوم أعظم نصيباً منا. فكره النبي ﷺ مقالته، ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع المفتاح اليه. ثم قال الحافظ: وروى ابن عائذ من مرسل عبد الرحمن بن سابط (وهو ثقة) ان النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة الى عثمان فقال «خذها خالدة مخلدة، اني لم أدفعها اليكم ولكن الله دفعها اليكم لا ينزعها منك الا ظالم» ومن طريق ابن جريج ان علياً قال للنبي ﷺ اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت «ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها» فدعا عثمان فقال «خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم» ومن طريق علي بن ابي طلحة ان النبي ﷺ قال «يابني شيبة كلوا مايصل اليكم من هذا البيت بالمعروف » اهـ.

والظاهر ان ذكر بني شيبة ههنا غلط من النساخ صوابه يا بني ابي طلحة، فإن عثمان بن طلحة هذا هو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة كما تقدم وكانوا كلهم يدعون بني أبي طلحة نسبة الى جدهم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان ابن عبد الدار بن قصي. وقد ذكر الحافظ في ترجمة كل من عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان من تهذيب التهذيب من عبارة الاصل عن مصعب الزبيري ان النبي ﷺ دفع المفتاح اليهما معاً وقال «خذوها يابني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم الا ظالم» وذكر عن ابن سعد عن هودة بن خليفة عن عوف عن رجل من أهل المدينة: دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح شيبة بن عثمان فأعطاه المفتاح وقال «دونك هذا فأنت امين الله على بيته» وذكر الحافظ هذين الحديثين في ترجمة شيبة من الاصابة أيضاً ثم قال: وذكر الواقدي ان النبي ﷺ أعطاها يوم الفتح لعثمان وان عثمان ولي الحجابة الى ان مات فوليها شيبة واستمرت في ولده اهـ. وهذا هو الصواب، وقد استمرت في ولده الى اليوم وبهذا حفظ نسبهم، وعظم حسبهم، وقد نزعها منهم بعض امراء مكة ثم عادت اليهم كما يؤخذ من

بعض كتب التاريخ.

أقول ولأهل هذا البيت ان يفخروا على جميع الناس بهذه الوظيفة القديمة الثابتة من قبل الاسلام، التي أقرها الله تعالى ورسوله لهم في محكم القرآن، وبأن إقرارها لهم كان سبب نزول تلك الآية العظيمة التي هي قاعدة أصول الاحكام، وعليها مدار إصلاح الانام، وهي قوله تعالى ﴿ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾ كما تقدم آنفاً.

وذكر ذلك السيوطي في الدرّ المنثور من تخريج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج، بمعنى ما تقدم وفيه انه قال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية فداؤه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك. وذكر هو والحافظ ابن كثير رواية طويلة في هذا المعنى عن ابن عباس اخرجها ابن مردويه عنه من طريق الكلبي عن ابي صالح وفيها ان العباس (رض) حاول أخذ المفتاح وطلب من النبي ﷺ ان يجعل له الحجابة مع السقاية فأنزل الله الآية في ذلك، قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر هذه الرواية: وهذه من المشهورات ان هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت في ذلك أو لا فحكمها عام اهـ. وذكر علماء الحديث والسير ان عثمان بن طلحة أسلم في هدنة الحديبية هو وخالد بن الوليد وهاجرا وان شيبة أسلم عام الفتح.

الشيخ محمد صالح الشيبي

هذا وإنني لم أر في من رأيت رجلاً تمثل رؤيته فصلاً من تاريخ قريش في الجاهلية والاسلام وتاريخ بيت الله الحرام الأكبر الشيبيين الشيخ محمد صالح. وهو رجل جليل المنظر لطيف المعاشرة، حسن المفاكهة، له مشاركة في العلوم الإسلامية، والآداب العربية وحظ من المدنية العصرية، ورأيته على مشربي في العناية بأمر الماء النقي البارد، فهو لا يشرب من ماء عين زبيدة التي يشرب منها أهل مكة بل يستعذب له الماء من بئر في ضواحيها ـ كما كان يستعذب الماء من آبار السقيا للرسول الاعظم ﷺ. ـ ويثلج له الماء في داره، وعنده روايا افرنجية من نوع الترمس الاسطواني المشهور يحمل له فيها الماء المثلوج مع قطع من الجليد المصنوع اذا خرج هو منها الى سفر قريب كعرفة او جدة. وقد أقام في الآستانة زمناً وهو يعرف اللغة التركية.

رخاء المعيشة بمكّة

وعلى ذكر الثلج أذكر من خبر رخاء المعيشة في مكّة المكرمة ان أهل هذا البلد الأمين يتمتعون أبداً بدعاء ابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم الذي حكاه الله عنه في قوله ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ودعائه ان يبارك الله لهم في اللحم عندما زار بيت اسماعيل بمكة بعد زواجه الثاني كما ثبت في حديث ابن عباس عند البخاري الذي ذكرنا القسم الاول منه في بيان حكمة السعي بين الصفا والمروة من هذه الرحلة. فاللحم في مكة كثير ورخيص وهو جيد شديد السمن، والثمرات الخضر فيها كثيرة رخيصة أيضاً على

انهم يرفعون أثمان كل شيء في موسم الحج. وقد كنا في دار الضيافة الهاشمية تستطاب لنا ألوان اللحم والخضر في كل غداء وعشاء، ولكن كان يغلب عليّ وعلى الوالدة والشقيقة الإقهاء[1] فرغبتنا في الطعام كانت ضعيفة، ولولا عنب الطائف ورمانها الجيدان لما طابت لنا المعيشة، وكان لدينا طاه يحسن الطبخ على الطريقتين المكية والتركية، ثم استحسنت الوالدة ان تتولى الطبخ لنا إحدى الجارتين اللتين خصّصتا للخدمة المنزلية، وأما الثلج او الجليد فقد قيل لنا انه كان له معمل في مكة وقد كسر وتعطّل. ووجدنا بعض الهنود هنالك يعملون قطعاً صغيرة من الجليد يجمدونها في قوالب من الزنك ويبعونها بأثمان غالية جداً لمعتادي شرب الماء المثلوج كالشيخ الشيبي فكنت أشتري منهم كل يوم، إذ لم أجد ماء كيزان الفخار مقبولاً وان كنا في شهر الميزان، خلافاً للمثل الحجازي القائل: إذا دخلت الشمس في الميزان، يبرد الماء في الكيزان.

وقد ذكر الرحالة محمد بن جبير الاندلسي في رحلته ما وجد في مكة من الثمرات والبقول كما ذكر غير ذلك من خيراتها وتحفها، قال: وأما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل، والخوخ والاترجّ والجوز والمقل... الخ ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك، فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب ريّاه، عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل اليك انه شبيه بسكر مذاب، او بجنى النحل اللباب، الخ وأطنب في وصف جودة اللحم وسمنه ولينه وسهولة هضمه، وهو كما قال، ونحن لم ندرك كل ما أدرك من الثمرات فإنه جاء مكة في قلب الصيف من سنة ٥٧٩ وبقي فيها الى أواخر الشتاء. والبطيخ الاصفر الذي أدركناه دون النوع الجيد منه في مصر المعروف بالشمام.

(الاحرام بالحج وشدّ الرحال الى عرفات)

صلينا الجمعة يوم التروية وهو ثامن ذي الحجة[2] في الحرم الشريف وفي ليلة السبت شددنا الرحال الى عرفات محرمين بالحج، وقد قال لي صديقنا السيد الزواوي في صبيحة ذلك اليوم: ان سيدنا الامير أيده الله تعالى قد كان استحسن ان نخرج معه الى عرفة وتكون في صحبته هنالك وفي منى الى ان تعودوا الى مكة، ولما ذكر لي ذلك مستشيراً فيه ذكرته بوجود والدتكم معكم، وقلت لعل الاولى ان يخرج في خدمتها لأن ذلك آنس لها وأقر لعينها ومزيد ثواب له، فاستحسن ذلك، وأمرني بتجهيز الرواحل والمؤونة وسائر ما يلزم وأمر بصرف عشرين جنيهاً لنفقة عرفة خاصة، وقد عهدت الى إبراهيم

---

(١) الاقهاء فقد شهوة الطعام.

(٢) سمي بذلك لأنهم كانوا يروون فيه ابلهم ويحملونها الماء الكثير لعدم وجوده في عرفة.

(وهو وكيل الخرج والمتولي أمر خدمتنا) باختيار جمال قوية جيدة لكم والجمال في هذه العام قليلة جداً لكثرة ما مات منها قبل الثورة لقلة العلف، ولو كان الحاج كثيراً كالعادة لما وجد من الجمال ما يكفيه، وقد وصلت أجرة الجمل الواحد الى عرفة ذهاباً وإياباً الى عشرين ريالاً مجيدياً، ولولا ان سيدنا الامير حفظه الله أمر عسكر البيشة بجلب الجمال من الاعراب ولو بالقوة لتعذر على بعض الحجاج ان يجدوها إلا بأجرة فاحشة.

هذا ملخص ما قاله السيد الزواوي، فشكرت لسيدنا الامير كرمه وفضله ودعوت له بالتوفيق والتأييد، ثم للسيد عنايته بنا هو ونجله السيد عبد الرحمن، وتعاهدهما إيانا بكل ما نحتاج اليه في كل يوم بل في كل آن، وكانت هذه العناية على أتمها عند الحلّ والترحال، ففي أصيل هذا اليوم - يوم التروية - جيء بالرواحل الى حوش الدار، وتولى وكيل الخرج ووالده شدّ الشقادف وفرشها بنظر السيد عبد الرحمن وإرشاده، ثم ركبنا في وقت العشاء، فكانت السيدتان الوالدة والشقيقة في أحسن الهوادج ومعها غزلان الجارية جلست بينهما لخدمتهما، وركبت انا ومحمد نجيب افندي في شقدف، وركب والد وكيل الخرج الذي يحمل الخيام والأثاث والماعون والمؤونة، وركب السيد عبد الرحمن دابة فارهة، وسرنا الهوينى في أسواق مكة قاصدين عرفة بعد ان أحرمنا جميعاً وأهللنا بالحج من منزلنا، الا الذي ذهب بالخيام والماعون فإنه سبقنا، وتأخر عنا السيد الزواوي الكبير ثم أدركنا، وبعد سري نحو من ست ساعات، وصلنا الى حيث ضربت خيامنا من عرفات، وذلك بالقرب من موقف النبي ﷺ حيث مسجد الصخرات، (وسيأتي قريباً بيان هذا الموقف) ولم يكن في استطاعتنا ان نتبع سنته ﷺ في السير بأصحابه الى عرفة.

كان من لم يسق الهدي من الصحابة الذين كانوا مع النبي ﷺ في حجة الوداع قد قلبوا حجهم الى عمرة بأمره ﷺ وبعد طواف العمرة وسعيها قصّروا شعورهم وتمتعوا الى يوم التروية، وكانوا نازلين في خارج مكة، فلما خرجوا معه ﷺ فيه الى منى أهلوا بالحج من الأبطح - وهو ما انبطح من الارض في أول طريق منى ما بين الجبلين الى مقبرة مكة (المعلى) ويسمى البطحاء والمحصب - وقد صلى النبي ﷺ الظهر والعصر يوم التروية بمنى وبات فيها ليلة عرفة وإنما رحل منها بعد طلوع الشمس ففي ذلك عدة سنين لم تتيسر لنا. والخروج في كل وقت من يوم التروية مباح، وكره مالك التقدم اليها قبله والتأخر عنه الا ان أدركه وقت الجمعة بمكة فيصليها فيها كما فعلنا. وروى ابن المنذر ان عائشة لم تخرج من مكة يوم التروية حتى دخل الليل وذهب ثلثه. اهـ من نيل الأوطار.

صفة الطريق (من) مكّة الى عرفات

خرجنا من الدار وهي غربي الحرم بقرب بابه المعروف بباب ابراهيم[1] فسرنا في الشارع الكبير، مائلين يميناً يميناً الى جهة الجنوب الشرقي حيث يكون الحرم الشريف عن يسارنا ويسمى ذلك الموقع بالسوق الصغير، ويليه من الشارع جياد وفيه معاهد الحكومة

(١) ابراهيم الذي أضيف اليه هذا الباب مزين كان هناك ويظن بعض الناس ان المراد ابراهيم الخليل (ص)، وممن اغتر بظاهر التسمية الرحالة ابن جبير فظن ذلك.

والمطبعة والتكية المصرية، ويليه شارع المسعى حيث يكون السعي بين الصفا والمروة، فالقشيشية فسوق الليل الذي كان فيه ميلاد النبي الاعظم ﷺ، وهنالك يتحول السائر في الطريق الى جهة الشمال فيمر بالغزة وفيها قصر الامارة عن يمينه، فالنقا فالسليمانية عن يساره، وهذا القسم الشمالي من مكة واقع بين جبل أبي قبيس من جهة الشرق وجبل قعقعان وجبل الهندي من جهة الغرب، ودونهما جبل لعلع الصغير عند النقا.

ومتى جاوز الخارج من مكة عمرانها من هذا القسم يرى عن يساره مقبرتها المعلاة او المعلى وفيها قبر السيدة خديجة أم المؤمنين، وجدة آل البيت الطاهرين، عليها وعليهم السلام، وهذه الجهة هي أعلى مكة وتسمى الحجون (بفتح الحاء المهملة) التي قال فيها الحارث بن مضاض الجرهمي.

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

ويدخل فيها من ثنية كداء[1] التي دخل منها رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وفي حجة الوداع وهي في أعلى الجبل الذي على يسار المار الى المقبرة، ويقال لثنية كداء الثنية العليا، وللثنية الاخرى التي دخلنا منها الثنية السفلى وتسمى كدى (بالضم والقصر) ومنها خرج النبي ﷺ من مكة، وهي بقرب شعب الشاميين من ناحية جبل قعيقعان. وهناك باب الشبيكة المشهور بعد جرول.

ووراء المعلى في طريق منى مكان يسمي البياضية مطلق الهواء، فيه قصور لبعض الشرفاء. ومن هناك يتحول طريق منى الى الشرق، وهو واد يختلف عرضه من مئتي ذراع بذراع الآدمي الى ألف ذراع بالتقريب، وتختلف اسماؤه باختلاف المواقع، وأشهرها وادي المنحنى الذي قال فيه ابن الفارض:

ما بين ضال المنحنى وظلاله ... ضل المتيم واهتدى بضلاله

ويليه وادي السلم بفتح السين واللام ويذكر كثيراً في أشعارهم. والضال هو البري من شجر السدر وهو ذو شوك ونبقه صغير، والسلم الشجر الذي يسمى ورقه القرظ ويدبغ به، وهما من اشجار تلك البلاد.

وأول منى العقبة التي فيها الجمرة المنسوبة اليها وسيأتي ذكرها. والمسافة بين مكة ومنى فرسخ واحد أي ثلاثة أميال كما قالوا، ففي معجم البلدان لياقوت: منى بالكسر والتنوين في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار يسمى بذلك لما يمنى فيه أي يراق من الدماء - أي دماء الانعام للنسك - الى ان قال: وهي بليدة على فرسخ من مكة طولها ميلان تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها، وقلّ ان يكون للاسلام

(١) الثنية بوزن قضية الطريق في العقبة او العقبة المسلوكة. وقال الراغب: الثنية من الجبل ما يحتاج في قطعه الى صعود وحدور، والعقبة الطريق الوعر في الجبل، وكداء بفتح الكاف والمد.

بلد مذكور الا ولأهله بمنى مضرب اهـ والمراد بالمضرب المكان الذي تضرب فيه خيام الحاج. وهذه الطريق يقطعها راكبو الخيل وكذا الحمير في ساعة واحدة وراكبو الابل في ساعتين. وحد منى من العقبة التي فيها جمرة العقبة الى بطن محسر (بكسر السين المشددة) كما سيأتي. والغالب فيها التذكير والصرف، وقد تؤنث على الاصل في اسماء البقاع وتمنع من الصرف.

والوادي بين منى والمزدلفة يسمى وادي المنار، وتسمى المزدلفة جمعاً ويكثر هذا الاسم في الاخبار والآثار والاشعار، وهي المشعر الحرام عند الجمهور او هو جبل قزح فيها، قال تعالى (فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أي في المزدلفة فهي عند الجبل. والمسافة بينها وبين منى من نهاية حدها الشرقي نصف ساعة لركاب الخيل او الحمير الفارهة وساعة او ساعة وربع لراكبي الابل. وسميت جمعاً لجمعها الناس في ليلة النحر، والمزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب اما للتقرب الى الله بذكره فيها او للازدلاف اليها من منى بعد الرفاضة من عرفات. وقيل ان آدم وحواء تعارفا في عرفة واجتمعا في المزدلفة وسيأتي الكلام على المبيت فيها للنسك.

والمسافة بين المزدلفة وعرفات ساعة ونصف على الدواب ويمكن قطعها بأقل من ذلك، وثلاث ساعات للابل. وبين المزدلفة وعرفة مضيق الاخشبين ووادي نمرة وبطن عرنة. وقال العلماء ان المسافة بين مكة وعرفة تسعة اميال تقريباً، نقله الزبيدي شارح القاموس والاحياء، ولكنه ذكر عند الكلام على نمرة انها على مسافة أحد عشر ميلاً.

رحلة الحجاز(*)

(٦)

عرفات وحدودها

كل من عرفة وعرفات (بفتح العين والراء فيهما) اسم لتلك البقعة الشريفة من الارض، ألتي هي من أشهر البقاع عند ألوف الألوف من البشر. وعرفات اسم مفرد ينون كأذرعات وليس جمعاً لعرفة، وجوزان يكون أشير بصيغة الجمع الى كون كل مكان او قسم من تلك البقعة يتحقق فيه معنى التعارف او التعرف الذي عللت به التسمية كما يأتي قريباً. ويحتمل ان يكون بعض قدماء العرب مدّ فتحة الفاء وأشبعها في الشعر ثم كثر فصار اسماً مستقلاً، ونظيره قول الشاعر في عرنة (بضم العين وفتح الراء والنون):

أبكاك دون الشعب من عرفات ... بمدفع آيات الى عرنات

وقول عمر بن أبي الكنات الحكمي المغني:

عفت الدار بالهضاب اللواتي ... بين توز فملتقى عرنات

وظاهر عبارة لسان العرب انهما موضعان قال: وعرونة وعرنة موضعان وعرنات موضع دون عرفات الى أنصاب الحرم، قال لبيد:

والفيل يوم عرنات كعكعا ... إذ أزمع العجم به ما أزمعا اهـ

وأقول: ليس دون عرفة موضع يسمى عرفات غير بطن عرنة الذي يذكره جميع العلماء. وأخطأ من قال ان عرفة مولد ليس بعربي صحيح ومن قال انه اسم لليوم التاسع من ذي الحجة، وإنما يقال انه يوم عرفة بمعنى انه يوم الوقوف بها كما يقال يوم التروية وليس كيوم عاشوراء. وقد ورد اسم عرفة في الاحاديث الصحيحة علماً للبقعة وكذا في كلام الصحابة وسيأتي شيء منها، وعليه جرى العلماء والفقهاء فكلهم يطلقون اسم عرفة

(*) المنارج ٢٠ (١٩١٧ - ١٩١٨) ص ١٩٢ - ١٩٨.

على تلك البقعة الشريفة، فلا يغترن أحد بعبارة القاموس الموهمة ولا بقول من توهم ذلك من المتأخرين وزعم انه مقتضى كلام الراغب، وإنما قال الراغب «ويوم عرفة يوم الوقوف بها» أي بالبقعة المخصوصة التي اسمها عرفة وعرفات. قيل انها سميت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها بعد هبوطهما من الجنة، وقيل لقول جبريل لابراهيم عليهما السلام لما علمه المناسك وأراه المشاهد: أعرفت، أعرفت؟ قال عرفت، عرفت. وقيل لأنها مقدسة معظمة كأنها عرّفت أي طيبت بالعطر. وقيل لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل لتعرّف العباد فيها الى الله تعالى بالعبادة والدعاء. والقولان الاولان يتوقفان على نقل صحيح، والأخير ان أظهر معنى، ويعدون تعارف الناس هنالك من حكم الحج التي شرع لأجلها، والواقع ان التعارف بين الحجاج لا يتيسر في عرفة كما يتيسر في منى لأن وقت عرفة قصير فإن المجمع عليه منه يمتد من وقت الظهر الى وقت المغرب ولا يجزىء الوقوف قبل الزوال عند أحد من العلماء الا ما روي عن الإمام أحمد من ان وقت عرفة من فجر يومها. ويجوز الوقوف في ليلة العاشر عند غير الشافعية، فأنى يتيسر التعارف بين أفراد ذلك الجمع الكبير، في ذلك الوقت القصير، مع ما يشرع فيه من ذكر الله تعالى ودعائه، المقصود في هذه المعاهد لذاته. وستأتي للبحث تتمة.

وحدود عرفة معروفة للناس بما يتناقلونه بالتواتر عن المواضع التي يحصل الفرض بالوقوف فيها. وذكر العلماء المتقدمون لها حدوداً منها قول بعضهم. الحد الاول ينتهي الى جادة طريق المشرق، والثاني ينتهي الى حافات الجبل الذي وراء أرضها، والثالث ينتهي الى الحوائط (أي البساتين) التي تلي قرية عُرنة وهذه القرية على يسار مستقبل القبلة في عَرَفة، والرابع الى وادي عُرَنة بضم العين وفتح الراء والنون، وعرنة ونمرة (بفتح فكسر) ليستا من عَرَفة ولا من أرض الحرم والمالكية يجيزون الوقوف بعرنة ويحتج عليهم الجمهور بحديث «عرفة كلها موقف وارفعوا عن بطن عرنة، ومزدلفة كلها موقف وارفعوا عن بطن محسر، ومنى كلها منحر» رواه مسلم وغيره. ومحسر (بكسر السين المهملة مشددة) وبطن محِّسر وعُرَنة كل منهما واد فاصل بين ما قبله وما بعده من المشاعر، فوادي عرنة فاصل بين عرفات ومزدلفة، ووادِ محسِّر فاصل بين المزدلفة ومنى. وقالوا: حد الحرم من المأزمين (بكسر الزاي) وهو مضيق بين عرفة ومزدلفة وهناك علمان مبنيان في أول حدود عرفة جعلا علامة على حدّ الحرم فما كان شرقيهما من عرفة وما وراءها فهو من الحلّ، وما كان قبلهما من جهة الغرب من بطن عرنة ومزدلفة ومنى فهو من الحرم، ويوجد ميلان آخران في أول حدّ مزدلفة من جهة الغرب، فما بين العلمين والميلين هو وادي عرنة.

وفي الجانب الجنوبي من العلمين مسجد نمرة المعروف بمسجد ابراهيم بقرب الطريق الممتد من منى الى الطائف ويسمى أيضاً مسجد نمرة ومسجد عرنة. قال الغزالي: ونمرة هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة، اهـ. وظاهر حديث نزول النبي ﷺ بنمرة أنها أدنى عرنة لا كلها. وفي كتب اللغة ان نمرة هي الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك إذا خرجت من المأزمين تريد الموقف، قال شارح القاموس: كذا في التكملة. وقيل: الحرم من

طريق الطائف على طرف عرفة من نمرة على أحد عشر ميلاً اهـ. وقد نقل هذا في معجم البلدان وفيه بعده: وقيل نمرة على أحد عشر ميلاً اهـ. أي من مكة. فالتحقيق الذي عليه الجمهور ان المسجد لم يكن من عرفة، وقول بعض الناس فيه «مسجد عرفة» بالفاء من باب ما جاور الشيء أعطي حكمه او نسب اليه، ولذلك نسب بعضهم الى منى. وقال بعضهم ان بعضه من عرفة وبعضه من عرنة، وذلك بعد ان زيد فيه كما سيأتي.

وقال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية في مناسك الحج بعد ذكر استحباب المبيت بمنى ليلة عرفة كما فعل النبي ﷺ ما نصه: ويسيرون منها الى نمرة عن طريق ضب من يمين الطريق. ونمرة كانت قرية خارجة عن عرفات (أي فخربت كما صرح غيره) من جهة اليمين فيقيمون بها الى الزوال كما فعل النبي ﷺ ثم يسيرون منها الى بطن الوادي وهو موضع النبي ﷺ الذي صلى فيه الظهر والعصر وخطب، وهو في حدود عرفة ببطن عرنة. وهناك مسجد يقال له مسجد ابراهيم وإنما بني في أول دولة بني العباس اهـ المراد منه هنا.

وقال الغزالي: في الإحياء: وأما مسجد ابراهيم عليه السلام فصدره في الوادي أخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة. ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت هناك اهـ.

قال الزبيدي عند شرح أول هذه العبارة من شرح الاحياء: وجدت بخط الامام الفقيه الشيخ شمس الدين بن الحريري ما نصه «قد وقع للفقهاء في نسبة هذا المسجد لابراهيم الخليل عليه السلام كلام وقد نسبه اليه جماعة منهم ابن كنج وابن سراقة والبغوي والقاضي حسين والازرقي وتبعهم الشيخ النووي وجماعة من المتأخرين، وادعى الاسنوي انه خطأ وإنما هو شخص اسمه ابراهيم من رؤوس الدولة المتقدمة كما قاله غير الاسنوي فالتبس بالخليل عليه السلام. ورد الاذرعي هذا بأن الازرقي من أعلم الناس بهذا وقد نسبه الى الخليل عليه السلام، وقال وعلى تسليم ان يكون قد بناه من ذكر فلا يمتنع ان يكون منسوباً من أصله الى الخليل عليه السلام إما لأنه صلى هناك او اتخذ مصلّى للناس فنسب اليه» اهـ وأقول: نعم لا يمتنع ذلك عقلاً ولكننا لا نثبته إلا بنقل صحيح فأين هو؟.

قال الزبيدي عند شرح آخر تلك العبارة: قال النووي في زوائد الروضة: الصواب ان نمرة ليست من عرفات وأما مسجد ابراهيم (ع م) فقد قال الشافعي رحمه الله انه ليس من عرفة فلعله زيد بعده في آخره، وبين هذا المسجد وبين موقف النبي ﷺ بالصخرات نحو ميل. قال إمام الحرمين وتطيف بمنعرجات عرفات جبال وجوهها المقبلة من عرفة اهـ.

وقال صديقنا محمد لبيب بك البتانوني في الرحلة الحجازية التي ألّفها في سنة ١٣٢٨ بعد وصفه لمنى وانتقاله الى وصف الطريق منها الى المزدلفة فعرفه ما نصه: ومن ثم يضيق الوادي ويسمى بوادي محسر حتى إذا وصل الى المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى(؟)، أخذ في الاتساع مرة أخرى. وهناك ترى على يمينك المشعر الحرام الذي يجب الوقوف عنده في النزول من عرفة. وفي هذه الجهة مسجد على جبل قزح

عمره السلطان قايتباي. ومن هناك يضيق الوداي ثانياً ويسمى بوادي عرنة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى إذا قرب من مسجد نمرة (ويسمى مسجد عرفة او مسجد ابراهيم) انفتحت ارجاؤه الى الشمال والجنوب. وهذا المسجد كبير قد أحاطت به البواكي (يعني الأروقة) في جهاته الاربع من داخله، وعمره قايتباي عمارة تشكر، ونصفه الغربي (الذي الى مكة) في الحرم والنصف الآخر في الحل ويوسطه مجرى ماء يسير اليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة. وفي شمال هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما (أي أحدهما بعيد عن الآخر) بارتفاع خمسة أمتار في عرض نحو ثلاثة قد أقيما في فضاء الوادي للدلالة على حدود عرفة من الغرب وهنالك تجد الجبل قد حلق على الوادي وقفله أمامك من الشرق (أقفله أي سدّه) بشكل قوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة. وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا. وفي طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة، وسفحه الجنوبي هو حد عرفة من الشمال اهـ.

صفة جبل الرحمة بعرفات

قال ابن جبير الاندلسي في رحلته: «وعرفات بسيط من الارض مد البصر لو كان محشر الخلائق لوسعهم، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة. وفي أخرى ذلك البسيط جبل الرحمة وفيه وحوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين فما أمام العلمين الى عرفات حل وما دونها حرم، وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه - ثم قال - «وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم وسط البسيط وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض. وكان صعب المرتقى فأحدث فيه جمال الدين[1] المذكورة مآثره في هذا التقييد أدراجاً وطية من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة وأنفق فيها مالاً عظيماً. وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمية (رض) ولا يعرف صحة ذلك وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه. وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات. وفي جهة القبلة منه جدار وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناس فيها. وفي أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل للقبلة دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف (وفي نسخة غرفة) لها طيقان تنسب الى آدم (ص) وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ وهي في جبل متطأمن».

أقول هذا الجبل هو جبل إلال (بوزن هلال) قال ابن دريد في وصف الحاج:

ينوي التي فضلها ربّ العلى   لما دحا تربتها على البنى[2]

---

(١) هو جمال الدين محمد الجواد الموصلي كان وزير صاحب الموصل وله في الحرمين والمشاعر عمارات عظيمة.
(٢) البنى جمع بنية يشير الى أثر «دحا الله الارض دحواً من تحت الكعبة»، وهو مروي عن عطاء وليس حديثاً كما توهم، ودحا الشيء رماه وكشفه ونحاه قيل وبسطه.

حتى اذا قابلها استعبر لا يملك دمع العين من حيث جرى[١]
ثمت طاف وانثنى مستلماً ثمت جاء المروتين فسعى[٢]
ثمت راح في الملبين الى حيث تحجى المأزمين ومنى[٣]
ثم أتى التعريف يقرو مخبتاً منازلاً بين إلال فالنقا[٤]

موقف النبي ﷺ بعرفة

اتفق الرواة على انه ﷺ صلى الصبح يوم عرفة بمنى ورحل منها بعد طلوع الشمس حتى جاء نمرة فأقام بها الى وقت الزوال ثم جاء بطن الوادي فجمع بين الظهر والعصر ثم خطب الناس ثم راح فوقف على الموقف من عرفة، وعلى ان المكان الذي وقف فيه وأشار اليه في الحديث هو المكان المعروف عند الصخرات. وقال «وقفت ههنا وعرفة كلها موقف» والمراد انه لم يقف هنالك لمزية لذلك المكان على غيره في أداء النسك بل يصح الوقوف في كل موضع من عرفة. ولكن صار لذلك المزية بوقوفه فيه فصار موقف الأئمة ونوابهم الذين يحجون بالناس. وقد نقل الزبيدي في شرح الإحياء كلاماً مفصلاً للمحب الطبري في ذلك المكان وفي جبل الرحمة قال:

«وقد روى ابو الوليد الازرقي بإسناده عن ابن عباس ان موقف رسول الله ﷺ كان بين الأجبل الثلاثة النبعة والنبيعة والنابت، وموقفه ﷺ منها على النابت. قال: والنابت على النشزة التي خلف موقف الإمام. وموقفه ﷺ على ضرس من الجبل النابت مضرس بين أحجار هناك نابتة من الجبل الذي يقال له إلال ككتاب = (قال المحب الطبري) وعلى هذا يكون موقفه ﷺ على الصخرات الكبار المفترشة في طرف الجبيلات الصغار التي كأنها الروابي عند الجبل الذي يعتني الناس بصعوده ويسمونه جبل الرحمة واسمه عند العرب إلال بالكسر، وذكر الجوهري فيه الفتح والمحفوظ خلافه، وهذا يرجح ضبط من ضبط قول جابر في حديثه الطويل «وجعل جبل المشاة بين يديه» بالجيم فإن الواقف كما وصفناه يكون هذا الجبل أعني إلالا بين يديه وهو جبل المشاة، وذكر ابن حبيب ان إلالا جبل من الرمل يقف الناس به بعرفات عن يمين الإمام، حكاه عنه أبو عمر وعثمان بن علي الأنصاري في تعاليقه على الجوهري، وذكر ابن أبي الصيف في بعض تعاليقه على الجوهري ان اسم جبل الرحمة الذي يقال له جبل المشاة كبكب.

= (قال المحب الطبري) والمشهور في كبكب انه اسم جبل بأعلى نعمان بقرب الثنايا عنده قوم يدعون الكباكبة نسبة اليه، والمشهور في جبل الرحمة ما ذكرناه. إذا تقرر هذا فمن كان راكباً ينبغي ان يلابس بدابته الصخرات المذكورة كما روى عنه ﷺ، ومن كان راجلاً وقف عليها او عندها بحسب ما يتمكن من غير إيذاء أحد، ولا يثبت في الجبل الذي

(١) استعبر جرت عبرته أي دمعته.
(٢) المروتان الصفا والمروة تغليب.
(٣) تحجى قصد وتعمد.
(٤) التعريف الوقوف ببعرفة أي أتى مكان التعريف ويقرو يستقري ويتتبع منزلاً بعد منزل، ومخبتا خاضعاً خاشعاً، وإلال الجبل، والنقا تلال الرمل.

يعتني الناس بصعوده خبر ولا أثر (قال) وذكر شيخنا أبو عمرو ابن الصلاح في منسكه عن صاحب الحاوي انه يقصد الجبل الذي يقال له جبل الدعاء وهو موقف الانبياء عليهم السلام، وعن محمد بن جرير الطبري انه يستحب الوقوف على الجبل الذي عن يمين الإمام يعني جبل الرحمة، والذي ذكره صاحب الحاوي لا دلالة فيه على إثبات فضل لهذا الجبل فإنه قال والذي نختار في الموقف ان يقصد نحو الجبل الذي عند الصخرات السود وهو الجبل الذي يقال له جبل الدعاء وهو موقف الانبياء عليهم السلام والموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ وهو من الأجبل الثلاثة على النابت. ثم ساق ما أوردناه سابقاً. ثم قال: وهذا أحب الموقف الينا للإمام والناس.

(قال المحب الطبري) وهذا صريح في انه أراد بجبل الدعاء النابت الذي وقف عليه رسول الله ﷺ ولا تعرض في كلامه لجبل الرحمة بنفي ولا إثبات. وما فهمه رحمه الله انة جبل الرحمة غير مطابق وقوله وهو الجبل أراد سهله وهو من الاضداد يطلق على المكان المرتفع والمنخفض والنبي ﷺ إنما وقف عليه لكونه موقف الانبياء عليهم السلام، وكلام ابن جرير ظاهر الدلالة انه أراد بالجبل الذي عن يمين الإمام الجبل الذي وقف عليه النبي ﷺ وهو النابت كما تقدم بيانه والظاهر انهما أراده بقولهما فيكونان قد أثبتا له شيئاً من الفضل، ولا نعلم من أين أخذا ذلك إذ لم يثبت في فضله خبر ولو ثبت له فضل فموقف رسول الله ﷺ أفضل منه وهو الذي خصه العلماء بالذكر والفضل.

ثم قال الطبري نقلاً عن صاحب النهاية: في وسط عرفة جبل يقال له جبل الرحمة. ولا نسك في الرقي عليه وان كان يعتاده الناس. وقال غيره قد افتتنت العامة بهذا الجبل في زماننا وأخطأوا في اشياء منها (انهم) جعلوا الجبل هو الاصل في الوقوف فهم بذكره لهجون، وعليه دون غيره معرجون، حتى ربما اعتقد بعض العامة ان الوقوف لا يصح بدون الرقي (فيه) ومنها احتفالهم بالوقوف عليه قبل وقت الوقوف، ومنها إيقادهم النيران عليه ليلة عرفة واهتمامهم لذلك باستصحاب الشموع من بلادهم واختلاط النساء بالرجال هنالك صعوداً وهبوطاً بالشمع الكثير الموقد، وإنما حدث ذلك بعد انقراض السلف الصالح، ومن كان متبعاً آثار النبوة فلا يحصل بعرفة قبل دخول وقت الوقوف يأمر بذلك ويعين عليه وينهى عن مخالفته اهـ نقله الزبيدي.

رحلة الحجاز(*)

(٧)

صفة الوقوف بعرفات

بلغنا عرفات في وقت السحر فألفينا الخيام قد ضربت لنا وفرشت فنزلنا فيها ولما طلع النهار وجدنا أنفسنا بالقرب من مسجد الصخرات حيث كان موقف النبي ﷺ ورأينا أكثر الحجاج في هذا الجانب من بسيط عرفات وسائر الجوانب والاجواز خالية وفي بعضها قليل من الحجاج، ولبعض حجاج الاقطار مواضع خاصة يقفون فيها كل عام كما يرى القارىء في صورة الموقف من الفصل السابق. ويقف كثير من عرب الجزيرة في جبل الرحمة ويصعده كثير من حجاج الاقطار الاخرى كما علم مما تقدم. وكانت خيام الشريف في موضعها المعتاد من وسط ذلك البسيط وكان السبب في بعدها عن مسجد الصخرات وموقف الامام ان يسهل على أي فريق من الحجاج الوصول اليه للزيارة او الشكوى في زمن قصير.

وانني بعد كتابة ما تقدم من وصف عرفات اطلعت على كتاب دليل الحاج لمحمد باشا صادق المصري المهندس أحد ضباط أركان الحرب الذي طبع سنة ١٣١٣ فإذا فيه ان مساحة سطح البقعة المستوية من عرفات «كيلومتر مربع» أي نحو ألفي ذراع بذراع الآدمي - وهو من رؤوس الاصابع الى المرفق - والذي يتراءى للنظر انه أوسع من ذلك وهذا المكان لا يسع مئات الالوف من الحجاج ولكن كثيراً منهم يقفون في جبل الرحمة وفي غيره مما الى ذلك البسيط من الجبال، وجبل الرحمة يرى في المساء مكتظاً بالحجاج من سفحه الى قنته، وارتفاعه نحو من ستين ذراعاً (٣٠ متر) وطوله قريب من ستمائة ذراع (٣٠٠ متر) كما قال محمد صادق باشا. قال: وأعلى هذا الجبل سطح مستو مبلّط بالحجر مربع في نحو عشرين متراً وفي وسطه مصطبة طولها سبعة امتار في (عرضٍ) سبعة وارتفاعها متر ونصف، وفي ركنها الغربي عمود مربع ارتفاعه اربعة أمتار في عرض مترين يرى من أسفل الجبل كمنار للطريق اهـ وأقول ان هذا منار لا كالمنار ولا يشترط في مسمّى المنار لغة ان

(١) المنار ج ٢٠ (١٩١٧ - ١٩١٨) ص ٢٣٦ - ٢٤٥.

يوضع في أعلاه او في اثنائه نور وإنما هو العلم الذي يهتدى به، وهذا المنار يراه حجاج الآفاق من الجهات المختلفة.

قد فاتنا لقلة الحجاج رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهو رؤية تلك البقعة الشريفة غاصة بالشعوب الوافدة من جميع اقطار الارض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون الى الله عز وجل على اختلاف لهجاتهم، الناشئة عن اختلاف لغاتهم، يرددون الاذكار المأثورة بالعربية، ويدعون الله ما شاؤوا بلغاتهم المختلفة.

قال صديقنا محمد لبيب بك في رحلته بعد وصف عرفات والكلام على الوقوف: عند وصول الحجاح الى هذا الوادي ينزل ركب المحملين (أي المصري والشامي) بخيامهم قريباً من جبل الرحمة، يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم، وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالبنيان المرصرص. امّا باقي الحجيج فإنه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يزدحم اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكاناً خالياً من واقف وقاعد وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم، وترى الكل في صعيد واحد حتى يتعذر على الإنسان السير الى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه، ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة الى أحذية أفقية (أي أمكنة متحاذية كالصفوف) يقسمها شارع رأسي ويخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج وجمالهم من ورائهم. وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم، ولا الجمالة في ربط جمالهم، ويعيّن لهذا النظام من يحفظه مع الدقة، ـ لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين. وفي سعة الوادي ما يضمن لدولته إقامة الكل على الراحة التامة، لأن هذا التزاحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الأغذية الضرورية) وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الأعراب الذين يكون لهم من ذلك الرحاب عون على النهب والسلب، وبسبب هذا التزاحمْ يضلّ الناس عن أمكنتهم إذا تركوها لأمر ما، ولذلك تراهم ينادون بعضهم (أي أنفسهم) إما بأسمائهم او بألفاظ اصطلح عليها أهل كل جهة حتى إذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت. وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الإقامة بعرفة، اهـ. وأقول اننا لم نشاهد شيئاً من ذلك لقلة الحجاج، وهذا يؤيد ما قلنا من قبل ان التعارف بين الشعوب في عرفة لا يتيسر.

وذكر ابن جبير الاندلسي في رحلته ان الجمع الذي كان في عرفات في سنة حجه ـ وهي سنة ٥٧٩ ـ لا شبيه له إلا الحشر، وان المحققين من الاشياخ المجاورين زعموا «انهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعاً أحفل منه، وانه ما رئي من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله. ثم قال: «فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رئي يوم اكثر مدامع، ولا قلوباً خواشِع، ولا

أعناقاً لهيبة الله خوانع خواضع، من ذلك اليوم. فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم الى ان سقط قرصها وتمكن وقت المغرب وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور وأخذ السَّرو اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جدّ فجدّ من عهد النبي ﷺ لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله، وكذلك وصل الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من امراء الأعاجم الخراسانيين، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين (واحدتهن خاتون) ومن السيدات بنات الامراء كثير ومن سائر العجم عدد لا يحصى، فوقف الجميع وقد جعلوا قدوتهم في النفر الإمام المالكي لأن مذهب مالك رضي الله عنه يقتضي ان لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب، ومن السرو اليمنيّين من نفر قبل ذلك. فلما ان حان الوقت أشار الإمام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الارض ورجفت الجبال، فيا له موقفاً ما أهول مرآه، وأرحى في النفوس عقباه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه، وتغمده بنعماه، انه منعم كريم حنان منان»، اهـ. المراد منه.

وقوفنا بعرفة وتأويل رؤيا صادقة

زرت في اثناء النهار الامير الشريف مع بعض الاخوان فجئت سرادقه راكباً فرساً لبعده عن موقفنا. ورأيت سوق عرفة وهي بقرب مجرى عين زبيدة كما يعلم من الصورة التي نشرناها. ولما رأيت مجرى عين زبيدة هنالك ووجدتها تتحدر بقوة في مجاريها الواسعة المبنية تذكرت رؤيا كنت رأيتها بمصر قبل ثورة الحجاز وكتبتها وذكرتها لكثير من الناس: رأيت في جمادى الاولى سنة ١٣٣٤ انني في مكة المكرمة ومعي رفيق لي فدخلنا المسجد الحرام ثم أردنا ان نخرج لحاجة لنا فسمعنا آذان العصر فقلت لرفيقي لا ينبغي لنا أن نخرج وقد أدركتنا الصلاة إلا بعد أدائها في المسجد، وبينما أنا جالس في المصلى بالقرب من الكعبة المعظمة رأيت الشريف حسيناً أمير مكة جالساً أمامي من جهة يميني قريباً مني واعتقدت انه جاء ليصلّي بالناس إماماً، فالتفت إلي من جهة يساره وقال لي أبطأت علينا إننا منذ زمن ننتظر قدومك الينا. وبعد أن خرجنا - ولم أره صلى ولا اننا صلينا معه - رأيت معي بعض رجاله واننا ذاهبون بأمره الى أحد دوره - أي غير دار الامارة - لأكون فيها ضيفاً عليه، وبينما نحن نسير غرباً جنوبياً رأيت في شارع واسع ممتد من الجنوب الى الشمال ماء غزيراً صافياً مندفعاً بقوة في مجرى واسع مبني بالحجارة وله فرع الى الغرب وفرع الى الشرق، فوقفت متعجباً من قوة جريان ذلك الماء وقلت في نفسي: أهذا ماء عين زبيدة؟ ما سمعنا أحداً من الحجاج ذكره بهذا الوصف، وهذه القوة في الجريان لا تكون إلا بقوة دافعة كالكهربائية او البخارية. ورأيت في الطريق داراً جديدة ممتازة بين دور مكة ببياضها من الخارج علمت انها خاصة بنساء الشريف. وخطر في بالي

ان دار الضيافة التي خصصت لي سأكون فيها مع الشريف عبدالله أحد أنجال الأمير.

هذا ما رأيته في نومي قبل ثورة الحجاز بعدة أشهر ولما حدثت الثورة وأعلن الاستقلال خطر في بالي انه ربما كان تأويل رؤياي إصلاح جديد تحيا به مكة ويمتد الى سائر الجهات كامتداد ذلك الماء الذي رأيته فإن الله تعالى يقول «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ» ولما جئت مكّة حاجاً ظهر لي من تأويل الرؤيا انه كان معي رفيق، وانني كنت ضيفاً للأمير، وانه رحب بي أحسن ترحيب وكان ينتظر مجيئي، وان دار الضيافة كانت في الجهة الغربية من الحرم الشريف، وان الشريف عبدالله زارني في هذه الدار، وانني رأيت داراً بيضاء قيل لي انها دار حرم الامير الخاص، وان الناس تحدثوا بأنه سيبايع بالخلافة - والإمامة الخاصة، قد تؤول بالإمامة العامة، وكل منهما كان متوقعاً ولم يقع - وأما مصداق الرؤيا في مسألة الماء فلم اشاهده في اليقظة على نحو ما رأيته في النوم إلا في عرفات، فالمجرى المبني وطوله وامتداده يشبه الذي رأيت الا ان سرعة اندفاع الماء وقوته كانتا دون ما رأيت في النوم، والفرق يسير. فهذه الرؤيا من أوضح الرؤى وأجلاها تأويلاً، وهي حجة على الذين ينكرون الرؤى الصادقة.

الحالة الروحية في الوقوف والنفر

ان الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهراً وباطناً إلا في أصيل ذلك اليوم العظيم، ففي أول النهار يعرض لأكثر الناس شواغل تشغل حواسهم وجوارحهم وأفكارهم. منها ضروريات الأكل والشرب، ومنها رؤية المناظر الجديدة من تلك البقعة الجامعة لشعوب كثيرة وما يحيط بها من الجبال، فهذه المناظر تشغل كثيراً من الناس بصورتها وشكلها في أول العهد برؤيتها، عن معناها وحكمة كون السير اليها والوقوف فيها عبادة الله تعالى، وفي اثناء النهار يأكل الناس طعامهم ويستريح أكثرهم في خيامهم ومضاربهم او في ظلال الجبال ولا سيما إذا كان الحر شديداً، فإذا جاء وقت العصر جمعوا متاعهم وشدوا رحالهم وفرغوا قلوبهم للذكر والدعاء وازدحموا عند موقف الخطيب من جبل الرحمة، حرصاً على سماع الخطبة، او الاشتراك مع الالوف من اخوانهم في التكبير والتلبية، وقد بينا في المناسك ان الشرع لم يجعل لعرفة ذكراً ولا دعاء خاصاً بل ترك ذلك للأفراد، ولم يرد ان النبي ﷺ كان يلبي بعرفة في الخطبة ولا في غير الخطبة ولكن صح انه كان يلبي بين المشاعر ذهاباً وإياباً وهي منى ومزدلفة وعرفة. ودعا على ناقته بعرفة رافعاً يديه ولم يرد في الصحاح نص ذكره ولا دعائه واستحسن العلماء ذكر ما ورد في الضعاف كقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير. روي عن عدة من الصحابة مرفوعاً وانه خير ما يقال.

قضينا جل نهار عرفة بذكر الله والدعاء وتيسر لي والحمد لله الاغتسال فيه. وصلينا الظهر والعصر جميعاً في مسجد الصخرات، ورأينا هنالك خطيب عرفة وهو نائب الشرع بمكّة وقد صعد بناقته فاستوى على تلك الصخرة من جبل الرحمة ذات التاريخ الاسلامي

العظيم وقد أحاط به الناس وازدحموا من حوله يسمعون منه أحكام المناسك، ومن دونه ومن فوقه في الجبل ألوف من الناس يشاهد بعضهم بعضاً ويراهم من في السفح ومن في بسيط عرفات كلها لأن الجبل مدرّج يشبه ما يتخذ في بعض المدارس الكبرى من المقاعد ذات الدرج المقوسة التي تسميها الفرنجة (انفيتاترو) وكلما لبى وكبر الخطيب لبى من حوله وكبروا وأشاروا بأطراف ارديتهم البيضاء او مناديلهم ويتبعهم في التلبية والإشارة كل من هنالك من قمة الجبل الى سفحه، فيلبي سائر الناس ويكبّرون، فيتموج بأصواتهم الهواء، وترتج الجواء، حتى تصل الى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والثناء، والضراعة والدعاء، الى من استوى الى عرشه المجيد، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد. فيا له من موقف ما أعظمه، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة، وقد يكون التشبيه على أكمله في ذلك المساء، فإنه وقت يكون فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه الى ربه، ما لا يعهد مثله في وقت من اوقات حياته، يشعر - والناس محيطون به من كلّ جانب - بأنه في خلوة لا يشغله فيها عن ربه شاغل، ولا يشوب خشوعه له وبكاؤه من خشيته وسروره بمناجاته رياء ولا سمعة، بل لا يكاد يخطر بباله ان أحداً هنالك يرى أحداً. فما أعجب شأن هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهده بإيمان وعرفان، بين مزايا عبادة الخلوة وعبادة شعائر الاجتماع، بل أقول ان له مزية على سائر الشعائر لا يعرفها إلا من ذاقها.

وقبيل الغروب أقبل الشريف أمير مكة بموكبه الحافل حتى صعد أدنى جبل الرحمة فكان قريباً من موقف الخطيب وتلاه ركب المحمل المصري. وحينئذ أطلقت المدافع، وعزفت المعازف، (الموسيقى) واستعد الناس للدفع من عرفة، لأجل مبيت تلك الليلة بمزدلفة، وبدأ الدفع بعد الغروب. فركبت السيدتان هودجهما، وسار الرفيقان الكريمان والخدم معهما، وتفضل السيد الزواوي بإرسال نجله السيد عبد الرحمن معهم وعهدنا اليه ان يذهب بهم الى منى ليلاً بعد اداء أدنى ما يجب من المقام بمزدلفة ويعبر عنه بالمبيت، ورافقني هو فدفعنا معاً على دابتين فقطعنا ذلك الطريق، في ذلك الوقت المعتدل اللطيف، ونحن نجأر الى الله تعالى بالتلبية والتكبير، ولقد وصفنا تأثير التلبية في الطريق بين جدة ومكة، وأين تأثير طريق مكة من تأثير عرفة؟ وما أبعد الفرق بين حال المبتدىء بهذه العبادة - عبادة المناسك - الذي لم يذق منها إلا طعم الاحرام والتلبية، وبين من شاهد بيت الله عز وجل وطاف به كثيراً وسعى بين الصفا والمروة متذكراً تلك الآيات البيّنات، ثم أقام ركن الحج الاكبر وهو الوقوف بعرفة فامتلأ قلبه إيماناً وعرفاناً، وانثنى بين الالوف من الموحدين يكبّر الله على هدايته تكبيراً، ويكرر التلبية له تكريراً؟.

(المبيت بمزدلفة وقصر الصلاة وجمعها)

الإلمام بمزدلفة ليلة النحر وذكر الله عند المشعر الحرام (أي فيها) واجب وجعله بعض علماء الاثر ركناً، وقد ثبت في السنة التعجّل بالضعفة كالنساء والصبيان بالإفاضة من

مزدلفة الى منى بعد غياب القمر. وأدنى الواجب الوقوف فيها ليلاً لذكر الله تعالى وأما المبيت الى الصباح فهو سنة كما بينا في المناسك.

نزلت مع السيد الزواوي بفناء مسجد المزدلفة فصليت هنالك المغرب والعشاء قصراً وجمعاً. والسيد لا يقصر في عرفة ومزدلفة ولا يجمع لأنه مكي شافعي، والشافعية لا يجيزون القصر والجمع إلا في السفر الطويل، والحنفية يوجبون الجمع في المزدلفة لأجل النسك، والتحقيق عند أهل الحديث ان القصر عزيمة والجمع رخصة في كل سفر طويل او قصير، وان الجمع في المشاعر أفضل للاتباع، وناهيك بأتباعه ﷺ في أعمال حجة الوداع، التي علم فيها الالوف المناسك وغير المناسك، وأمر ان يبلّغ الشاهد منهم الغائب.

قال الحافظ ابن المنذر: اجمع أهل العلم على ان الإمام يجمع بين الظهر والعصر بعرفة وكذلك من صلى مع الإمام، وذكر أصحاب الشافعي انه لا يجوز الجمع إلا لمن بينه وبين وطنه ستة عشر فرسخاً إلحاقه له بالقصر (قال) وليس بصحيح فإن النبي ﷺ جمع فجمع معه من حضره من المكيين وغيرهم، ولم يأمرهم بترك الجمع كما أمرهم بترك القصر فقال «أتموا فأنا سفر»[1] ولو حرم الجمع لبينه لهم إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. قال ولم يبلغنا عن أحد من المتقدمين خلاف في الجمع بعرفة والمزدلفة بل وافق عليه من لا يرى الجمع في غيره، اهـ.

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في مناسك الحج بعد ان ذكر صلاة النبي ﷺ الظهر والعصر جمع تقديم ببطن عرنة في حدود عرفة وخطبته هنا ما نصه: ويصلي بعرفة والمزدلفة ومنى قصراً، ويقصر أهل مكة وغير أهل مكة وكذلك يجمعون الصلاة بعرفة ومزدلفة ومنى كما كان أهل مكة يفعلون خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر (رض) ولم يأمر النبي ﷺ ولا خلفاؤه أحداً من أهل مكة ان يتموا الصلاة ولا قالوا لهم بعرفة ومزدلفة ومنى «أتموا صلاتكم فأناقوم سفر» ومن حكى ذلك عنهم فقد أخطأ. ولكن المنقول عن النبي ﷺ انه قال ذلك في غزوة الفتح لما صلى بهم بمكة. وأما في حجه فإنه لم ينزل بمكة ولكن كان نازلاً خارج مكة وهناك كان يصلّي بأصحابه، ثم لما خرج الى منى وعرفة خرج معه أهل مكة وغيرهم، ولما رجع من عرفة رجعوا معه، ولما صلى بمنى أيام منى صلوا معه ولم يقل لهم أتموا صلاتكم فأنا قوم سفر[1] ولم يحد النبي ﷺ السفر لا بمسافة ولا بزمان، ولم يكن بمنى أحد ساكنا في زمنه ولهذا قال «منى مناخ من سبق» ولكن قيل انها سكنت في خلافة عثمان وانه بسبب ذلك أتم عثمان الصلاة لأنه كان يرى ان المسافر من يحمل الزاد والمزاد اهـ.وذكر المحقق ابن القيم في الهدي النبوي مثل ما تقدم عن المناسك مختصراً وزاد انه ليس على المسافر جمعة لأن النبي ﷺ لم يصلها يوم عرفة ولا في سفر آخر. وأقول ان عدم أمر النبي ﷺ لأهل مكة بالاتمام في منى وما بعدها ينطبق على حديث أنس «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال او ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»

---

(١) السفر بفتح السين وسكون الفاء جماعة المسافرين كالشرب جماعة الشاربين.

رواه أحمد ومسلم وأبو داود وصرحوا ان الشاك في الاميال والفراسخ شعبة لا أنس. وقال الحافظ في الفتح ان هذا أصح حديث وأصرحه في المسألة.

مكث السيد الزواوي معي قليلاً في المزدلفة ثم ذهب الى منى وأوصى الخادم بإحضار دابتي في الصباح فنمت ساعات واستيقظت في وقت السحر. وقد سخر الله تعالى لي رفاقاً من خير الناس بتّ بجوارهم وقد عرف الزواوي منهم رجلاً مكياً اسمه الشيخ علي مؤمنة، فلما استيقظت وجدتهم ايقاظاً فطلبت منهم ماء فتوضأت وصليت الوتر إحدى عشرة ركعة فلما أتممت صلاتي وجدتهم قد أحضروا الشاي وخصني كبيرهم بإبريق نظيف من نوع جيد منه وقدم لي معه صحناً فيه لوز مقشور وصحناً فيه هشة من الكعك المعروف بالقراقيش فأصبت من ذلك كله شاكراً لهم. وطفق كبيرهم يسألني اسئلة في السنة والاتباع والابتداع واختلاف العلماء والصوفية ويتلقى أجوبتي عنها بالقبول مسروراً بما جليتها به من الشرح والتفصيل. وهذا الرجل بخاري الاصل يعرف العربية وكنت توهمت انه داغستاني وقد ساح في كثير من البلاد، وقد فهمت انه جاور في مكة المكرمة وانه يخرج كل سنة منها الى عرفة ببعض أصحابه في الموسم مشاة ويعودون مشاة. وقد اختلف العلماء في أي الامرين أفضل في المناسك المشي أم الركوب فقيل المشي لأنه الى التواضع وأعون على الدعاء، وقيل بل الركوب تأسياً بالنبي ﷺ فإنه لم يفعل إلا الأفضل لهم من عدة وجوه منها مشاركة أهل الآفاق ببعض مشقة السفر وان ذلك لا ينافي الاتباع.

وقد سألت السيد الزواوي عن هذا الشيخ وعن رفيقه الخاص الشيخ علي مؤمنة وكلفته بعد عودتي ان يسأل عنهما فكتب إلي ان الثاني نشأ من صغره محباً للعزلة والبعد عن كبراء الدنيا وهو على الدوام يخدم العلماء وأهل الطريق من الغرباء ومنهم الشيخ حسام الدين البخاري صاحبكم في المزدلفة: ويقول تلميذه الشيخ علي مؤمنة انه أقام في مصر مدة طويلة وخرج منها في العام الماضي مأموراً عليه (كذا) بالوصول الى مكة والإقامة بها هذا العام وهو الآن موجود في أحد أربطة البخارية بحارة جياد لا يخالط أحداً، لا يعرف ولا يعرف، مواظباً على الجمعة والجماعة كتلميذه الشيخ علي.

ولما طلع الفجر صلينا مع الجماعة ثم ذهبنا حول المسجد نجمع الحصى لرمي الجمار فلما جمعناها ركبت دابتي وسرت وسار أصحابي مشاة قاصدين منى.

الإفاضة الى منى ورمي جمرة العقبة

أفضنا من مزدلفة ملبين مكبرين قبل طلوع الشمس عملاً بالسنة، ومخالفة لما كان عليه عمل الجاهلية من تأخير الإفاضة منها الى طلوعها. ومن السنة المبنية على سبب تاريخي هنالك للاسراع المعتدل في السير في بطن محسر لا فرق في ذلك من الماشي والراكب. وتقدم ان بطن محسر بتشديد السين المكسورة هو الوادي الفاصل بين منى ومزدلفة. قال بعض العلماء ان حكمة الإيضاع فيه ان أهل الجاهلية كانوا يقفون فيه ويذكرون مفاخر آبائهم، ففي الإسراع فيه إظهار البراءة من ذلك. وقال بعضهم ان هذا

المكان هو الذي أهلك الله تعالى فيه أصحاب الفيل الذين جاؤوا من طريق اليمن لهدم بيته المحرم فاستحب الإسراع في الخروج منه لأنه كان موضع سخط الله تعالى وعذابه لأولئك الظالمين المعتدين، ويستحب مثل ذلك في كل مكان مثله كديار ثمود.

ولما وصلنا الى منى قصدنا الجمرة الكبرى جمرة العقبة وكانت الشمس قد ارتفعت فرميناها بسبع حصيات نكبر مع كل حصاة. وفي مثل هذا الوقت رماها النبي ﷺ راكباً، وقد صح انه ﷺ جعل البيت عن يمينه ومنى عن يساره ورمى. وانه كان يكبر مع كل حصاة، وانه قال «اللهم اجعله حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً».

وبعد الرمي جئت الدار المعدة لنزولنا فيها فإذا هي من اعظم دور منى حسناً وسعة وهي لصديقنا الشيخ محمد نصيف، فرأيت السيدتين في قسم النساء منها، والرفيقين في قسم الرجال، والجميع كما أحب، وأعطيت لوكيل الخرج دراهم ووكلته بشراء النسك والذبح عني. وقد قصصت قليلاً من شعر رأسي بيدي، ولم يتيسر لي الإتيان بحلاق الى الدار لأنني أريد الإفاضة الى مكة لأجل طواف الركن. وفي حديث أنس عند مسلم انه ﷺ أتى مني فأتى الجمرة فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر ثم قال للحلاق «خذ» وأشار الى جانبه الايمن ثم الايسر ثم جعل يعطيه الناس.

ومتى شرع الحاج في رمي جمرة العقبة مكبراً تنقطع التلبية التي هي شعار الحج. ويستبدل بها التكبير الذي هو ذكر الله في العيد، ومتى رماها وحلق شعر رأسه او قصره حل له كل ما كان محرماً في النسك إلا ملامسة النساء فإنها لا تحل إلا بالتحلل الاخير بطواف الإفاضة.

رحلة الحجاز(*)

(٨)

طواف الافاضة

بعد ذلك ركبت دابتي وقصدت مكة المكرمة فطفت طواف الإفاضة وهو طواف الركن الذي لا يتم الحج بدونه، وفي اثناء طوافنا شرع أهل مكة في صلاة العيد ورأيت الامير يصلي معهم مأموماً. وكان الرجال يصلون في الجهة الغربية من الكعبة المعظمة والنساء في الجهة الجنوبية وهن كثيرات جداً، ثم سعينا بين الصفا والمروة وهو من أركان الحج وقد سعيت في هذه المرة ماشياً. وقد اختلفت الروايات: هل طاف النبي ﷺ وأصحابه بين الصفا والمروة في حجة الوداع مرة او مرتين؟ ففي حديث جابر عند مسلم أنهم طافوا بينهما مرة واحدة قبل عرفة، وفي حديث عائشة انهم طافوا مرتين اي عند القوم وبعد طواف الافاضة، ورجح المحققون من علماء الحديث رواية جابر وقالوا ان ما ذكر في حديث عائشة مدرج من كلام الزهري لا من كلامها، فمذهب المحدثين ان السعي لا يتكرر، ويقول كثير من الفقهاء ان لكل نسك سعياً لا يسقطه السعي بعد طواف القدوم، وان السعي للعمرة لا يغني عن السعي بعد طواف الافاضة للحج. ولم يصلِّ النبي ﷺ العيد يوم النحر بمكة ولا بمنى كما انه لم يصلِّ الجمعة بعرفة لأنه مسافر ولم يكن يصليهما في السفر، وقال بعض العلماء ان رمي جمرة العقبة للحاج كصلاة العيد لغيره فصلاة العيد لا تطلب منه وان كان مكياً. ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لإقامة السنّة على الوجه الأكمل في حجة أخرى او حجات كثيرة.

هذا وانني بعد الطواف والسعي جئت منزلنا بمكّة واستحضرت حلّاقاً فأخذ شعر رأسي كله بالآلة المعروفة بالمكنة أخذاً أقرب الى الحلق منه الى التقصير ثم عدت الى منى وقد تحللت من الحج تحللاً كاملاً؛ ولله الحمد أولاً وآخراً، وإياه نسأل ان يجعله حجاً مقبولاً وسعياً مشكوراً. وقد بقي من أعمال الحج التي لا يشترط فيها الإحرام.

(*) المنار ج ٢٠ (١٩١٧ - ١٩١٨) ص ٢٧٦ - ٢٨٨.

رمي بقية الجمار وذبائح النسك

الجمار بالكسر والجمرات بالتحريك جمع جمرة وهي في أصل اللغة واحدة الجمر من النار، والحصاة، والقبيلة التي تصبر لقراع القبائل، وكل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون الى أحد. قيل سميت جمرات المناسك بمنى بهذا الاسم لأنها ترمي بالجمار أي الحصى وقيل لأنها مجمع الحصى التي ترمى شبهت باجتماع القبيلة على من ناوأها. وقال أبو العباس أصلها من جمرته ودهرته إذا نحّيته، والتجمير رمي الجمار والمجمر (كالمعظم) موضع رمي الجمار. فأما جمرة العقبة فهي في عقبة منى التي ينحدر منها السائر الى مكة على جانب الطريق، وأما الجمرة الوسطى والصغرى فهما في وسط الطريق الذي يشق منى نصفين وتعرف مواقعهما من صورة منى (خريطتها) وفي موضع كل من الوسطى والصغرى بناء يقرب من شكل المنارة او المسلة قليل الارتفاع حوله حظيرة مستديرة، وكانت دارنا عند الجمرة الوسطى من جهة الشمال وهي أفسح دار هنالك.

وقد بينا كيفية رمي الجمار وحكمته في مناسك الحج كما بينا حكمة ذبائح النسك. وكنا نذبح كل يوم من أيام منى فنأخذ حاجتنا ليومنا ونتصدق بالباقي. وقد كانت الذبائح في السنين الخالية تزيد على حاجة أهل البلاد ومن حولهم من الاعراب لكثرتها، وأما في هذا العام فهي لا تكاد تكفي فقراء الحرم.

الحالة السياسية في الحجاز

في أواخر سنة ١٣٣٤

أتممنا بفضل الله مناسكنا، فنحمد الله تعالى ونسأله ان يتقبل منا، وإذ فرغنا من حديث المناسك، فيحسن ان نتم فوائد هذه الرحلة بما يمكن بيانه الآن من أخبار الحجاز الاجتماعية والسياسية، التي تعدّ من أعظم الاحداث التاريخية، ثم ببعض الطرف الادبية، من المختارات الشعرية، ونبدأ بذكر إنشاء الحكومة الجديدة في مكة المكرمة فنقول:

لما شعر بالاستعداد لتأليف هذه الحكومة أصحابنا اللاجئون اليها، الذين يعدّون من أصحاب الشأن او العمل فيها، اختلفت آراؤهم في ما ينتظر ان تكون عليه، وما ينبغي ان يكون مسلكهم في هذه الحال على كل تقدير يتصوره الذهن، وقد استحسنوا ان يجتمعوا ليلاً ويكاشفوني بآرائهم ويتعرفوا رأيي «والمستشار مؤتمن» ففعلوا. ومما يعدّ من الغريب عند كثير من الناس ان ما كان يجول في أذهان أهل البلاد المختلفة بمكة في هذه المسألة هو عين ما كان يجول في أذهان أهل مصر من الآراء والظنون. ثم ماذا كان؟.

علمنا يوم الخميس سابع ذي الحجة انه قد تألفت فيها حكومة جديدة. على الوجه الذي نشر بعد الحج في العدد السابع عشر من جريدة القبلة بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ وهذا نصه:

الحكومة العربية الجديدة

«ما أزفت الساعة السادسة من نهار الخميس الماضي سابع ذي الحجة حتى اكتظت دار الحكومة بأكابر العرب وعليّتهم انتظاراً لتشريف رجال الحكومة العربية الجديدة ولما كانت الساعة السابعة وصل صاحب السمو الامير عبدالله ومعه سائر الوكلاء فصدحت الموسيقى بالسلام الشريف وأخذت الجنود النظامية المرصوصة على جانبي الطريق السلام العسكري. ولما استقر بحضراتهم المكان في ندوة الحكومة قرىء المرسوم الشريف الصادر من جلالة سيدنا المليك المعظم الى حضرة العلاّمة المفضال الشيخ عبدالله سراج بتعيينه قاضياً للقضاة ووكيلاً لرئاسة الوكلاء وتعيين زملائه حضرات الوكلاء العظام. وهذه صورة المرسوم الشريف:

المرسوم الشريف بتأليف هيئة الوكلاء

حضرة العالم الكامل الشيخ عبدالله سراج

انه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفر أسباب العمران لا بد لها من دواوين يتوزع عليها النظر في الحكومة وما هو في معنى ذلك من مصالح العامة والخاصة، ويتعين بها أساس الوظائف الذي تبنى عليه المسؤولية وتكوين حكومة لبلادنا المحروسة. وبالنظر الى ما تحققناه فيكم من الكفاية والاستقامة، عزمنا بعد الاستعانة بالله عز وجل على توجيه منصب قاضي القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلاً عن رئيس الوكلاء العظام، وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية اسماؤهم، وهم ولدنا عبدالله بن الحسين لوكالة الخارجية ويكون وكيلاً عن وكيل الداخلية، وعبد العزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيلاً عن وكيل رئاسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة، والشيخ علي مالكي وكيلاً للمعارف، والشيخ يوسف بن سالم رئيس البلدية سابقاً وكيلاً للمنافع العمومية، والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقاً وكيلاً للأوقاف مع بقائه في نظارة أمور الحرم كلما يتعلق بوظيفته الشريفة، والشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه وكيلاً للمالية. وذلك لما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على ما يرضي الله، وإننا ننتظر منكم المبادرة الى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها وأرجو الله سبحانه ان يجعلنا بمظهر توفيقه وهداه، في كل ما يحبه ويرضاه.

في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٤ هـ

شريف مكة وأميرها

حسين

ثم تلي مرسوم شريف آخر بتأليف مجلس الشيوخ الأعلى وهذا نصه:

(المرسوم الشريف بتأسيس مجلس الشيوخ الأعلى)

وكيل رئيس الوكلاء وقاضي القضاة مولانا وفقه الله

بما اننا قد استنسبنا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم (مجلس الشيوخ) وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر في كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين والدوائر الرسمية وإبداء الرأي في ما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء وسيقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس العالي، فقد جعلنا رئيساً له جناب الفاضل الأجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد صالح الشيبي. وأعضاءه حضرات الافاضل الاجلاء مفتي الشافعية السيد عبدالله بن محمد صالح الزواوي ومفتي المالكية الشيخ عابد بن حسين والشيخ عبد القادر بن علي الشيبي ونائب الحرم السيد ابراهيم بن علي ووكيل شيخ السادة السيد

محمد بن علوي السقاف والشيخ عبدالله علي رضا والشيخ علي بن عبدالله الشرباصي والشيخ أبو بكر بن محمد خوقير وذوي السيادة والشرف حمزة بن عبدالله الفعر وفنن بن محسن وسليمان بن أحمد بن سعيد وناصر بن شكر ولتبليغهم ما ذكر اقتضى تحريره. اهـ ما نقل عن جريدة القبلة.

في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤

شريف مكة وأميرها
حسين

ولما علم الناس بتأليف الحكومة الجديدة كان حديثها شغلهم الشاغل وكانوا ينتظرون ان يسمعوا يوم الجمعة ثامن الشهر شيئاً جديداً في تعيين شكلها، واستحسن بعض الاخوان الذين رأوا ما رأوا من إكرام الامير مثواي ان أطلب التشرف بمقابلة خاصة أتوسل بها الى عرض ما عرفوا وحمدوا من رأيي في شكل هذه الحكومة ففعلت، نلت الحظوة في أول الليل على سطح في أحد جوانب قصر الامارة، وتوسلت بذكر ما تم من تأليف مجلس الوكلاء الى السؤال عن شكل الحكومة كيف يكون؟ فتفضل الامير بتواضعه المعهود قائلاً: هذا ما نحب ان نأخذ رأيكم فيه. فذكرت رأيي مفصلاً تفصيلاً، ولكنني لم أسمع كلمة ولا رأيت إشارة تدل على استحسان ولا على انكار، ثم استأذنت وانصرفت.

قلت ان جمهور الناس من المكيين والحجاج كانوا ينتظرون ان يسمعوا يوم الجمعة شيئاً جديداً فلم يسمعوا، وكان من صلى الجمعة في المسجد الحرام من المصريين على مقربة من المنبر يلقون السمع الى الخطيب عند الدعاء، فسمعوه بآذانهم يدعو للسلطان محمد رشاد، وخرج الناس من المسجد الحرام، ولم يقع ما كانوا يتوقعون من المبايعة بالخلافة بين الركن والمقام، فزال بذلك ما زال من الظنون والأوهام.

ثم عاد الناس الى الحديث في هذه المسألة في مساء يوم العيد بمنى وأشيع ان المبايعة يحتمل ان تكون ضحوة غد في اثناء الاحتفال المعتاد في سرادق الامير، ذلك بأن العادة قد مضت بأن تكون ضحوة اليوم الاول من أيام منى موعد تهنئة الامير الشريف بالعيد وإتمام المناسك فكان يحضر لديه والي الحجاز وقائد الجند فيه وأمير الحج الشامي والمصري وكبار الشرفاء والعلماء وكبراء رجال الحكومة ووجهاء مكة المكرمة والحجاج ويتلى الفرمان السلطاني الذي يعهد فيه الى الشريف بالنظر في شؤون إقامة الحج وحفظ في الحجاز... ويخلع الوالي على الامير الخلعة السلطانية.

ولما أشيع ما أشيع جاءني أولئك الاصحاب ليلاً للمذاكرة في الامر وبعد طول التشاور فيه اقترحوا عليّ ان أذهب الى مخيم الامارة لاكتشاف الحقيقة إذ قيل ان جمهور رجال الحكومة الجديدة وشرفاء مكة ووجهاءها يرون وجوب المبايعة بالخلافة وإن سيدنا الامير مخالف لهم في ذلك ويرى ترك ذلك الى جماعة المسلمين في سائر الاقطار، وقد بين هذا المعنى بعد ذلك في بعض المنشورات الهاشمية. ولما كان منزلنا بعيداً عن مخيم الامارة وكان الاخوان يعلمون ان الامير لا يسهر كثيراً جاؤوني بجواد كريم فركبته وأسرعت الى السرادق

الخاص فقيل لي إن سيدنا قد نام، وسألت عن نجله الامير عبدالله فقيل انه قد نام أيضاً، فعدت أدراجي الى إخواني فأخبرتهم بذلك وانصرفنا الى مضاجعنا.

بت ليلتي أفكر في هذه المسألة، ولم يبق لي من أعمال النسك ما يشغل قلبي عنها، وكان رأيي في مسألة الخلافة هو ما قيل لي في هذه الليلة عن رأي الامير دون من حوله، وقد أكبرته لذلك، وكان أعجبني من منشوريه الأولين جعل عدواته لفئة الاتحاديين المتغلبة لا للشعب التركي ولا للدولة العثمانية أيضاً - وكذلك كانت الثورة في أول عهدها - وكنت أرى ان مبارزته العداوة للفئة المتغلبة قد يقف بغي زعمائها على العرب عند حد ما اجترح جمال باشا من الموبقات التي هي شر لدولته وكذا لجمعيته لا خير لهما كما توهم، وان نفع الحركة الحجازية، محصور في هذه الفائدة المرجوة، وفي إغاثة جيران بيت الله من المجاعة والهلكة المخيفة، وفي الاحتياط لما يجب اذا سقطت الدولة، وأرى انه يجب السعي لتحقيق ذلك بدون ارتكاب إثم يربو شره على خيره، وكنت أشرت الى رأيي هذا وإلى حسن ظني في الامير الشريف في مقال المحاورة الذي نشر في المنار قبل الحج وقبل العزم عليه ذلك ما بت أفكر فيه، ولما أصبحنا أسرع الناس الى مكان الاحتفال مشرقين وتأخرت الى الضحوة الكبرى فألفيت سرادق الإمارة غاصاً بالناس كذا الفجوة التي أمامه ولو لم يرني بعض من يعرفني هنالك لما تيسر لي اختراق ذلك الجمع الكثيف، والنفوذ الى المجلس الهاشمي الشريف، ولكن رآني من فرج لي فرجة بين الناس دخلت منها الى ان بلغت الحلقة الكبيرة وجلست على كرسي أُخليَ لي فيها، وكان الناس من مصريين ومكيين قد شرعوا في القاء الخطب والقصائد في التهاني والادعية، فرأيت ان القي خطبة في بيان الحقيقة التي عرفتها بالبحث والاختبار، والآراء التي انتجتها تلك الافكار، أشير فيها الى آراء الناس من الحجازيين والآفاقيين وكنت قد بلوت أخبارهم، واكتنهت معرفتهم وأفكارهم، وأذكر ما لدي من الرأي في المسألة الحجازية وما يشترط في ذلك بقدر ما يسعه المقام، فلما فرغ من كان يتكلم قبل مجيئي استأذنت فأذن لي فقمت وقلت ما ملخصه كما نشر في جريدة القبلة.

وكل ما يوضع فيها بين الأهلّة هكذا ( ) فهو من قِبَل جريدة القبلة كما هو ظاهر الا الآيتين الكريمتين: في اولها فهما من أصل الخطبة.

خطبتنا السياسية في منى

أيها المسلمون الكرام، من سكان حرم الله وحجاج بيته الحرام، انكم تعلمون ان الاسلام دين سيادة وسلطة، وأن شريعته أنزلت ليقيم أحكامها أهله، لقوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم﴾ على التأويل المشهور للآية وتعلمون ان الله تعالى قد جعل هذا الدين عربياً إذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان النبي الأمّي العربي محمد صلى الله عليه واله وسلم. وقد بين الله تعالى ذلك بقوله ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بإنزال القرآن عربياً، لأنها مصرحة بأن حكم هذا الدين، مع العلم بأن كتابه المتعبد به عربي. وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين الى تلقّيه والاهتداء به، ثم تبعهم فيه غيرهم من عرب الحجاز فسائر هذه الجزيرة العربية. ثم حمله العرب الى سائر الاقطار ونشره فيها، فامتد في الجيل الاول منهم حتى عمّ نوره الشرق والغرب، وأروا الامم بإقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم يسمعوا له نظيراً كما اعترف بذلك المنصفون من الافرنج وغيرهم.

ثم طرأ الضعف على السلطة الاسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها، وتغلغل الاعاجم في الدول الاسلامية التي تعددت بسبب ضعف سلطة الخلافة. فبعد ان كانت الفتوحات الاسلامية في مد لا جزر معه، صارت دول الطوائف الاسلامية بين مد وجزر، وقوة وضعف، حتى وصلت الدولة العثمانية منها الى درجة عالية، ومكانة سامية، من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب، فُسرَّ بها المسلمون ورضي بعض حكامهم المستقلين بسيادتها طوعاً واختياراً، كما دخل بعضهم تحتها اضطراراً، وقد كان امراء مكة العظام أهل بيت سيدنا هذا (وأشار الخطيب الى جلالة مولانا الامير) في مقدمة من أيّد هذه الدولة واعترفوا بسلطتها وسيادتها، لأجل جمع كلمة المسلمين بها وإعلاء شأن الشريعة الاسلامية بنفوذها (ههنا قال جلالة سيدنا للخطيب صدقت).

ثم ان هذه الدولة قد سرى اليها الضعف ودب اليها الوهن من زهاء ثلاثة قرون وإنني أذكر لكم بعض الشواهد على ذلك من تاريخها الرسمي منذ مئة سنة ونيف.

ان محمد علي باشا الذي كان والياً للدولة على مصر قد زحف على سورية ففتحها، ثم على الاناضول فتوغل فيها، ولولا ان الدولة الانكليزية أكرهته على الرجوع الى مصر لاستولى على بلاد الدولة كلها. وكان ذلك على عهد السلطان محمود الذي كان يُعَدّ مصلحاً في الدولة ومجدداً لها بقضائه على عسكر الانكشارية المختل وإدخاله نظام الجندية الاوربي في الدولة.

تولى السلطان محمود السلطنة في سنة ١٢٢٣ وتوفي ١٢٥٥ فخلفه السلطان عبد المجيد الذي صرّح في خطابه عند اعلان «التنظيمات الخيرية» في كلخانة بأن الضعف والخلل قد طرأ على الدولة منذ ١٥٠ سنة وانه لا بد من تلافي خطر ذلك بالنظام الذي أعلنه بتدبير أساطين الدولة في عهده. ولكن ذلك النظام لم يعد الى الدولة قوتها، ولا أنقذها من الخطر الذي كان يخشى عليها. ودليل ذلك ان أركان الدولة قد خلعوا اخاه السلطان عبد العزيز الذي خلفه سنة ١٢٧٧ وقتلوه او الجأوه الى بخع نفسه بيده سنة ١٢٩٣ بحجة ان استبداده كان حائلاً دون إصلاح الدولة وتجديد شبابها. وولّوا بعده السلطان مراداً ولم يلبثوا ان خلعوه في تلك السنة وولّوا بعده السلطان عبد الحميد الذي كان عاهدهم على العمل بالقانون الأساسي الذي قلدوا فيه الدول الاوربية ظناً منهم بأنهم لا يعتزون إلا بما اعتزت به من الحكم النيابي.

وأما سيرة السلطان عبد الحميد فهي معروفة عندكم لأن العهد بها قريب، وقد خلعته جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده، فماذا كان من أمرها؟ هل كانت خيراً من أولئك السلاطين العظام الذين لم يقدروا ان يصلحوا ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؟ كلا ان زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها هم أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا الى ما وصلوا اليه بكيد يهود سلانيك وشركائهم في النمسة والمانية أقوى أنصارهم، ولذلك نرى أكبر همّهم جمع المال. فلا هم على دين هذه الدولة فيغاروا عليه، بل هم يقاومونه ويهدمونه، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونوا أحرص من حياتها من ابناء سلاطينها وأساطينها.

وإذا نظرنا الى أعمالهم دون عقيدتهم وآرائهم نرى انهم قد فعلوا في الدولة من الافساد والتخريب ما لم يفعله غيرهم فيها منذ أصيبت بالضعف الى ان أصيبت بهم.

ثبت انهم أخذوا من مال الدولة لنظارة الحربية خمسين مليون جنيه ليجددوا قوّتها العسكرية، ثم رأينا دولة البلغار - التي كانت ولاية من ولايات الدولة ولم يتم لها الاستقلال إلا في عهدهم - قد كسرت جيوش الدولة وكادت مدافعها في شطلجة تمزق مسامع أهل الاستانة. وكان السبب الحسي لذلك قلّة ما عند الجيش العثماني من المؤونة والذخيرة والدواب وسائر اسباب الحرب.

وقد خسرت الدولة في عهدهم المشؤوم من الممالك ما لم تخسر مثله في عدة أجيال: خسرت البوسنة والهرسك ببيع الجمعية إياها للنمسة، وطرابلس الغرب وبرقة ببيعها إياهما لايطالية، ومكدونية وألبانية وكريت وجزائر الارخبيل، ونسكت عما خسرته في هذه

الحرب من الولايات ـ فقد أضاعوا نصف الدولة في بضع سنين، وحملوها فيها من أثقال الديون ما لم تحمل مثله قبلهم في بضعة قرون. ثم عمدوا الى الأمّة، فأفقروها كما أفقروا الدولة. فهذا هو الاصلاح الذي خلعوا لأجل القيام به سلطان الدولة وخليفتها عبد الحميد وحجروا على خلفه من بعده.

فيا أيها المسلمون الغيورون المبصرون! إذا كان قد ثبت من تاريخ الدولة الرسمي بما ذكرته لكم من شواهده انها كانت ضعيفة يخشى عليها الزوال قبل هذه الارزاء والمصائب التي منيت بها بشؤم هذه الجمعية، فيكون حالها الآن وقد اصطلت بنار هذه الحرب، وتعرضت لعداوة أكبر دول الارض؟.

ان سواد المسلمين الاعظم يغارون على هذه الدولة ويتمنون لها دوام الاستقلال وكمال القوة للسبب الذي بيّناه في فاتحة الكلام، ولكن يقلّ في المسلمين من يعرف حقيقة حالها وكنه الخطر الحائق بها. ويقلّ في من يعرف ذلك من يسعى لتدارك ما يترتب على هذا الخطر اذا وقع من فقد الاسلام لما بقي من أحكام شريعته، وحرمان المسلمين من آخر ما كان لهم من الإستقلال السياسي على علاته.

لم نر أحداً من زعماء المسلمين وكبرائهم قدّر الحال الخطرة التي وصل اليها الاسلام قدرها وانبرى لتداركها الا هذا الرجل العظيم ـ أمير مكة وشريفها ـ فإنه رأى ان الدولة ـ وهو من أعلم أهلها بحالها ـ قد أمست على شفا جرف، وأن ملاحدة الاتحاديين قد اتخذوا الاحكام العرفية والقوة العسكرية ذريعة للتنكيل بالأمة العربية بتقتيل رجال الفكر والعمل ومصادرة أموال أهل الثروة منها حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا في عمل، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء. ولو استطاع ان ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل، ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الأنجال الكرام (هنا قال الامير حفظه الله تعالى للخطيب صدقت).

لكن العمل لإنقاذ الدولة نفسها من الخطر قد أصبح فوق طاقته وطاقة غيره (... صدقت) فرأى ان يبدأ بالمستطاع وهو انقاذ الحجاز مهد الاسلام ومشرق نوره مما نزل به من البلاء والشقاء، ثم إنقاذ غيره مما يمكن انقاذه من البلاد العربية، ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الاسلامي وعدم زواله بما يخشى ويتوقع ان يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى (... صدقت).

لا يخفى ذي بصيرة ان الاتحاديين ما حشدوا الألوف من جيوشهم في الحجاز إلا بنية سيئة لأنهم يعلمون كما نعلم ان أعداءهم الحلفاء لا يحاولون الاستيلاء على الحجاز ولا يحاربون أهله، فكان من المعقول ان يرسلوا تلك الجيوش الى قتال أعدائهم الروس وإنقاذ ما فتحوه من الولايات التركية، ولكن التنكيل بالعرب أهم عندهم من دفع الروس عن عقر دارهم. ولو تم لهم ما أرادوا لرأينا من فظائعهم في الحجاز ما هو أشد من فظائعهم في الشام (... صدقت).

نعم ان الحلفاء لا يحاربون الحجاز ولكن وجود الجيوش الاتحادية فيه ألجأهم الى

ضرب الحصر البحري على ثغوره فضاقت المعيشة على أهله حتى باعوا حليّهم وأثاثهم وأبواب بيوتهم وخشب سقفها ولو طال عليهم أمد ذلك سنة أخرى لأكلتهم المجاعة وما يتبعها عادة من الأوبئة (... صدقت).

أعلن سيدنا هذا استقلال العرب في الحجاز. والحاجة قد اشتدت اليه حتى وصلت الى حد الضرورة. وما كان ليوجد في الأمة العربية ولا الأمة الإسلامية كلها من آتاه الله من البصيرة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه ما ينهض به للقيام بهذا العبء العظيم، ولولا ثقته بالله وتوكله عليه لما تجرأ على ذلك لأننا كلنا نعلم انه لا يوجد في الحجاز قوة عسكرية ولا ثروة مالية يعتمد عليها في مثل هذا العمل (تصديق...).

كلنا نعلم انه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة إسلامية تخلف الدولة العثمانية إذا ما وقع بها ما نخشاه عليها الا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية لما خص الله تعالى به هذه البقعة وأهلها من الخصائص، ولا يعقل ان يحفظ استقلال الاسلام في مثل بلاد الافغان إن هو زال من مهده وموطن نشأته ومحلّ إقامة شعائره. انفردت هذه البقاع الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الاسلامي لإقامة استقلاله. وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر بالنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الاستقلال. فكان له بعمله أكبر منة في أعناق أهل هذه البلاد وفي أعناق جميع المسلمين الذين يشعرون بأن أمر هذا الاستقلال هو أهم المصالح العامة الدينية والاجتماعية. ولكن منهم من فقد هذا الشعور.

أيها الحجازيون ان من يكفر منكم لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعم. أيها المسلمون يجب ان تعلموا ان هذا العمل أعظم خدمة للاسلام في هذا الزمن. فإن الدولة العثمانية ان سلمت من السقوط وحفظ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره مانعاً من ذلك ولا من تعاضد العرب والترك مع حفظ حقوق كل منهم. وان سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه ولكنه يكون سبباً لحفظ استقلال الحكم الاسلامي في أشرف بقاع الاسلام، بل لا يغيب عن أذهانكم انه لولا إعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ غنيمة في أيدي الدول الفاتحة. فإن تركوهما بعد ذلك لنا كان لهم منة التصدق بهما علينا. وإلا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله تعالى. وبهذا يتبين لكم ان هذا العمل العظيم، الذي قام به هذا الزعيم العظيم، قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من هذا الخطر الجسيم. ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الاسلامي بإنشاء دولة جديدة له. فله بهذا أكبر منة على جميع المسلمين. وما أقول هذا تملقاً له ولا مدحاً شعرياً، وإنما هو الحقيقة البيضاء الناصعة بينتها لكم بالإيجاز الذي يحتمله المقام والسلام اهـ. الخطبة.

قالت جريدة القبلة مقفية على هذه الخطبة،: «وبعد ان جلس (أي الخطيب) أثنى عليه جلالة سيدنا أيده الله بروح من عنده وقال للناس انه لم يره إلا منذ أيام قليلة. ونزيد عليها انه قد صرح بأنني عبرت في المسألة عن فكره ورأيه ولم يسبق له مكاشفتي به وانه

لم يرني الا منذ أيام قليلة، وهو صادق في ما قال. وإنني ما كنت أرجو ان يرضيه خطابي إلا من باب حسن الظن فيه الذي استنبطته مما كنت أعلم من سوء نية جمال باشا وأعوانه، ومن منشوريه الدّالين على قيامه بما قام به في الحجاز لأجل الداعية التي وصلت الى حد الاضطرار، وانها ضرورة تقدر بقدرها، وهذا هو الحكم الشرعي في مثلها، وقد جعلتها مقدمة للسعي الى ذلك.

وأقول ان وقع الخطبة قد كان حسناً في سمع الجمهور، وكانت موضع حديث الناس وثنائهم، حدثني بذلك الكثيرون في منى ثم في مكة، وقد علمت انها جمعت بين إرضاء الفريقين المتعارضين في الرأي - فريق المتشائمين من ثورة الحجاز الخائفين ان تكون سبباً لضعف الدولة العثمانية وزوالها، على حين لا استعداد لإنشاء دولة إسلامية تحل محلها، وفريق المتفائلين الذين يرجون ان تكون مبدأ دولة عربية مستقلة تحيا بها حضارة العرب الزاهية الزاهرة، حتى ان أصحاب فكرة المبايعة كانوا يرجون عند سماع الخطبة ان تكون مقدمة للمبايعة.

زارني بعد نزولنا من منى الى مكة الشيخ عبد الملك الخطيب أحد أدباء مكة المقربين من الحضرة الهاشمية - وقد تقدم ذكره في هذه الرحلة - فكان جل حديثه الثناء على الخطبة، وقال انني كنت في الحضرة الهاشمية أذكر محاسنها وأنوه بها وان سيدنا وافقني على ذلك وساهمني فيه، ثم ذكر انه كان ينقصها شيء واحد، قلت بل ينقصها عندي اشياء ولكن الوقت لم يكن يتسع لأكثر مما قيل، قال: لم أعن ان في الخطبة نفسها نقصاً بل هي كاملة، وإنما كان ينقصها ان تكون مقدمة للمبايعة، فلو انك بعد إتمامها مددت يدك وبايعت سيدنا لاتبعك الناس وكان أمراً مفعولاً، قلت ان هذا ليس من رأيي ولا من حقي، وما يؤمنني ان يقال لي ما قيل لذلك الشاعر الذي قال:

وخذا النوم من عيوني فإني … قد خلعت الكرى على العشاق

فقيل له خلعت ما لا تملك على من لا يقبل؟ وبهذا حولت المباحثة السياسية الى مفاكهة أدبية.

هذا - وإنني قد تشرفت بعد ذلك الحديث مع الحضرة الهاشمية في موضوع الخطبة، فكان مما قال الامير ان المسألة الجوهرية في الخطبة هي ان الدولة العثمانية على خطر وأنا موافق لك على هذا الرأي من قبل الحركة ولكن أكثر الناس او المسلمين لا يعقلون ذلك. وقد عرضت عليه في هذه الجلسة شيئاً من خلاصة رأيي في المسألة العربية وما يجب اتخاذه من الاحتياط في مسألة الدولة، على الوجه الذي أشرت اليه في خاتمة الخطبة، فأظهر لي الاستحسان، وأحال على الزمان، وقراء المنار يعرفون رأيي مما بسطته في المقالة التاريخية (المسألة العربية) التي نشرتها في الجزء الاول من المجلد العشرين ومنه ان الثورة الحجازية قد أدت وظيفتها، وأفادت ما رجوناه منها، فأنقذ الحجاز وأوقفت بغي البغاة، وأحمد الله انني كنت أسعى الى تنفيذ هذه المقاصد، على تلك القواعد، وإنني الان معتزل الاعمال السياسية وأهلها، منتظر حكم العزيز الحكيم في أمر أمتي والشعوب كلها.

رحلة الحجاز[*]

(٩)

أيام منى ولياليها وأقوال الشعراء فيها

نصوص الشرع في أيام منى

قال عز وجل ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى، واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون﴾ أجمع العلماء على ان الايام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى التي تسمى أيام التشريق. قيل إن سبب تسميتها بذلك أنهم يشرّقون فيها لحوم الأضاحي أي يقددونها ويبرزونها للشمس. وقيل لأن الهدايا والضحايا لم تكن تنحر فيها إلا بعد شروق الشمس، وقيل هو مأخوذ من قول الجاهلية: أشرق ثبير، كيما نغير. أي أدخل ياثبير في الشروق لكي نسرع في الدفع الى منى للنحر، ذلك بأنهم كانوا لا يفيضون من المزدلفة الى منى إلا بعد شروق الشمس ووقوعها على جبل ثبير أعظم تلك الجبال، فأمرنا بمخالفتهم بالإفاضة قبل الشروق. وقيل لأنها أيام تشريق لصلاة يوم النحر فصارت تبعاً له، وأطلقوا التشريق على صلاة العيد وسموا مصلى العيد مشرقاً. والجمهور على ان هذه الأيام هي الثلاثة التي تلي يوم عيد النحر وادخله بعضهم فيها، ولكن تخيير المتقي بين التعجل في يومين أو التأخر إنما هو في أيام منى الثلاثة التي بعد يوم العيد.

ووصفت أيام منى الثلاثة او الاربعة بالمعلومات في قوله عز وجلّ في الحجاج ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام. فكلوا منها واطعموا البائس الفقير﴾ وتطلق الأيام المعلومات على أيام عشر ذي الحجة الاوائل او التسع التي آخرها يوم عرفة.

روى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي نبيشة الهذلي قال قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل» وفي رواية ضعيفة عند غيرهم زيادة «وبعال» بعد الشرب. والبعال والمباعلة بين البعلين (الزوجين) ومعناها صحيح فإنه يحل في أيام منى كل ما كان محرماً بالاحرام حتى التغشي، وإنما يحل بعد طواف الافاضة الذي تتم به

(*) المنارج ٢٠ (١٩١٧ ـ ١٩١٨) ص ٣١٦ ـ ٣٢٨.

أركان النسك كلها. والمراد بالأكل الأكل من لحوم الأضاحي المطلوب بقوله تعالى ﴿فكلوا منها﴾ وغيرها من الطيبات، فإن هذه الأيام أيام عيد وسرور شرع فيها الجمع بين التمتع باللذات المباحة حتى اللهو بالحراب وسماع الغناء وبين ذكر الله تعالى وشكره على إنعامه بها وبالتوفيق لإقامة النسك.

وشعار هذه الايام من الذكر التكبير ويستحب رفع الصوت به والاشتراك فيه عقب الصلوات وفي عامة الأوقات والأمكنة فقد روى سعيد بن منصور وأبو عبيد ان عمر كان يكبّر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الاسواق حتى ترتج منه تكبيراً» وذكره البخاري في الصحيح تعليقاً. وأصح ما ورد في صيغته ما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سلمان قال «كبروا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً» وروي عن الصحابة والتابعين التكبير ثلاثا ومرتين وزيادة التهليل. والظاهر ان النبي ﷺ لم يأمر الناس بصيغة مخصوصة في التكبير والذكر في العيدين وأيام منى كما انه لم يأمرهم بأذكار وأدعية معينة في الطواف والسعي والوقوف بعرفة ليأتي كل فرد او جماعة بما شاؤوا، فلا بأس إذاً بما استحدث الناس من الذكر وصيغ التكبير مما لم يرد عن السلف وان أشار بعض العلماء الى استنكاره لذلك كأنه يراه من البدع باستحداث صفة لعبادة تعد من الشعائر، وهو ما سماه بعضهم بالبدعة الإضافية. وإنما يتجه هذا اذا التزموه جهراً بغير زيادة ولا نقصان، ويتأكد إنكاره إذا صار بحيث تظن العامة انه واجب او مندوب بهذا الوصف. وقد ذكر الامام الشافعي في الأم ان التكبير المشروع في العيدين هو كلمة «الله أكبر» وان التثليث في بدئه مستحب وان لكل احد ان يزيد من الذكر ما شاء.

وكذلك التكبير والدعاء والتضرع عند رمي الجمار، يرمي كل جمرة بسبع حصيات مكبراً مع كل حصاة ويقف عند الاولى والوسطى فيطيل القيام يدعو ويتضرع ولا يطيل عند جمرة العقبة. هكذا كان يفعل النبي ﷺ وروي تقدير قيامه ﷺ عند الجمرتين إلا بقدر سورة البقرة.

وكانت ذبائح النبي ﷺ في حجة الوداع مئة من الإبل بثلاث وستين منها معه من المدينة وجاء علي كرم الله وجهه بالباقي من اليمن وقد نحر النبي ﷺ ٦٣ بيده الكريمة فكانت إشارة الى سني حياته الشريفة وأمر علياً فنحر الباقي. وأمر ﷺ بأخذ بضعة (بفتح الباء قطعة) من كل بدنة فجعلت في قدر فطبخت فأكل هو وعلي منها وشربا من مرقها.

كلمة تاريخية أدبية في أيام منى

سمعنا من الشريف في منى كلمة جديرة بالحفظ والتدوين، قال: كانت أيام منى أول الاسلام من أطيب أيام الحياة - أي لما تقدم بيانه من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية - فلما قربت المواصلات بين الاقطار الاسلامية البعيدة صار ينتقل الوباء الى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه عند اجتماع الناس في منى، فصارت أيام

منى أيام غم وكدر يتعثر الناس فيها بالموتى في كل مكان، وتعدّ الحكومة لها الألوف من الأكفان، ونحمد الله انه لم يمت فيها أحد في هذا العام، لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي اهـ بالمعنى.

أقول من الشواهد المؤيدة لهذه الكلمة التاريخية كثرة ذكر منى في أشعار المتقدمين الغزلية والتغزل بالنساء عند رمي الجمار فيها، وندرة مثل ذلك في غيرها من المشاعر، وعند غير رمي الجمار من الشعائر، ذلك بأن ما تقدم شرحه من تأثير الاحرام ولباسه في القلب وتأثير رؤية المشاعر العظام والطواف بها والوقوف فيها أيضاً ـ كل ذلك مما يصرف الحاج عن كل ما عداه، ولا يدع في قلبه فراغاً واسعاً لغير ذكر الله، لا ذكر الحسان، ولا ذكر الأهل والولد والاخوان، فالتجلي الإلهي في جميع المشاعر، في اثناء أداء جميع المناسك، تجلي هيبة وجلال، الا منى فإن التجلي فيها تجلي أنس وجمال، ولا تنس ما ذكرناه آنفاً من تحلل الحاج فيها من الاحرام، واستباحته ما كان محرماً من الأعمال، وكونها أيام عيد يستحب فيها التمتع بالطيبات، وزد على ذلك ان لياليها هي الليالي التي يكمل فيها نور القمر، وان هواءها اللطيف يجيب اليك السمر:

رفقاً بها يا أيها الزاجر ... قد لاح سلع وبدا حاجر
وخلّها تسحب أرسانها ... على الربُى لا راعها ذاعر
واذكر أحاديث ليالي منى ... لا عدم المذكور والذاكر

❖

لهف نفسي لليال سلفت ... آه لو ترجع هاتيك الليالي
لا تقل لي بمنى تعطى المنى ... بمنى كان من القوم انفصالي

❖

صحبي مضوا فمدامعي ... منهلّة في إثر صحبي
ما فوّق الهجران سهـ ... ـماً فانثنى عن قصد قلبي
كلا ولا نادى الجوى ... الا وكنت أنا الملبي
ولقد وقفت على منى ... لولا المنى لقضيت نحبي

وأشعار الشعراء بالتغزل بالنساء في منى ورميهن الجمار كثيرة من أحسنها قول الشريف الرضي وهو من التغزل الخيالي النزيه:

من معيد لي أيا ... مي بجزع السمرات[1]

---

(١) الجزع بكسر الجيم وسكون الزاي منعطف الوادي ومنحناه والسمرات جمع سمرة وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك وشوكها قصير وورقها صغير ولها برم أي ثمر اصفر يؤكل.

وليالـيّ بجـمـع — ومـنـى والجـمـرات[1]
وظبـاء حـالـيـات — كظبـاء عـاطـلات[2]
رائحـات فـي جـلابيـ — ـب الدجى مـخـتـمـرات[3]
رامـيـات بالعـيـون الـ — ـنجل قـبـل الحـصـيـات
ألعـقـر القلب راحـوا — أم لعـقـر البـدنات[4]
كـيف أودعت فـؤادي — أعـينـا غـيـر ثقـات
أيهـا القـانص مـا أحـ — ـسنت صـيـد الظبـيـات
فـاتك السـرب ومـا — زوّدت غـيـر الحـسـرات
يا وقـوفـاً مـا وقـفـن — فـي ظلال السلـمـات[5]
مـوقـفـاً يجـمـع فـتـيا — ن الهـوى والفـتـيـات
نتـشـاكى مـا عنانا — بـكلام العـبـرات
نـظـر يـشـنـل مـنـا — كـل عـين بـقـذاة[6]
كم نـأى بالـنـفـر عـنا — من غـزال ومـهـاة[7]
آه من جـيـد الى الدا — ر كـثـير اللفـتـات[8]
وغـرام غـيـر مـاض — بلقـاء غـيـر آت
فـسـقـى بطن منى والـ — ـخيف صـوب الغـاديات[9]
وزمـانـاً نـائـم العـذ — ال مـأمـون الوشـاة
فـي ليـال كـاللآلـي — بالغـوانـي مـقـمـرات

(١) جمع اسم المزدلفة وذكر في هذه الرحلة.

(٢) حاليات متزينات بالحلى وهنّ الظبيات بالمجاز وعاطلات غير متحليات وهن الظبيات بالحقيقة.

(٣) الدجا سواد الليل مع غيم يمنع رؤية القمر والنجوم. يعني يخرجن ليلاً لرمي الجمار وغير الرمي من حاجهن فيكون الدجا ساتراً لهن كالجلابيب حالة كونهن مختمرات بخمرهن مبالغة في الستر.

(٤) ذكر ضمير راحوا وقلما يأتي في الفصيح الا لنكتة كتذكيره في السلام على امرأة ابراهيم (ص) في سورة هود وإرادة إذهاب الرجس عن نساء النبي (ص) في سورة الاحزاب لشمول الخطاب للخليلين في الخطابين، ولعل الشاعر هنا يعني انهن يخرجن مع رجالهن.

(٥) السلمات جمع سلمة بفتحتين وهو من شجر العضاه كالسمر ويكثر في جزيرة العرب، والخطاب للرجال الذين يقفون في ظلال شجر السلم مدة وقوف اولئك النساء يتشاكون معهن الجوى بكلام العبرات أي الدموع الدال على ما في القلوب.

(٦) يعني ان كل عين من أعين فتيان الهوى والفتيات تذرف العبرات في موقفها ذاك حتى كأن فيها قذاة تستنبط دموعها وهي ما يقع في العين من عصفة تبن وغيرها.

(٧) المهاة البقرة الوحشية تشبه بها المرأة النجلاء لسعة عينيها وحسنهما، وأشار بغزال ومهاة الى فتيان الهوى والفتيات الذين وصف موقفهن عند الوداع كما علم من ذكر النفر هنا وهو الدفع من منى.

(٨) المراد بالدار دار منى.

(٩) بطن منى واديها والخيف سفح جبالها اي سقاها كلها ما يصوب وينسكب من المطر في الغداة أي اول النهار. فالغاديات جمع غادية وهي السحابة التي تنشأ أول النهار. او المطرة فيه.

غـــرست عندي غـــرس الـ ــــشـــوق ممرور الجنـاة[١]
أيـن راقٍ لـغـــرامـي وطـبــــيـب لـشـكـاتـي[٢]

ومن التغزل الخيالي في منى وغيرها من معاهد النسك وأعماله ما قاله أبو حمد عبدالله بن محمد التنوخي في قصيدته التي مدح بها ثقة الدولة يوسف بن محمد بن الحسين القضاعي صاحب صقّلية الروم وهو:

ولما التـقـينا محـرمين وسيرنا بلبّيك ربىً والركـائب تعسف[٣]
نظرت اليـهـا والمطي كـأنما غوار بها منها معاطس رعّف[٤]
فقالت أما منكنّ من يعرف الفتى فقد رابني من طول ما يتشوف[٥]
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا ونوقف أخفاف المطيّ فيوقف
فقلت لتربيها أُبلغاها بأنني بها مستهام قالتا نتلطف[٦]
وقولا لها ياأم عمرو أليس ذا منى والمنى في خيفه ليس يخلف[٧]
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا بأن عنّ لي منك البنان المطرف[٨]
وفي عرفات ما يخبر انني بعارفة من عطف قلبك أسعف[٩]
وأما دماء الهدي فهي هدى لنا يدوم ورأي في الهوى يتألف[١٠]
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة لنا وزمان بالمودة يعطف

---

(١) الجناة ما يجني من الثمر والظاهر انه أراد بالمرور المر. ضد الحلو. وفعل المرارة لازم لا مفعول له. وإنما الممرور من غلبت عليه المرة بالكسر ما يسمى الصفراء او السوداء من اخلاط البدن. والشريف من ائمة اللغة فلا بد ان يكون لاستعماله مخرج إذا صحت الرواية عنه وان لم يكن استعماله حجة في اللغة.

(٢) الشكاة بالفتح ما يشكى من مرض عرض او ألم ألمّ. سأل ما عز فلا يوجد وهو الراقي لغرامه والطبيب لسقامه، وانما احتاج الغرام للراقي دون الطبيب لأنه وجد نفسي روحي يحتاج الى المسكنات الروحية وان وهمية. والاستفهام استفهام توجع ويأس.

(٣) قوله وسيرنا بلبيك رباً، معناه ان سيرهم ملابس ومصحوب بالتلبية المعروفة، وعسف الركائب خبطها في السير على غير هدى لعله لشدة الزحام او في السري، يقال بات فلان يعسف الليل اذا خبطه في ابتغاء طلبته.

(٤) الغوارب جمع غارب وهو الكاهل او ما بين السنام والعنق، والمعاطس الانوف والرعف الرواعف اي التي يسيل منها الدم، والمراد ان الغوارب جرحت من طول السير والاقتاب عليها حتى كان منها أنوفا راعفة.

(٥) رابه أوقعه في الريبة وهي الشك والتهمة، والتشوف الى الشيء التطلع اليه، أي ان تطلعه وادمانه النظر الينا جعلني اتهمه بأنه يتعمد ذلك لأمر ما في نفسه ثم فسرت ذلك التشوف لصواحبها بسيره حذاءهم اذ سرن ووقوفه اذا وقفن.

(٦) الترب بكسر التاء وسكون الراء اللدة وهي بالكسر من ولد معك فترباها رفيقتان لها من سنها والمستهام من جعله الحب كالهائم في الفلوات لا يهتدي سبيلاً الى النجاة.

(٧) شرع يستميلها بالتفاؤل بنيل مودتها مستنبطاً له من اسماء الامكنة وغيرها على طريق العيافة التي ستذكر في الابيات، وبدأ بذكر منى فجعلها فألا بنيل المنى وهو جمع منية (بوزن غرف وغرفة) ومعناه ما يتمنى وقد تقدم ان خيف منى سفح جبلها.

(٨) طارف الوفاء حديثه وجديده والبنان الاصابع وقد يخص بالعقد العليا منها واحدتها بنانة والمطراف المخضوب بالحناء.

(٩) العارفة المعروف في المعاملة المراد من حديث «من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه» والاسعاف بالحاجة قضاؤها.

(١٠) الهدي بالفتح ما يهدى الى الحرم من الانعام وهي ذبائح النسك والهدى بضم الفتح الدلالة على المطلوب بلطف والايصال اليه كذلك وهو ضد الضلال والمراد ان كلمة الهدي بالفتح فأل دال على تواصل دائم لنا.

فأوصلتا ما قلته فتبسمت وقالت أحاديث العيافة زخرف[١]
بعيشي ألم أخبركما انه فتى على لفظه بُرد الكلام المفوّف[٢]
فلا تأمنا ما استطعتما كيد نطقه وقولاً ستدري أيّنا اليوم أعيف[٣]
اذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى ففي الخيف من اعراضنا نتخوف
وقد أنذر الاحرام ان وصالنا حرام وأنا عن مزارك نصدف[٤]
وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر بأن النوى بي عن ديارك تقذف[٥]
وحاذر نفاري ليلة النفر انه سريع، فقل من بالعيافة أعرف[٦]
فلم أر مثلينا خليلي مودة لكل لسان ذي غرارين مرهف[٧]

ومما قيل في أيام منى ولياليها ما رواه صاحب الاغاني عن معبد المغني الذي يضرب به المثل. قال أتيت أبا السائب المخزومي - وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة - فلما رآني تجوّز أي خفف الصلاة وقال ما معك من مبكيات ابن سريح؟ قلت له:

ولهنّ بالبيت العتيق لبانة والبيت يعرفهن لو يتكلم
لو كان حيا قبلهن ظعائنا حيا الحطيم وجوههن وزمزم
لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطة وهمو على سفر لعمرك ما همو
متجاورين لغير دار إقامة لو قد أجد تفرق لم يندموا

فقال لي: غنه، فغنيته ثم قام يصلي فأطال ثم تجوّز إلي فقال ما معك من مطرياته ومشجياته؟ فقلت قوله:

لسنا نبالي حين ندرك حاجة ما بات أو ظل المطي معقلا

فقال لي: غنه، فغنيته. ثم صلى وتجوّز إلي وقال ما معك من مرقصاته؟ فقلت:

---

(١) العيافة التفاؤل او التشاؤم بحركات الطير ومساقطها واسمائها. هذا هو الاصل ثم توسعوا فيه بمثل ما ترى في هذه الابيات والزخرف الزينة والتزويق تعني انها من زخرف الكلام لا من الحقائق كقوله تعالى ﴿يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا﴾ وفي حديث قبيصة عند ابي داود «العيافة والطير والطرق من الجبت» أي من الخرافات كالكهانة والسحر والحديث صحيح السند.

(٢) البرد الثوب المخطط والمفوف الرقيق، وتعني به لطافة كلامه وحسنه وكونه ينم عما وراءه.

(٣) أعيف اسم تفضيل من العيافة. يقال عاف الطير يعيفها إذا زجرها وتطير بها وهو ما تقدم آنفاً.

(٤) نصدف نعرض.

(٥) أي وقذفي بالحصا في رمي الجمار مخبر لك بأن النوى أي البعد او وجهة السفر «وهي مؤنثة» ترمي به في مكان بعيد عن ديارك.

(٦) النفار والنفور مصدر نفر «من باب نصر وضرب» وهو الشرود بسبب مزعج ومنه نفار الظبي والدابة والنفر للقتال. والنفر التفرق. ويوم النفر وليلة النفر هو يوم ينفر الحاج من منى وهو ثاني أيام التشريق لمن تعجل ويسمى النفر الاول وثالثها لمن تأخر ويسمى النفر الثاني.

(٧) أي لكل منا لسان ذو حدين مرهف من ارهف السيف إذا رقق حده، ويعني بغراري اللسان قدرته على جعل الكلام الواحد على وجهين متقابلين متضادين كجعل اعمال النسك ومواضعه للتفاؤل وللتشاؤم فهو كالسيف ذو حدين.

فلم أرَ كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفتن ذا هوى[1]

فقال كما أنت حتى أثمر لهذا بركعتين:

وأما التغزل في نساء معروفات في وقائع ومشاهد كانت هنالك فكثيرة، لزير النساء الشهير عمر بن أبي ربيعة الشاعر القرشي كثير ـ منها قوله في أيام منى:

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية والدمع منها على الخدين ذو سنن[2]
بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن
ان كنت تطلب دينا او رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

قال ابن سريج المغني ما ظننت ان الله عز وجل ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشداً ينشد قوله: بالله قولي له ـ البيتين ـ فحركني ذلك على الرجوع الى مكة فخرجت مع الحجاج وحججت.

وقد كان عمر مفتوناً بالنساء وحديثهن ولم تكن هيبة بيت الله وسائر المشاعر الشريفة لتصرفه عن مغازلتهن حتى في اثناء أداء المناسك لأنه وهو مكي قد ألفها واعتادها والآفاقيون أشد هيبة وخشوعاً هنالك من الحرميين في الغالب. ومما روي عنه في كتاب الأغاني انه بينما كان يطوف رأى امرأة من أجمل النساء فوقعت في قلبه فدنا منها فكلّمها فلم تلتفت اليه، فعاودها في الليلة الثانية فقالت اليك عني يا هذا فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة فألح عليها يكلّمها حتى خافت ان يشهرها. فلما كان في الليلة الثالثة جاءت بأخيها معها الى الطواف فلما رأى عمر أخاها معها عدل عنها فمثلت بقول جرير:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

وروي ان المنصور حدّث بهذا الخبر فقال: وددت انه لم تبق فتاة في خدرها الا سمعت بهذا الحديث. أقول وهو شاهد على حكمة الشرع في حظر السفر على المرأة الا مع ذي محرم. هذا وان شعر عمر يوهم انه كان من أفسق الفساق ولكن روى صاحب الاغاني عنه انه حلف في مرض موته بالله انه ما ركب فاحشة قط ولا كشف ثوباً عن حرام قط، وحلف مرة بعتق كل مملوك له على ذلك وكان له في الحوك وحده سبعون عبداً.

ومما روي عن غير عمر في هذا الباب تشبيب النميري بزينب الثقفية. ذلك ان يوسف بن الحكم الثقفي والد الحجاج المشهور كان قد اعتلّ في بلده (الطائف) فنذرت بنته زينب لتحجنّ ماشية ان عوفي، فعوفي فخرجت في نسوة فقطعن بطن وج (أي بطن وادي وج) وهو ثلاث مئة ذراع في يوم جعلته مرحلة لثقل بدنها ولم تقطع ما بين مكة والطائف الا في

(١) الشعر لعمر بن أبي ربيعة وإنما لابن جريج الصوت. والتجمير رمي الجمار وافتن بالهمزة كفتن من الفتنة وهو لغة نجد وفي نسخة ديوان عمر المطبوعة افاتن.
(٢) السنن بالفتح الطرق وهي مجاري الدمع.

شهر، وكان محمد بن عبدالله النميري الطائفي يهواها فقال في حجها أبياتاً منها:

تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت	به زينب في نسوة عطرات[١]
تهادين ما بين المحصب من منى	وأقبلن لا شعثاً ولا غبرات[٢]
أعان الذي فوق السماوات عرشه	مواشي بالبطحاء مؤتجرات[٣]
مررن بوجّ ثم رحن عشية	يلبين للرحمن معتمرات
يخبئن أطراف البنان من التقى	ويقتلن بالألحاظ مقتدرات[٤]
وليست كأخرى أوسعت جيب درعها	وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفا مرجلاً	على مثل بدر لاح في الظلمات[٥]
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت	برؤيتها من راح من عرفات

وقد أراد الحجاج ان يفتك بالنميري لتشبيبه بأخته لولا ان منعه منه عبد الملك وكتب اليه ان لا سبيل له عليه على انه ما وصفها هي وصواحبها إلا بالتقى.

وعلى ذكر أبيات النميري فيمن توسع جيب درعها وترفع يدها عند رمي الجمار ليرى ساعدها، وتتراءى يوم جمع أي عند انصراف الناس منها صباحاً الى منى لتفتن من أفاض اليها من عرفات - على ذكرها نقول لا عجب إذا وجد في النساء المفتونات بجمالهن من تحب ان تظهر جمالها في تلك المعاهد الشريفة كما وجد في الرجال مثل عمر بن أبي ربيعة الذي يخرج الى الحج ليغازل النساء، ولكن هذا نادر وأكثر الشعر فيله تخيل، ومنه قول العرجي الشاعر من أبيات كانوا يتغنون بها:

أماطت كساء الخز عن حر وجهها	وأدنت على الخدين برداً مهلهلا[٦]
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة	ولكن ليقتلن البريء المغفلا[٧]

وى أبو الفرج عن عبد الله بن عمر العمري قال: خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها يا أمة الله ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ثم قالت: تأمل يا عمي فإنني ممن عنى العرجي بقوله:

---

(١) تضوع فاحت رائحته وبطن نعمان أي وادي نعمان وهو بين الطائف ومكة ويروى حرف القافية خفرات والخفر شدة الحياء.
(٢) المحصب موضع بين مكة ومنى.
(٣) مؤتجرات طالبات للاجر.
(٤) ويروى يخمرن بدل يخبئن والمصراع الثاني * ويخرجن جنح الليل معتجرات أي متلفعات بالمعاجر على رؤوسهن.
(٥) البنان بكسر الباء جمع بنة بالفتح وهي الرائحة الطيبة وأمل متابعة الشيء وأصله متابعة السقي. والوحف الشعر الكثير الحسن والمرجل من الترجل وهو تسريح الشعر بالمرجل أي المشط. أي وعلت روائح المسك منها شعراً اثيثاً حسناً مرجلا فوق وجه يلوح بينه كالبدر في الظلمات.
(٦) البرد بالضم ثوب مخطط والمهلهل الرقيق النسيج والواهي أي برد لا يستر الوجه لرقته ولعله من الهلل بالتحريك وهو نسيج العنكبوت.
(٧) الحسبة بالضم والاحتساب في العمل اعتداده ذخراً عند الله. والمغفل من لا فطنة له فينتقي فتنة النساء.

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال فقلت لها: فإني أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار. قال وبلغ ذلك سعيد ابن المسيب فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق لقال لها: اعزبي قبحك الله، ولكنه ظرف عباد الحجاز (قال أبو الفرج) ورويت هذه الحكاية عن أبي حازم بن دينار. وذكر حكاية أخرى في معناها فيها ان أبا حازم قال لأصحابه: أدعوا الله لهذه الصورة الحسنة ان لا يعذبها بالنار. وأبو حازم من كبار عباد التابعين. وكان عباد العراق ولا سيما أهل البصرة منهم مشهورين بالشدة في العبادة والزهد ومنهم خرج أكابر الصوفية.

واننا نختم هذا السياق بخبر أبي نواس فاسق الشعراء فقد روي انه كان يهوى جارية لأحد الثقفيين بالبصرة اسمها جنان وكانت حسناء أديبة عاقلة ظريفة تروي الاشعار وتعرف الأخبار فقيل له يوماً انها عزمت على الحج فقال أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا ان أقامت على عزيمتها، ثم سبقها الى الخروج وقال بعد عودته:

ألم تر انني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبباً اليها يقربني وأعيتني الامور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير

وروى صاحب الاغاني من خبر حجه عما شهده وقد أحرم انه لما جنّه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به ويطرب فغنى به كل من سمعه وهو قوله:

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما ان حلك
والسابحات في الفلك على مجاري المنسلك
ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك كل نبي وملك
وكل من أهلّ لك سبح او لبّى فلك
يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لا شريك لك

والعبرة في هذه الوقائع والاشعار من وجوه (منها) انه يدل على انه لا يمكن ان يجتمع النساء والرجال الكثيرون في مكان ينظر بعضهم الى بعض الا ويكون لمغازلة النساء بالكلام او بالنظر فيه كما قال عمر بن أبي ربيعة في أبيات مقصورة:

ومن مالىء عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمي

وإذا كانت معاهد الحج لم تخل من المغازلة والتغزل في أول عصر الحضارة الاسلامية وأول العهد بتحجب النساء والدين لم يزل في قوة سلطانه على الارواح حتى ان أشد المترفين إسرافاً في الخلاعة ومغازلة النساء لم يرتكب في عمره فاحشة فما ظنك في غير هؤلاء وأمثالهم وفي أهل هذاالزمان في غير تلك المعاهد؟ قال لي بعض القسيسين قد مات الدين ولا يقصد الناس المعبد إلا لمغازلة النساء.

(ومنها) ان أقوال الشعراء في معاهد الحج وأيامه وأعماله مما يشوق القلوب اليه الى تلك البلاد كما وقع لابن سريج في اليمن ولأجله كتبت هذا الفصل من الرحلة، وانني وجدت نفسي في أيام كتابتي لهذا الشعر فيه شديدة الشوق الى الحجاز ومشاعره وليالي عرفة والمزدلفة ومنى، على انني لست من المغازلة والغزل في شيء، ولم أر هنالك ولم أسمع عن أحد شيئاً من ذلك ولله الحمد.

ولكنني أذكر في الكلام على هذه العبرة كلمتين لفاضلين مصريين كانا معنا في الحجاز (احداهما) قول أتقى الرجلين وأحسنهما تديناً وهو محصن انه رأى في منى امرأة في نافذة دار مقابلة للدار التي كان فيها تحمل منظاراً تنظر فيه فتوهم انها تنظر اليه فاشتغل قلبه بذلك مدة وجوده في منى (والثانية) قول الآخر وهو أعزب: انني لم أر في الحجاز امرأة وسيمة يشتهي المرء ان يعيد اليها طرفه فهل هؤلاء هن نساء العرب اللواتي شبب بهن الشعراء ذلك التشبيب الفاتن الذي يخيل لقارئه أنهن أجمل نساء الأرض؟ وياليت شعري كيف كان يكون غزلهم وتشبيههم لو كان في نسائهم من الجمال ما نعهد في الآستانة وغيرها؟.

رحلة الحجاز(*)

(١٠)

النفر من منى الى مكة

لما كان يوم النفر رمينا الجمرات لآخر مرة وفي الاصيل شددنا الرحال ونفرنا من منى هابطين الى مكة المكرمة حامدين الله شاكرين له ما وفقنا لإتمام مناسكنا، راجين من فضله وإحسانه ان يكون حجنا مبروراً وسعينا مشكوراً، وعملنا مثاباً، ودعاؤنا مستجاباً، وياالله ما أحلى الشعور الذي يستولي على المرء في اثناء هذا النفر، فإنه على فراقه لذلك المعهد القدسي الذي وصفنا في الفصل السابق ما له في النفس من عظيم الأنس تراه يفارقه قرير العين مطمئن القلب جمّ السرور فرحاً بفضل الله ورحمته، وذلك شأن الإنسان بعد إتمام كل عمل من الأعمال النافعة التي يهتم بأمرها، يفرح في عاقبة إتمامه بقدر ما كان من عنايته به وتعبه فيه، وبقدر مكانة العمل نفسه من نفسه، وما يرجو من فائدته ونفعه، سواء كان ذلك في دنياه او دينه، فمن لم يأل جهداً في أداء المناسك أفاض من منى وهو بحيث وصفنا من الغبطة الروحية، والسكينة والطمأنينة، التي يعبر عنها بعض الناس براحة الضمير، ومن قصر في شيء من تلك الاعمال ولو بترك العزيمة والأفضل خالج غبطته وطمأنينته بعض التمني ولوم النفس: ليتني فعلت كذا، وسأفعل كذا في حج آخر إن شاء الله تعالى. كما تمنى بعض رفاقنا لو باتوا الليل كله في المزدلفة معي.

المقام بمكة بعد الحج

قد كنت أرجأت أموراً مما أنوي عمله في مكة الى ما بعد الحج (منها) ما أشرت اليه قبل من زيارة جميع الذين تفضلوا بزيارتي ولم تتيسر لي زيارتهم قبل الحج (ومنها) زيارة كثير من المعاهد التاريخية والاثار النبوية في مكة وضواحيها إذ لم أشأ أن أخلط ذلك بأعمال النسك كما يفعل بعض العوام الذين يعدّون بعض ذلك من أعمال النسك او من الأعمال المطلوبة شرعاً ولو لغير النسك، ولا يطلب شيء من ذلك شرعاً، لا وجوباً ولا ندباً،

(*) المنار ج (١٩١٧ - ١٩١٨) ص ٣٥٢ - ٣٦٣.

إلا من كانت له نية صالحة في شيء من ذلك وجاء به على وجه يعرفه الشرع ولا ينكره. (ومنها) شراء أشياء كثيرة مما يباع في مكة بعضها لأنفسنا وبعضها لأجل اهدائه لأصدقائنا (ومنها) وهو أهمها شرح ما عندنا من الحقائق في الحالة السياسية الحاضرة لمن يجب شرحها له بعد ان كنا فتحنا أبواب بعض مسائلها فكان الحديث في أكثرها إجمالياً ولا يغني فيها إلا البيان والتفصيل.

لم نلبث ان بدا لنا ما لم نكن نحتسب وفاجأنا ركب المحمل المصري بسفره يوم الخميس ١٤ ذي الحجة من مكة الى جدة، وعلمنا انه قرر ركوب البحر في ثاني يوم وصوله اليها، ولو سافرنا معه لما أمكننا ان ندرك شيئاً مما نريد من مكة، فعزمنا على التخلف عنه يوماً واحداً وهو منتهى ما نملك من التأخير، وماذا عسى يغني عنا اليوم الواحد مما كنا نقدر له أسبوعاً كاملاً لا نستكثره عليه؟ على اننا أدركنا في ذلك اليوم بتوفيق الله تعالى وعناية المحبين ما لا يدرك إلا في أيام، فابتعنا بعض ما نحب من الحلي والحلل من منسوجات الهند الموضونة وغير الموضونة وبعض منسوجات الشام وبلاد الترك والصين وغير ذلك مما يشتري مثله الحجاج عادة، وكان الفضل في شراء ذلك في وقت قصير مع أمن من غبن التجار لنا فيه لصديقنا الشيخ حسين باسلامه، وهو من أشهر أدباء مكة وتجارها، وقد تركنا ما كنا نبغي من الزيارات بأنواعها، ولكن الله تعالى منّ علينا بما هو خير منها كلها، وهو التشرف بدخول بيته العتيق المعظم والصلاة والدعاء فيه.

دخول الكعبة المعظمة

دخلت المسجد الحرام في وقت الضحى من يوم الجمعة (١٥ ذي الحجة) فوجدت باب البيت العتيق المعظم مفتوحاً وفيه بعض شبان آل الشيبي الكرام فرأيت الفرصة سانحة للتشرف بالدخول فيه والوقت هادىء لا يكدر صفوه احتفال ولا ازدحام، وكان يرافقني الشيخ حسين باسلامه فبلغ من هنالك من الشيبيين رغبتي فقابلوها بالقبول والارتياح، فتوضأت من بئر زمزم وأدلى الشيبيون لي السلم، فصعدت فدخلت متذكراً دخول رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، متمثلاً حاله في ذلك اليوم العظيم يوم الفتح، ففاجأني من الهيبة والخشوع والبكاء ما لم يسبق له نظير، ووقفت زمناً لا أستطيع فيه الاحرام بالصلاة ولا النطق بالتكبير، وقد ذكر لي رفيقي باسلامه في هذه الحال المكان الذي صلى فيه صفوة الله من خلقه وعينه بالإشارة على حسب ما بينه الحافظ بن حجر في شرح البخاري فصليت فيه ركعتين هما أرجى ما احتسبه عند الله تعالى من التطوع، ثم صليت في كل جهة من الجهات الثلاث الاخرى ركعتين.

ودخول الكعبة ليس من مناسك الحج خلافاً لما حكاه القرطبي عن بعض العلماء، واختلفت الرواية في دخول النبي ﷺ البيت وصلاته فيه. والتحقيق الذي جمع به بين الروايات الصحيحة المتعارضة انه دخله في عام الفتح لا في حجه ولا في عمرته، وانه صلى فيه ركعتين بين العمودين المقدمين جاعلاً الباب وراءه وبنيه وبين الجدار الذي صلى اليه ثلاثة أذرع بذراع الآدمي تقريباً لا تحديداً، وليس من السنة تتبع المواضع التي صلى

فيها النبي ﷺ للصلاة فيها، ولا مواقفه في النسك كما تقدم في الكلام على موقفه في عرفات، وكذا سائر عباداته، ولم يرو عن أحد من علماء الصحابة انه فعل شيئاً من ذلك الا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) فهو فعل غير مشروع وغير ممنوع، إلا أن يؤتى به على وجه يكون به بدعة وهو جعله كالمشروع بالتزامه او بالاجتماع عليه كالشعائر، فإذا خلا من شبهة البدعة كان كبير الفائدة لذي اللب، لما فيه من حسن الذكر الذي يخشع له القلب، ولعله لم يشرع لئلا يترتب عليه الحرج الشديد بالتزاحم ولتعذر فعله على العدد الكثير كما لو أراد كل حاج ان يقف حيث وقف ﷺ ولسد ذريعة الشرك إذ يخشى على ضعيف العلم بالدين ان يغلو فيه فيجعل للرسول شركة في العبادة التي يتتبع آثاره فيها «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» وإنما ذلك بتوجيه الوجه وإسلامه اليه وحده في العبادة.

وداع الامير وصفاته

علمت ان أمثل الأوقات لوداع الأمير ما بعد صلاة الجمعة فقصدت عقب الصلاة حجرته التي يصلي فيها وهي في جدار الحرم الجنوبي فألفيته جالساً في القسم الخارجي من الحجرة وفي حضرته بعض الكبراء وفي مقدمتهم رئيس الوكلاء والشيخ محمد صالح الشيبي الكبير رئيس مجلس الشيوخ، وكان معي السيد عبدالله الزواوي وكيل المجلس، وعلمنا انه كان في القسم الداخلي حيث صلوا الجمعة نجله الشريف عبدالله وكيل الخارجية مع بعض الناس. فلما دخلت على الامير تلقّاني بالحفاوة والاكرام، فاستلمت يده لتقبيلها فحاول تواضعه التمنع من ذلك، ولما جلسنا تفضل بكلمات من المجاملة كادت تذيبني خجلاً، ونكتفي من كلامه بما دون الاطراء الذي تقتضي الحال حذفه وهو قوله موجهاً الخطاب للحاضرين: هذا فلان... صاحب المنار كلكم تعرفونه وتعرفون ما له من الغيرة والاخلاص والجهاد في خدمة الاسلام... وهو قد جاءنا في هذا العام حاجاً.. وكنا نتمنى أن يبقى عندنا ولكنه صاحب عمل كبير في مصر وهو قد رأى وعرف كل شيء عندنا وظهر له اننا الى الآن لم نقف أمام عتبة عمل من الأعمال (وكان قد ذكر في سياق حديثه ما ينوي من ضروب الاصلاح العلمي والعملي) التي لا بد لنا منها، وان همّنا محصور في اخراج المتغلبة من بلادنا ولا يتم ذلك الا بفتح المدينة المنورة فمتى تم لنا ذلك وأردنا البدء بالاصلاح الذي نبغيه فإننا نرجو من غيرته ان لا تمنعه أعماله في مصر من إجابتنا الى ما نطلبه من معاونته وإرشاده، وهو الآن يقدر ان يخدم حركتنا في مصر أكثر مما يخدمها هنا لو أقام بيننا.

فلما أتم كلامه شكرت له ما أراه مبالغة في حسن الظن والمجاملة، وذكرت ان هذا التواضع عن كمال الرفعة قد أخجلني حتى عقد لساني ولم يبق لي إلا أن أقول إنني أعدّ نفسي كجندي صغير مستعد في كل آن لخدمة دينه وأمته بالإخلاص، وأعاهدكم أمام بيت الله تعالى على انني لا أدعى الى عمل أستطيعه في خدمتهما الا وأبذل فيه كل جهدي ما دمت معتقداً أنه حق، وانه لا يثنيني عن ذلك منفعة شخصية ولا أهل ولا ولد، فإنني نشأت

على العمل بما يوجبه عليّ اعتقادي ويطمئن اليه قلبي. ثم قمنا وتقدمت لوداعه، ومحاولة تقبيل يده فأخذ بيدي وتوجه بي الى بيت الله عز وجلّ من حيث يرى من نافذة المكان وقال: أسأل رب هذا البيت ان يجمعنا ولا يجعل هذا آخر العهد بيننا. ثم ودعت الحاضرين وانصرفت حامداً شاكراً.

صفات الأمير وشمائله

قد آن ان أذكر في هذه الرحلة بعض ما علمته واستنبطه من صفات هذا الأمير الجليل ومزاياه التي يوافق ذكرها مقتضى الحال فأقول: انه حوى جل اخلاق ملوك الشرق وأمرائه العظماء، وانفرد بصفات ورثها من أجداده الشرفاء، فمن ذلك ترى الضيوف وإجازة الوفود، وعزة النفس والثقة بها والاعتماد عليها، والثبات والاصرار على ما يأخذ به ويجري عليه فقد تتزلزل الجبال دونه ولا يتزلزل، وشدة الحذر، وسوء الظن الذي عدّ من أزكى الفطن، حتى كان نصب عينيه قول الشاعر:

وإنما رجل الدنيا وواحدها　　　من لا يعوّل في الدنيا على رجل

ولذلك تراه ينظر في كل شيء من شؤونه الخاصة، وشؤون البلاد العامة، حتى أمور المنزل وشؤون الضيوف والوفود ونفقاتهم، ومصالح البدو وصلاتهم، وقد أعطاه الله تعالى قوة غريبة فهو يشتغل بالنظر في ذلك كله عامة النهار ولا يشكو مللاً ولا تعباً، وقد كلمته في مسألة الاشتغال بالجزئيات ووجوب نوطها ببعض العمال، وجعل وقته الثمين خاصاً بالمصالح العامة والأمور الكلية، ووضع نظام لذلك، فقال ان هذا ضروري لا مندوحة عنه ونحن لا نزال نجري على نظامنا القديم، والتحول عنه الى غيره لا يتأتى إلا في زمن غير قصير، قلت نعم وإنما الغرض وضع النظام له والبدء فيه.

ومن أخلاقه وشمائله توخي التواضع في القول والفعل، مع المحافظة على الوقار وأبهة الملك، والأدب العالي في مخاطبة الجليس ومجاملته، مع الاشارة الى ما تقتضي الحال من معارضته، وهو على آدابه وتواضعه شديد الوطأة على المجرمين والمخالفين السياسيين، يأخذهم بأشد العقاب الذي يرهب كل من تحدثه نفسه بأن يعمل على شاكلتهم لا يخاف في ذلك لومة لائم، (ومنها) العفة والنزاهة فهو مقتصد في تمتعه بالطيبات، عزوف النفس عن الانهماك في الشهوات، (ومنها) الشجاعة والاقدام على مكافحة الاخطار، لا يخاف الموت على نفسه ولا على ولده، ولذلك جعل أنجاله الاربعة قواداً لجيوشه، يكافحون المهالك بأيديهم، ويناطحون الموت بنواصيهم.

وهو يحب وطنه (الحجاز) حباً عظيماً، ويكرّم الحفاة العراة من أعرابه تكريماً، وطالما نوهنا بما علمنا من براعته في سياستهم وحفظ الأمن بينهم، وقد رأيناه يقضي في مقابلتهم عدة ساعات من كل نهار، وهم يدمرون عليه بما اعتادوا من الحرية والاستقلال.

أما معارفه وآراؤه في السياسة والأمور الاجتماعية فليس الخوض فيها من مقتضى الحال في هذا الوقت، ولم يكن يسهل العلم بتفصيلها من المذاكرات القليلة التي دارت بيني

وبينه وان كنت كلمته فيها بحرية واستقلال قلّما يكلمه بمثلهما أحد، لأنه قليل الكلام لا يطيل المراجعة والحوار في المسائل ليعلم كنه غوره فيها، ولكن الزمان سيبين كنه ذلك كله بما يظهر من تصرفه في شؤونها. وقد وقفت منه على آراء سيكون لها أعظم شأن في سياسته (منها) يأسه من الدولة العثمانية ولولا هذا اليأس لما أقدم على ما أقدم عليه، كما أشرت الى ذلك في خطبتي السياسية بمنى بين يديه، ثم انه كلمني في هذا الموضوع بعد النزول من منى، وعده من الأمور التي عبرت فيها بالخطبة عن رأيه قبل الوقوف عليه (ومنها) ان له ثقة بالدولة البريطانية وتقديراً لقوتها وعظمتها لا حد لهما، ولا سلطان لشيء عليهما، (ومنها) ان ما شاهده من التطور والتحول في سياسة الدولة العثمانية وافضاء ذلك الى جعلها كالكرة في أيدي جمعية الاتحاد والترقي، قد ضاعف ما في فطرته وتربيته من كراهة الآراء والأفكار التي نشأ عنها ذلك الفساد، وشدة الحذر من أصحاب أمثال هذه الآراء والأفكار، وقد ذكرت في هذه الرحلة ماكان أعجبني ووافق رأيي من خطته السياسية التي أفصح عنها في منشوراته، وأشرت الى ما طرأ بعد ذلك من التحول فيها فلا أعيده، وإنما أقول انه جاء موافقاً لما ذكرت هنا من آرائه الراسخة فظهر ان التجارب لا تزيدها الا رسوخاً وثباتاً.

وانني أختم الكلام بتكرار الشكر والثناء على حسن ضيافته لي وإكرامه إياي، فقد غمرني بكرمه وجوده، وكان من دقة لطفه وكمال ذوقه في ذلك ان جعله بطريقة لا مجال للاعتذار عن قبول شيء منه، وقد كنت قلت أول مقدمي لبعض المقربين منه كلاماً عن عادتي التي شرحتها في المنار عند رحلتي إلى الهند، وهي اني لا أقبل ان تشاب خدمتي للعلم وللملة والأمة بشيء من شوائب المنافع الشخصية، حتى انني كنت أعلن في تلك الرحلة انني لا أقبل الهدية.. ورجوت ان يتلطف في تبليغ ذلك ولن أدري أفعل أم لا، ولكنني بعد شد الرحال وعند إرادة الركوب وصلت إليّ جائزة سنية، او هدية هاشمية، أردت ان أكلم من جاء بها في شأنها فقال هكذا أمرت وأنا لا أعلم شيئاً الا انني عبد مأمور أمرني سيدنا فنفذت أمره، وانصرف، فعجبت من هذا اللطف الدقيق، والذوق السليم.

طواف الوداع وتوديع الاخوان

في اثناء اشتغال وكيل الخرج وأعوانه بشد الرحال، طفت أنا ومن معي الآل والصحب طواف الوداع، وكان ذلك بعد العصر، وكنا قد قصدنا ان نركب في ذلك الوقت، ولكن لم يتيسر لنا الركوب إلا عند قرب غروب الشمس، وودّعنا قبل الخروج كثير من الاخوان والمحبين، وركبنا وركب معنا بعض الاصدقاء مشيعين، وفي مقدمتهم السيد الزواوي الكبير ونجله السيد عبد الرحمن والشيخ حسين باسلامه ومطوفنا ونجله، وخرج معهم الأخ الرفيق الشيخ خالد، اما سائر الرفاق والأهل فقد ركبوا في الشقادف من أول الامر، وأما أنا فركبت البغلة التي أرسلت إلي من الإصطبل الهاشمي مع اثنين من حجّاب الامير مشيا أمامي بملابسهما الرسمية، حتى إذا ما خرجنا من مكة المكرمة وبلغنا المكان المعروف بقهوة المعلم - وقد ذكرناه في الكلام على دخولنا مكة حرسها الله تعالى - ألفينا هنالك صاحب

السيادة الشريف شرف حاكم مكة (القائم مقام الامير فيها) بالانتظار مع بعض رجاله وقد أنفذه للتوديع الحضرة الهاشمية نائباً عنها، وعلمنا انه خرج منذ وقت العصر لأنه هو الوقت الذي عين لخروجنا ولم يتيسر لنا الخروج فيه، فنزلنا وجلسنا معه قليلاً واعتذرنا له عن تأخيرنا وشكرنا له هذا الانتظار الطويل، ثم صلينا المغرب مع المودعين جماعة واتبعتها انا والرفيقان بالعشاء مجموعة معها جمع تقديم، ثم ودعنا السادة المشيعين، وركبنا الرواحل وسرنا باسم الله قافلين، والحمد لله رب العالمين.

ذيل لمباحث الحج في الصدقات وفقراء الحرم

انني عند توديع السيد الزواوي قلت له قد بقي معي في الكيس خمسة عشر جنيهاً انكليزياً من النقود المخصصة للصدقة في الحرم لم يتيسر لي انفاقها فأنا أوكلك في توزيعها على المستحقين، من أهل الصلاح والمروءة المتعففين، وأعطيته إياها، فأرسل إلي بعد عودتي الى مصر ورقة فيها اسماء من صرفها لهم، ومقدار ما أعطى كلاً منهم، وعليها أختامهم. وبهذه المناسبة نقول كلمة في فقراء الحرم والصدقة فيه وفي غيره وما يتعلق بذلك كبحث السؤال.

ان الفقراء المتسولين أول من يستقبل الحجاج قبل دخول مكة وآخر من يشيعهم عند الخروج منها عائدين الى بلادهم، وكذلك شأنهم عند الخروج من مكة الى منى فعرفات وعند العودة من منى بعد انقضاء أيامها. وأكثر هؤلاء المتسولين من صغار الصبيان والبنات، يقلّ فيهم المراهقون والمراهقات، فتراهم يحيطون بالحجاج من كل جانب، رافعين أيديهم الى مقدم الهوادج، وألسنتهم تكرر الادعية المناسبة للأوقات، فيذكرون في أدعيتهم قبل دخول مكة وعند الخروج الى عرفة أداء الحج وقبوله والعودة بالسلامة، وبعد الحج زيارة النبي ﷺ والوقوف بشباك حجرته الطاهرة، ومنهم من يربط كوزاً من الزنك ونحوه بطرف خشبة كالعصا ويرفعها حتى تكون بين يدي الراكب فيكون ما يوضع في كل كوز خالصاً لحامله، وأما الصغار الذين لا يحملون هذه الكيزان فما يرضخ لهم يرمى على الارض فيستبقون لالتقاطه فيكون حظ النشيط القوي منهم أضعاف حظ الخامل والضعيف.

السؤال محرم في الاسلام لا تبيحه الا الحاجة الشديدة او الضرورة التي تبيح كثيراً من المحظورات كأكل الميتة ولحم الخنزير، لأنه ذل يدعو اليه الكسل وحب البطالة والاتكال على أوساخ الناس، والضرورات عوارض تعرض لبعض الناس أحياناً وهي تقدر بقدرها شرعاً، وليس من شأنها ان تكون ملازمة للكثيرين من الاصحاء القادرين على الكسب بحيث تبيح لهم ان يجعلوا السؤال حرفة يكون عليها مدار رزقهم، كما هو شأن أكثر السائلين في كل البلاد، بل يكون بعض هؤلاء غنياً شرعاً تجب عليه الزكاة، وقد يتأثل السائمة والعقار، وإذا كان السؤال لغير ضرورة معصية محرمة وكانت الاعانة على المعصية معصية فعلى المسلم العارف بأحكام الاسلام ان لا يرضخ بشيء لمن يعلم من حاله انه قد اتخذ السؤال حرفة له، ولا لمن يعلم أيضاً انه غير مضطر الى ما يسأله، بأن كان يمكنه ان

يستغني عنه، والمجهول حاله في ذلك موضع تردد ونظر، وأما من يعلم الانسان او يظن من حاله انه يسأل عن ضرورة ولا غنى له عما يسأله ولا وصول له اليه بغير السؤال فلا مندوحة للواجد عن مواساته والرضوخ له من مال الله تعالى، وقد يصل ذلك الى درجة الوجوب، كأن تعلم ان فلاناً مضطر ولا يعلم بحاله أحد يرجى ان يزيل اضطراره سواك وأنت قادر على ذلك، ومثل هذه الصورة تقع للأفراد القليلين وقلما تقع للكثير من الناس الا في أزمة المجاعات العامة.

انني قلما أعطي أحداً من السائلين في الشوارع بمصر، ولما رأيت هؤلاء السائلين خارج مكة عند قدومي اليها ـ وأنا لم أنس ماكان بلغنا ونحن في مصر من خبر العسرة والضيق في الحجاز وما سمعته مؤكداً لذلك في جدة ـ وجدتني مندفعاً لإعطاء كل من سألني، ولما نفد ما كان في كيسي من الدراهم المعدّة لنفقة الطريق من جدة الى مكة أذنت الرفيق الذي صحبني من جدة بأن يعطي من يعلم انه لم يأخذ مني ويحصي ما ينفقه لأرده له بعد الاجتماع بالآل الذين كانوا يحملون نفقتنا في رحالهم. وكنت اردت ان أجري على هذه الطريقة مع السائلين في الحرم الشريف، ثم صدّني عن ذلك انهم صاروا يجتمعون عليّ بكثرة عند الدخول ويحيطون بي بحيث يتعذر توزيع ما في اليد او الجيب عليهم فكنت أنثره على بعد فيتركونني ويتهافتون عليه ثم تركت ذلك لما فيه من المشقة والشهرة ورأيت الراحة في الاخفاء. ولكن رفيقي محمد نجيب افندي ظل يتحمل التعب والعناء في توزيع الصدقة على هؤلاء المتسولين في داخل الحرم وخارجه وله صبر طويل على ذلك. ومن غريب ما رأينا من دلائل البؤس والجوع في الفقراء الملازمين للحرم ان بعض الناس جاء بشيء من الحبوب لحمام الحرم فاختطفوه وصار بعض السودانيين من الدكرور يأخذون منه ويضعونه في أفواههم ويمضغونه متغذين به كالدواب وقد جرينا نحن على عادة الناس بالرضخ بالقليل للواحد من هؤلاء المتسولين بحيث كان صرف الجنيه الواحد يوزع على المئة او المئات منهم، وإنما تطيب النفس بما هو اكثر من ذلك للذين يتعرضون ولا يسألون، والذين اذا سألوا يتحملون ولا يلحفون، وإنما ذكرنا هذا البحث ومع ما وقع لنا من التجربة فيه ليستفيد منه غير العالم بما ذكرنا من الأحكام ، وغير الواقف على ما وقفنا عليه من التجارب، ونسأل اللّه أن لا يجعل فيه شيئاً من الرياء وشهوة الشهرة، على أن صدقتنا مما ينبغي أن يستحيا من ذكره ، فهي والحق يقال دون ما أنعم اللّه به علينا وما من أحد يحج إيماناً واحتساباً الا ويتصدق في الحج بحسب سعته لأن الاعمال الصالحة يضاعف أجرها في ذلك الزمان وذلك المكان، ومنهم من ينفقون هنالك فوق جميع ما نملك من المال، ولكن المتصدق العالم المخلص يجد عناء عظيماً في تحري المستحقين الصادقين، من أهل الايمان واليقين، والصلاح في الدين، يجد هذا العناء في وطنه الذي يقيم فيه، فكيف حاله في بلد يجهل حال أهليه، وقد كثر الكفر والابتداع في الارض، وظهر الفساد في البر والبحر؟ وليس هذا محل شرح هذه المسألة بالاسهاب، وقد ألممنا بها من قبل في المنار.

القفول من مكة الى جدة

اننا لما ودعنا المشيعين الكرام وامتطينا الرواحل اخترت ان يكون محمد أفندي هو الصاحب بالجنب لي، وأن يركب وكيل الخرج مع الاستاذ الشيخ خالد، وكان المناسب ان يركب الاستاذ معي لما بيننا من التعادل والتوازن في الجسم، وطول الصحبة مع التوافق في التربية والرأي، فإننا تعارفنا من أوائل العهد بمقدمي الى مصر، ولا أزال أهدي اليه المنار من ذلك العهد الى اليوم، ولا أرى منه الا الوفاق والثناء والشكر، وإنما اخترت التفرق في الرواحل لثلاثة أسباب ترجح ما ذكرت من الجامعتين الجسمية والروحية بيننا (أحدها) ان في تفرقنا عدلاً بين الراحلتين في التخفيف عليهما، لأن تعادلنا في الجسامة، يقابله تعادل صاحبينا في النحافة، (ثانيها) ان كلاً منا يحتاج الى خدمة رفيقه في الراحلة، ومحمد أفندي يرغب في خدمتي لأنني أستاذه في الدين، فلا يبقى لخدمة الاستاذ الا وكيل الخرج (ثالثاً) ان صاحبي أجدر بالاستفادة مني لأنه اعتاد منذ كان تلميذاً الرجوع الي في أمور دينه، فصرت لعلمي بشؤونه أقدر على إفادته وإفتائه في أمره، وصاحب الاستاذ أجدر بالاستفادة منه لأنه ما فتىء مشتغلاً بوعظ العوام وإرشادهم، وقد حيل بيني وبين ذلك في مصر فلم يقع لي فيها الا مراراً قليلة في السنين الاولى من هجرتي، وأما في هذه السنين الاخيرة فلم يأخذ عني فيها الا بعض المدرسين وأذكياء طلاب العلم، وكان من لوازم هذه القسمة بيني وبين صديقي انني كنت أحسن حظاً منه إذ كان صاحبي من الاتقياء المتعلمين في مدارس الحكومة حتى العالية فيها، العارفين بأخلاق الناس وشؤونهم بطول اختباره وتجاربه في خدمة الحكومة المصرية، وصاحبه من العوام على انه كان يمكنه ان يستفيد من اختباره لشؤون الحجاز وأصناف الحجاج ما لا يعرف الا من أمثاله المتمرسين بهذا الأمر.

سرينا منفردين ليس معنا رفاق من المصريين ولا غيرهم ممن نعرف، ولكنا وجدنا في الطريق عدداً ليس بقليل من حجاج المغاربة منهم المشاة والركبان، وقد بلغنا بحرة في وقت السحر فعرّسنا فيها[1] وكان الجوع قد بلغ منا لأننا لم نتعش قبل خروجنا من مكة فأكلنا مما حملنا من الزاد، وكان جله من لحم خروف أهداه إليّ بعض المحبين لم نر مثله في طراوة لحمه ولينه ودسمه، لا في الحجار ولا في غيره، وهو ليس من ضأن الحجاز. ثم نمنا قليلاً إذ استيقظنا بعد طلوع الفجر فأدركنا صلاته بفضل الله تعالى.

لم أر من بحرة في إلمامي بها ليلاً قادماً من جدة الى مكة الا ما على جانبي الطريق العام من المنازل التي يسمونها القهاوي وهي خاصة بالرجال، وأكثر من ينزل فيها الرجال الذين لا يستغنون عما فيها من الطعام وشراب القهوة، وما يحتاجون اليه من الخدمة، او الذين يريدون الاستراحة قليلاً وان كان معهم كل ما يحتاجون اليه، وكنت حينئذ من هذا الفريق كما تقدم، وفي هذه المرة نزلنا في المنازل التي يسمونها العشش وهي وراء تلك

(١) التعريس نزول المسافرين في آخر الليل للاستراحة.

القهوات، وقد رأيتها فوق ما كنت أحب. رأيتها دوراً في كل دار بيوت من العيدان وبيت خلاء لها حائط منها يفصلها عن غيرها من الدور بحيث يكون النساء في كل منها في ستر تام غير معرضات لأعين أهل الدور المجاورة لها، نزلت مع الوالدة والشقيقة في دار، ونزل رفاقنا في دار بجانبها، ومكثنا هنالك الى ضحوة النهار، وقد نفد ما حملنا من مكة من الماء، فجاءنا وكيل الخرج بماء كدر غير عذب، فسألناه ألا يوجد ماء نقي عذب في هذه الارض؟ قال بلى ولكنه غال لا يكفينا لملء ما معنا من أواني الشرب أقل من ريال، فأمرناه بأن يأتينا بقدر الكفاية منه، فجاءنا بماء لا يفضل الاول إلا بمضاعفة ثمنه، فكانت هذه كبرى سيئاته، جعلها خاتمة لخدمته، فكانت سبب حرمانه مما كنت أنوي ان أجعله علاوة له على الأجرة الوافية التي خصصها له الامير، وما كان يصيبه كل يوم بعد كفايته وكفاية أهله من فضل النفقة المعينة، وما أخذه من ذبائح نسكنا التي وكلته بالتصرف فيها، وقد سبق له مثل هذه السيئة معنا بمنى، جاءنا بماء كدر لولا ان تداركنا أنفسنا بالبحث عن ماء نقي وفقنا له لما سلم أحد منا من مرض النزلة الشعبية التي ظهرت أعراضها في بعضنا، ولكننا غفرنا له تلك. وأما هذه فلم نستطع تداركها، وسوء الخاتمة لا يغفر فنسأله تعالى ان يحسن خاتمتنا.

هذا واننا قد قاسينا من الظمأ في بقية يومنا وعامة ليلتنا بين بحرة وجدة ما لم نعرف له نظيراً في تاريخ حياتنا، فكنا نبلّ أفواهنا من ذلك الماء عند الضرورة، وحاولت الاستغناء عنه بمص رب السوس فلم يغن شيئاً. وفي هذه الحالة تذكرت ما كنت عازماً على استصحابه من مصر فأنسانيه الشيطان وهو السكر الليموني أي الممزوج بحامض الليمون، فأوصي كل مسافر الى تلك البلاد وأمثالها ان يحمل معه شيئاً منه.

وصلنا الى جدة قبيل الفجر فنزلنا في دار صديقنا الشيخ محمد أفندي نصيف وكيل الامارة الجليلة وقد نمنا بعد صلاة الفجر ساعات قليلة، وبعد الاستيقاظ طلبت ماء سخناً للاستحمام فاغتسلت وغيّرت ثياب الطريق وعلمنا ان أكثر الحجاج المصريين نزلوا الى السفينتين اللتين جاؤوا فيهما فتبعناهم وزودنا صديقنا بأحسن الزاد، ونزل معنا هو وبعض الاصدقاء في زورق البلدية البخاري الى سفينتنا التي جئنا فيها (النجيلة) مشيعين، وكان هذا آخر عهدنا بأرض الحجاز، فنسأل الله تعالى ان يمنّ علينا بالعودة اليها مراراً كثيرة حاجين ومعتمرين، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

الرحلة السورية الثانية(*)

تمهيد

هاجر صاحب هذه المجلة من الديار السورية الى الديار المصرية في شهر رجب سنة ١٣١٥ عقب انتهائه من طلب العلم في طرابلس الشام وأخذه شهادة التدريس (العالمية) لأجل القيام بعمل إصلاحي للإسلام والشرق، لا مجال له في بلد إسلامي عربي غير مصر، والاستعانة عليه بصحبة الاستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته، وعمله مع حكيم الشرق وموقظه من رقدته، (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله أرواحهما. وكنت قبل ذلك أمني نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه، ومرافقته في ترحاله ومقامه، فلما توفاه الله تعالى اليه نضيت عني رداء التمني والتواني، وقلت لئن فاتني لقاء المعلم الاول فلن يفوتني لقاء الثاني(1)، وأنشأت (المنار) في أواخر تلك السنة ولم أكن أنوي ان أشتغل بالسياسة ولا بالإصلاح الفكري والنفسي والاجتماعي، ولكن السياسة السوء عدوة الإصلاح ترى بقاءها بفقده وحياتها بموته، فهي لا تترك القائم به إذا هو تركها وقد كان دعاني عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون) - إذ كاشفته في بيروت بعزمي على السفر الى مصر وإنشاء صحيفة إصلاحية فيها - الى رئاسة التحرير لجريدته فقلت له ليس في البلاد حرية تمكنني من ذلك قال اترك الطعن في السلطان واكتب في الاخلاق والآداب ما تشاء فلا تجد مانعاً ولا معارضاً، قلت أرأيت اذا بحثت في الكذب الذي هو شر الشرور على الاطلاق وبينت ان أكبر أسباب فشوه وانتشاره هو الاستبداد المانع من قول الصدق، والمعاقب على التزام الحق، أيمكنني أن أنشر هذا في الجريدة وأكون آمناً من عقاب الحكومة؟ قال كلا ان أمثال هذه المباحث لا يمكن نشرها في غير مصر فعجّل بالسفر ولا تخبر بعزمك أحداً لئلا يصل الخبر الى الوالي فيمنعك منه.

صادرت حكومة سورية العدد الثاني من المنار بعد توزيعه، لمقالة فيه عنوانها (القول

(*) المنار ج (١٩١٨ - ١٩٢٠) ص ٣٧٧ - ٣٨٢.

(١) اطلق لقب المعلم الاول عند المشتغلين بالحكمة العربية اليونانية على الحكيم ارسطو والمعلم الثاني على الرئيس ابن سينا.

الفصل في سعادة الأمة) ليس فيها ذكر لحكومتها ولا لغيرها من الحكومات بسوء، ثم صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بمنع المنار من دخول مملكته في الشهر السادس من عمره وتلا ذلك اضطهاد والدي وإخوتي لأجلي بعد خيبة سعي السياسة لإخراجي من مصر وعرض ما أحب من المناصب والوظائف العلمية او غيرها في ديار الشام او غيرها، وبذلك حرمت من زيارة وطني الى ان أعلن الدستور سنة ١٣٢٧ فزرته عقب إعلانه إذ كانت البلاد ترقص به طرباً والناس يحتفلون فيها لإظهار سرورهم بالخطب والاناشيد، ويحتفون بمن يعود اليهم من المهاجرين المجاهدين، والاحرار المنفيين وأشباه المنفيين، ويتحاورون ويتناجون بما يجول في خواطرهم من الاماني والآمال، وما يرجون من كبار الاعمال، ويقدسون جمعية الاتحاد والترقي ويطرون من عرفوا اسماءهم من زعمائها، ويكرمون كل من لقوا من اعضائها.

قد علم قراء المنار في ذلك العهد انني كنت بإعلان الدستور مسروراً لا مغروراً، وراجياً خائفاً، لا راجياً متمنياً، ولكنني رأيت الناس في البلاد العثمانية سكارى من تأثير ذلك الانقلاب أكثرهم يحسب ان البلاد سعدت سعادة لا شقاء بعدها، وأقلّهم منزعج ممتعض لما فاته من المال والجاه في ظل الحكومة الحميدية وهم أعوان تلك الحكومة وجواسيسها. وقد أشرت الى أسباب خوفي ومثاراته في أول مقالة كتبتها في الترحيب بالانقلاب وأهمها توقع استبدال رجال الثورة من الاتحاديين وقيامهم بالعصبية الجنسية ودعوى «الحاكمية التركية» والغلو في الحرية.

لذلك كانت نصيحتي لأهل بلادي السورية التي أبثها في الأندية والسمار وأودعها أكثر الخطب السياسية والأدبية هي تذكيرهم بما يجب من العناية بالعلم واللغة العربية والتهذيب والثروة ليكونوا احياء أعزاء بأنفسهم، وعضواً رئيساً في بنية دولتهم، وقد رجوت ان أجد ثلّة من الشبان، المفكرين والكهول المحنكين، أولي عزيمة وشكيمة وأخلاق قوية، ينهضون بذلك متعاونين فلم أجد عند أحد أملاً في العمل للأمة من طريق الأمة، بل وجدت الاعناق كلها متطلعة الى الحكومة والآمال كلها موجهة اليها محصورة فيها، فحزنت حزناً شديداً ونبهت الجمهور الى غرورهم بالحرية الموهومة والسعادة التي يتمنونها من اعلان الدستور في مجالس كثيرة كان أوضحها وأظهرها خطبة القيتها في نادي الجمعية العثمانية في بيروت في احتفال كبير دعيت اليه عرضت فيها بتلك الاحتفالات العظيمة بالحرية وشبهتهم فيها بعاشق أم عمرو إذ هام صبابة بها وهو لم يرها، ولا شاهد شيئاً من محاسنها، وإنما سمع رجلاً ينشد في الطريق:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي عليّ فؤادي أينما كانا

فاستنبط من هذا البيت ان أم عمرو أجمل النساء وأجدرهن بأن تعشق فعشقها، ثم لم يلبث ان أخذه من الحزن والجزع لفراقها، بقدر ما أصابه من الشغف والصبابة بها لبيت آخر من الشعر سمعه من رجل آخر مارٍ في الطريق فاستنبط انها ماتت وهو:

لقــد ذهب الحــمــار بأم عــمــرو فــلا رجــعـت ولا رجع الحــمــار

هكذا صرخت بأولئك الجماهير انني أخشى ان تكونوا رقصتم طرباً وهمتم سروراً بحرية متخيلة موهومة، وأن ينتهي الأمر بيأسكم منها وبكائكم عليها قبل ان تروها، وتتمتعوا بما ترجون من السعادة بها، وهكذا كان، ووقع ما كان عندي ولم يكن عند الجمهور في الحسبان، ولم يحل الحول على تلك الحرية الاتحادية وتقديس جميع الشعوب العثمانية لرجال جمعية الاتحاد والترقي حتى نجم في الجمعية قرنا الاستبداد والعصبية التركية، فنطحت بهما الحرية والدستور وآمال الشعوب العثمانية فيهما حتى قضت عليهما فلم يبق لهما في البلاد العثمانية عين ولا أثر،، وما انقطعت آمال هذه الشعوب من الدولة التي دانوا لسلطانها عدة قرون الا وتجددت لهم آمال أخرى في حياة الاستقلال القومي بل صاروا يفضلون الزوال على الخنوع لاستبداد هذه الجمعية المغرورة المتهورة المتكبرة.

كانت الدولة العثمانية في القرون الاخيرة، التي قويت فيها دول أوربة واعتزت، وتواطأت على استعباد الشعوب الآسيوية والافريقية، هي الدولة الإسلامية الوحيدة المعترف لها بالحقوق الدولية معهم، لذلك كان حرص المسلمين على بقائها واعلاء شأنها عظيماً جداً، وكان تعلق الشعوب الإسلامية بها أكبر قوة لها في نظر دول اوروبة بما كانت تتقي إيقاظ شعورهم السياسي بما يوحيه اليهم من الوحدة والاستقلال. ولم تكن لهذه الدولة هذه القيمة إلاّ بكون بلاد العرب التي هي مهد الإسلام وموطن نشأته الدينية والمدنية جزءاً طبيعياً منها، ولكن الاتحاديين المستكبرين احتقروا العرب وبلادهم ودينهم فلم يرقبوا فيهم إلاّ ولا ذمة، ولا ديناً ولا حرمة، فاضطهدوهم وأذلّوهم وحاولوا إبطال لغتهم التي هي لغة كتاب الله ودينه استغناء عنها ومحاولة لنسخها باللغة التي جعلوها لغة «حاكميتهم الملّية» وجعل بلادهم الخصبة كسورية والعراق تركية محضة وجزيرتهم مستعمرة للترك يتصرفون فيها تصرف المالك في عقاره والسيد في عبيده وإمائه.

فلما رأيت بوادر هذه السياسة الاتحادية السوءى رحلت الى الآستانة دار الملك ساعياً لتلافي خطرها، وإيقاف ما كاد يستشري من ضررها، قبل ان يتسع الخرق على الراقع، فمكثت في دار الملك سنة كاملة اطلع طلع القوم بمحاورة زعمائهم ووزرائهم، ومذاكرة علمائهم وعقلائهم، وما عدت من تلك العاصمة إلا وأنا موقن بأن هذه الجمعية ستقضي على هذه الدولة، وان اضطهادها بسلطة الحكومة للعرب سيعيد اليهم عصبيتهم الجنسية التي فقدوها في بلاد حضارتهم كسورية والعراق، وعوّلت على السعي لجعل القاعدة التي يرفع عليها بناء النهضة العربية هي العلم والثروة والوحدة حتى لا تتوقف حياتهم على حياة هذه الدولة ولا يموتوا بموتها، مع الحذر من أن يكونوا باختيارهم سبباً من أسباب سقوطها، والاجتهاد في موالاة الشعب التركي والتعاون معه على مكافحة النزعات الالحادية والنزعات المادية، وقد أسس في اثناء إقامتنا في الآستانة (المنتدى الادبي) لجمع كلمة شبان العرب المشتغلين بتلقي العلوم والفنون في مدارسها والتعاون على طلب العلم والتعارف والتآلف في سبيل الارتقاء.

بعد العودة من الآستانة بأشهر رحلت الى (الهند) فمسقط فالكويت فالبصرة فبغداد فسورية واتفق بعد وصولي الى سورية ان ظفر حزب الحرية والائتلاف في الآستانة بحزب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثين وما كان الفلج لهذا الحزب الا بتألفه من أحرار العرب ومنصفي الترك وكانا حزبين فاتحدا وصارا حزباً واحداً، فرأيت السواد الاعظم من السوريين فرحين مغبوطين بخذلان الاتحاديين بقدر ما رأيت قبل ثلاث سنين من اغتباطهم بهم وافتخارهم بالانتماء اليهم، وانتمى الاكثرون منهم الى الائتلافيين خصومهم، وخفتت أصوات من بقي من أتباعهم فكان الألوف من الناس يجتمعون في الأندية والمحافل يتبارون في إلقاء الخطب والقصائد في الطعن فيهم والتشفي منهم، بعد ان كانت تلقى في الفخر بهم والثناء عليهم، وابتغاء الزلفى عندهم والوسيلة اليهم.

ثم أديل لهم من خصومهم الائتلافيين في عاصمة الملك فنكّلوا بهم فيها شر تنكيل ولم ينج من زعماء هؤلاء الخصوم إلا من فر متنكراً الى أوربة او مصر (ومنهم أمير الالاي صادق بك والاستاذ حسن صبري أفندي ورشيد بك ناظر الداخلية) وكان ذلك كله في اثناء حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة العثمانية حتى كادت دولة البلغار الجديدة تأخذ القسطنطينية منها عنوة، ولولا ما أصاب الدولة منهامن الضعف والوهن وما كان في اثنائها من سحب قواها العسكرية من الولايات العربية لانتقم الاتحاديون ممن أظهروا لهم العداوة في البلاد العربية ولا سيما الذين ألفوا الجمعيات الوطنية كما انتقموا من أعدائهم في العاصمة، ولكنهم لضعفهم أسروا الكيد، وكظموا الغيظ والضغن، وأظهروا الميل الى الإصلاح والجنوح الى الصلح، وكان من أمرهم في إبان انعقاد المؤتمر السوري في باريس ما هو معروف، وفي استمالة طالب بك النقيب بعد محاولة اغتياله ان توسلوا به الى الاتفاق بينهم وبين الامير ابن سعود.

وقبل الانتهاء من تمثيل دور الاتفاق بينهم وبين ممثلي الحركة السياسية من العرب في العاصمة (وفي مقدمتهم أصدق أخلائنا وأشعري سياستنا السيد الزهراوي وباقعة شباننا عبد الكريم الخليلي) اشتعلت نار الحرب الأوربية الكبرى ولم يلبثوا ان أصلوا الدولة العثمانية سعيرها، وأحرقوها بشرر شرورها، وفي اثنائها اختاروا لقيادة فيلق سورية (منبت النهضة العربية) أشد زعمائهم قسوة وأغلظ قوادهم قلباً وأضراهم بسفك الدماء أحمد جمال باشا الذي نكل بخصومهم الائتلافيين في العاصمة ذلك التنكيل الفظيع، ومنحوه السلطة المطلقة فخادع أهل البلاد أولاً بإظهار الميل الى العرب والرغبة في مساعدة النهضة العربية، وجعلها عوناً وظهيراً للنهضة التركية، تأييداً لما يضمها من الجامعة الإسلامية، وما زال ينتقل منهم في الذروة والغارب، الى ان عرف أصحاب الافكار المدبرة، والفصاحة المؤثرة، وأولي المبادىء الثابتة، والعزائم الصادقة، ثم مادّهم في المخادعة الى ان جمع الجيوش من البلاد وقذف ببعضها جيوش الروسية في حدودها الزمهريرية، وألقى بالبعض الآخر في أتون ملحمة الدردنيل الكبرى، ومكّن لنفسه في البلاد - بعد هذا كله بطش تلك البطشة الكبرى تقتيلاً وتصليباً للأفراد النابغين، وتشريداً

وتغريباً للأُسَر والبيوتات وللأغنياء والوجهاء، وتلا ذلك نكبة المخمصة المجتاحة، في إثر المصادرات الكثيرة للأموال الناطقة والصامتة، حتى أكل الناس الأقذار والجيف بل أكلت الأمهات أولادها، وهو يرى ويسمع، ويتمتع ويفسق ويفجر، وينهى ويأمر، وفعل أقرانه وأقتاله في العراق نحواً مما فعل في سورية، فأيأسوا الأمة العربية من الدولة العثمانية، واضطروها الى إعلان الثورة في البلاد الحجازية، فكانت من أسباب تقليص ظلها عن رؤوسهم وزوال سلطانها من بلادهم، ولكنه سبب اضطراري، لا مقصد اختياري، وإنما كان القصد حياة العرب بالحرية والاستقلال، لا إماتة الترك بأيديهم، ولا إماتة أنفسهم تحت أرجلهم، ولامجال في هذا التمهيد للإشارة الى شيء من وصف هذه الثورة ولا بيان ما عرفنا منها وما أنكرنا، وإنما نختمه بأن الحرب العامة انتهت باحتلال جيش الثورة مع جيوش الحلفاء للبلاد السورية بعد مرور بضعة أشهر على استقرار الاحتلال، وتبدُّل الاحوال، وتيسرت لنا الرحلة الثانية الى هذه البلاد، وسنبيِّن ما نرى فيه الفائدة والعبرة مما رأينا تسمعنا فيها، وموعدنا الاجزاء الآتية من المنار.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٢)

لما عقدت الهدنة بين دول الاحلاف والدولة الالمانية منّى نفسه كل من له أهل في سورية وكل من يهتم بشؤونها الاقتصادية والسياسية ان يسافر اليها في أول فرصة وصاروا ينتظرون الاذن بالسفر اليها وعودة البواخر التي تنقل الركاب وعروض التجارة الى سابق عهدها.

وبعد طول الانتظار وقع الاذن مقيداً بشروط عسيرة ومقيداً بقيود ثقيلة زمامها بأيدي السلطة العسكرية المتصرفة في الشؤون السياسية والاقتصادية في العالم تصرفاً مطلقاً والمراقبة على مواصلات البر والبحر فكان مثلي لا يطمع في ان يكون من السابقين الى رؤية وطنه والقيام بشيء من خدمته او مواساة أهله فيه وعشيرته، بل تعذر علي إيصال ثلاثة (طرود) من الاقمشة الى فقراء أهل بلدتي (القلمون) الذين ذهب الجوع والعري في أيام الحرب بثلثيهم، فإنني بعد ان ابتعت القماش ظللت عدة أشهر أسعى الى إرساله بإذن من السلطة الفرنسية التي أعطيت الإشراف على المواصلات والنقل في البحر مع بقاء السلطة العليا في البر والبحر للسلطة الانكليزية بحق القيادة العليا للجيوش المحاربة في سورية الجنوبية (فلسطين) والشمالية، ثم بواسطة لجنة المجاعة التي أرسلت بمساعدة السلطة الانكليزية كثيراً من المواد الغذائية والأقمشة بعد إعطائي الطرود للجمعية بأشهر تمكنت هي من إرسالها الى وكيلها في بيروت فبقيت فيها أشهراً ثم أرسل بعضها الى طرابلس ففقد بعضه ولم يصل باقيها الا بعد وصولي اليها في خريف العام الماضي، فكان ما أردت ان يكسى به الفقراء في شتاء سنة ١٩١٩ كساء لهم في شتاء السنة التي بعدها.

احتلت جيوش الحلفاء جميع البلاد السورية وطفقوا يمهدون السبل لتوطيد نفوذهم وسلطانهم فيها على قواعد معاهدة سنة ١٩١٦ ـ الانكليز في الجنوب والفرنسيس في الغرب الشمالي والعرب الحجازيون في الشرق منه. ولكن مراقبة المواصلات بين سورية وبين مصر وسائر الاقطار كانت مشتركة بين الفرنسيس محتلي المنطقة الغربية والانكليز

(*) المنار ج ٢١ (١٩٢٠) ص ٤٢٨ ـ ٤٣٣.

المحتلين للمنطقة الجنوبية وحدهم والمشاركين للعرب والفرنسيس في احتلال المنطقتين الاخريين، ولم يكن للعرب من هذه المراقبة شيء فلم يكن لي أن أزور البلاد بنفوذهم، بل كتب إليّ علي رضا باشا حاكم المنطقة الشرقية العسكري كتاباً ذكر فيه انهم ينتظرون قدومي كانتظار الظمآن للماء وانه طلبني وهو يتعجب من عدم استجابتي. فكتبت اليه انه لم يبلغني ما ذكر من طلبهم إياي وان أمر سفري ليس بيدي... ثم أخبرني بعد لقائه في الشام انه طلبني خمس مرات...

انني لم أطمع في الاذن لي بزيارة سورية الا بعد استفتاء اللجنة الاميركانية أهل سورية في شكل الحكومة التي يرضونها لبلادهم والدولة التي يختارونها لمساعدتهم.

وعلة هذا ظاهرة لا تحتاج الى بيان، فلما سنحت لي الفرصة بعد هذا الاستفاء وإظهار الشعب لرأيه سعيت الى أخذ الجواز بالسفر الى الشام من طريق سينا وفلسطين فتيسر لي مع المساعدات أخذ هذا الجواز في مدة ثمانية عشر يوماً بعد أخذ عهد كتابي عليّ بأمور سلبية ترجع الى أمر واحد هو عدم القيام بتهييج سياسي.

السفر من القاهرة

سافرت من القاهرة مساء الجمعة السابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٣٣٧ (الموافق ١٢ سبتمبر ايلول سنة ١٩١٩) ولما جئت محطة السكة الحديدية وجدت فيها صديقي رفيق بك العظم جاء لتوديعي في من جاء من الاصدقاء فأخبرني انه قد جاءت برقية من دمشق تفيد ان الامير فيصلاً (ملك سورية اليوم) قد سافر من الشام عن طريق حيفا ليسافر منها الى أوربة فساءني ذلك جد الاستياء لأن لقاء الامير في ذلك الوقت كان هو المرجح الاول لسفري الى دمشق مباشرة دون بيروت وطرابلس، ولعله لو أخبرني بذلك قبل شروعي في السفر لارجأته ولكن ابطال العمل بعد الشروع فيه مفسد للعزيمة مضعف للإرادة، وقد قال تعالى لرسوله ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ وقال عز وجلّ ﴿لا تبطلوا أعمالكم﴾.

ركبت القطار السريع فسار باسم الله في الساعة ٧ والدقيقة ١٥ فوصل الى محطة القنطرة الساعة ١٠ والدقيقة ١٠ أي بعد أربع ساعات تقريباً وهنالك نقل الحمالون متاعنا الى حيث تنظر الجوازات وبعد التوقيع عليها ينقل المسافرون ومتاعهم في سيارات نقل تجتاز الجسر الذي وضع هنالك على ترعة السويس الى موقف قطار سيناء وفلسطين في الضفة الشرقية، وقد علمت ان خط مصر اتصل بعد ذلك بخط فلسطين فاستراح المسافرون من ذلك النقل المزعج. وصلت الى محطة فلسطين فإذا بديع أفندي الحوراني ضابط قلم المخابرات ينتظرني فيها لأجل مساعدتي فتولى هو أخذ تذكرة السفر لي بالدرجة الاولى ووضعي في مركبة ليس فيها زحام، وهو نجل ابراهيم الحوراني العالم الأديب البيروتي الشهير فما رأيته فيه من المروءة والأدب يجري فيه على عرق راسخ ووراثة ثقفت بالتربية والتعليم، وعلمت منه انه كان يتوقع حضوري يوم الخميس في القطار الذي يقوم من القاهرة الساعة ١١ قبل الظهر.

لم يكن السفر في الدرجة الاولى من قطارات هذه السكة بالأمر اليسير، وكنت علمت

ذلك مما كتبه سليم أفندي سركيس الكاتب الشهير في جريدة الاهرام عن رحلته قبلي الى الشام، فإنه ذكر انه أخذ تذكرة للركوب في الدرجة الاولى فأركبوه في الدرجة الثالثة لحاجة الضباط الانكليز الى الدرجة الاولى والثانية لذلك سعيت الى توصية من السلطة العسكرية الانكليزية بأن أركب في الدرجة الاولى فعلاً فنلتها ونفّذها الحوراني أحسن الله مكافأته. وثمن هذه التذكرة ٢٨٢ قرشاً مصرياً صحيحاً يركب بها المسافر الى نهاية الخط وهو مدينة حيفا.

سافر بنا القطار الساعة ١١ والدقيقة ٣٥ وكان سيره بطيئاً ووقوفه كثيراً وعلمنا في الصابح انه تأخر ساعتين عن موعده. وفي ضحوة النهار (السبت) وقف تجاه مدينة غزة الشهيرة التي أحدثت فيها الحرب خراباً عظيماً ووصل الى (اللد) الساعة ٨ والدقيقة ١٥ وسار منها الساعة ٩ وبضع دقائق فوصل الى حيفا الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ نهاراً. فإذا كان القطار تأخر بنا ساعتين كما قيل تكون مسافة سينا وفلسطين الى حيفا تسع ساعات وثلث ساعة. وهذا الخط قد أنشأته السلطة العسكرية في اثناء الحرب بسرعة عجيبة اقتضتها الضرورة فلم يكن متقناً وقد علمت انه يحتاج الى إصلاح يكون به الخط أقوم وأقصر.

قطعنا نصف نهار يطوي بنا القطار أغوار سورية الجنوبية (فلسطين) وأنجادها فلم نر شيئاً من أرضها يدل على العناية الفنية في إنشاء البساتين والكروم إلا ما في مزارع اليهود الصهيونيين. ورأينا ما مررنا به من الزيتون خالياً من الحب لأن موسمه في السنة الماضية كان عظيماً.

السفر من حيفا بسكة الحديد الحجازية

انتقلنا عقب وصولنا الى حيفا من قطار سينا وفلسطين الى قطار سكة الحديد الحجازية ومركباته أحسن من مركبات ذاك وأخذ بعض الحمالين لي تذكرة السفر منها الى (معان) في الدرجة الاولى بمئة قرش وستة قروش مصرية صحيحة وتحرك القطار الساعة ١٢ والدقيقة ٣٥ فوصلنا الى طبرية (س ٣ ق ١٥) وبعد تجاوزها صار سيره في أودية يهبطها وجبال يتسلقها وكان يقف مراراً لسوء الوقود وخلل الآلات وليس في مركباته مصابيح فكنا أول الليل في ظلام ثم طلع القمر فأنسنا به ووصل القطار الى معان (س ١٢ ق ٣٠) فكانت المسافة ١٢ ساعة وقد قيل لنا انه تأخر عن موعده ساعتين كسابقه.

وفي محطة معان مطعم كبير للمسافرين والقطار مكث فيها ريثما يتعشى من شاء من المسافرين ويأخذ القطار طعامه وشرابه من الفحم والماء وقد مكثنا نصف ساعة او أكثر تعشينا فيها ثم استأنفنا السير الى دمشق فبلغناها (س ٢ وق ٢٠) أي قبل الفجر بقليل.

دمشق وفنادقها

بعد وصولنا الى محطة دمشق ببضع دقائق كنا في فندق (فيكتوريا) وهو أقرب الفنادق الى المحطة وأشهرها وأغلاها أجرة فلم أجد فيه غير حجرة في الدور الاول لا يتخللها الهواء ولا النور، أبيتها فوعدت بتبديلها في النهار وسألت الخدم عن حمام الفندق

فقيل انه ليس فيه حمام ولا رشاش ماء (دوش) ولا حنفية ماء لغسل اليدين والرأس فغسلت رأسي في طشت الحجرة وتوضأت وصليت المغرب والعشاء جمع تأخير ونمت ما بقي من الليل.

ولما أصبحت استنجزت الوعد بتغيير الحجرة فلم أجد حجرة صحية بل قيل لي ان بعض النازلين فيها سيسافرون فتخلو حجرهم، ولما حضر طعام الغداء والعشاء وجدت الماء على المائدة غير مثلوج فسألت: ألا يوجد في الشام ثلج؟ قيل بلى ان فيها ثلجاً وجليداً طبيعياً صناعياً ولكن صاحب الفندق منع استعماله اقتصاداً فعزمت على الخروج من هذا الفندق بعد رؤية أشهر الفنادق الكبرى واختيار أمثلها ولكنني لم أستطع الخروج في اليوم الاول لأن بعض من رآني أخبر غيره بأنني جئت الشام ونزلت في (فيكتوريا) فجاء كثير من الوجهاء لزيارتي وفي اليوم الثاني كان الزائرون أكثر ولكنني انتهزت فرصة طفت فيها على الفنادق القريبة فرأيت أمثلها فندق الشرق (أو الخوام) الملاصق لفندق فيكتوريا فانتقلت اليه، وفضّلته بوجود مكان فيه للاستحمام ووجود الماء في بعض مراحيضه ووجود باحة خلوية في وسطها بركة ماء ووجود الماء المثلوج فيه. وأي المزايا خير من مزايا الماء والهواء؟ نعم ان فندق فيكتوريا ـ ومثله فندق (دمسكوس بلاس) أدفأ في الشتاء من فندق الخوام، والاول أنظف ولكن القيود فيه أشد وأثقل.

الزيارات وردها وأحاديثها

زارني من لا أحصي من رجال الحكومة والعلماء والادباء والوجهاء فمنهم من عرفتهم بشخوصهم او مناصبهم ومنهم من لم أعرف وما كان رد الزيارة لكل منهم ممكناً وليس عند أهل الشام من التسامح والتساهل في هذا الامر ما عند أهل مصر وأهل بيروت، فاكتفيت برد الزيارة الى الحاكم العسكري العام والقاضي والمفتي وبعض العلماء والوجهاء الذين عرفتهم كمحمد فوزي باشا العظم وعبد القادر باشا المؤيد واعتذرت للآخرين في الجرائد مع الشكر لهم. وأما خواص إخواننا وأصدقائنا فقد جمعتنا بهم المآدب والسمار في مجالس حافلة من دورهم العامرة كدار الاستاذ الشيخ كامل قصّاب ودار البيطار ودار الماrديني وغيرها، وكان جل حديثنا في تلك المجالس البحث في أهم المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية وقد عودني الناس من أول العهد بدخولي في الحياة العلمية الى اليوم ان يسألوني عن المشكلات الدينية ولا سيما المسائل التي يتعارض فيها الدين مع العلوم والفنون وشؤون العمران. وقد كان حظي من هذا في رحلتي هذه على ما أعهد في سائر البلاد ولكن أكثر مباحث الناس معي في هذه الرحلة كان في المسائل السياسية ما هو واقع منها وما يتوقع.

معاهدة سنة ١٩١٦

اتفق ان أعلن كل من دولتي انكلترة وفرنسة عقب وصولي الى الشام انهما اتفقتا نهائياً على تنفيذ معاهدة (سايكس بيكو) المعروفة بمعاهدة سنة ١٩١٦ وان انكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية وتترك الاولى للجيش العربي الحجازي

والثانية للجيش الفرنسي، وما كان حملها للأمير فيصل على السفر الى أوربة في هذه المرة إلا تمهيداً لهذاالعمل.

وكان أهل سورية عامة يظنون قبل هذا الاعلان ان الدولتين الحليفتين قد عدلتا عن تنفيذ تلك المعاهدة لما رأوه من التنازع بين رجالهما في النفوذ أيام وجود اللجنة الامريكية في سورية وسعي كل منهما في كل منطقة من المناطق الثلاث لكسب أصوات الأهالي في طلب انتدابهم لمساعدة البلاد أي لاستعمارها بهذا الاسم الجديد الذي وضع في قاموس السياسة بعد العلم بنفور الناس كافة من الاسماء الأخرى التي ابتذلت وزال انخداع الناس بها كلفظ الحماية والاحتلال الموقت، فلما أعلنت الدولتان اتفاقهما كبر وقعه وعظم صدعه في قلوب الجماهير الذين خدعوا بذلك التنازع، وظنوا ان انكلترة تفضل العرب على فرنسة فكان كل من زارني منهم يسألني عن رأيي في هذا الحدث الجديد في السياسة الانكليزية فكنت أقول: انكم ترونه جديداً وأراه غير جديد ان السياسة الانكليزية ثابتة وما كان لعاقل ان يظن انها تفضل العرب على فرنسة، وإنما عرض لفرنسة أمل جديد أحدثه إجماع السوريين في بلادهم وفي مهاجرهم كلها على وحدة سورية وعدم تقسيمها الى ثلاث مناطق مختلفة الإدارة والسلطة فحسبت انه يمكنها جعل هذا وسيلة لإعطائهم سورية كلها.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٣)

مخمصة الحرب وسوء أثرها

لم أسمع من أهل دمشق من أخبار الجوع والعري إبان مخمصة الحرب إلا قليلاً من كثير ما سمعت من أهل لبنان والساحل، فدمشق كجزيرة في بحر عظيم من الجنات والبساتين، وأجنادها ورساتيقها ذات خصب عظيم، ولم يكن للترك من السلطات على اهراء غلالها في حوران وجبل الدروز ما كان لهم على غلال لواء طرابلس وحمص وحماه بل كانوا يشترون القمح من الدروز بالثمن الغالي ويدفعون ثمنه من الذهب الاحمر لا من ورق النقد الذي ما كان يروج الا بثلث قيمته او ربعها ـ فلهذا لم يكن شد خناق المجاعة على اهل دمشق محكماً كخناق لبنان وبيروت وسائر السواحل لذلك كان أكثر من مات فيها جوعاً من الذين هاجروا اليها لا من أهلها، على ان الكثير منهم قد باعوا أثاث بيوتهم وجميع ما يملكون وبذلوه في ثمن القوت.

وأما ما جرى في السواحل وجنوب لبنان ولا سيما قضائي المتن وكسروان منه فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ويظنه أكثر أهلها من المبالغات التي يقصد بها الطعن في حكومة الترك، فالحق ان كل ما وصفته كان دون الذي وقع، وقد ثبت عندي ان بعض الناس كانوا يأكلون كل ما يجدونه في المزابل والطرق رطباً يمضغ او يابساً يكسر، وثبت عندي أكل الناس الجيف حتى ما قيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله تعالى.

وأخبرني كثيرون في بيروت وطرابلس ان الناس كانوا يرون الموتى في الشوارع والاسواق والمشرفين على الموت من شدة الجوع ولا يبالون بهم ولا يرثون لأنين المستغيثين منهم، فقد قست القلوب وكزت الأيدي حتى من الذين كانت تتضاعف ثروتهم من الاحتكار الذي ضاعف البلاء وعظم به الشقاء فقد كان هؤلاء وغيرهم من الموسرين تستطاب لهم الالوان المتعددة، وكانوا يقيمون المآدب للولاة وقواد الجيش الذين صبوا كل هذا العذاب

(*) المنار ج ٢١ (١٩٢٠) ص ٤٩٨ـ٥٠٤.

على الأمة والبلاد حتى الطاغوت جمال باشا. وأما حفاوتهم بأنوار باشا ومن زار البلاد السورية معه فلم يسبق لها نظير في أيام الرخاء. وكان الحكام ورؤساء البلديات يهتمون بنقل جثث الموتى والمشرفين على الموت من الطرقات التي يمر فيها أنور باشا أو جمال باشا أو والي بيروت لئلا يتألم شعوره الحجري برؤية ذلك وأنى تتألم الصخور؟.

وقد قيل لي ان بعض الوجهاء قال لأنور باشا على مائدة جمعت أفخر ألوان الطعام من خبز الحواري[1] واللحوم والحلوى والفاكهة: اننا في ظل عدل الدولة العلية ورحمتها نتمتع بكل هذه الطيبات، أو ما هذا معناه!!.

ثبت في آيات القرآن الحكيم ان الشدائد تمحص المؤمنين وتمحق الكافرين وقد ثبت ان شدائد هذه الحرب ما زادت أكثر الناس في كل البلاد الا فساداً وفسقاً وفجوراً، وكان الاغنياء والفقراء في ذلك سواء إلا من عصم الله - الاغنياء ازدادوا قسوة وبخلاً وإسرافاً في الشهوات وكفراً بنعم الله وإعراضاً عن شكرها، والفقراء استباحوا جميع الفواحش وتركوا جميع الفرائض مع الاعتراض على الله عزّ وجل، حتى انهم تركوا فريضة الصيام مع فقد الطعام فلم يكن المسلمون (جنسية) ينوون الصيام في رمضان وان كانوا في شك او ظن راجح بأنهم لا يجدون في النهار ما يأكلون، ومهما يصب أحدهم من لماج (هو أدنى ما يؤكل) كان يلتقمه ولو قبيل غروب الشمس، ولم يكن الباعث على ذلك عدم الطاقة على احتمال الجوع بل مراغمة الشارع ومعاندة الخالق سبحانه وكانوا يصرحون بذلك، وأكثر ما نقل منه نقل عن النساء اللواتي هنّ أشد إذعاناً للدين وخضوعاً لشعوره وأكثر محافظة على الصيام - كانت إحداهنّ تقول: لا أصوم له ولا أصلي له وقد فعل بي كذا وكذا، والأخرى تقول ليرجع لي ولدي من القبر او من العسكر أصم له، ومثل هذا كثير، فأمثال هؤلاء ليسوا من المؤمنين الشاكرين الصابرين فتمحصهم الشدائد وتطهرهم بل من الكافرين بدين الله ونعمه كلهما أو احدهما فزادتهم رجساً الى رجسهم. ومحقتهم بل محقت أممهم بهم.

وقد بغضت اليهم سيرة الحكومة السوءي فيهم خدمة العسكرية ولولا ذلك لفضلوها على تلك المجاعة القاتلة التي كان سببها مصادرة المواد الغذائية لأجل الجند او باسم الجند، وكأيّن من أسرة كبيرة انقرض جميع أفرادها الا من دخل الجندية منهم. سلموا او سلم بعضهم وقد حدّثونا عن أسرة كبيرة في ميناء طرابلس كانت مؤلفة من ٢٧ نسمة دخل الجندية سبعة شبان منهم فسلموا كلهم وهلك العشرون من كبار وصغار وما هلكوا إلا جوعا، وأمثال هذه الحكايات كثيرة.

وميتة الجوع شر من ميتة القتل في الحرب فإن أكثر الذين يقتلون في حروب هذا الزمان تزهق أرواحهم في طرفة عين بغير ألم يذكر وإنما الذي يذكر تألم الجرحى وتشويههم على شدة العناية بمعالجتهم وأما موتى الجوع فلا يموتون إلا بعد آلام بدنية

---

(١) الحوارى بضم الحاء وتشديد الواو لباب الدقيق الابيض.

ونفسية شديدة طويلة الأمد فيهزلون ويضوون أولاً من قلة الغذاء ثم فقده حتى إذا ما وهت قواهم الحيوية وضعف تماسك عضل أبدانهم دب فيها الورم كما يدب في جثث الموتى ومنهم من يصاب قبل ذلك بالكلب او ما يشبهه ومن يعتريهم الجنون والعياذ بالله تعالى، ولا فائدة الآن في إطالة وصف هذا الرجز الأليم.

فائدة الدين في الشدائد

من أعظم فوائد التدين في هذه الحياة الدنيا انه يخفف آلامها، ويهوّن على النفس مصائبها، وذلك ثابت بالنظر والتجربة معاً، ويعرفه المتدينون والملاحدة المعطّلون جميعاً، وقد سمعنا بآذاننا بعض المعطّلة الذين أصيبوا بالأمراض المزمنة ونحوها من المصائب العظيمة يتمنون لو كانوا مؤمنين ليكون لهم بعض العزاء والسلوى باحتساب الاجر عند الله تعالى ورجاء النعيم في الدار الآخرة. فإنهم يعرفون هذه الفائدة من فوائد الدين بالنظر العقلي والعلم بغرائز البشر وبما يشاهدون من صبر المؤمنين وجزع المعطلين.

وليست هذه الفائدة لمن يدينون دين الحق الخالص من شوائب الشرك خاصة بل هي عامة يجدها في نفسه كل من يؤمن بأن للعالم إلهاً وان بعد هذه الحياة الفانية حياة دائمة يثيب الخالق فيها المؤمنين الشاكرين ويعذب الكافرين المجرمين، وإنما أعني إيمان الاذعان، ذا السلطان الأعلى على العقل الوجدان، وان كان تقليدياً قائماً على غريزة الفطرة، غير مؤيد بالبرهان والحجة، ولا شك في ان الذين فقدوا هذه الفائدة اللازمة للدين في اثناء المخمصة وغيرها من مصائب الحرب ليسوا على شيء من الايمان الاذعاني البرهاني ولا الفطري؟ وكل ما كانوا عليه من الدين لا يعدو التقاليد الجافة التي لا منشأ لها في النفس غير التعّود بمحاكاة الأهل والأقربين ومجاراة المعاشرين، وما يوافق منها أحكام الإسلام عند المنتحلين لاسمه فإنما يوافقها في صورته، لا في روحه وحقيقته، ألم تر انهم كانوا يعللون تركهم للصلاة والصيام بما يدل على انهم يظنون في الله غير الحق ظن السوء وان الله تنزه وتعالى محتاج الى صلاتهم وصيامهم فهم لا يبذلون له ما يحتاج اليه منهم الا إذا بذل لهم ما يحتاجون اليه منه جزاء وفاقاً، ﴿ان تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر - وان تشكروا يرضه لكم ❖ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ❖ فلولا اذا جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾.

مهانة هذه الأمة ودناءتها

إلا ان أعضل أدواء هذه الأمة هو السفالة والمهانة والخمود والضعة - وما شئت فاذكر من الكلم المقابل لعلو الهمة والعزة والرفعة، فالمؤمن ضعيف في إيمانه، والكافر دنيء في كفره، والباذل مراء في بذله، والبخيل غبي في بخله، والعفيف خامل في عفته، والشهواني سافل في تمتعه، والقنوع عاجز في قناعته، والمشتغل بالعلم مقلد في علمه، والصالح بليد في صلاحه، حتى ان محب الجاه والعظمة فيها ذليل في عجبه وكبريائه فلا تجد شعباً من

شعوبها ولا حزباً من أحزابها ولا جمعية من جمعياتها بل لا تكاد ترى فرداً من أفرادها ذا مقصد عال كبير يبذل في سبيله النفس والنفيس بعزيمة قوية وإدارة ثابتة وحكمة راسخة، لا يثنيه عن السعي له حيف وقع، ولا خوف من خطر يتوقع، إلا ما قام به الشعب المصري بعد أربعين سنة من نبات النواة التي ألقاها في أرضه مصلح الشرق وحكيمه في هذا العصر السيد جمال الدين الأفغاني وتعاهده بعده خليفته الاستاذ الإمام (طيب الله ثراهما).

وأما الشعوب العثمانية فقد مسخ الحكم التركي أخلاقها وأفكارها بسوء الادارة وفساد التربية والتعليم في المدارس، وزادهم اختلاف أساليب التربية والتعليم في المدارس الاجنبية فساداً ولا سيما في سورية حيث تكثر هذه المدارس، وتفصيل القول في بيان هذا الأمر من الجهتين الاجتماعية والدينية لم يأت اوانه إنما أذكر في هذا الفصل كلمة وجيزة في ما كان من إفساد الاخلاق والآداب برزايا الحرب ومخمصتها وجرائر السلطة العسكرية وقسوتها.

اشتعلت نيران الحرب فاستباحت الدول المتقاتلة لأنفسها إبطال الشرائع والقوانين في زمنها وجعل الحكم الفصل لأمراء العسكر وقواد الجيوش لا في ميدان القتال فقط ولا على الجنود خاصة بل وسعت حدود سلطتهم حتى شملت كل ما يحتاجون اليه للحرب من أموال الناس وأقواتهم ومواشيهم ودوابهم ومركباتهم وأنفسهم، وأي شيء لا يحتاجون اليه، وهم بشر حاجهم حاج البشر، وهم الذين يقدّرون الحاجة ويحكمون وينفذون لا استئناف لحكمهم ولا راد لأمرهم، وإنما كانت تتفاوت تصرفاتهم في غصب أموال الناس ومتاعهم باسم الشراء، وتقدير الأثمان ودفعها او تأجيلها بتفاوت تربيتهم الدينية والنظامية وتختلف باختلاف أحوال من يتصرفون فيهم من ابناء جنسهم او الخاضعين لحكمهم من غيرهم، وأغرب ما نقل الينا من أخبار جور ضباط الترك في سورية انهم كانوا يأخذون من البزازين ما يصلح للجند من نسيج القطن والصوف وما لا يصلح لهم حتى ما هو خاص بالنساء من الحرير والشفوف والمناديل والقفافيز والجوارب الحريرية والاعطار.

هلعت افئدة البشر من كل الأمم في أول العهد بالحرب واستيقظ الشعور الديني في قلوب طال نومه فيها كأنه ميت لا أثر له في شيء من أعمال الحياة وحدثنا من كان بباريس من المصريين ان الكنائس صارت في ذلك العهد تضيق على رحبها بالمصلين الخاشعين لله بعد ان كانوا يلمّون بها إلمام السائح الراغب في رؤية الآثار وتعرف الاطوار فلا يرون فيها حتى في أوقات الصلاة من أيام الآحاد إلا بعض العجائز والأطفال.

ومما عرفنا من أخبار بلادنا السورية ممن فر الى مصر في اثناء الحرب ومما كان يصل الى الجرائد الافرنجية والمصرية ان مصائب الحرب أزالت ما كان بين الملل والطوائف من نفور وضغن، وأشعرت قلوبهم عواطف التراحم والتعاون، فكان صاحب الرغيف يقسمه بينه وبين الفاقد لمثله من صاحب او جار قريب او بعيد ولا يضنّ بمقاسمة الجائع المجهول بله ذا القربى والرحم.

ولما طال الأمد ورأى الناس ما رأوا من سوء تصرف القواد الجبارين، والحكام الظالمين والاغنياء المترفين، دبت اليهم عدوى القدوة السيئة فقست القلوب وتحجرت العواطف، واشتد الجشع، وقوي الطمع، وضريت الشهوة، وعظمت الفتنة.

افترض رؤساء الجند والحكومة إعلان الأحكام العرفية وتعطيل الشريعة والقانون بها فاحتكروا الاقوات، وشاركوا في استغلال الأمة كبار التجار، وتذرع كل منهم بذلك لانتهاك الاعراض وافتراع الابكار، فكانت من هانت عليهم أعراضهم يستشفعون بنسائهم وبناتهم الى أولئك الرؤساء (كالقائد العام للفيلق الرابع في سورية ومتصرف لبنان) لأخذ وثائق بشواحن القمح وغيره من الاغذية، فكانت أعراض النساء عروض تجارة وأبضاعهن بضائع ربح، وكانت الحرة تموت ولا تأكل بثدييها وفاقاً للمثل العربي، وبين هذه وأولئك نساء نشأن مصونات محصنات لا لدين راسخ ولا لشرف باذخ، بل لفقد الداعية وعدم الاصطلاء بنار الفتنة، فلما ذقن ألم الجوع الديقوع الدهقوع وفقدان ما يتبلغن به من اللماج والعلهز[1] وعلمن ان سعة العيش على طرف الثمام وحبل الذراع منهن. إذا ارخصن ما أغلته العفة من شرفهن. ووجدن ان الشرف في هذا الزمن، غير الشرف الذي تروى أخباره عن السلف. فالناس يعظمون الفاسقين ويتقربون الى الفاسقات. ويحتقرون الصالحين والصالحات. فطوعت لهن أنفسهن وأسلست لهن ما كان صعب المقادة من اقتراف الفاحشة فأطعنها واجمات. ولم يلبثن ان استمرأن المرعى فانقلبن مسافحات متهتكات. فويل للمترفين المسرفين في الشهوات، الفاسقين المفسدين للمحصنات.

كان أولئك الكبراء يبذلون للحسناء ما تحب وكان من دونهم من الموسرين والجنود يفيضون من فضل رزقهم في هذه السبيل كل بحسب حاله، وكان بدء إغواء الكثيرات من العذارى والمحصنات انهن طلبن من بعض الرؤساء شيئاً من مال الإعاشة الذي كان يباع رخيصاً من قِبل الحكومة او طلبن الصدقة والاحسان من بعض الاغنياء فراودوهن عن أنفسهن فتمنعن المرة بعد المرة طوعت لهن أنفسهن ان يجتلبن القوت الضروري بما جلب به غيرهن الثروة والزينة على ان يكون ضرورة تقدر بقدرها. ولما بذل العزيز المصون هان وابتذل فصار يعرض عند الحاجة. ثم لمجرد التمتع او الربح. ففشا بذلك الفجور والعهر وصارت النساء تتبع جنود الاجانب حيثما عسكرت في البلاد السورية بعد جلاء الجند العثماني منها وكن من قبل يستخفين في كل أرض يمر فيها الجند وان كان وطنياً.

ومن الجنود الاجانب من لقومهم صلة دين ومذهب او ولاء سابق او لاحق مع بعض الشعوب فكان الضباط منهم يدمرون على أهل بيوت كبرائهم فيتلقون بالحفاوة والترحاب، ولا يقفل في وجه أحد منهم باب بل تغلق عليهم الابواب. وجرى على ذلك كثير من أفراد الجند وتعدى بعضهم بيوت الاولياء المغبوطين الى بيوت غيرهم، فارتفعت الأصوات بالشكوى منهم. وصارت الابواب توصد في النهار كالليل اتقاء لشرّهم.

(١) اللماج بالفتح أدنى ما يؤكل والعلهز بالكسر القراد والضخم ووبر يلتّ بالدم ويخفف فيتبلغ به في المجاعة.

لما رأى المسلمون من أهل البلاد، استشراء الفسق والفساد، وما تجدد من عوالم الاغواء والافساد. شعروا بالخطر الذي ينذرهم ويهدّدهم فأنشأوا يثوبون الى رشدهم وكان من تأثير سنة رد الفعل فيهم ان بعض الشبان الذين أغوتهم تربية مدارس الدولة فلم يكونوا يصومون ولا يصلون وزادتهم أيام الحرب ثم أيام الهدنة والاحتلال بعداً عن الهدى والتقوى قد صاموا رمضان الماضي وصاروا يصلّون. وتركوا مجالس الفسق بعد ان صار مباحاً وسبباً من أسباب الزلفى والحظوة عند الواقفين على أبواب الرزق والجاه. فهذه آية على ان ما طرأ على الأمة من الأمراض الروحية والاجتماعية لم يكن قاتلاً لها بل هي أمراض عارضة لكل منها سير ينتهي بانتهاء أجله المقدر له إذا تدورك بالعلاج قبل ان يكون المريض حرضاً او يكون من الهالكين.

ان هذه الحرب لم تفسد اخلاق الضعفاء من البشر وحدهم بل أفسدت أخلاق جميع من صلي نارها من الأمم والشعوب وألقت من العداوة والبغضاء والحقد والحسد بينها أضعاف ما كان قبلها. وما سبب ذلك إلا ظهور رذائل التعاليم المادية فيها، وأكبر هذه الرذائل وأشدها ضرراً استعباد الاقوياء للضعفاء وطمعهم فيهم. وهذه رذيلة يكرهها كل أحد من غيره. بقدر ما يحبها كل قوي لنفسه. فالشكوى منها ومن آثارها السيئة ومصائبها التي تولدت منها عامة. ولكن أساطين السياسة المادية يحاولون إزالة اعراض المرض مع الاصرار والثبات على العلل والأسباب الموجبة لبقاء المرض نفسه فلا يترك أحد منهم شيئاً من طمعه في بلاد المستضعفين ومحاولة الاستعلاء على العالمين.

لقد كانت معاهدات الصلح شراً على البشر من أهوال الحرب وكل ما يشكو منه الغرب والشرق من الشقاء فمثاره هذه المعاهدات التي انفرد بها أفراد من أساطين ساسة الاستعمار وأنصار رجال المال، فمجلس العشرة الواضعين لمعاهدة الصلح الكبرى في فرساي كان أصل مصائب البشر كلهم في هذا العصر، وكان مجلس الاربعة الوزراء في سائر المعاهدات. ولو وضعت برأي مجالس النواب لما اتفق اكثر اعضائها على ما أودعته من مواد القهر والانتقام من المغلوبين والاستعباد والاستذلال للضعفاء او ان عدواً من الاصدقاء الموالين، فلسنا وحدنا نتألم من سوء عاقبة الحرب بل يشكو آلامها معنا القاهر والمقهور. والواتر والموتور. وإلى الله ترجع الأمور.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٤)

طرابلس والقلمون

ما حزنني من سوء حال بلاد سورية الاجتماعية والأدبية شيء كما حزنني حال طرابلس والقلمون حيث نشأت وترعرعت فقد كانت طرابلس خير المدن السورية في العلوم الشرعية والأدبية، والعيشة الراضية الهنية، كما كانت القلمون خير البلاد الصغيرة في ذلك، «او سيدة القرى والمزارع» كما وصفت في السجل الأعظم (دركنار) لبلاد الدولة العثمانية في الباب العالي كما روي لنا وذلك ان جميع أهلها كانوا سادة شرفاء، وأتقياء نجباء، قد ولدت والحمد لله فيها، ونشأت في بيت الكرم والمجد الأثيل منها، فكنت من أول العهد بالتمييز أرى العلماء والأدباء والحكام والوجهاء تغشى دارنا، وتعشو الى ضوء نارنا، بل كنت أرى فيها الضيوف من البلاد المختلفة مكرّمين على اختلاف مللهم ومذاهبهم، وكان مسجدها عامراً دائماً بإقامة شعائر العبادة وقراءة دروس العلم الوعظ، وقد عشت ما عشت فيها ولم أرَ أحداً ارتكب فاحشة او شرب مسكراً أو أتى منكراً إلا ما كان ينسب الى أفراد قلائل من ارتكاب سرقة الفاكهة او الزيتون والليمون وما كان يقع بين بعض المتخاصمين والمتنازعين من التضارب بالعصي أحياناً وبالمدى نادراً، وقلّما رأيت شيئاً من ذلك بعيني. واني قد شببت فيها وأنا أعتقد ان الذين يقترفون كبائر الإثم والفواحش في الدنيا أفذاذ قليل عددهم في كل مكان وأكثرهم في المدن أو البوادي ولذلك كنت أجتنب معاشرة أكثر الناس في طرابلس عندما كنت أطلب العلم فيها، على ما ذكرت من فضلها على غيرها، حتى انني الى اليوم لا أعرف جميع اسماء الذين قضيت معهم السنين الطوال في المدرسة. وكانت مدارس العلم يومئذ عامرة وطلابه كثيري العدد، وكانت دور أهل العلم والأدب أندية وسماراً تكثر فيها المطارحات العلمية، والمساجلات الادبية، ولم تكن الخمر معروفة في شيء من ملاهيها العامة (القهاوي) ولا الرقص، وكل ما كنت أعلمه في هذا ان في حارة النصارى ملهى في بستان اسمه الزهرية يشربون فيه الخمر ويختلف اليه بعض

(*) المنارج ٢٢ (١٩٢١) ص ١٥٥ . ١٦٠.

أهل الدعارة من المسلمين، ولكنني لم أر في اثناء إقامتي فيها لطلب العلم من السكارى إلا عبداً أسود وشاباً وطنياً من فقراء السوقة يبيع الحمص المملح والملبس بالسكر، وإنما نسمع أحياناً بعض أخبار الفساق من المنكرين عليهم والقادحين فيهم، إذ يغلب عليهم التستر ويندر فيهم التهتك، كاجتماع بعض أهل الدعارة في مجالسهم الخاصة في بيوتهم على مائدة الخمر او شربها على مائدة الطعام، وإنما كان يفعل هذا من المسلمين أكثر الموظفين من الترك حتى بعض قضاة الشرع. وكان هؤلاء الموظفون يحرصون على إغواء وجهاء المسلمين الذين يعاشرونهم بإغرائهم بالشرب معهم كدأب أهل السكر في كل مكان، وقل من كان يستجيب لهم من قرنائهم او مرؤوسيهم ولو بقبول الكأس من أيديهم مرة واحدة. ومن طرقهم في ذلك ما سمعته في دارنا من أحد المتصرفين فقد سألنا أليس المحرم قطعاً هو خمر العنب وما عداه فإنما يحرم منه القدر المسكر فأي حرج إذاً في شرب ما عدا هذا القدر من سائر الأشربة ولا سيما ما لا يسكر الا كثيره كالبيرة؟ فقلنا له تلك شبهة لبعض الفقهاء في الذي كانوا يسمونه نبيذاً والحق ان كل مسكر خمر يحرم قليله وكثيره كما ثبت في النص، المؤيد بالقياس والخبر والطب.

وإذ كنت أكتب مثل هذا للاعتبار به وليكون تاريخاً تعرف بمثله أسباب التطور الاجتماعي في البلاد فإنني أذكر واقعة في هذا الباب هي أكبر ما كان يتحدث به الناس في مدينتنا (طرابلس الشام) ويفخرون به. وهي بين مدحت باشا الوزير الشهير ودرويش أفندي الشنبور.

كان درويش أفندي هذا رجل طرابلس الكبير بل رجل سورية الممتاز في عصره بالعلم بالقوانين وحسن الادارة والتصرف في حل المشكلات، حتى ان أمور إدارة لواء طرابلس كانت بيده يتصرف فيها كما يشاء، وهو عضو في مجلس الادارة رأيه فيه بحكم القانون كرأي غيره من الاعضاء، فكان أصحاب الحاجات يولون وجوههم شطر داره دون أمثاله من الاعضاء بل دون الرؤساء من المتصرف التركي المولى من نظارة الداخلية الى من دونه من رؤساء الادارة وكذا رؤساء الجند في ما يقيدون فيه بالإدارة كأخذ العسكر بنظام القرعة المعروف فلم يكونوا يستطيعون أخذ أحد إلا برأيه لذلك كان له حساد كثيرون فلما جاء مدحت باشا والياً على سورية كثر السعاة بدرويش افندي الشنبور لديه الذين يرمونه بالاستبداد بأعمال الحكومة وكونه لم يترك لأحد من رجال الدولة اسماً ولا عملاً في لواء طرابلس وانه هو نفسه لا يمكنه ان يكون له اسم سمي ولا قدر عليّ في ذلك اللواء إلا بإخراجه من مجلس الادارة وجعله جليس بيته، وقد أثرت هذه السعاية في نفسه، فلما جاء طرابلس في دورة التفتيش المعتادة كان استقباله لدرويش افندي استقبال المرتاب المختبر فلما سمع كلامه أحب الخلوة به فسمع منه من الانباء والآراء ما أكبره في عينه، وأحلّه في أعلى مكان من الثقة به، والكلام مظهر العلم والعقل والرأي (فلما كلّمه قال انك اليوم لدينا مكين امين) ولم يكن يستطيع مفارقته إلا وقت النوم، وكان الوزير مبتلياً بشرب الخمر كأكثر رجال الدولة وكان درويش افندي لا يشربها كسائر وجهاء طرابلس ولا سيما أصحاب

الزي العلمي أمثاله فاجتهد مدحت باشا في حمله على الشرب لتطيب له معاشرته ولا يرى نفسه صغيراً او حقيراً في عينه وعين نفسه بارتكابه لهذا المنكر مع من ينكره في نفسه لتحريمه وقد كان مدحت باشا مسلماً محترماً لدينه كما يقال ولكن السكر بلاء قلما يستطيع تركه من ابتلي به. عرض لدرويش أفندي أولاً فتباله وأعرض كأنه لم يفهم مراده، فكاد له مكيدة سلم منها بحسن بادرته، وقوة إرادته: ذلك انهما كانا في منتزه من منتزهات ضواحي المدينة اسمه (بركة البداوي) فطلب الوزير الخمرة فأخذ لنفسه كأساً وناول درويش افندي كأساً أخرى وقال له نشرب على اسم مولانا السلطان الاعظم فأخذ الكأس درويش افندي وقال على البداهة: كأس من يد افندينا مدحت باشا باسم مولانا السلطان الأعظم أمير المؤمنين لا ينبغي ان تصب في الجوف وتخالط القذر بل مكانها الرأس، وصب الكأس على عمامته البيضاء. فأعجب مدحت باشا بهذه البداهة والكياسة. وزاده هذا الثبات كرامة عنده ومكانة في نفسه.

هذه الحالة التي كانت عليها طرابلس الى عهد طلبي للعلم فيها وهجرتي منها هي التي ضاعفت آلامي لما رأيت هذه المرة ما رأيت من سوء حالها، وسريان عدوى المجاهرة بالتهتك فيها، وقد بدأ ذلك فيها في أوائل العهد بالحكومة الدستورية الاتحادية ثم كان لمفاسد الحرب ثم للاحتلال الاجنبي تأثير بعد تأثير في استشراء فساده كما بيناه في النبذة الثالثة من هذه الرحلة (ص ٢٢٧) حتى ان طرابلس صارت دون بيروت ودمشق في الحالة العلمية والأدبية الإسلامية فقد خلت من تلك الحلقات الواسعة من طلاب العلم ومن تلك المحافل والسمار التي كانت آهلة بأهل الهيئة والوقار من العلماء والوجهاء من الطبقات المختلفة الذين كانت آراؤهم تضطر الغرباء من حكامهم وغيرهم الى احترامهم دع أهل البلد الذين هم كبراؤه. وكذلك كان شأن شيوخ أهل بيتنا في القلمون بل لم أر مجلس وقار في مكان ما مثل المجالس التي كان يحضرها كبير أسرتنا السيد الشيخ أحمد عم والدي فقد كان أوجه الوجهاء من علماء طرابلس ورجال الحكومة وغيرهم يجلّونه لما كان عليه من الجد والوقار والتقوى حتى انه لم يكن أحد يشذ في جلوسه ولا في ضحكه ومزاحه في حضرته بل يلزمون الاعتدال والأدب الشرعي، وقد اتهم رجل صالح من طرابلس بفاحشة او مقدماتها وكان ممن يترددون على القلمون مع بعض العلماء فلم يتجرأ بعدها ان يتراءى أمامه طول حياته، وماذا أقول عن صاحب تلك الشيبة الرائعة الذي قال فيه نقادة المعاصرين الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب أشراف طرابلس وخطيب جامعها الكبير الى اليوم: آخر من أدركنا من الصدِّيقين عمي الشيخ أحمد. وأنا لم أكن هنالك أستطيع تعمد النظر في وجه أحد متهم بالفسق ولا السكوت على منكر منذ كنت غلاماً أمرد وقد شذ في حديثه معي تاجر في طرابلس بقول لا يعد منكراً شرعاً إذا حسنت فيه النية فتركت الشراء منه والنظر الى دكانه بل المرور أمامها ما دام فيها.

نعم إنني كنت أول من انتقد من المسلمين ما كان عند الوجهاء من التكلف في اللقاء والسلام والقعود والقيام وأول من ترك عادة الجلوس على الركب في بدء الجلوس معهم

وان فعل ذلك بعض كبار السن والقدر لأجلي ولكنني أقول الآن ان مجالسهم كانت خيراً من مجالس أكثر أولادهم وأحفادهم الذين تركوا غير ذلك من آدابهم العالية لا المتكلف منها فقط مفتونين بزخرف حرية الفسق الذي يخشى ان يضيّع عليهم دنياهم ودينهم فيكونوا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً.

أصيبت طرابلس بالعقم من العلماء والفضلاء والزعماء فلا خلف فيها في العلم والرشد للشيخ محمود نشابه والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ عبد الرزاق الرافعي والشيخ عبدالله الصفدي ودرويش افندي الشنبور والمفتي مصطفى افندي كرامي الذين أدركناهم في شيخوختهم، ولا للشيخ حسين الجسر والشيخ عبدالله البركة والشيخ نجيب الحامدي والشيخ محمد كامل الرافعي ومحمود افندي المغربي والمفتي رشيد افندي كرامي والشيخ خليل صادق الذين ادركناهم في كهولتهم.

وإنما بقي أفراد من الطبقة التي قبل طبقتنا أوسعهم علماً وفهماً وإفادة الشيخ محمد ابراهيم الحسيني وقد جهلت مدينته قيمته فلا ينتفع به إلا افراد قليلون من بقايا الطلاب، ومنهم الشيخ محي الدين الحفار والشيخ عبد اللطيف نشابه، وأفراد آخرون من طبقتنا ورفاقنا في الطلب وأكثر هؤلاء وأولئك قد تركوا الدرس والتدريس، واجتنبوا الكتابة والتصنيف، ومنهم من يشتغل بأمر الدنيا من تجارة وزراعة لكساد بضاعة العلم. ولم أر في هذه الزورة لطرابلس أحداً من رفاقي لا يزال مغرماً بالمطالعة والكتابة إلا الشيخ محمد رحيم والشيخ عبد المجيد افندي المغربي، وليس لأحد منهما ولي في عمله ولا ظهير.

وأما القلمون فلم يبق فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم إلا عمي أبو عبد الرحمن عاصم فهو يقرأ دروساً في مسجدنا في بعض الاحيان لمن عساه يوجد فيه ولكنه في عامة أوقاته معتزل الناس لا يكاد أحد يراه إلا في صلاة الجماعة وقد انقرض ثلثا أهل القرية وحال الباقين شر مما كانت عليه، وقد كنت قبل الهجرة الى مصر أقرأ لهم التفسير ونهاية المحتاج في فقه الشافعية والزواجر وغير ذلك من كتب التوحيد المواعظ والرقائق، وبلغني انه وجد فيهم رجل يتجرأ على المجاهرة بالفواحش وارتكاب منكرات السلب والنهب يستعين على ذلك برشوة الحكام، وأما طرابلس فقد صار الكثيرون فيها يجاهرون بذلك ومنهم من يدعو الاجانب الى داره ويقدم لهم الخمور فيها ولكن تيقظ بعضهم لتدارك الخطر كما بيّناه في النبذة الثالثة التي قبل هذا من الرحلة، فليحفظ الناس هذا ولينتظروا عاقبة هذا التغيير فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونسأل الله تعالى ان يتوب عليهم ويجعلهم خيراً مما كان عليه سلفهم ويغير ما بهم الى خير منه.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٥)

حال مسلمي بيروت الاجتماعية

قد أصاب مسلمي بيروت في سني الحرب ما أصاب سائر الطوائف في جميع البلاد من تأثير مفاسدها التي أشرنا اليها في الفصول السابقة ولكن حسنت حالهم الاقتصادية فسبقوا غيرهم بمراحل وهم وان كانوا مع اخوانهم في الوطن فرسي رهان في البراعة بالتجارة فقد امتازوا على النصارى واليهود في زمن الحرب يكون نقودهم في صناديقهم وجلّ نقود اولئك في المصارف الأوربية التي انقطعت المعاملة بينها وبين البلاد العثمانية وبكونهم أجراً على المجازفة فاتسع عملهم وعظم ربحهم واشتروا أملاكاً عظيمة في بيروت ولبنان وليس هذا ما نبغي من عقد هذا الفصل وإنما عقدناه للإلمام بحالهم العلمية والاجتماعية.

كانت بيروت في السنين الخالية دون دمشق وطرابلس في العناية بالعلوم العربية من شرعية وأدبية وإنما كان يمتاز فيها في الجيل او الأجيال الواحد بعد الواحد كالشيخ محمد الحوت الكبير الذي فاق علماء سورية المتأخرين بالعناية في علم الحديث والشيخ أحمد البربير في اللغة والأدب وانتهت الشهرة في الجيل الماضي الى ثلاثة من فقهائهاوأدبائها الشيخ عبد الباسط الفاخوري المفتي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الاحدب وهذا طرابلسي المولد والنشأة واختار الإقامة في بيروت بعد ان تخرّج في طرابلس بالشيخ عبد الغني الرافعي الشهير. وليست بيروت الآن بأقلّ من طرابلس في عدد طلبة العلوم الشرعية والعربية ولا في ضعفهم فيها ولكن دمشق تفضلهما في ذلك بما سنذكره بعد.

وأما الحال الاجتماعية فقد تجدد فيها للمسلمين ثلاثة أمور ذات شأن كبير (احدهما) في ترقي النساء المدني (والثاني) الاستعداد للاتفاق مع النصارى والاتحاد

(*) المنارج ٢٢ (١٩٢١) ص ٣٩٠. ٣٩٧.

الوطني معهم (والثالث) الميل الى مجاراة من حولهم في التعليم والتربية الملّية، واننا نقول في كل منها كلمة.

مسلمات بيروت

كانت المسلمات في بيروت أشد محافظة على التقاليد القومية من أمثالهن في سائر المدن السورية فلم تؤثر فيهن عوامل التفرنج الذي غلب على نساء النصارى لا النافع الصالح منها ولا الضار المفسد ولا عوامل التترك الذي سرى الى مسلمات دمشق، فكن أشد مسلمات سورية جموداً وكان رجالهن راضين بذلك، ثم رغبوا في تعليم البنات فأنشأوا لهن مدارس ابتدائية وأنشأت الحكومة العثمانية مدرسة للبنات في بيروت كان جميع تلميذاتها من المسلمات لأن النصارى لا يرغبون إلا في مدارس الافرنج. ثم وجد في بعض شبان المسلمين الذين تعلموا في المدارس الاوربية والأمريكية وأثر فيهم التفرنج ميل فرنجة النساء، كان الرأي الإسلامي العام يقاومهم فيه وما زال صديقنا الاستاذ الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت زعيم هؤلاء المقاومين على عنايته بتعليم البنات وإشرافه عليه في عدة مدارس حتى انه شديد الانكار على تعليمهن العزف بآلة (البيانو) التي لا يكاد يخلو منها بيت من بيوت الطبقات الوسطى في مصر دع الطبقات العليا في الثروة. ولما عُنِيَ الاتحاديون من الترك بإفساد آداب مسلمات سورية جرياً على خطتهم التي جعلوا من أوائل قواعدها ان الأمة لا يمكن تحوّلها من حال الى حال إلا بهدم عقائدها وأخلاقها وآدابها وتقاليدها - وجهوا كثيراً من هذه العناية الى مسلمات بيروت وحاولوا تعويدهن السكر والتهتك مع مخالطة الرجال فكان الرأي العام وتشدد المفتي وأنصاره مضعفاً لتأثير هذه العاصفة التي كان يخشى ان تدمّر الدين والآداب تدميراً لا تقوم للأمة بعده قائمة إلا بإصلاح جيل جديد إذا تيسرت وسائل الإصلاح.

لا شك في ان عاداتنا وتقاليدنا القومية في النساء والرجال منها ما هو حسن وهو بقايا آداب الشرع وإصلاح الدين ومنها ما هو قبيح ضار يجب تغييره بالتدريج - وفي ان ما يراد من التغيير والتجديد في الأمة منه ما هو حسن نافع لا يمكن للأمة الإسلامية ان تجاري سائر الأمم في سعة العيش والعزة والاستقلال بدونه، ومنه ما هو قبيح ضار مفسد لأمري الدين والدنيا جميعاً، ومن سنن الاجتماع المطردة في البشر ان الافراط في الامور المتقابلة تظهر به مزية الوسط المعتدل بينهما وان استعداد الجمهور الاعظم هو الذي يرجح أحد الطرفين المذمومين او الوسط المحمود في العمل، والذي رأيته ان حظ بيروت في المسألة النسائية كان أقرب في هذا التطور الى الاعتدال.

في كل طبقة من المحافظين والمتفرنجين والمتوسطين إفراط وتفريط واعتدال فغلاة الاتحاديين أمرهم تفريط إذ كانوا يرون التعجيل بإبطال جميع العقائد والعبادات والعادات وتكوين الأمة تكويناً جديداً في كل شيء وزعيمهم الدكتور ناظم وطلعت باشا. وكان من المعتدلين منهم أنور باشا إذ كان يرى احترام الشعائر الدينية والاستفادة من الرابطة الاسلامية بدلاً من قطع روابطها ويعتقد بعض عارفي أمره انه صار بمقامه في برقة

صحيح العقيدة محافظاً على الصلوات إيماناً واحتساباً لا سياسة ورياء وبذلك اتسعت مسافة الخلف بنيه وبين اولئك الغلاة وزعيمهم. ومن رجالهم المعتدلين عزمي بك الذي كان والياً على بيروت في زمن الحرب وقد رأيت الناس فيها معجبين بما كان عليه من الحزم والعزم والعدل والدقة في النظام ويرون انه لو كان عند الدولة كثير من أمثاله لفاقت بها دول اوربة.

وجّه عزمي بك عنايته في بيروت الى ترقية المسلمات في الحضارة العصرية بالتدريج الذي تؤمّن معه الفوضى الأدبية وتعويدهن حضور مجامع الرجال العلمية والأدبية وسماع ما يلقون فيها من الخطب المفيدة والشعر العصري وإسماعهم ما تجود به قرائح المتعلمات منهن، ومشاركتهن لهم في الامور الاجتماعية - ولولا ان وجد في بيروت أحمد مختار بك بيهم يساعده على ذلك لضاع عزمه وخاب سعيه على ما أوتي من قوة إرادة وسلطة كادت تكون مطلقة.

كان لأحمد مختار بك بيهم جماعة من المزايا لم تجتمع في وطنه لغيره في عصره: كان على كرامة بيته ومكانة عشيرته ذكي الفؤاد طلق اللسان جريء الجنان صادق الوطنية والغيرة القومية عالي الهمّة كبير المروءة حسن المعاشرة عارفاً بزمانه وفياً لأصدقائه، فكان بذلك من زعماء مسلمي بيروت الذين يرجع اليهم في المهمات كما كان محترماً عند سائر الطوائف بآدابه وحسن معاشرته فكان الناس يحبونه ويحترمونه ويحسنون الظن بإخلاصه حتى في ما ينكرونه من شذوذ في بعض أعماله وميله الى التفرنج، فلم يكونوا يتهمونه بأنه يقصد بهذا اضعاف مقومات أمته ومشخصاتها الملّية ولا تقوية النفوذ الاجنبي فيها فهذه المكانة التي كان يعرفها لنفسه في قومه جرأته على مواتاة عزمي بك ومساعدته على ما قصد اليه بل استعان كل منهما بنفوذ الآخر على عمل يريانه نافعاً للمسلمين بل لا بد لهم منه في حياتهم المدنية العصرية، بل كانا يريان ان نساء المسلمين لا بد ان يتركن الحجاب ويجارين غيرهن من نساء الملل في الحضارة العصرية وان الخير لنا ان نبني ذلك على أساس متين، أي جامع بين مصلحة الدنيا وصلاح الدين، وإلا فعل التيار العصري فعله فينا بغير اختيار منا فكان إثمه أكبر من نفعه.

أنشأ الزعيمان نادياً للنساء في سنة ١٣٣٥ (١٩١٧ م) وألّفا له جميعة من كرائم المتعلمات منهم باسم (جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات) ثم أسس هؤلاء الكرائم مدرسة لتعليم البنات، وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية يحضرها النساء والمستحسنون لهذا العمل من الادباء والاطباء ويلقون فيها الخطب والدروس التي اصطلح كتّاب العصر على تسميتها بالمحاضرات، ويسمعون من اعضاء النادي الكرائم ما يلقينه فيه ويتحدثون معهن في المسائل الادبية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية، وإنما يكن مع الرجال سادلات على وجوههن النقاب الاسلامبولي الاسود لا سافرات، ويجلسن في جانب والرجال في جانب. فهن قد سبقن في بدايتهن نساء مصر الى هذه المحافل والمجامع التي كان يتمناها قاسم امين وإخوانه من زهاء ربع قرن مع مبالغتهن في الحجاب وكثافة

النقاب، حتى ان بعض الأوانس من أعضائه حضرن حفلة ذكرى مرور قرن على المعلم بطرس البستاني في الكلية السورية ببيروت وألقت فيها عنبرة سلام وعادلة بيهم فيها ما جادت به قرائحهن في الموضوع على الجم الغفير من الرجال والنساء.

دعاني أحمد مختار بك رحمه الله[1] الى زيارة هذا النادي وإلقاء النصائح والحكم فيه تعضيداً له وإرشاداً للسيدات المسلمات فإنهن يتمنين الاستفادة مني كالرجال. وقد جرت العادة بأن ألقي في بعض مساجد بيروت ومجامعها خطباً ودروساً في كل زيارة من زياراتي لها فأجبته الى ذلك.

زرت النادي أولاً ثم أجبت دعوته الى القاء نصيحة عامة فيه وكان هذا في يوم مشهود حضره بالدعوة كثير من النساء والرجال ومنهم من لم يكن يلمّ به ولا يسمح لأحد من أهل بيته بالإلمام به وألقيت فيه خطاباً مطولاً ذكرت فيه خلاصة وجيزة عن حال النساء في مصر وفوائد نهضتهن وغوائلها، وما ينبغي للمسلمات السوريات في بيروت وغيرها من الاعتبار بها، وبينت فيه حالة العصر الاجتماعية وما ينبغي للمرأة المسلمة فيه من الجمع بين فضائل دينها وآدابه ومعرفة ما يجب عليها لبيتها ووطنها وأمتها، وما يجب من تقديم الأهم فالأهم وهو تدبير المنزل وتربية الاولاد وما يتوقفان عليه من العلوم الكثيرة. فنال هذا الخطاب استحسان جميع الاحزاب المختلفة في هذا الموضوع. وانني أنشر هنا ما ألقته رئيسة (جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات) التي تدير المدرسة والنادي السابق ذكرهما ترحيباً بي، وسأنشر في فرصة أخرى بعض ما ألقي في حفلاته السابقة ليقف قراء المنار على أفكارهن ودرجة تقدمهن.

ترحيب الرئيسة الفاضلة

سيدات النبل وسادة الفضل

ان جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات ترحب اليوم بضيفها الكريم العالِم الفاضل صاحب السيادة الاستاذ رشيد رضا فهو الخطيب البليغ الذي طالما لهجت الألسن بذكر مناره الذي أضاء العالم الإسلامي بأبحاثه العلمية المفيدة. وقد رأيناه عند اجتماعنا به للمرة الاولى في مدرستنا خير نصير للمرأة إذ أفاض علينا من بعض حكمه وما يجعلنا نزداد نشاطاً بأن نعيد مجد السلف الصالح فنستمد منه تلك القوة الادبية والمعارف السامية التي طالما تاقت النفوس اليها. ونضم الى ذلك ما يلائم حالتنا وتقاليدنا من الرقي العصري، فحباً بالاستفادة من ينابيع علمه وفضله فقد قامت هيئة جمعيتنا بدعوة حضرته ليلقي على مسامعنا محاضرة علمية تكون خير ذكرى يحفظها نادينا لسيادته.

فباسم جمعيتنا أقدم الشكر لسماحته ولكل من يعاضد صروح العلم والادب ونخص منهم بالشكر حضرة الوطني الغيور الوجيه الفاضل السيد عارف النعماني الذي تبرع بمبلغ

(١) توفي في العام الماضي فكان لوفاته وقع اليم في بيروت شاركتها فيه سائر البلاد السورية وقد احتفل بجنازته بما لم يسبق له مثيل في ذلك القطر.

مائتي ليرة لمدرستنا لتصرف في سبيل تعليم الفتيات البائسات اللواتي يدعين الى الله بأن يديمه عضداً للاحسان. فسلام على كل روح أوقفت لإعلاء الوطن وأهله.

بيروت ١٢ ربيع ١ سنة ١٣٣٨

خديجة بربير

خطبة النابغة الفاضلة الآنسة عنبرة سلام

سيداتي الكريمات وسادتي الأفاضل

خلق الإنسان للجهاد في هذه الحياة، فهو لا يزال يكافح الخطوب وينازل العثرات، فتارة يرزح تحتها، وتارة تكون له الغلبة عليها. وهو دائماً في نزاع مستمر مع القوى المحيطة به. ولكنه إما ان يجاهد في كسب معاشه وموارد رزقه فيدل على انه إنسان حي في جسم المجتمع البشري، وإما ان يقوم بالنصرة العامة على طرق مختلفة، وأشد هذه الطرق صعوبة ما كان يقصد منها تغيير معتقدات فاسدة كمنت في نفوس الناس أجيالاً طويلة حتى قيّض الله نابغة يعالج هذه المعتقدات ويكافحها بأحسن منها فهو العالم الحكيم والمجاهد العظيم.

لقد مضى على الأمة الإسلامية حين من الدهر كانت تكتنفها به الجهالات وتعمل في اعضائها أيدي الفساد فقد ابتلاها الله بمن أضاعوا رشدها وأضلوها سواء السبيل. أولئك قوم نصبوا أنفسهم لهدي الأمة فضيقوا عليها المسالك وأفهموها الدين بصورة لا تنطبق على الدين الحنيف بشيء، فخدّروا أعصابها وأضعفوا بنيانها، حتى جاد الله عليها بحكماء ينبهون أعصاب العامة ويهدِّئون روع العقلاء، فأنجبت الافغان للأمة ركناً وسنداً ونفحتها مصر الكريمة عضداً ومرشداً، ولم تكن سوريا بأقلّ منها حظاً، بل هي تفتخر بأن كان من ابنائها من غدا للأمة هادياً، ولضعفها مداوياً، تتجه نحو آمال المسلمين في أقطار المعمور فيجدون به مضيء سبيلهم والآخذ بأيديهم الى محجة الصواب. ان الأمة الإسلامية بحاجة الى من يفهمها الدين المبين بأسهل الطرق وأقربها تناولاً. اننا بحاجة شديدة الى علماء يوفقون بين الدينيات ومبادىء العمران التي وضعت عليها أساسات الدين فلا يجعلون الدين بمعزل عن كل ما من شأنه ان يدعو الى الحضارة والتقدم حتى يخال للناظر البعيد (كاللورد كرومر مثلاً ذلك الرجل العظيم الذي لم يكلف نفسه مؤونة البحث بل اكتفى ان حكم على الاسلام بالمسلمين) انه ينافي روح العصر والمدنية وهو الدين الكريم الذي ملأ الارجاء نوراً ونفخ في العالم روح حياة مدّنت الامصار.

ولن ننسى الأمة الاسلامية ما أحدثتها في نفسها تعاليم المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الذي نسميه بحق المصلح الكبير وفيلسوف القرن الاخير. والذي جدد للإسلام رونقه وبهاءه. وقد لاقى في حياته الاصلاحية من العثرات ما يثني عزم الضعيف ويشحذ همة العظيم. فمر عليها جميعاً معلياً شأن الدين ومثبتاً فلسفته الدينية على أمتن الاركان حتى شهد له فلاسفة العالم الاوروبي بمقدرته الفائقة وعلو كعبه في مباحثه الدقيقة

فأحلّوه من الاكرام المقام الأسمى وكان من النوابغ الذين لا تجود بهم الطبيعة في كل حين.

ثم داوم الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذلك الجهاد بتعاليم تروق للنفوس فتغذيها بأبدع الأساليب ففسر آيات الكتاب المجيد بصورة سهلة رائقة وعبارات بسيطة واضحة لم يسبق لها مثيل اهتز لها العالم الاسلامي إجلالاً وإعجاباً وان من فتاويه الكثيرة ما يأخذ بالألباب. ولست بالمحدثة الشهيرة فأحدثكم عن تعاليمه ومباديه، او أروي فلسفته وفتاويه، بل يروق لي ان أذكر هنا قصة صغيرة تدل على الاساليب البسيطة التي سار عليها الأستاذ الامام ويمشي في سبيلها الآن سماحة خلفه استاذنا الكبير: «أسلم أحدهم مرة فجاء الاستاذ الإمام يطلب اليه فقيهاً يعلمه أصول الدين فمضى عليه عدة أيام وهو يعلمه الشروح عن الماء الطاهر منه وغير الطاهر او المطهر. فجاء بعدها يشكو أمر هذه الشروح الطويلة الى الاستاذ رحمه الله فأجابه «إذهب يا بني فالماء الذي تشرب منه توضأ به». على هذه الطريقة السهلة الفنية يثبت في أذهان القوم الدين القويم، ويسار بهم الى الإصلاح على صراط مستقيم. وقد جاهد رحمه الله في إصلاح شأن الأمة في عدة سنين ما أفسده عليها غيره في قرون، فقال عنه السيد الافغاني «انه لمصر أعز من جيش وأقوى من أسطول» وكان للأمة بأجمعها معزز جيوش عمرانها وقائد أساطيل تجدد بنيانها.

ولم تحرم الأمة بعدهما يداً قوية على الإصلاح ولا عدمت همة عالية تلم شعثها وتقوّم معوجها، فكان من فضيلة الاستاذ الكريم الذي نتشرف بالاحتفال به اليوم ومن مناره الأغر أمتن رابطة بين المسلمين في انحاء الارض المترامية الاطراف. يؤثر في نفوسهم بجهاد متواصل عرفه له الخاص والعام: فقام أهل الهند يحتفلون به ذاك الاحتفال الكبير يظهرون به مشاعرهم نحو المجاهد العظيم. وقامت البلاد الاسلامية تردد صدى آرائه السامية وتقدم لجهاده ألوية شكرها وثنائها. وأقر له بالفضل كثيرون، وشهد بجهاده العظيم الطبيعيون، فذكر الدكتور شميل في كتابه فلسفة النشوء والارتقاء ما يعانيه استاذنا الكريم في سبيل إفهام جهلة المسلمين وعامتهم وإصلاح أحوال دينهم ودنياهم واننا جميعاً نعقد على إصلاحاته آمالنا لما له في القلوب من المقام الرفيع ولأن لعلماء الدين من المقدرة على السير بالأمة الى أحسن سبيل والأخذ بها في معارج الرقي ما ليس بقدرة غيرهم القيام به. فعلى علماء الأمة تعلق الامة الرجاء، يتقدمهم نبراسها المضيء بمناره الوضاح.

وان لي أخيراً رجاء أقدمه لسماحة صاحب الفضيلة والفضل وهو توجيه عامة المسلمين الى حالة المرأة وحثهم على الاهتمام العظيم بأمر رقيها وإصلاح شأنها لأنها أم الامة وبيدها تغرس شجيرات الخير والصلاح فليأخذوا بها في سبيل الفلاح بطريقة مثلى وليعدوها للسير الى ما تتطلبه طبيعة الايام مع المحافظة التامة على أخلاقنا الأساسية فيكون لها في رقي الأمة شأن وتكون في إصلاحها العيون والمساعد. وإنني أرجو من الله ان يبقي لهذه الامة عالمها الكبير ويحمل لواء جهاده العظيم في رأسه قبس تستضيء به لامة جمعاء في مشارق الارض ومغاربها. ٤ ديسمبر سنة ١٩١٩.

عنبرة سلام

الرحلة السورية الثانية(*)

(٦)

ذكرنا في النبذة الخامسة ان مسلمي بيروت قد تجدد لهم ثلاث حالات اجتماعية وتكلمنا على الاولى منها وهي المتعلقة بالنساء فبقي ان نقول كلمة في كل من الحالتين الاخريين وفاء بالوعد.

اتفاق المسلمين والنصارى

الحالة الثانية الميل الى الاتفاق مع النصارى وهذه ليست جديدة بالمعنى المتبادر من الكلمة وهو انها حدثت بالتطور الذي أحدثته الحرب الاخيرة وما تولد منها، بل كانت من تأثير تطور سابق عليها نبه العرب كغيرهم الى المحافظة على جنسيتهم وكان السوريون أسبق العرب الى التنبه والبحث في ذلك من حيث ان لهم وطناً خاصاً له حدود ومصالح خاصة قلّما تشاركهم فيها الاقطار العربية الاخرى وأهله مؤلفون من أصحاب ملل ومذاهب يرجع أكثرها الى فريقين محمديين ومسيحيين، بحيث يتوقف عمران البلاد وارتقاؤها على تعاون الفريقين وان كان أكثر مجموع الاهالي - البلاد في غير لبنان - من الأولين كما ان أكثر رقبة الارض لهم.

فالحق ان للشعور بالحاجة الى الاتفاق بين المسلمين والنصارى عدة محركات الحرب، وثلاثة قبلها وواحد بعدها، والاخير الذي سبق الى ذهننا عند كتابة النبذة الخامسة من الرحلة. أما المحرك الاول فهو الدستور الذي علق الآمال بوطنية جديدة عثمانية تقضي على دسائس التفرق في المصالح الوطنية بين الملل والنحل، ولكن لم تلبث هذه الآمال ان خابت فكانت خيبتها بمحرك أقوى وهو اضطهاد الاتحاديين للعرب واجتهادهم في صرف قوى الدولة الى تقوية الجامعة التركية او الطورانية وإكراه سائر الشعوب العثمانية على الاندغام فيها بمحو لغتهم وجميع مميزاتهم القومية والوطنية ولا سيما السوريين والعراقيين من العرب، وتلا هذا المحرك الثالث وهو حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة انكساراً حرك المطامع الاوربية المستعدة للوثوب على البلاد العربية لاستعمارها

(*) المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٦١٧ - ٦٢٣.

وعلى أثر ذلك تألف حزب اللامركزية في مصر والجمعية الاصلاحية في بيروت من المسلمين والنصارى، وباتفاق الحزبين مع بعض شبان السوريين المشتغلين بتلقي العلم في اوربة تكوّن المؤتمر السوري وجعلت رئاسة إدارته لحزب اللامركزية لأنه أقوى الأحزاب وأظهرها وأعمها.

وأما الحرب فقد كانت بويلاتها ومصائبها محركاً إنسانياً وطنياً للتعاطف والتراحم كما وصفنا في هذه الرحلة ووصف غيرنا من الكتّاب في الجرائد السورية في جميع الأقطار.

وأما المحرك الأخير وهو الاحتلال فقد كان يجب ان يكون - بعد تلك المحركات الممهدة او المؤسسة - وهو المتمم للبناء ولكنه كان هادماً للأساس والقواعد وراجعاً بهؤلاء السوريين المساكين الى شر مما كانوا عليه قبل تلك التطورات او المحركات الدافعات لكل فريق الى السعي للاتفاق مع الآخر وتكوين جامعة وطنية، وقد كان كل فريق مؤاخذاً في هذا اللوم الذي كان مظهراً لفقد التربية الوطنية والقومية وتغليب التعصب الديني على كل ما سواه حتى كأنه - أو لأنه - قد صار غريزة او ملكة راسخة لا تزول إلا بجهاد طويل ينقرض فيه جيل ويتجدد جيل.

ذلك بأن الاحتلال المختلط الذي تلا جلاء الترك عن سورية كان مذبذباً فقد سبق الامير فيصل بجنوده ورجاله الى احتلال البلاد باسم الحكومة العربية ورفع على معاهد الحكومة في مدنها علمه العربي الحجازي وكان الاهالي قد سبقوا الى تأليف حكومة وطنية مؤقتة وتلاه الاحتلال المختلط المثلث تحت قيادة الانكليز فالقسمة المثلثة فالقسمة الثنائية، ولما جاء رجال فيصل أولاً خضع لهم الجميع ورفعت الحكومة اللبنانية علمه على دار الحكومة في (بعبدا) وكانت المبشرات بالثورة العربية والحكومة العربية الجديدة التي ستنقذ البلاد من الترك(؟) قد تغلغلت في البلاد بسعي الدولة البريطانية فكان مجيء رجال فيصل واستيلاؤهم على مصالح الحكومة منتظراً وعدّه الأهالي أمراً متفقاً عليه بين الحلفاء - ومنهم ملك العرب - فتلقاه النصارى كالمسلمين بالرضاء والتسليم.

وههنا ظهر تقصير المسلمين وجهلهم بالسياسة وطبائع الاجتماع إذ شكلوا الحكومة السورية أولاً والحكومة العربية ثانياً من أنفسهم ولم يطلبوا كبراء النصارى في الجاه والعلم الى التشاور والاشتراك في تأليفها، وقد بحثت في هذه المسألة في بيروت وغيرها فاعترف لي بعض من ذاكرت فيها من المسلمين بالتقصير وانه لم يكن سوء نية إذ لم يكن عن تشاور بين المسلمين أنفسهم حتى يقال انهم استأثروا بالأعمال وتعمدوا ان يكونوا وحدهم حكام البلاد، بل كانت الأعمال في ذلك فردية فكل من يطمع في وظيفة يسعى اليها، وانما كان جل السعي الى ذلك من أفراد المسلمين لما سبق لهم من التصدي لخدمة الحكومة والتعلم في المدارس العثمانية الرسمية لأجل ذلك، وقلّما كان النصارى يتصدون لذلك ويستعدون له او يدخلون مدارس الدولة التي هي الوسيلة اليه. ولو كان للمسلمين حزب سياسي منظم لما فاته ان يغتنم هذه الفرصة لإتمام ما تأسس في تلك التطورات

العربية من أسباب الاتفاق ودواعيه. نعم انه كان في البلاد جمعية سياسية سرية لها علاقة وارتباط بالامير فيصل ولكن أكثر أفرادها من الشبان الذين لم ترتق بهم السياسة الى مثل هذا الفكر.

لم تكد تستقر الحكومة العربية الفيصلية بالاحتلال العربي حتى تبعها الاحتلال المختلط من الانكليز والفرنسيس الذي قسم سورية الشمالية الى منطقتين: غربية ساحلية احتلتها الجنود الفرنسية وجعلت لها السيطرة عليها تحت رياسة القيادة الانكليزية المحتلة معها، وشرقية داخلية احتلها الجند العربي باسم حكومة الحجاز وان كان الجند نفسه مختلطاً والمنظم منه مؤلفاً من السوريين والعراقيين وقد جعل له السيطرة في هذه المنطقة تحت رئاسة القيادة البريطانية أيضاً ـ وكان هذا التقسيم مقدمة لتنفيذ اتفاق سنتي ١٩١٦ و١٩١٧ وقد اعتمدت السلطة الفرنسية في إدارة المنطقة الغربية على صنائعها من النصارى ولا سيما الموارنة منهم فأكثرت من الموظفين من هؤلاء فكانت كثرتهم مخرجة لمثل عددهم من المسلمين لأن أكثر أعمال الحكومة كانت بأيديهم من عهد الترك ورأى النصارى ان الدولة قد دالت لهم فرضوا بذلك وسروا به ولم يكن للمسلمين يد عندهم في تلك الايام القليلة التي صار أمر الحكومة اليهم فيها فأعرضوا عن المسلمين بل صاروا يؤذونهم بالقول والفعل واعتزوا عليهم وعتوا عتواً كبيراً لم يفعل المسلمون شيئاً منه في دولتهم التي تعد بالأيام لا بالشهور ولا بالسنين، ونسوا كل ما كان قبل ذلك من حرص المسلمين على الاتفاق معهم قبل الحرب العامة حتى رضوا ان يكون لهم نصف الاعضاء في مصالح الحكومة المنتخبة وغير المنتخبة وذلك فوق ما تقتضيه النسبة العددية العادلة التي تجري عليها جميع الدول الراقية وما كان من عطفهم عليهم وتضامنهم معهم في زمن الحرب. وقد اشتهر ما وضعوه من الاناشيد في ذم المسلمين وإهانتهم وانشادها في الشوارع والاسواق في بيروت يوم عيد الفصح. ولولا ان اعتصم المسلمون بالصبر والحلم لوقعت يومئذ مقتلة فاضحة تعد سبة لسوريا ما بقي الدهر.

على ان المسلمين لم يكونوا قد يئسوا من سعي فيصل الى استقلال جميع سورية وجعل حكومتها عربية بل كان رجاؤهم في ذلك عظيماً وقد شهد لهم بعض كبراء الضباط الانكليز على المسيحيين ولا نحب ان نشرع ذلك ونطيل فيه لئلا يعد انتصاراً منا لأهل ملّتنا ونحن إنما نكتب لأجل التأليف والاتفاق لا لتقوية الشقاق. وغرضنا ان نقول ان مسلمي بيروت شعروا في هذه الحالة بشدة حاجة البلاد في هذه المنطقة الى الاتفاق بينهم وبين النصارى على الوحدة الوطنية ولكن لم يجدوا منفذاً للسعي. ويقابل ذلك في المنطقة الشرقية ـ حيث يقل المسيحيون ـ ان المسلمين كانوا والحكومة في أيديهم يجتهدون في استمالة النصارى وإشراكهم في كل عمل ويودون إعطاءهم فوق ما يريدون بحسب النسبة العددية وقد جرت الاحزاب السياسية على إزالة الصبغة الاسلامية من الحكومة السورية العامة المتحدة فأنا أذكر هذا وذاك لا لتسجيل الذنب الاكبر على النصارى وتصغير ذنب المسلمين او تبرئتهم بل لأثبت به إخلاصهم في الميل الى الاتفاق.

وقد كتبت وأنا في بيروت عدة مقالات في جريدة الحقيقة بامضاء (السيد) دعوت فيها الى الاتفاق بالحجج الناهضة والأساليب الجاذبة، واجتناب كل ما ينفر من الغاية المقصودة فظهر لها تأثير في زيادة ميل المسلمين الى الاتفاق ولم يظهر لها في النصارى إلا أثر ضعيف في بعض شبان المدرسة الامريكانية الجامعة وقيل لي ان آخرين من الاحرار المستقلين قد سرّوا بها ولكن لم يستجب الى الدعوة منهم أحد، ولولا ان كانت تلك المقالات فائضة من روح الاخلاص والانصاف والتلطف في الدعوة لوجد فيها المتعصبون من القوم والذين يخدمون سياسة التفرقة مآخذ للرد عليها ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلاً، وقد نقل الينا ان الاستعداد للاتفاق يقوى بعمل الزمان عاماً بعد عام. حقق الله الآمال.

التربية الملّية مع التعليم العصري

لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نوم أهل الكهف وأثقل، الموقظات التي تصخ الاسماع تتوالى من حولهم كالصواعق وقد ضرب على آذانهم فهم لا يسمعون، ولما بعثوا وجدوا ما يعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يعهدون، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا إدارة شؤونه في بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر اولئك الاغيار ومن حيث لا يشعرون، فحاروا في أمرهم لا يدرون ما يصنعون.

ماذا يعملون؟ ولماذا لا يدرون؟ وكيف يعذر بهذا الجهل المسلمون؟ القرآن يصيح بهم من فوقهم، ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وشواهد هذه القاعدة الاجتماعية القطعية بين أيديهم وعن ايمانهم وشمائلهم.

صفات الأنفس التي يتوقف تغيير أحوال الامم بتغييرها هي ما يبعث على الاعمال من علوم وأخلاق، وهما يكتسبان بالتعليم والتربية كما ورد في حديث «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم» فأما العلوم النظرية والفنون العملية، فصناعات آلية، ترتقي بارتقاء العمران، وليس لها دين ولا وطن، بل يتبع فيها سير العمران واختلاف الزمن، وأما الاخلاق والملكات النفسية، التي تتجدد بها حياة الامم الاجتماعية، فهي تختلف باختلاف الامم في المقومات والمشخصات الملية والقومية، وتراعي فيها الغرائز القومية والوراثة الجنسية «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» هم كذلك في أفرادهم، وفي جماعاتهم وأقوالهم، فالقوم يعرض لهم القوة والضعف، والعز والذل، كما يعرض للمعدن الصقل والصدأ، والتربية والتعليم للأفراد والاقوام كالصقال للمعدن الذي يظهر رونقه الفطري ويزينه ويعظم الانتفاع به، ولا يقصد به تبديل جنسه ونوعه بتحويله الى نوع آخر. فلماذا لم يجار المسلمون الغربيين في أساليب التربية الملية والتعليم المدني ومدارسهم بين أيديهم في ديارهم ولا سيما بيروت منها؟ فأعظم المدارس التي أسسها الافرنج فيها المدرسة الانجيلية الأمريكانية والكلية اليسوعية، فلماذا لم يقتدوا بهم بتأسيس مدرسة قرآنية او مدرسة محمدية؟ على ان سائر المدارس التي أسسها الافرنج وتلاميذهم من النصارى الوطنيين دينية التربية ومنسوبة الى البطاركة والقديسين من رجال دينهم، وياليت التربية الدينية فيها كانت مسيحية خالصة من شوائب الاهواء السياسية. كلا! ان كل شعب من شعوب الافرنج قد بث في مدارسه

التي أنشأها في الشرق دعوة سياسية نفخ فيها من روح الدين والمذهب فكان ذلك أكبر أسباب الشقاق الديني في سورية وقد كان هذا خفياً عن الدولة العثمانية الجاهلة المتساهلة وعن أكثر الناس ولكن صار معروفاً للعوام كالخواص، إذ ظهر تأثيره بما تجدد من التفرق والشقاق، بعد تلك المسائل التي مهدت للاتفاق. وهي ما أشرنا اليه في الفصل الاول من هذه النبذة.

علم مسلمو بيروت من ضرر مدارس الافرنج في هذه الايام فوق ما كانوا يعلمون وناهيك بها وقد حملها زوال الحكم العثماني من البلاد على التشدد في إكراه من يتعلم فيها من أولاد المسلمين على تلقي دروس الديانة النصرانية وحضور وعظها وصلاتها. فافترضت ذلك بإلقاء عدة خطب دعوت فيها الى تأسيس مدرسة كلية إسلامية، ثم رغبت الى عمر بك الداعوق الذي كان رئيس البلدية ان يدعو كبار الاغنياء الذين يرجى منهم الخير الى داره لأجل دعوتهم الى الاكتتاب لهذا العمل فلبى بالارتياح، ولما انتظم عقدهم ألقيت فيهم خطاباً بما يقتضيه المقام من الكلم الذي يرجى ان يقع موقع الاقناع من العقول، والتأثير من القلوب، وفتح عقب الفراغ منه باب الاكتتاب فدخله الاكثرون وأرجأ الأقلون، ولكن كان ما كتبوه من المبالغ غير لائق بهذا المشروع العظيم ولا بباعث على الرجاء في النجاح فآلمني ذلك وحفزني الى القاء خطاب آخر كان شديداً بقدر شدة تألمي وتهيج شعوري حتى قال لي صديقي أحمد مختار بيهم بعد أيام انه لا يوجد أحد نقبل منه هذه اللهجة الشديدة سواك ولكن كان من تأثير الاخلاص فيه ان ضاعف كثير من المكتتبين ما كانوا كتبوه من التبرع.

ثم ألفنا لجنة من كبار الوجهاء أهل الغيرة كانت تطوف على من لم يحضر ذلك الاجتماع في مكاتبهم ومخازن تجارتهم لإتمام الاكتتاب، وأفرادها عمر بك الداعوق وأبو علي سليم علي سلام افندي وأحمد مختار بك بيهم ومحمد افندي الفاخوري ورشيد أفندي اللاذقي ورشيد رضا كاتب هذا. وقد بلغ الاكتتاب بالمبالغ التمهيدية بضعة آلاف من الجنيهات مع اكتتاب سنوي آخر وقد سافرت الى الشام قبل إتمام الاكتتاب فوقف سيره ولكن العمل لم يقف فقد ابتاعوا أرضاً واسعة بجوار الحرش باسم هذه المدرسة ستبنى فيها ان شاء الله تعالى.

هذا ما انتهى اليه السعي والاستعداد لهذا المشروع وهو ليس مما تبيض به الوجوه إلا إذا نظر اليه من حيث انه بدء حياة اجتماعية جديدة يرجى ان تنمي وتزداد بالعمل وقد كنا معشر الساعين اليه غير مغرورين بنهضتنا ومبلغ استعدادنا ولذلك اتفقنا على انه لا يرجى نجاحه وثباته إلا إذا عهد به الى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي ستكون إن شاء الله تعالى من أغنى الجمعيات الوطنية فقررنا نوط العمل بالجمعية، وسعينا الى تجديد نظامها وتنظيم جلساتها التي كانت معطلة فتمّ ذلك في أقرب وقت بمساعدة رئيسها صاحب الفضيلة مفتي بيروت أدام الله النفع به.

ولما شعر المسيحيون بهذا السعي استكبره على المسلمين المستكبرون، وكرهه لهم ومنهم

الكارهون، وكتبوا في جرائدهم اننا نريد لوطننا السوري مدارس وطنية، لا مدارس دينية، فالدين هو الذي فرق كلمتنا، وأغرى العداوة والبغضاء بيننا، فرددت عليهم في جريدة الحقيقة بأن المدارس الدينية التي فرقت وفعلت ما فعلت هي مدارس مسيحية لا إسلامية ولا وطنية فإذا رضيتم بتركها واستبدال مدارس وطنية بها فإننا نضع أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم، ولكننا نقول ان الدين لم يكن هو المفرق والمغري بالعداوة بأصوله وتعاليمه بل بسوء استعمال السياسة الاجنبية له واننا بالتربية الوطنية يمكننا ان نجعله من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون، وفي نصوص القرآن والانجيل، ما يهدي الى سلوك هذه السبيل، وهي التي سلكها فقيد الوطن البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه والاحتفال في هذاالعام بذكرى مرور مئة سنة من تاريخه.

فهلموا ننشىء مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجداً وفي جانب آخر كنيسة، فإن التربية لا تكمل بغير فضيلة والفضيلة لا تكمل بغير دين، وفي كل من الدينين الإسلامي والمسيحي فضائل كافية، وهي في الأكثر متفقة او متقاربة. فليرب كل فريق منا أولاده على عبادات دينه وفضائله، ومحبة وطنه والتعاون على ترقيته، على قاعدة المنار الذهبية (نتعاون على ما نشترك فيه، ويعذر بعضنا بعضاً في ما نختلف فيه) فنحن مشتركون في أرض هذا الوطن وفي جميع مصالحه الاقتصادية والسياسية ومشتركون في اللغة فنتعاون على ترقية ذلك بجميع فروعه ولسنا مختلفين إلا في الدين ومذاهبه فيعذر كل منا الآخر فيه وليعلم الافراد المارقون من الدين من الفريقين انه ليس في استطاعتهم هدم الدين وهذه البلاد وما يجاورها هي مهده ومنبت الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام - اولئك العظام الذين يقدس ذكرهم مئات الملايين في الشرق والغرب ولا يعدون أحداً من الفلاسفة ولا من الملوك والفاتحين مساوياً ولا مدانياً لأحد منهم بل ولا أصحابهم وتلاميذهم الاولين، ولا أوليائهم المخلصين. بهذا قامت الحجة لنا عليهم والمخلص في الدعوة الى المصلحة العامة لا تدحض له حجة لأن الله تعالى هو المؤيد له (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين).

الرحلة السورية الثانية(*)

(٧)

الحالة السياسية والاحتلال في السواحل

نكتب في هذا الفصل كلمة حق وما كل ما يعلم يكتب في مثل هذا الوقت لأن الزمن الذي يلد التاريخ لا يدونه كما قال بعض حكماء الغرب ولأن الكتابة في السياسة يراعى فيها مصالح كثيرة يقع التعارض فيها فيرجح كل ناظر بين المتعارضات باجتهاده.

قد اشترطت علينا السلطة الانكليزية في إعطائنا جواز السفر الى سورية شروطاً ثقيلة أشرنا اليها في الفصل الثاني من هذه الرحلة، خلاصتها ان نتحامى إحداث تهييج سياسي بالكتابة او الخطابة فوفينا بالشرط واكتفينا من الإفادة والاستفادة ان نعرف حقيقة الحال ونقول ما نرى انه الحق النافع للبلاد، مع النصح للناس بما يجب عليهم من الاتفاق والاتحاد، والعلم والاقتصاد.

أما أهل البلاد فقد كان التغاير بين المسلمين والنصارى منهم في السواحل بالغاً أشده، فالنصارى كانوا يرون ان ملك البلاد سلب من المسلمين وصار لهم بقوة فرنسة وحمايتها والمسلمون يبكون أسى وحزناً على الدولة العثمانية ويعلقون آمالهم بالأمير فيصل الذي ضمن لهم استقلال البلاد وجعلها دولة عربية بمساعدة بريطانيا العظمى، فلهذا كانوا في منتهى النفور من الفرنسيس وكان من هؤلاء من يتودد اليهم ويجتهد في استمالة زعمائهم وأصحاب المكانة منهم فلا يزيدهم ذلك إلا نفوراً منهم ومبالغة في التعلق بفيصل فيضطرهم ذلك الى حصر ثقتهم بالنصارى ومن يتقرب اليهم ويتملّق لهم من طلاّب المنفعة من المسلمين وان كانوا لا نفوذ لهم ولا تأثير في أهل ملّتهم. وقد فصلنا في الفصل السادس من هذه الرحلة ما أخطأ فيه كل من المسلمين والنصارى في هذا الأمر وما كان يجب على كل منهم من السعي الى الاتفاق والاتحاد على مصلحة الوطن المشتركة وما سعينا اليه قولاً وعملاً وكتابة في هذا السبيل وقد كان هذا السعي كله بعد اضطرار

(*) المنار ج ٢٢ (١٩٢١) ص ٧٦٨ . ٧٨٥.

السلطة الفرنسية إياي الى الإقامة في بيروت وفي طرابلس عدة شهر بعد ان كنت عازماً على أن أقيم فيهما عشرة أيام فقط.

ذلك بأنني عقب إلمامي ببيروت (في ٤ المحرّم سنة ١٣٣٨) قد أصابتني زكمة معوية فتأخرت عن زيارة طرابلس الى ١٦ المحرم ولما أردت العودة منها الى بيروت. عرض لي تصديّ السلطة الاحتلالية ما سأذكره بعد ذكر اجتماعي في بيروت بالمندوب الفرنسي السامي.

مقابلة المندوب السامي مسيو جورج بيكو

جاءني في يوم الإثنين (١١ المحرم - ١٧ اكتوبر سنة ١٩١٩) شرطي بيروتي وقال لي إذا كنت تحب ان تقابل القومسير السامي (مسيو جورج بيكو) فهو مستعد لمقابلتك بين الساعة التاسعة صباحاً والظهر في الدار التي كانت للوالي فوعدت بالذهاب وذهبت في الساعة العاشرة وقابلته فمكثت معه من الساعة الحادية عشرة الى ما بعد الظهر فاحتفى بي وتلطّف غاية التلطف ودار الحديث بيننا في ثلاث مسائل:

(المسألة الاولى) ما ينكره المسلمون من السلطة الفرنسية. سألني عن عهدي برؤية البلاد وكيف رأيت حال المسلمين اليوم؟ فقلت له ان المسلمين على كونهم لم ينسوا ما انتابهم في آخر زمن الترك من الرزايا والمصائب يبكون عليهم وان لم تجف دموعهم من البكاء منهم لأنهم يهانون في هذا الوقت حتى في دينهم... فأجاب بأنه وقع من رجالهم أغلاط كثيرة لا ينكرونها ولكنهم سيتلافونها، وانه على ما ينويه من المساواة بين جميع الطوائف والملل في الوظائف وغيرها سيجتهد في مراعاة شعور المسلمين الديني بدقة وعناية تامة، وذكرت له ان أهم ما يهم المسلمين (كما يهم غيرهم أيضاً) جعل التعليم باللغة العربية وجعلها هي الرسمية وعدم تعرّض السلطة للأوقاف والتعليم الديني فوعد بذلك وعداً مؤكداً. وإنما ذكرت له هذا لأسمع منه ما يقوله فيه لا لاقتراح شيء عليه.

(المسألة الثانية) ما ينوون عمله في المنطقة الشرقية. سألته هل تظل على حالها؟ فقال لا بد من توحيد الادارة في البلاد كلها من وجود المستشارين الفرنسيين في الداخل كالساحل الا ان الاحتلال العسكري يبقي في الساحل فحسب. قلت وهل يكون لسورية كلها حاكم واحد كالأمير فيصل أم تجعل قسمين لكل منهما أمير أو حاكم وطني عام؟ قال لا بد من قسمة البلاد الى عدة ولايات او مقاطعات، ولا يعلم الآن كيف يكون ذلك لأنه يتوقف على ما يكون عليه الصلح مع الترك لأن البلاد لا تزال لهم (بلاد العدو المحتلة).

هذا ما قاله وهو أعلم بغرض حكومته على انهم قسموا البلاد قبل الصلح مع الدولة فجعلوها بضع دول أكبرها وأفخمها ما سموه (لبنان الكبير).

(المسألة الثالثة) المقابلة والتنظير بين الفرنسيس والانكليز والسياسة الحاضرة وما ينتظر من التحول والانقلاب فيها، وقد أطلنا فيها ما لم نطل في ما قبلها.

قال هو إن الفرنسيس أرق طباعاً وألطف معاشرة من الإنكليز فهم يحترمون

الشرقيين وغيرهم ويقابلون أهل الفضل والمكانة بما هم أهل له من الحفاوة والإكرام وأما الانكليز فمتكبرون يزرون بأقدار الناس - او ما هذا معناه.

قلت إن لطف الفرنسيس وحسن معاشرتهم وقربهم من الشرقيين في ذلك مشهور كشهرة الانكليز بالجفوة والانكماش والعجب بأنفسهم واننا قد اختبرناهم في مصر فألفيناهم كما يقال عنهم إلا ان آدابهم عالية في معاشرة من يرضون معاشرته ولقاء من يودون لقاءه، ولكن ما جبلوا عليه من الترفع والعجب والاثرة، والطمع ومحاولة الانفراد بالسيادة سيبغضهم الى جميع الأمم والشعوب ويؤلبها عليهم. وذكرت طمعهم في بلاد العرب والعجم والاستانة وما يقصدون من مد ظل سلطنتهم (امبراطوريتهم) من الشطر الافريقي من افريقيا والغربي من آسية الى حدود الصين وسيادة سائر البحار وإزالة ملك الإسلام من الشرق وجعل جميع الدول العظمى في اوربة عالة عليهم وتبعاً لهم في سياسة العالم (قلت) حتى انني لأتوقع مجيء يوم ترون فيه من مصلحتكم محالفة الالمان على الانكليز، فوافقني على آرائي في هذه الامور بعد مناقشة في بعضها وقال في توقع الانقلاب في سياسة الحلفاء انه غير محال او غير بعيد ولكننا الآن متفقون في كل شيء.

وبهذه المناسبة ذكرت له خلاصة من مذكرتي التي أرسلتها الى مستر لويد جورج في هذا الموضوع ليعلم أنني لم أقل له ما قلت في الانكليز تقرباً اليه كما يفعل أنصارهم في سورية وإنما هو شيء قلته بل كتبته لأعظم رجال الانكليز لأنني اعتقده وأعتقد ان استمرارهم على تقاليدهم السياسية القديمة شر لهم وانه سيفضي الى عداوة الأمم لهم والخلاف مع حلفائهم الذي اضطرهم الى محالفتهم الخطر الالماني المهدد للفريقين المتأصل تعاديهما في بطون التاريخ وقد تجددت بينهما عداوة حسد المهضوم حقه في هذه المحالفة بكثرة خسارته للآخر الذي زاد ربحه على خسارته أضعافاً ولم يرو غليل مطامعه، أعني عداوة اللاتين للانكليز. وقد صرحت بهذا في مذكرتي للوزير البريطاني التي نوهت بذكرها في مقالة (الحقائق الجلية في المسألة العربية) وكان غرضي منها إقناعه بترك قسمة تراث الإسلام لأنه لم يمت والاعتراف باستقلال العرب والترك والفرس وكذا مصر، ولا تزال الأيام تصدق بأحداثها كل ما كتبته في تلك المذكرة كما صدقت ما كتبته لهم في ما قبلها، ولكن جمود اللورد كرزون على سياسة الطمع القديمة والتعصب الديني والجنسي الذي يشاركه فيه مستر لويد جورج على مرونته وتقلبه من أكبر أسباب ما تفاقم على انكلترة من الكوارث السياسية وعجزها عن حل شيء منها.

بعد هذا الاستطراد أقول انني لم أكن أحاول إقناع مسيو جورج بيكو برأيي لأجل عمل برجى ان يأتي منه، كيف وقد كان هذا الكلام في أيام تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ التي وضعها هو وصديقه السر مارك سايكس بين الدولتين وكانت والجنود البريطانية تخرج بذخائرها وسلاحها من سورية الشمالية كلها وتتركها للجيش الفرنسي بعد تنازع وقع بينهما في سبيل تنفيذها ظهر أثره في سورية كما ظهر في باريس ولندن حتى قال بعض دهاقين السياسة إنها نقضت نقضاً ومنهم مسيو كلمنصو رئيس الوزارة الفرنسية لذلك

العهد وكانت فرنسة يومئذ تريد ان تتخذ اتفاق الاحزاب السورية على طلب وحدة البلاد وسيلة لجعلها كلها تحت سيطرتها باسم الانتداب، فعارضتها السياسة الإنكليزية بحزب سوري تألف في مصر يطلب ان يكون الانتداب لحكومة الولايات المتحدة وبحمل الامير فيصل لحزبه في الشام على طلب جعل الانتداب لانكلترة وحدها فإن لم يمكن فلها ثم لحكومة الولايات المتحدة الامريكية إذا هي لم تقبل وقد كان المظهر الأكبر لهذا التنازع بين السياستين في البلاد أيام إلمام الوفد الامريكي بها لاستفتاء أهلها في مستقبلهم وفي اختيار الدولة المنتدبة.

وفي السابع عشر من المحرم (١٢ اكتوبر) ذهبت من بيروت الى طرابلس والقلمون في سيارة فأقمت فيهما ستة عشر يوماً طلبت في اثنائها من الحكومة إعادة وقف جامع القلمون الي إذ كنت الإمام والمتولي الشرعي له وكانت إدارة الاوقاف تولت أمره منذ بضع سنين وحال انقطاع المواصلات بالحرب العامة دون مطالبتي إياها بإعادته إلي كما كان في عهد والدي (رحمه الله تعالى) فوافقت لجنة الاوقاف بطرابلس على إعادته وقررت باتفاق الآراء انني المتولي الشرعي وكتب مأمور الاوقاف بذلك الى مدير أوقاف الولاية في بيروت فأزمعت الذهاب الى بيروت لإتمام هذا الامر الذي جرى لي فيه من العبر ومعرفة الخلل في الحكومة وأخلاق رجالها وسيرتهم ما يعلم به ان جلّ ما تشكو منه البلاد فهو من أهلها او بمساعدتهم ويستحق ان يفرد له فصل خاص وإنما كلامنا الآن في الحال السياسية.

حادثة تعرض السلطة الفرنسية لنا

في الثالث من صفر (٢٨ اكتوبر) أخذت ورقة للسفر من طرابلس الى بيروت في باخرة فرنسية تسافر من الميناء ليلاً وكنت في الميناء فأردت النزول الى الباخرة فقيل لي ان السفر يتوقف على توقيع السلطة الفرنسية على جواز السفر - وهذا لم يكن من قبل - وكان من التسهيل غير المنتظر ان الشرطة وقعت على الجواز إذ عرضه عليها من تبرع لذلك من معارفنا ومعارفهم ولا أدري أكان في ذلك دخل متوخى ام لا ولكننا لم نكد نضع متاعنا في الزورق مع متاع كثير من المسافرين الا وفاجأنا رجال الشرطة ففتحوا جميع صناديقي والاسفاط ومحفظة الورق ومحفظة النقود وبطائق الزيارة وفتشوا كل ذلك تفتيشاً دقيقاً لم يغفل فيه طيات الثياب ولا جيوبها ثم فتشوا جيوبي وأخذ شرطي جميع الاوراق ودعاني الى الذهاب معه الى إدارة المكس (الجمرك) فذهبنا وأعيد المتاع الى حيث كان وطفقوا هناك ينظرون في الاوراق نظراً دقيقاً وكان جل عنايتهم وأشد دقتهم في ما ظنوا بجهلهم وغباوتهم ان فيه أسراراً سياسية ينال مكتشفها أسنى الجوائز عند السلطة الفرنسية وهو فهرس وضعته للجزء الثامن من تفسير القرآن راعتهم أرقامه فظنوا فيها الظنون على أنني أخبرت الباحث فيه بأنه فهرس لكتاب في التفسير... فقال يمكن ان يكون كتب في اثنائه شيء سياسي(!!).

ولما طال هذا البحث استأذنت الشرطي في الذهاب الى دار نسيبي الشيخ حسن الصفدي لأجل العشاء وصلاتي العشاءين وتغيير الثياب فأبى وقال ان رئيسه (لبنان بك)

أمر بأن أبقى ثم الى ان يجيء هو من المدينة الى الميناء.

ثم في اثناء الساعة الثالثة بعد الغروب جاء شرطي (او قومسير) اسمه (حنا) على ما أتذكر وقال ان لبنان بك أرسله بالنيابة عنه ليأخذني الى دار الحكومة في المدينة لأجل توقيفي فيها (التوقيف في عرف الحكومة التركية هو الحبس الموقت) فاستأذنته بما استأذنت به الاول فلم يأذن وذهبنا الى المدينة بالترام فوضعوني في حجرة من حجر الشرطة نوافذها مكسرة الزجاج وكان فيها مصباح صغير فيه قليل من زيت البترول نفد فانطفأ ولم يجد من في الحجرة من الشرطة غيره وكان الماء مقطوعاً عن دار الحكومة وليس في المراحيض ورق للاستنجاء فكان التخلي فيها متعذراً على أمثالنا كما كان النوم متعذراً لأن هواء الليل في طرابلس يأتي من ناحية الجبل الذي يعلوه الثلج فيكون بارداً جداً كما يكون هواء النهار حاراً بالنسبة اليه ولا سيما في تلك الايام من فصل الخريف.

ثم جاءنا رجال الشرطة بفانوس كانوا ينقلونه من حجرة الى أخرى ثم قالوا ان الحاكم العسكري قد حضر فأخذوا الفانوس وأصعدوه على نوره الى حجرته وتركوه له فيها وقد بلغني بعد ذلك ان سبب مجيئه ليلاً على خلاف العادة ان بعض المقربين اليه من الوجهاء علموا بمسألة توقيفي فبلغوه ذلك إذ كان يريد النوم وأنذروه انه إذا بقي هذا الرجل موقوفاً الى النهار وعلم الناس بذلك فلا يؤمن ان يثوروا ويهجموا على دار الحكومة لإخراجه عنوة وتكون فتنة كبيرة. وقد ظل الحاكم مع ترجمانه ينظران في الاوراق ساعة و٣٠ دقيقة ثم طلبني وبلغني ترجمانه عنه ما يأتي:

«إنك جئت الى هنا وكان البوليس السري يتعقبك ولما نزلت الى البحر أخذوا أوراقك فوجد فيها شيء يدل على انك تشتغل بالسياسة وفيها ما يدل أيضاً على انك رجل مهم غير عادي[1] فأنا لا أريد ان أوقفك هنا وإذا كنت تريد السفر الى بيروت فتابع سفرك اليها وأنا أرسل اوراقك الى حاكمها الاداري ليرى رأيه فيها.

قلت أحسنت صنعاً فرجالكم في بيروت أجدر بمعرفتي وإنصافي منك واني لأشهر مما تدل عليه الاوراق. قال انك لم تزرني لأعرفك.

ثم قال الترجمان للشرطي (أو القومسير حنا) الذي صحبني خذ هذه الاوراق (وكانت قد وضعت في ظرفين كبيرين ختما بالشمع الاحمر ولا يزالان عندي) وهذا المكتوب وأعطوها لبوليس يسافر مع الشيخ الى بيروت الى دار الحكومة فيها ويجب ان تفهموا هذا البوليس ان يكون رفيقاً بغاية الادب لا كما كانوا يفهمون من قبل انهم مسيطرون على من يصحبونه يتحكمون فيه ويهينونه. وأعطاه ورقة أخرى من الحاكم الى رئيسهم (لبنان).

ثم صافحت الحاكم ونزلت معه الى خارج دار الحكومة حيث ركبت عربة وركب معي نسيبي الشيخ حسن وأخي السيد ابراهيم أدهم وهما لم يفارقا دار الحكومة منذ جاءا معي وركب معنا شرطي يحمل الورق وقصدنا الميناء فألفينا (لبنان) في الطريق عائداً منها

---

(١) كان في تلك الاوراق قوانين وقرارات بعض الجمعيات ومكتوبات من بعض المشهورين في سورية والشرق حتى الهند والغرب حتى مراكش فيها اطراء عظيم.

فأعطاه الشرطي رقعة الحاكم له فارجعنا الى دار الحكومة ولم يرض ان أسافر في البحر وأمر (حنا) بأن يستأجر لي عربة من مالي ويرسلني في البر وكان يتكلم بغلظة وخشونة وعظمة الحاكم القاهر المستبد ووكل الى حنا تنفيذ الامر وذهب.

وفي اثناء الساعة الثالثة الزوالية بعد نصف الليل أحضرت المركبة (وأجرتها ٤٥٠ قرشاً مصرياً صحيحاً كما زعموا وليس لي ان أعارض) الشرطي الذي يحمل الورق فأوصاه حنا بما يأتي:

إذا صادفت في الطريق أحداً يريد أخذ الاوراق منك فاطلق عليه الرصاص وإذا أراد أحد أخذ الشيخ منك فاطلق الرصاص على رجل الشيخ (أو قال رجليه) وعلى من يحاول أخذه.

ثم ركب معنا حنا نفسه وجندي مسلح الى ان تجاوزنا بساتين طرابلس لئلا يكون أحد من الاهالي علم بأمرنا وكمنوا بين الاشجار ليأخذوني عنوة وهو يجهل ان مثلي لو كان جانياً لترفع عن الهرب فكيف وهو يعلم انه ليس في أوراقه ما يمكن ان تعاقبه عليه السلطة الفرنسية مهما يكن ضغطها على المسلمين شديداً في ذلك الوقت مقاومة للفكرة العربية والتعلق بفيصل ولو عاقبته لما زاده عقابها إلا رفعة قدره، على ان الشرطي الذي أرسل معي كان مسلماً فلم يكن محتاجاً الى التوصية بالتأدب معي بل كان من أولياء بيتنا ويتمنى لو يكون في خدمتي طول عمره وكان إرساله معي مما أثار عجبه وعجبي فكيف وقد أوصي بتلك الوصية الحمقاء التي كان يتلذذ بمثلها اولئك المتعصبون من اوباش اللبنانيين الذين يعتقدون ان فرنسة حكّمتهم في أشراف المسلمين وعلمائهم - بله عامتهم - تقرباً الى يسوع المسيح والرسل والقديسين فكانوا حجة على فرنسة بأنها اما ظالمة سيئة الادارة وإما متعصبة سيئة النية، وسبباً لشدة نفور المسلمين واستيائهم منها وتفضيل الانكليز عليها وشراً على وطنهم بإلقاء البغضاء والتفريق بين الفريقين الكبيرين من أهله كما يعلم مما مر في هذه الرحلة ومن بقية هذا الفصل منها، على ان هذا كان مفيداً للمسلمين من حيث انه قوّى فيهم نزعة الجنسية العربية وحب الاستقلال ومعرفة قيمته كما قوّى فيهم روح الدين وأعاد اليهم بعض ما فقدوا من هدايته. وكان جميع المشتغلين بالسياسة من خصوم الاحتلال الفرنسي يسرون بسوء تصرفها وتصرف اعوانها ولا يحبون ان تحسن الادارة لئلا يميل اليها الجمهور.

ولو كان أمثال (لبنان) وحنا ممن اصطفاهم الفرنسيس من بيوتات لبنان المعروفة او من الافراد الذين تربوا تربية ترفع من خسّة المنبت ووراثة السوء لما كانوا يعاملون مثلي بهذه المعاملة وان أمروا بها أمراً بل كانوا ينصحون للأجنبي الذي يأمرهم به بمثل ما نصح لحاكم طرابلس العسكري من حملوه على خروجه من داره ليلاً ليتلافى بنفسه ما كان أمر به. فأما ابناء البيوتات فإنهم ورثوا الأدب الشرقي في احترام الاسر الشريفة والعشائر المحترمة. وأما ابناء التربية الحسنة فيعرفون قيمة العلم والادب ويحترمونهم بالطبع فينزهون أنفسهم معهم عن سوء الادب.

وأما ما كان من أمر هذه الحادثة في بيروت فهو اننا لما وصلنا اليها وكان ذلك بعد المغرب من يوم الاربعاء صادفنا في الطريق الى دار الحكومة بعض الاصدقاء فسار أحدهم معنا اليها وانتظر آخرون ما يعود به من الخبر ليبنوا على ما يقع لنا ما يجب أن يعمل لتلافيه ان كان شراً. ولما دخلت دار الحكومة لقيت فيها لدى الباب الشيخ عبد الكريم اليافي نقيب أشراف بيروت من أصدقائنا الاولين(١) وهو موال للسلطة الفرنسية فسألني بعد التحية عما جاء بي الى دار الحكومة في ذلك الوقت فأخبرته فأخبر حاكم بيروت او نائبه بخبري مقروناً بالثناء والتزكية والضمان غير الرسمي، فرضي بأن أخرج وأكون حراً في بيروت الى ان ينظروا في هذه الاوراق وينصفوني فيها بشرط ان لا أعمل أعمالاً سياسية مضاداً لهم فيها.

تقريري للمندوب الفرنسي السامي

كان هذا الحدث وسيلة لي إلى كتابة تقرير للمعتمد الفرنسي بدأته بالتذكير بما دار بيني وبينه وشرحت فيه ما كنت أجملته في الحديث معه يوم لقائه من اضطهاد المسلمين بما لم أكن أعلمه يومئذ لقرب العهد بالوصول الى بيروت ومنها كون النسبة الى العرب من كبار الذنوب السياسية مع كونه هو وكثير من كبار رجال فرنسة قد صرحوا بأنهم يريدون احياء الجنسية العربية ولغتها ومدنيتها.

ثم ذكّرته فيه بتفضيله الفرنسيس على الانكليز في معرفة اقدار الناس من أفراد او شعوب وقفيت على ذلك باعلامه بأنني كنت في مصر أنتقد سياسة الانكليز كتابة وخطابة وقولاً في المجالس العامة والخاصة وقدمت لهم في اثناء الحرب وبعدها مذكرات في تخطئة سياستهم في المسألتين العربية والاسلامية (حتى التركية وآخرها المذكرة التي أرسلتها الى وزيرهم مستر لويد جورج وأنذرته فيها بعداوة العالم الإسلامي لهم. وانه قدمت اليهم تقارير كثيرة في أمثال هذه المسائل (علمت هذا من نائب الملك وغيره) وكانوا يعلمون ان لي علاقة ودية بأمراء العرب وزعمائهم وجمعياتهم، بل عثروا على رسالة تعد تحريضاً للعرب على الاجانب وقيل لهم انني أنا الذي طبعتها ووزعتها ـ ومع هذا كله لم يفتشوا لي منزلاً ولا مطبعة ولا أهانوني بقول ولا عمل ولم يقابلني أحد من كبار رجالهم إلا بالاحترام اللائق ـ فأين هذا مما عاملتني به السلطة الفرنسية في طرابلس؟.

وذكرت له بهذه المناسبة أيضاً كلمة عن ذهابي الى الهند سنة ١٩١٢ بدعوة جمعية ندوة العلماء فيها لرئاسة المؤتمر الاسلامي وان الانكليز كانوا كارهين لهذه الدعوة وبلغني في الهند ان جواسيسهم كانت تتبعني كما فعلت وتفعل جواسيس فرنسة بطرابلس وبيروت ولكن لم يتعرض أحد لحريتي الشخصية ولا فتحوا صناديقي ولا فتشوا أوراقي. وختمت

---

(١) لآل اليافي مودة لآل بيتنا منذ قرن ونيف على عهد أشهرهم الشيخ عمر اليافي الشاعر الاديب صاحب الديوان المعروف ففي ديوانه بعض القصائد التي مدح بها جد والدي السيد الشيخ محمد الكبير وله فيه قصائد أخرى ومنها تاريخ داره في القلمون وقد نقش على رخامة فوق بابها الكبير في أبيات من قصيدة وبيت التاريخ «بل كل من قد حلها» أرخ يراها خير دار سنة ١٢٣٢.

هذه المسألة بقولي له «وليس هذا بكثير على حرية الانكليز التي قسروا بها من يختبرهم ويختبر غيرهم على تفضيلهم على جميع الشعوب الاوربية في الحرية ومعرفة أقدار الناس».

قلت بل كان الغريب ما عاملني به أحمد جمال باشا الاتحادي الشهير في بغداد ـ وكان يومئذ جمال بك ـ إذ ألممت بها منصرفي من الهند وكنت مجاهراً بالطعن في الاتحاديين والتنفير عنهم وكانت (مجلة العالم الاسلامي) التي يصدرونها في الآستانة تنشر بقلم الشيخ عبد العزيز شاويش انني أقصد العراق لأجل تأليب العرب وإثارتهم على الدولة ولكن جمال باشا لم يأخذ هذا الكلام قضية مسلمة بل سأل نقيب السادة الاشراف السيد عبد الرحمن المحض الكيلاني (رئيس وزارة بغداد لهذا العهد) وبعض كبار العلماء عني فبالغوا في الثناء (وكان هو يعرف عني شيئاً وكتب إلي قبل سفري ذاك) فأكرمني وزارني ودعاني الى طعامه. فأين هذه المعاملة من أقسى الاتحاديين الذي اشتهر بلقب السفاح من معاملة الفرنسيس لي في بلدي وأنا لم أفعل شيئاً يخالف القانون ولا يخل بالأمن ولم أدخل في غمرة الاحزاب السياسية الخ.

وختمت المذكرة بسوء تأثير هذه الحادثة في أنفس المسلمين الذين صاروا يتعجبون لما كانوا يسمعون من حسن سيرة فرنسة وسوء سيرة الدولة العثمانية وقد تبين لهم ان الترك أعدل وأرحم وأبعد عن التعصب وأحسن ادارة من الفرنسيس، فصاروا يسألون عن سبب سوء صيت الترك وحسن صيت الدول الأوربية الخ.

إعتذار المندوب السامي وغيره

أرسلت المذكرة الى المندوب (القومسير) السامي فلم ألبث ان دعيت الى مقره الرسمي (القومسيرية وكان ذلك في ٨ نوفمبر) فقابلني فيها (مسيو رودريكص) معاون مدير الامور السياسية لأنه يحسن العربية وكان هو المترجم بيني وبين المندوب عند تلاقينا منذ شهر فرحب بي أجمل الترحيب وبلغني شدة أسف المندوب السامي لوقوع الحادثة وانه كان يود لو يلقاني ليعتذر لي بنفسه لولا انه أصيب منذ ثمانية أيام بإسهال تحول الى دسنطارية وانه كلفه الاعتذار باسمه وأن يخبرني ان الحاكم العام (مسيو نيجر) سافر او يسافر الى طرابلس لأجل هذه الحادثة ليحقق فيها ويعاقب المسيئين وانه سيعزل حاكم طرابلس لأجلي. وكلفه ان يخبرني أيضاً بأن الحكومة الفرنسية مستعدة للقيام بكل ما أطلبه من التعويضات المالية والأدبية، وكرر علي ذلك قائلاً مهما تطلب من التعويض يؤدَّ بكل ارتياح.

قلت انني لا أطلب تعويضاً مالياً وانني لم أخسر من المال شيئاً يذكر وأما معاقبة المسيئين من الشرطة وغيرهم فهو لمصلحتكم لأنه يرفع عنكم تهمة تعمد إهانة المسلمين وظلمهم وأنا لم أخسر شيئاً من مقامي الأدبي بظلمكم إياي بل ذلك يرفع مقامي في نظر أهل وطني وغيرهم، إلا ان حاكم طرابلس أمسك عنده أوراق وقفنا فأنا أطلبها للسعي في انجاز العمل فيها.

قال إذا انت لم تطلب لنفسك شيئاً فأنا أطلب منك باسم الوطن السوري ان تترك

مصر وتقيم هنا وتشتغل بإصلاح بلادك فهي اولى بك لأنها فقيرة من الرجال ونحن في حيرة من هذا الفقر... نريد إنشاء مجمع لغوي وان تكون أنت العضو الاول فيه وفي البلاد مصالح إسلامية خاصة انت أولى بإصلاحها او ادارتها ونود ان تكون مستشاراً للحكومة العليا في البلاد لتكون خدمتنا لها على الوجه المرضي للمسلمين أصحاب الأغلبية في البلاد وان إدارة هذه البلاد من أشق الامور وأصعبها لكثرة الاديان والمذاهب المتعادية فيها (وذكر أكثرها وأطال في استمالتي والثناء عليّ بلطفه وبشاشته).

فشكرت له هذه العناية والثناء واعتذرت عن الانتقال من مصر الى سورية بما لا حاجة الى الإطالة به.

وكان قد اتفق في هذه الأثناء ان دعا الحاكم العام للولاية (مسيو نيجر) أكابر وجهاء المسلمين المعارضين لتأليفهم وسمّى ما ينكرون على السلطة الفرنسية وما ينقمون منها فكان أشد ما ذكر له مما نقموا وأنكروا حادثتنا هذه، تكلم فيها في ذلك الاجتماع وغيره أكبر العلماء مفتي الولاية الشيخ مصطفى نجا والشيخ أحمد عباس وأيدهما كبار الوجهاء المشهورين بالشجاعة الادبية كالمرحوم أحمد مختار بيهم وأبي علي سلام فأكبروا من شأن صديقهم خادم الاسلام والوطن فحمل ذلك الحاكم على ان يطلبني ليسمع تفصيل الحادثة مني فاتفق ان طلبني مدير الأمن العام في الوقت الذي حدده لي كتابة.

جئت دار الحكومة بعد العصر من ذلك اليوم فقابلت مدير الامن العام أولاً فأعطاني أوراقي وبلغني عن حاكم مدينة بيروت الاداري انه يجب ان أسافر الى مصر في أول باخرة تسافر من بيروت الى الثغور المصرية. ثم دخلت على الحاكم العام فرحب بي واعتذر عن الحادثة متأسفاً لوقوعها وقال إنها بلغته من مصادر مختلفة فأحب أن يعرف الحقيقة مني قبل سفره الى طرابلس فلخصتها له، فأعاد التلطف في الاعتذار ووعد بالتحقيق ومعاقبة المسيئين فقلت له: ذلك شأنكم ولكن مدير الأمن العام بلغني الآن انكم حكمتم علي بالنفي من البلاد ولم يبين لي سبب هذا الحكم القاسي فهل هذا ما وعدتم به من العدل؟ وأنا لا يهمني عقاب أحد بعزل ولا غيره لأجلي، فإن هذه الإساءة رفعت من قدري في نظر ابناء وطني، ولكن حاكم طرابلس أرسل اليهم جميع أوراقي ما عدا الاوراق الرسمية المتعلقة بالوقف. ولخصت له خبرها. فأنا لا أطلب إلا استرجاعها لأجل إتمام المعاملة الرسمية في الولاية بها. فظهر الاستياء على وجهه وكتب أمراً بإلغاء حكم النفي معتذراً عنه وأما أوراق الوقف فوعد بأن يحضرها معه. ثم ذهب الى طرابلس وبحث مع حاكمها العسكري في ذلك وبلغني ان هذا قد احتج لنفسه بأن البوليس فعل ما تقتضيه وظيفته إلا اساءة المعاملة، وأما هو فلما علم بحقيقة الحادثة حوّلها الى الولاية ولم يسىء في شيء. وقد صدق في هذا. وبلغني انه وبخ (لبنان) وصاحبه حنا وهددهما. وهكذا كان شأن السلطة الفرنسية بسوء اختيار الموظفين، تقع في المشكلات وتحاول تلافيها فلا تحسنه، ثم تعود الى مثل ما اعترفت بقبحه لأنها لم تزل سببه وعلته. على ان إزالة ذلك ليس بالخَطْب السهل ولا محل لبيان ذلك هنا لأننا لا نكتب لبيان ما نراه لتحسين الادارة وإنما نكتب خلاصة تاريخية.

تعلق مسلمي الساحل بفيصل وتأثيره

قد كان استغرابي لاغترار المسلمين بالانكليز وفيصل عظيماً جداً ولا سيما بعد تنفيذ الانكليز لمعاهدة سنة ١٩١٦ باقتسام البلاد العربية بينهم وبين فرنسة، وأغرب من ذلك استغرابهم لتخطئتي إياهم في ذلك واعلامهم بما لم يكونوا يعلمون من أمر ثورة الحجاز وحقيقة حال ملكها والامير فيصل وطمع الانكليز في السيادة على جميع البلاد العربية ما عدا هذه الحصة التي أعطتها لفرنسة من سورية. ولجزمي بأنها لن تعود الى منازعتها فيها وانتزاعها منها لتعطينا إياها، وإنما يجوز بل يرجح ان تأخذها منها في يوم من الأيام، إذا استقرت قدمها الاستعمارية فيما حولها من البلاد، وأن تستخدمنا في ذلك كدأبها في ضرب الأمم بعضها ببعض.

كنت أقول في كل مجلس يدور فيه البحث في أمر البلاد ان مثل انكلترة مع فرنسة في المسألة العربية كمثل جبار غاصب انتزع ضيعة لأسرة غنية من أيديها وأعطى بستاناً أو داراً منها لرجل كان مساعداً له فأي الرجلين أولى بخصام أصحاب الضيعة؟ الذي اغتصبها أم صاحبه الذي أخذ داراً واحدة أو بستاناً منه ولولاه لم يأخذ شيئاً؟ وهل يليق بالأسرة المالكة للضيعة ان تتعادى وتتنازع في تفضيل أحد الغاصبين على الآخر أم الواجب عليهم أن يتفقوا على ما يجب عمله لاسترداد المغصوب؟.

ثقل على كثير من وجهاء المسلمين قولي هذا من حيث كان مزلزلاً او مزيلاً لما كانوا يمنّون به أنفسهم ويسلون به همومهم وزاد ثقله على تلك الاسماع ووقعه في تلك القلوب ان كان يوثق بعلمه، ولا يتهم في إخلاصه وحسن قصده، وانه لا سبيل الى نقضه او رده، فمنهم من كان يقول وكيف العمل، وإذا لم يعمل لنا فيصل ووالده فمن؟ ومنهم من يسألني بإدلال المودة والصداقة أن أكتم هذا لئلا ييأس الراجون، ويشمت المخالفون.

ذلك بأن أعضل أمراضنا الاجتماعية اننا تعودنا التواكل بيننا، والاتكال على غيرنا، ولا تزال الاحزاب والجمعيات السياسية في سن الطفولة وقد رسخ خلق التنازع بين أهل الأديان والمذاهب، وإذ كان النصارى معتزين بالفرنسيس لم ير المسلمون بدأمن الاعتزاز بالأمير فيصل وبأنصاره الانكليز، وكنت أرى هذا التناظر ضاراً في الحال، وسيىء العاقبة في الاستقبال. وأن الاولى بالفريقين ان يتركوه ويرجعوا الى أنفسهم فيعطوها حقها ولا يمتهنوها ويجعلوا جل اعتمادهم اوكله على غيرهم، وأن يعرفوا حق وطنهم علهيم، وانه يستحيل ان يعمر ويعتزوا به ما داموا متناظرين متدابرين بسبب اختلاف الاديان والمذاهب، والاتكال على الاجانب، وكنت أرى ان إظهار المسلمين لذلك التعلق بفيصل - وان كان له ما لا أنكر من الباعث الطبيعي - قد زاد في كره ابناء وطنهم النصارى له ولهم، ونفورهم منه ومنهم، وحمل الفرنسيس على اتخاذه عدواً مبيناً وتوطين أنفسهم على مقاومة نفوذه في البلاد السورية وفي أوربة معاً، وإنما كان يمتاز فيصل على وجهاء الوطن السوري في السعي السياسي لاستقلاله بكونه قد عدّ من قواد الحلفاء وأنصارهم فكلامه أجدر بالقبول لدى حكوماتهم، فكان من المصلحة ان لا يخص بعضهم بالولاء وبعضهم بالعداء،

وان لا يجعل أنصاره من المسلمين يظهرون من التعلق به والاحتفال بغدوه ورواحه إغاظة للنصارى المعتزين بفرنسة، وكنت أرى الصواب في هذه المسألة ان لا يغتر المسلمون به ويتكلوا عليه، وأن لا يخاف النصارى منه، فصرحت في بعض المقالات التي نشرتها في جريدة الحقيقة للتأليف بين الفريقين على المصالح المشتركة بينهم في البلاد بأن فيصلاً لا ينبغي ان يخيف أحداً من أهل البلاد إذا كانوا متفقين على القيام بشؤون بلادهم لأنه ليس من أهل دولة أجنبية قوية يمكنه ان يستعين بمالها وجندها على جعل سورية تابعة لها إذا هو ولي إمارتها بل يكون هو تابعاً لها حتى إذا فرض ان عادت بلاده الاصلية او حاربتها لا يسعه إلامجاراتها او الاستقالة من إمارتها والخروج منها، وضربت لذلك مثلاً ملك البلاد الرومانية إذ اضطر الى قتال ابناء جنسه النسبي وهم الالمان اتباعاً لإرادة أمّته السياسية، وقد كان هذا القول مقنعاً لخصوم فيصل فلم يرد عليه أحد، بل لم يكن أكثرهم يعلم ان الامر كذلك، بل كانوا يظنون ان إمارة فيصل على سورية وترك فرنسة لها يستلزم إلحاقها بالحجاز رئيس ديني للمسلمين كالبابا عند الكاثوليك، وقد صرحت في ذلك المقال بتخطئتهم في هذا الاعتقاد أيضاً.

وقد رضي المسلمون بما كتبت في هذا المقال وسرهم عدم انتقاد النصارى له ولو جروا على هذه الخطة قولاً وكتابة وكفوا عن ذلك المسلك الذي سلكوه في شأنه لوقفت المعارضة له من الفرنسيس وأعوانهم عند حد ولم تنته الى ما انتهت اليه، ولما كان تأثير عاقبة أمره في المسلمين أليماً شديداً كما كان، ولكن ذلك البيان لم يكرر ولم يعمّم فظل السواد الاعظم من النصارى يعتقد الى اليوم ان فيصلاً كان يريد جعل سورية تابعة للحجاز وانه كان قادراً على ذلك لو تم له الاستواء عليها، وكل من الامرين خطأ، ولم أكن أريد بهذه الخطة تأييد فيصل لذاته او مشايعة لحزبه وأكثرهم من إخواني وأصدقائي وان كنت أعلم أنها أمثل ما يؤيد به، وإنما كنت أقصد أن لا يتعادى أهل وطني بسببه وان أدلهم على ما تحفظ به مصلحة الوطن إذا أتاح القدر له أن يكون أمير البلاد او ملكها بنفوذ حلفائه.

وجملة القول أنني كنت أتحرى في كل ما كنت أقوله وأكتبه النصح لجميع أهل وطني مع المحافظة على ما ألزمتني إياه السلطة البريطانية بمصر وجعلته شرطاً في الإذن لي بالسفر وان كان ظلماً واعتداء على حريتي الشخصية في بلادي التي أنا أولى بالحرية فيها منهم، ولم أكن أتشيع لسلطة من السلطات التي قسمت البلاد ولا متحاملاً على واحدة منهن تحيزاً لخصيمتها، ولا مهيجاً على السلطة الاحتلالية.

الدين والقوة والمصلحة في سياسة اوربة

واني أرجو ان يكون الزمان قد أثبت لأهل البلاد على اختلاف اديانهم ان جميع ما قلته في فرنسة وانكلترة والحجاز هو الحق وان جميع ما اقترحته هو المصلحة، وان لم يتذكروا أقوالي، فمن لم يكن ظهر له ذلك الى اليوم كله او بعضه فسيظهر له عن قريب فيعلم السوريون وهم شعب غير مسلّح انه لا قوة لهم إلا بالاتحاد وجمع الكلمة، وان

الشعوب لا تنال من الحرية والاستقلال ولا من الكرامة والارتقاء مع احتلال أجنبي إلا بقدر قوتها، وان دول أوربة وان بنيت سياستها القديمة في الشرق الادنى على دعوى حماية المسيحيين وإنصافهم او إنقاذهم من سلطة المسلمين فهي تتخذ الدين وسيلة الى مصالحها ولا تبالي بما يعارضها وان نسف الدين وأهله في اليمّ نسفاً.

والدليل على ذلك ان الدولة الفرنسية حامية المسيحيين الاولى في الشرق لا دين لها وانها قد قوضت الآن بنيان القاعدة الأساسية للسياسة الاوربية في الشرق - أعني قاعدة التنازع بين الهلال والصليب وسبقت حلفاءها الى الاتفاق مع الترك الوطنيين الأقوياء في الاناضول وصرحت بأن لهم الحق في الاستقلال التام واستعادة ما أخذه الحلفاء المنتصرون منهم، ورضيت بأن تتخلى لهم عن جميع كليكية، وعن جزء عظيم الشأن من سورية، والأمة الفرنسية ترفع صوتها بتأييد حكومتها في سبيل إعادة المودة بينها وبين الإسلام وخليفة المسلمين، وإذ رأت ان هذا من مصلحتها لم يصدها عن تنفيذه حماية المسيحيين في تلك البلاد، ولا قاعدة ما أخذ الصليب من الهلال لا يعود الى الهلال.

وان الدولة البريطانية ترجّح المصلحة على الدين أيضاً وهي ذات الصبغة المسيحية الرسمية والملك الحامي للإيمان وواضعة قاعدة الصليب والهلال التي ملأت الدنيا عنفاً وتثريباً على فرنسة لاتفاقها مع مصطفى كمال باشا ناسخة للقاعدة الاوربية المذكورة آنفاً بعد ان كانت متّفقة عليها وتاركة حماية الاقليات المسيحية في كليكية فإنها قد كانت سبقت الى خطبة مودة الكماليين فلم تظفر بها، وضحت بالارض الذين دفعتهم الى عداوة دولتهم، وتركتهم يذوقون جزاء ثوراتهم وعصيانهم، ولم تقبل ان تكون منتدبة لحمايتهم، بل لتأمين ما اعترفت به من استقلالهم، ثم انها تريد أن تعيد سلطان اليهود القومي الى مدينة المسيح (عليه السلام) ومهد دينه وهي تعلم ان ذلك يسوء كل مؤمن بالمسيح ولا يرضاه حتى من شعبها نفسه الا يفضل الجنيه عليه وعلى إنجيله وأهل دينه، وان كل ما يشكو منه أعداء الحجاز من المسيحيين ويسوءهم من نفوذ أمرائه لأنه مهد الاسلام ولحسبانهم ان سلطة شريف مكة كسلطة البابا فهو من أعمال بريطانيا العظمى وإنما الحجاز معبد ليس مقر سلطة ولا يصلح ان يكون كذلك، وليس فيه قوة جندية ولا مالية يفتح بها سورية او يحفظ بها نفسه لو حاربته هي او غيرها. وسيرون هذه الدولة مهتمة بالصلح مع الترك والاعتراف لهم بحق الاستقلال في بلادهم واحترام سلطة الخليفة التركي وإظهار الرغبة في مساعدته كما فعلت فرنسة إذا هي عجزت عن إقناعها مع ايطالية ثانية بالاتفاق معها على الاجهاز على هذا الاستقلال.

وأما أمراء الحجاز فقد ظهر فيهم ما كنا نقوله لأبناء الوطن السوري فيهم وهو أنهم لا رجاء فيهم للمسلمين، ولا خوف منهم على المسيحيين، لأنهم لا حول لهم ولا قوة بأنفسهم وإنما هم مسخرون لخدمة بريطانية العظمى ينال كل منهم من الحظوة عندها بمقدار خدمته لها وتمكين نفوذها في بلاده وسائر البلاد العربية كدأبهم في جميع البلاد التي مدوا اليها أيدي مطامعهم.

فلما كان فيصل أكثر مواتاة لهم جعلوه ملكاً لمستعمرة العراق الجديدة وكم لديهم من السلاطين والأمراء والالقاب الاخرى في المستعمرات والاملاك التي هي أوسع من العراق استقلالاً، ونفوذهم فيها أضعف وإن لم يسم انتداباً، ولو واتاهم أخوه الامير عبدالله من قبل لسبقه الى ملك العراق، وليته إذ لم يقبل لقب الملك في العراق لأنه بغير ملك، لم يقبل ما دونه في شرق الاردن، ويا ليت... وياليت. ليت وهل ينفع شيئاً ليت ❖ ليت شباباً بيع فاشتريت.

فعسى ان يثوب أهل سورية عامة الى رشدهم من قريب ويغسلوا عنهم ما لحقهم من عار التعصب وعدم الوطنية ويتحدوا اتحاداً يضطر الاجانب الى احترامهم والرغبة في صداقتهم بدلاً من استعبادهم، ولا يأبى المسلمون حينئذ أن تكون حكومة لبنان مسيحية مستقلة لا سلطان لغيرها عليها وانا نضمن ذلك لمن شاء بما يقنعه ان شاء الله.

نصيحتي للفرنسيس بتغيير سياستهم في سورية

قلت انني قد اضطررت بسبب حادثة طرابلس لإطالة المكث في بيروت واشتغلت بمسألة الوقف بعد ان كنت وكلت من يقوم بذلك. وفي اثناء هذه المدة جمعني بعض معارفي بموسيو (مرسيه لوي) وهو يحسن العربية وكان قد زارني بمصر فكان مما ذكره لي انه يبلغهم عني غلوّ عظيم في شدة المعارضة والمقاومة لهم ولكنهم لا يأخذون الكلام على علاّته بل يتروّون ويحققون إلى ان يقفوا على الحقيقة. فقلت له إن عندي قاعدة أجري تطبيق عملي عليها وهي ان الرجل من لا يقول قولاً يحتاج الى إنكاره وانني أعدك وعداً مؤكداً بشرفي بأنك لو سألتني عن كل ما نقل اليكم عني لصدقتك في الاعتراف بالصحيح وإنكار ما عداه لتعلموا مقدار غش جواسيسكم، وإلا فإنني أخبرك إجمالاً بسيرتي في البلاد. إنني لست قائماً بدعوة الى مقاومتكم ولا الى تأييد خصمكم ولكنني من رجال الاستقلال ومعارضي السلطة الاجنبية ومشهور بهذا فأنا أصرح برأيي ومشربي إذا اقتضت الحال ذلك ولا أنتقدكم بأكثر مما أنتقد به الانكليز والشريف حسين والشريف فيصل، وانني معتقد ان محاولتكم استعمار سورية ليس خيراً لكم ولا لها ولو فرض انني اعتقدت ان استعماركم لها خير لها لما كان لي ان أصرح بهذا الاعتقاد المخالف لما يعلم كل الناس من مشربي وثباتي عليه إذ يكون التصريح مظنة ريبة في كونه اعتقاداً عرض. قال هذا كلام صحيح.

ثم شرحت له رأيي في بيان كون اقتسام سورية والعراق بينهم وبين الانكليز شراً لهم سيكون من عاقبته في عداوة العالم الإسلامي لهما وكون غبنهم في هذه القسمة أعظم من غبن حلفائهم بصغر حصتهم وعسر التصرف في أهلها ومما يتوقع من انقلاب النصارى عليهم وقد بدت بوادره، وان الخير لهم في حصتهم من سورية أن تكون مستقلة استقلالاً صحيحاً وجعلها صديقة لهم وحينئذ ينتفعون منها باختيار أهلها من غير خسارة فوق ما ينالهم من النفع بسبب السيادة العسكرية فيها ويربحون صداقة الأمّة العربية كلها ويأمنون ضرر عداوتها وجعلها آلة بأيدي الانكليز. وذكرت له انني نصحت للانكليز مثل هذه

النصيحة[1] فمنعهم الغرور والطمع والتعصب الديني من الاصغاء. ولخصت له معنى مذكرتي لرئيس الوزارة البريطانية وقد سبق ذكرها في المنار غير مرة. فأعجبه كلامي واقترح علي أن أكتب مذكرة للجنرال غورو ذلك وهو يترجمها له ليرسلها الى باريس فامتنعت عن الكتابة وقلت له بلغه أنت ذلك.

بعد هذا ذهبت الى دمشق إجابة لطلب الامير فيصل ثم عدت الى بيروت في أول مارس سنة ١٩٢٠ لإقناع وجهاء بيروت المنتخبين للمؤتمر السوري بالذهاب الى دمشق لحضور جلسة المؤتمر التاريخية التي تعلن استقلال سورية وفي ٤ مارس جاءني كتاب من (مسيو مرسيه لوي) يقول فيه بعد رسوم الخطاب «ان سعادة الجنرال غورو قد عين لكم ٥ آذار الساعة ٦ افرنكي مساء ميعاد استقبالكم في السراي»... وكان هذا الطلب بسبب مخاطبته إياه بموضوع حديثنا لا بطلب مني ولا علم فجئت في الموعد فبلغت ان مسيو مرسيه الذي سيترجم بيني وبين الجنرال قد ذهب الى قنصل اميركة في عمل رسمي أبطأ فيه فانتظرناه متوقعين مجيئة في كل دقيقة زهاء ساعة ونيف فلما حضر دخلنا حجرة الجنرال فتلقانا أمين سره (السكرتير مسيو روبير دوكيه) وبلغنا بعد التحية ان ميعاد الجنرال ذهب ببطء (مسيو مرسيه) فهو يعتذر عنه باسمه ويحل محله في ما طلبني لأجله إذا كان لدي سعة في الوقت. قلت ليس لدي مانع من البحث. وإنما ذكرت هذه القصة ولم ألخص حديثي معه بدونها للإعلام بأن الجنرال نفسه كان حريصاً على البحث في هذا الموضوع المهم وهو كون استقلال سورية وحريتها خيراً لفرنسة من استعمارها باسم الانتداب وقد يتعجب كثيرون من نتيجة ما أقصه من حديثنا ويرون فيه دليلاً على تقصير السوريين في السعي المعقول لدى الفرنسيس يأساً منهم، وان رضاهم باستقلال سورية ممكن.

(١) النصح يقابل الغش والخداع ولا يتضمن استعلاء من الناصح.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٨)

الحديث مع سكرتير الجنرال غورو

مكثت مع مسيو روبير دوكيه ساعة وأربعين دقيقة، وقد افتتح الكلام بالثناء علي بقوله انه بلغه انني من أشهر علماء الإسلام في هذا العصر ومن الخطباء المؤثرين، والكتاب... فتلطفت في الشكر والتنصّل ونقل الحديث الى الموضوع فشرعت أولاً في مقدمات اجتماعية، تتألف منها أقيسة منطقية، تفهم من سياق الكلام، وان لم تذكر بأسلوب تأليف المنتج من الاشكال، وأذكر المهم من ذلك بالاختصار، قلت:

١ - ان للقوى الادبية تأثيراً في البشر لا تغني عنه القوى المادية كما يرشد اليه قول المسيح عليه السلام: ليس بالخبز وحده يعيش الانسان، ولذلك تجتهد الدول والأمم العليمة بطبائع الاجتماع في اعلان فضائلها وتبذل في ذلك مالاً كثيراً بوسائل كثيرة كما تجتهد في الدفاع عن نفسها إذا وصفت بشيء من الرذائل ولو بحق، وقد استفادت هذه الدول والأمم فوائد عظيمة بإقناع الكثير من الناس بأنها هي المقيمة لأركان العدل والحرية والمساواة بين الناس والقائمة بأمر تحرير الشعوب المظلومة من الظلم والاضطهاد خدمة للإنسانية، ولكن هذه الحرب الاخيرة قد هدمت منذ عقد الهدنة الى اليوم ما بنته هذه الامم ودولها في قرن بل قرنين، ولا سيما انكلترة وفرنسة اللتين ملأتا الدنيا دعوى وفخراً مدة أربع سنين بأنهما حاربتا لتحرير الامم والشعوب المظلومة وانهما لا تبغيان فتحاً ولا جرّ مغنم ولا تحكيم القوة العسكرية في بلد ولا شعب بل القضاء على القوة العسكرية الخ. فلما انتهت الحرب بظفرهما طفقتا تقتسمان ما تقدران على الاستيلاء عليه بالقوة حتى بلاد حلفائهما وأصدقائهما باعترافهما...الخ.

٢ - إن الانقلاب الاجتماعي الذي أحدثته الحرب في الشرق قد نفخ في جميع الشعوب روح الشعور بحقها في الحرية حتى حفزها لطلب استقلالها بكل ما يملك من الوسائل، وهذا الشعور إذا دبّ في الشعوب يتعذر معه دوام استعبادها، كما جريت دول

(*) المنارج ٢٣ (١٩٢٢) ص ١٤١ - ١٤٧.

اوربة في شعوبها، فإذا لم تقدّر الدول الاستعمارية هذا الانقلاب حق قدره، وتجاري طبيعة العمران بترك سيطرة القوة فإنها ستلاقي عقاباً كبيرة يتعسر او يتعذر عليها اقتحامها ومشاكل عظيمة يصعب حلها الخ.

٣ ـ إن أوربة قد هدمت ما كان لها من حسن الصيت والمكانة الادبية في الشرق بما فعلته في هذه الحرب وبعد الحرب فلم يبق فيه أحد يصدق للأوربيين قولاً أو يحسن بهم ظناً أو يراهم للفضل او العدل أهلاً. بل صار العوام متفقين مع الخواص على ان المدنية الاوربية مادية محضة لا يبالي أهلها بغير التمتع بالشهوات والتحكم في استعباد الضعفاء، وانه لا يصد دولها عن الظلم والعدوان وتخريب العمران إلا الضعف والعجز، وان كل ما يتبجحون به من دعوى العدل والمساواة والحرية والانسانية أفك وتزوير، ورياء وتغرير، وقد صار أشد الناس نفوراً من الترك في سورية يفضلونهم عليكم عن اعتقاد حتى ان بعض التجار وغيرهم من الناس الذين لا يحفلون بالسياسة يسألونني سؤال بحث عن الحقيقة: لماذا كنا نعتقد ان الافرنج أرقى من الترك وأعدل وأرحم وأبعد عن التعصب الديني والمحاباة مع ان الأمر بالضد كما تبين لنا الآن وكنت أجيبهم ببيان الفرق بين الادارة في بلاد الدول وفي مستعمراتها وببيان حالة سورية الخاصة في هذا الوقت...

٤ ـ إن السوريين وإن اختلفت أديانهم ومذاهبهم وتربيتهم ، وبعد بالاستقلال التام عهدهم ، لا يرضون بأن يكونوا تحت سيادة اجنبية عنهم ، أما الأكثرون منهم وهم المسلمون فإنهم لم يكونوا يشعرون في عهد الترك بأنهم خاضعون لسلطة أجنبية إلا في السنين الأخيرة التي ظهرت فيها العصبية الجنسية التركية ، وأما النصارى فجلهم في لبنان الذي كان مستقلاً في إدارته ولم يكن في حكومته غير واحد او اثنين من الترك في مركز المتصرفية وكان ما يكلفون من الواجبات في الولايات أخف مما يكلف المسلمون، وقد كان الذين يعلقون آمالهم فيكم منهم من يظنون انكم ستؤسسون لهم ملكاً مسيحياً مستقلاً تلتزمون فيه حمايتهم من الخارج وتتركون لهم السيادة والسلطان في الداخل فبدا لهم منكم ما لم يكونوا يحتسبون من السيطرة التامة العامة في جميع انحاء لبنان وثقل الضرائب المالية فبدأوا يتحولون عنكم حتى ان أحد أهل الاختبار من أنصاركم قال لي لو خيّر موارنة لبنان أنفسهم بين فرنسة والترك لفضل ثمانون في المئة منهم الترك. وسترون من السوريين ما لم يكن يخطر في بالكم من الجهاد في سبيل الاستقلال في مشارق الارض ومغاربها.

٥ ـ ان الاسماء الجديدة التي يخترعها المستعمرون آناً بعد آن لتلطيف وقع سيطرتهم على الشعوب لم تعد تخدع شعباً مهما يكن جاهلاً فكيف ينخدع بها الشعب السوري الذي لا يخفى على زعمائه ولا على أدبائه شيء من أمور العالم وناهيك بالأسماء والاقوال التي تنقضها الافعال كأفعالكم وأفعال حلفائكم الانكليز باسم الانتداب لمساعدة السوريين على النهوض بأمر استقلالهم المقرر في عهد عصبة الامم فإنكما قبل ان يتم الصلح بينكما وبين أصحاب البلاد بحسب القانون الدولي وهم الترك وقبل ان يتقرر الانتداب المتوقف على هذا الصلح تتصرفون في البلاد تصرف المالك للأعيان الموروثة، وقد زدتم على تصرف

الانكليز في سورية الجنوبية انكم رفعتم علمكم على المعاهد الرسمية في ولاية بيروت ومتصرفية لبنان واستبدلتم بطوابع البريد الموقتة طوابع حكومتكم وهو ما لم تفعلوه في تونس وجعلتم لغتكم رسمية... (هذا وما فكيف لو).

٦ - إن المعروف لدى جمهور الباحثين من الفرق بين الاستعمار الفرنسي والبريطاني ان جل فائدة فرنسة منه اقتصادية وأما الانكليز فلهم وراء المنافع الاقتصادية مقاصد أخرى دينية وسياسية هي عندهم أهم من المنافع المالية فهم يطمعون في تنصير المسلمين وجعلهم انجيليين حتى ان رئيس وزارتهم قد استهوته نشوة السرور بفتح القدس فصرّح في مجلس الأمّة بأن هذه آخر حرب صليبية، وهو ما كانوا يكتمونه من قبل فلا عجب بعد هذا إذا أظهرت جميع كنائسهم الابتهاج بهذا الفتح الصليبي الديني، ثم إنهم يطمعون في سيادة العالم كله ويظنون انهم قد صاروا على مقربة من الوصول الى هذه الغاية، ومن مبادىء ذلك إتمام تأسيس الامبراطورية الافريقية من رأس الرجاء الصالح الى الاسكندرية وجعل الامبراطورية الاسيوية من حدود الصين الى البحر الاحمر الذين يرون انه قد صار بحراً بريطانياً صرفاً، وناهيك بما تقاسونه قبل كل أحد من احتلالهم للقسطنطينية وللسيطرة على البحر الاسود مع البحر الابيض الذي لهم فيه السيادة العليا ولا تطمع فرنسة بشيء من ذلك.

لأجل هذه المطامع يخاف المسلمون من الانكليز على دينهم كما يشهد عليهم الفيلسوف والمؤرخ الكبير غوستاف لوبون وملكهم ما لا يخافون من الفرنسيس وإن كانوا أشد منهم وطأة في الاستعمار، ثم ان فرنسة قد خسرت في هذه الحرب من الرجال والاموال ما لم تخسر مثله انكلترة وخرب قسم عظيم من بلادها وهبطت الثقة بماليتها ولم تشاركها انكلترة في هاتين المصيبتين - ففرنسة إذاً أجدر من انكلترة بالشعور بالحاجة الى عطف الشعوب عليها، وحصرها في إصلاح ماليتها وتوفير مواردها وتعمير بلادها والتوسل الى ذلك باستعادة مكانتها الأدبية في العالم، وان استيلاءها على سورية واستعمارها إياها ينافي ذلك كله فإنه يحملها نفقات كثيرة ويجعل العالم العربي كله خصماً لها وهي في غنى عن ذلك بما نقترحه عليها.

٧ - قلت ان الشعوب الشرقية قد استيقظت من رقدتها الاجتماعية، وتذكرت انها أمّة، حقها أن تكون حرة لا أمة، وفي مقدمتها الأمّة العربية ذات التاريخ المجيد، من طريف وتليد، وزعماء هذه الامّة يقدّرون ارتقاء النظام الاجتماعي والاقتصادي والفنون العملية في اوربة قدرها، ويودون ان يقتبسوا لبلادهم ما تحتاج اليها منها، ويرون انه لا بد لهم من الاستعانة بأمّة من الامم الغربية الراقية في العلوم والفنون ولكنهم ينفرون من كل دولة لها مطامع استعمارية في بلادهم ويفضلون غيرها عليها وان لم تعتد على استقلالهم، والأفضل عندهم من الأمّة التي تعترف حكومتها لهم باستقلالهم وحريتهم فهم يخطبون ودّها ويكافئونها على صداقتها لهم بكل ما يبلغه حولهم وقوّتهم من المنافع الاقتصادية والادبية فيفضلون تجارتها ولغتها وفنونها وصناعتها على غيرها ويضمنون لها ان تنتفع منهم بالصداقة، أضعاف ما ترجو بالعدوان الموجب للعداوة، بل يبثون الدعوة لجعلها

صديقة الشرق والعالم الاسلامي كله، فالشعوب العربية عامة والشعب السوري خاصة من أقدر الشعوب على بث هذه الدعوة وعلى ما يقابلها ويضادها لما لهم في أنفسهم وفي بلادهم المقدسة من المزايا.

وإنني كنت قد عرضت هذه الصداقة على الدولة البريطانية بمذكرة أرسلتها الى رئيس وزرائها (مستر لويد جورج) ذكّرته فيها بما يهدد دولتهم من الاخطار وعداوة شعوب الشرق والغرب ولا سيما العالم الاسلامي الذي حاولوا هدم ما بقي من بناء استقلاله وصرّحت لهم بأنهم إذا كانوا لا يحفلون بعداوة أمة يتجاوز عدد نفوسها ثلاثمائة مليون وهي المالكة لجلّ الشرق الادنى والاوسط بسبب ضعفها فليعلموا انها لن تكون أضعف من ميكروبات الامراض والأوبئة التي تفتك بالأقوياء، وبأن صداقة هذه الأمة لا يمكن ان تنال بمثل السياسة التي سلكوها في المسألة العربية وإنما السبيل اليها واحدة وهي الاعتراف بالاستقلال المطلق للشعوب الاسلامية الكبرى: العرب والترك والفرس، ولم أنس تخصيص مصر بالذكر وان كانت عندي من الأمة العربية، وبينت له ان دولتهم ان فعلت ذلك بإخلاص فإنها تدرأ عن نفسها أخطار الشرق وتريح منه أضعاف ما تطمع فيه بالعبث باستقلال شعوبه ومحاولة وضعها تحت سيطرتها - الى آخر ما فصلته في تلك المذكرة. ولكن لويد جورج لا يزال ثملاً بخمرة الظفر بالدولة الالمانية، والاستعلاء على جميع الدول الاوربية، ويتوهم أنه قادر على حل جميع المشكلات بأخاديع الوعود، ونذر الوعيد، وضروب التغرير، وبدر الدنانير، (وان صيحة مصر، لا تزيد على صرخة طفل، وثورة العراق لا تعدو ثوران هرّ، وان هيجة الهند، كهيجة دعد وهند، وغضبة الافغان، كغضبة فيروز ومرجان).

وغرضي الآن أن أعرض على فرنسة ما عرضته على انكلترة قبلها فهي أجدر بقبوله لانتفاء المانع وثبوت المقتضى اللذين ذكرناهما آنفاً، وليس من المصلحة أن يعارضه الاستمساك باستعمار هذه الحصة التي أعطيتموها من سورية باسم الانتداب على ما فيها من المنغصات والمشكلات، فإذا طبتم نفساً باستقلالها أمكنكم ان تعترفوا باستقلال جميع هذه الشعوب الشرقية وفي مقدمتها العرب والترك وان تبنوا ذلك على ماكنتم تصرحون به منذ أوقدت نار الحرب الى ان أطفئت من الرغبة عن الفتح والاستعمار الى جعل الظفر في الحرب قاضياً على الاستيلاء والاستعلاء بالقوة، ووسيلة الى حرية الشعوب واعطائها حق تقرير مصيرها واختيار شكل حكومتها وإدارتها، وحينئذ تنفردون بالسلطة الادبية في العالم كله التي حاول الدكتور ويلسون ان يجعلها لأمّته فباء بالخيبة والخسار بعد ان كان منها قاب قوسين أو أدنى. وأنا أضمن لكم إجماع الاحزاب السورية على ان يكون ربحكم المادي والأدبي من سورية باختيارها، فوق ما تمنون به أنفسكم بقوة احتلالكم إياها:

ثم اننا دخلنا باب المناقشة في الموضوع بعد أن قال مسيو روبير دوكيه ان هذا مشروع عملي قابل للتنفيذ وليس خيالياً ولكنه يفتقر الى بحث دقيق بين العقلاء من الفريقين (السوريين والفرنسيس) فإن الاسراع في تنفيذه ولا سيما جلاء الجيش عاجلاً كما تطلبون يعقب مشاكل كثيرة ربما تأتي بخلاف المراد.

وليس لي أن أنقل في هذه الرحلة كل ما قاله فإن من الاصول المتبعة عند الكتاب أن يستأذنوا في نشر أمثال هذه المسائل من ينقلون عنهم آراءهم فيها ولا سيما إذا كان لهم صفة رسمية تلحقها تبعة ومسؤولية. وحسبي من تصريحه هذه الكلمة المجملة منه وهو ان استقلال سورية أمر يمكن تنفيذه واعتراف فرنسة به باتفاق يضعه العقلاء من الفريقين. وقد صرحت له بأن القطع في هذا الامر من جانب الفرنسيس لا تملكه إلا حكومتهم العليا في باريس فما على مندوبهم السامي في سورية ورجاله إلا ان يمحّصوه ثم يرفعوه الى حكومتهم العليا. وإذا كان مثل مسيو روبير دوكيه يقول باسمه واسم الجنرال غورو الذي هو أمين سره إن هذا المشروع حقيقي لا خيالي فأجدر بمثل مسيو بوانكاريه ومسيو مليران ان يقتنعوا به إذا حاول إقناعهم به من هم أهل لذلك، ولكن البحث في تمحيص المسألة وقف عند ذلك الحديث فلم يهتم أحد من كبراء أهل بيروت ولا من غيرهم ان يعيدوا الكرّة فيبحثوا مع الجنرال غورو في المسألة في ما أعلم على انني حدثت كل من رأيته أهلاً للوقوف على ذلك فيه فسرّ به وقدّره قدره على تفاوت الأفكار في اليأس منه والرجاء فيه.

وأما عذري في ترك العودة الى البحث في ذلك فهو انني لما عدت من بيروت الى دمشق اشتغلت مع سائر اعضاء المؤتمر وغيرهم من الاحزاب السياسية في شأن إعلان استقلال البلاد السورية ووضع القانون الاساسي لحكومتها. وفي اثناء ذلك وقعت المشادّة والمحادّة بين الملك فيصل والجنرال غورو حتى انتهى ذلك بزحف الثاني بجنده على دمشق وإخراج الاول منها، ثم عدت الى مصر في أول فرصة أمكنني فيها السفر كما أذكر بعد، على ان فرنسة شرعت بعد ذلك في عقد اتفاق بينها وبين حكومة أنقرة التركية، فتركت للترك كليكية وجزءاً من ولاية حلب السورية، وتوسلت بذلك الى بث الدعوة بأنها صديقة الإسلام ونصيرة الخلافة الإسلامية.

الرحلة السورية الثانية(*)

(٩)

جريت في ما كتبت من هذه الرحلة على طريقة بيان أحوال سورية الاجتماعية والأدبية والسياسية في هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه بعد الحرب لا على طريقة بيان تنقلي في البلاد بتواريخه وذكر المشاهدات وما يتبعها من الآراء تبعاً له كما اعتاد المؤرخون. وقد كان كل ما كتبته من فصول الرحلة بياناً لما فيه الفائدة مما رأيت وخبرت وجرى لي في الساحل مدة اقامتي فيه متردداً بين بيروت وطرابلس وأخرت الكلام على دمشق وما يتبعها عمداً، وكنت عازماً على اطالة الكلام في شأنها. وقد بدا لي الآن ان أختصر لما كان من التراخي في كتابة الرحلة ونشرها ولأنني ذكرت بعض ما حدث في الشام بعد ذلك في بعض المقالات التي قضت الحال ببيان بعض حقائق المسألة العربية فيها، وكان موضعها اللائق بها الرحلة لولا الضرورة فأقول.

الحالة العامة بدمشق في سنتي ١٣٣٧ و١٣٣٨

قد علم من النبذة الثانية من هذه الرحلة التي نشرت في المجلد الحادي والعشرين (ص ٤٢٨ ...) أن وصولي الى دمشق كان (في ١٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٧ - ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩) وأنه اتفق ان أعلن عقبه من انكلترة وفرنسة انهما اتفقتا نهائياً على تنفيذه معاهدة (سايكس وبيكو) المعروفة باتفاق سنة ١٩١٦ وان انكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية وتترك الاولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي - وان أهل سورية عامة كانوا يظنون قبل هذا الاعلان ان الدولتين الحليفتين عدلتا عن تنفيذ هذا الاتفاق لما رأوه من تنازع سياستيهما في اثناء مجيء اللجنة الاميريكيّة لاستفتاء أهل البلاد. وكنت بينت في تلك النبذة ان الناس أحفوني بالسؤال عن سبب هذا الانقلاب وذكرت فيها ملخص جوابي لأهل الرأي منهم ولكن المراقبة على المطبوعات بمصر في ذلك العهد منعت نشر ذلك كله وإنما نشر منه بعض المقدمات فكان الكلام أبتر غير

(*) المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٢٣٥ - ٢٤٠.

مفيد ولم أعلم بذلك الا عند مراجعته الآن وسألخص ما حذف منه في موضعه.

لقد كان الغرور بخديعة الانكليز للسوريين وغيرهم من العرب في أثناء الحرب بأن استقلالهم سيكون مكفولاً بانتصار الخلفاء في الحرب بما بينهم وبين ملك الحجاز من العهود والحلف، فلما جلا الترك عن سورية وكان أول من دخلها الأمير فيصل بجنده المؤلف من السوريين والعراقيين والحجازيين اعتقدوا ان الاستقلال قد تم والسلطنة العربية قد تم أمرها ونصب عرشها، ولم يكن قد نزع العلم العربي من بيروت وغيرها من السواحل - ولا خطب سايكس - وبيكو الخادعة ولا استيلاء السلطة العسكرية الفرنسية في الساحل على الإدارة - بذاهب بذلك الوهم الخادع. وقد ألمنا بشيء من هذا المعنى في الفصلين السادس والسابع من الرحلة ومنه يعلم ان الريب دب دبيبه الى أهل الساحل ثم انتشر فيهم أولاً بتأثير السلطة الفرنسية المحتلة.

نعم ان الاذكياء في دمشق قد اضطروا لإعلان الدولتين الاتفاق على تنفيذ اتفاق (سايكس وبيكو) وكانوا قد عرفوا حقيقته ولذلك كثر سؤالهم إياي عن رأيي فيه وهل يعقل ان تنقلب سياسة انكلترة بهذه السرعة فتسمح بسورية لفرنسة. وقد ذكر في النبذة الثانية من جوابي لهم ان السياسة البريطانية لم تتغير في المسألة وليس لعاقل ان يظن أنها تفضل العرب على فرنسة وإنما عرض لفرنسة أمل بأخذ سورية كلها بحجة إجماع السوريين على وحدة البلاد وعدم تقسيمها. وأما بقية الجواب الذي منعت المراقبة نشره يومئذ فهو ان انكلترة لما شعرت بهذا الطمع من فرنسة استعانت بالأمير فيصل وحزبه على نبذ السواد الاعظم من أهل المناطق السورية الثلاث للانتداب الفرنسي والمساعدة الفرنسية وقد تم هذا وظهر باستفتاء اللجنة الاميركية لأهل البلاد. وغرض إنكلترة من ذلك أن تعلم فرنسة أنها إذا شذت عن الاتفاق معها وحاولت أخذ فلسطين بحجة اتفاق الأهالي على طلب وحدة البلاد فإنها هي قادرة على حرمانها من كل شيء برأي أهل البلاد الذي جعل له الاعتبار الاول في عهد عصبة الأمم! فلما رأت فرنسة ذلك قنعت بنصيبها في اتفاق سايكس بيكو حتى بعد تعديله بما هو في مصلحة الانكليز.

مع هذا كان أهل المنطقة الشرقية عامة وأهل دمشق خاصة يظنون ان استقلال منطقتهم مضمون فإن فاتهم إلحاق المنطقتين الأخريين بهم فلن يفوتهم التمتع بالسلطان القومي في منطقتهم. وازداد شعورهم قوة بهذا بعد جلاء الجيش البريطاني وما تلاه من ترك المراقبة على الحكومة وان كانت لا تزال عسكرية تابعة للقائد العام للجيوش البريطانية.

كانت مظاهر هذا الشعور بالاستقلال، تبعث في أنفس الشعب السرور وتقوي الآمال فقد صارت دواوين الحكومة ومصالحها عربية والتعليم في المدارس الرسمية كغيرها بالعربية، وتلاميذ المدارس كانوا يتعلمون أناشيد الاستقلال، فيترنمون بها صباح مساء، وكانت البرقيات المبشرات والمسكنات ترد على الحكومة من الأمير فيصل او من مندوبه النائب عنه لدى الحلفاء وفي مؤتمراتهم (أحمد رستم بك حيدر) وكانت الاجتماعات

والمظاهرات حرة تنفخ في هذه الأماني روحاً حياً، كل ذلك كان يبعث السرور في كل نفس لم تستشف شيئاً مما وراءه حتى ان سليم بك شاهين أحد أصحاب المقطم قال لي في بيروت إنني أقمت في دمشق يوماً واحداً فبعث في روح حياة عربية ووطنية جديدة، ولا أرى هنا إلا أمارات الذل والموت التي تبعث الحزن والأسى.

لقد كنت أعلم ما لا يعلم أهل وطني من نية الحلفاء فيهم وتواطؤهم على بلادهم ومن بناء عهودهم على الدجل ووعودهم على الغش، وأنهم إذا وفوا لملك الحجاز بما وعدوه به ولو على الوجه الذي طلبه منهم في ما يسميه «مقررات النهضة» لم تكن البلاد العربية ولا الحجاز منها إلا مستعبدة تحت نير السلطة الاجنبية، فلهذا لم أكن أشعر بشيء مما يشعر به الجمهور من السرور، المنبعث عن الغرور وإنما كنت أعتقد ان الأمة لا يزال يمكنها ان تعمل لاستقلالها عملاً تضطر الطامعين الى احترامه إذا وجد فيها عدد من الرجال الأكفياء وهذا ما كنت أبديه وأعيده للسائلين ولا سيما من هم مظنة العمل من الاخوان، حتى بعد ان تم ما سعيت اليه معهم من اعلان الاستقلال، فإنني لم أكن أعده الا تقوية لحرية العمل بإخراج الحكومة من مضيق العسكرية التابعة للقيادة البريطانية الى فضاء الحرية الوطنية، لتكوين قوة من الجند المنظم من العشائر والقبائل التي يمكن تنظيمها لتوطيد الأمن والنظام، وإقامة الحجة المحترمة لدى الحلفاء على القدرة على الاستقلال، وهذا ما كنت أبغيه وأسعى اليه ولم يوجد في رجال الحكومة من هو أهل للنهوض به، ولذلك كان لساني صامتاً في كل تلك الاحتفالات العظيمة التي أقامتها الحكومة وكذا الشعب فلم أخطب في شيء منها على ما كان من الالحاح علي في كل احتفال بطلب ذلك. وانني أذكر مسألة صرحت فيها برأيي بعدم الثقة بحالة البلاد قبل اعلان الاستقلال، وهي:

دعوتي الى تولّي المصالح الشرعية بدمشق

لم أكد أستريح في دمشق من لقاء وفود الزائرين حتى كاشفني الحاكم العسكري العام (علي رضا باشا الركابي) بما يرغبون ان ينيطوه بي من مساعدة الحكومة العربية وهو تولي اصلاح (دوائر الامور الشرعية) ففي يوم الاحد ٢٦ ذي الحجة (٢١ سبتمبر) وعدني ان يزورني زيارة خاصة للمذاكرة والاستشارة في شؤون الحكومة وما يطلب من مساعدتي لها وفي اليوم التالي أعاد الكلام معي في ما يبغيه من تقليدي ادارة الامور الشرعية وهي الاوقاف والمحاكم الشرعية والتعليم الديني والمفتين، وقال انه طلبني من الانكليز خمس مرات وكان يظن ان الامتناع مني فأخبرته بأن الانكليزية لم تخاطبني بذلك البتة وانه لم يصل الي منه الا الكتاب الذي أرسله في ضمن مكتوبات الحكومة لمندوبها التجاري بمصر الدكتور بشير القصّار، وذكرته بما كتبته اليه في الجواب عنه وهو انني مستعد لمساعدة الحكومة العربية بكل ما استطيعه بشرط ان لا أتقيد بعمل رسمي. وذكرت مشربي وتربيتي الصوفية التي بسببها وطّنت نفسي على ان لا أقبل وظيفة ولا عمل للحكومة ولا رتبة ولا وساماً طول عمري... ثم قلت له بعد محاورة طويلة: ضع لي مذكرة بالعمل لأرى رأيي فيه.

وفي يوم الخميس (٣٠ ذي الحجة) أخبرني ان المشروع الذي تضعه الحكومة لإدارة

الأمور الشرعية يتم يوم السبت الآتي ويقدمه لي، وانه كان قد كلّم فيه الأمير فيصلاً قبل سفره الى اوربة فوافق هو ونائبه الأمير زيد على نوطه بي ـ فاعتذرت بمشربي الخاص وبالموانع العامة الأخرى وهي سوء حالة البلاد الداخلية والخارجية وعدم استقرار الحال السياسية. إذ البلاد لا تزال بحسب القانون الدولي تابعة للدولة العثمانية ـ والمستقبل مجهول ـ ثم بضعف الحكومة والامارة وبأن الاصلاح الصحيح يلقى معارضة قوية من أهل الاهواء الذين يرتزقون بهذه المصالح الشرعية فإذا لم يكن لمصلح ركن شديد من قوة الحكومة لا يستطيع عملاً، فاعترف بذلك وقال إنه هو الحجة التي يستند اليها في وجوب وجود مثلي، وإنني سأكون حراً في عملي، وان الاصلاح الذي تبغيه البلاد مني لا يتم إلا القيام به بنفسي لأن الارشاد بالقول والكتابة لا ينفع إلا إذا وجد رجال أكفياء يقدرون على العمل به وهم غير موجودين (قال) يجب ان تستفيد بلادك من علمك الواسع واختبارك الدقيق مدة اقامتك بمصر بتطور البلاد المصرية وارتقاء الادارة والنظام فيها. وان ما نعلمه فيك من الغيرة وحب الإصلاح يحملنا على الاعتقاد بأن لا يخيب أمل وطنك فيك.

وفي يوم السبت (٢ المحرم سنة ١٣٣٨) زارني الأمير زيد في الفندق بعد العصر ودار الكلام بيننا في حالتنا العامة فذكرت له ملخص ما أعلم من اتفاق والده مع الانكليز وانه ينافي مصلحة العرب. ثم انتقلنا الى الكلام في سورية فكلمني الامير في شدة حاجة الحكومة الى مساعدتي لها فاعتذرت له بمثل ما اعتذرت لعلي رضا باشا فأجاب بمثل جوابه، ومما قاله ان الاخلاق في الشام ضعيفة جداً فإن أكبر الرجال يرهبه أقل تخويف ويستميله أقل نفع، فإذا لم ينهض مثلك... بالإصلاح فمن؟...

فقلت له ان حجتكم عليَّ وإن كانت عندي ضعيفة من حيث مبالغتكم في حسن الظن بي هي أقوى من حجتي عليكم بالتنصل من العمل، وانني على علمي بضعفي لا أرتاب في قوة إخلاصي على الإصلاح لذاته، ولكن الاصلاح العام يعوزه الاعوان الأكفياء علماً ونزاهة وإخلاصاً وهم قليلون متفرقون وسأفاوض من أثق به منهم قولاً وكتابة ثم أبني على ذلك ما يتجدد من الرأي، ولا أعد الآن بشيء.

وسألني هل أحضر الأسرة وأنقل عملي من مصر الى الشام؟ فقلت إن قبلت المكث الآن في الشام للمساعدة فلا يمكنني ان أنقل أسرتي لما يقتضيه نقلها من النفقة الكثيرة والخسارة التي لا يسمح بها لمكث مؤقت ومركزنا في مصر ثابت لا يمكن التفريط فيه فلا بد من ابقائه على حاله حتى يستقر الأمر في الشام على أساس ثابت. فأقرني على ذلك وجاءته وهو عندي برقية من أخيه الامير فيصل يؤكد فيها وجوب السكينة في البلاد ـ إذ علموا ان الأهالي في اضطراب من جراء الاتفاق بين الانكليز والفرنسيس.

وفي هذا اليوم أعطاني علي رضا باشا المذكرة التي وضعها لإدارة الامور الشرعية وهي خاصة بالإدارة والعاملين فيها ـ إدارة المدير العام ـ ومحكمة التمييز الشرعية ـ ولجنة التوجيه والانتخاب والامتحان والتدقيق والمعاهد والمدارس الدينية ـ وإدارة الأوقاف العامة ـ وقلم الرسائل. ويلي ذلك الأمور التالية لهذه الإدارات.

ومن هذه القضية يعلم رأيي في حالة البلاد وحكومتها في سورية على حين كان الوجهاء والمتعلمون يعتقدون ان لها دولة ثابتة يتهافتون على مناصبها ووظائفها. وقد كان التزاحم على إدارة الأمور الشرعية بعد مجيء الأمير فيصل وبعد اعلان الاستقلال أعظم والتزاحم أشد، وكان كثير من العلماء يختلفون الي للبحث فيها وقد كتبوا لي زهاء أربعين اسماً قالوا إنهم على رأي واحد في أن يكونوا أنصاراً لي، ولا يذعنون في رئاسة الأمور العلمية لغيري، فكان ذلك مما زادني فيها زهداً، وعنها بعداً، وذكرت لهم رأيي ومشربي كما ذكرته للملك فيصل بمناسبة ذكر هذه المسألة. وانتهى الأمر فيها بعد الاستقلال وتأليف الوزارة الى إحداث وظيفة مدير للعلمية، ليس له شأن في الأوقاف ولا المحاكم الشرعية.

الرحلة السورية الثانية(*)

(١٠)

حكومة دمشق العربية

كنت قبل سفري الى سورية سألت عن حكومتها بعض من جاء منها الى مصر من السوريين والأجانب الذين يوثق بعلمهم ورأيهم - ومنهم الجنرال كليتون الشهير والدكتور بشير القصار منا - فقالوا إنها ليست رديئة وليست كما يجب من كل وجه، وهي شهادة حسنة لحكومة جديدة، هذه حقيقة حالها في ذاتها، ففيها ضعف بالنسبة الى ما يجب ان تكون عليه كل حكومة في هذا العصر. ولكنها كانت على ما فيها من ضعف وقصور خيراً من حكومتي الاحتلال في المنطقتين الآخريين: الجنوبية (فلسطين) الانكليزية، والغربية (لبنان وساحل سورية) الفرنسية.

كانت هذه الحكومة العربية الطفلة أقرب الى العدل والحرية والمساواة والاصلاح، وأبعد عن التعصب والمحاباة والافساد الأدبي والاقتصادي من حكومتي الدولتين اللتين ابتدعتا لنا بدعة الانتداب لإصلاح بلادنا بحجة اننا عاجزون عن النهوض بأمر أنفسنا، ولقد كانت هذه الحكومة بعد زوال السيطرة البريطانية ولا سيما بعد اعلان الاستقلال خيراً منها قبل ذلك: كانت متوجهة الى الاصلاح الاداري والعلمي، وكانت الحرية بجميع أنواعها ولا سيما حرية الاجتماع والخطابة والنشر مما تحسدها عليه سائر البلاد السورية ومصر، وزال من دمشق ما كانت مشهورة به من المبالغة في الحفاوة والتعظيم للحكام والوجهاء، وشعر الشعب بحرمته وكرامته، وقد كان لتواضع فيصل وآدابه الشخصية العالية تأثير عظيم في ذلك.

كان اليهودي الصهيوني يحابى في فلسطين فيقدم على المسلم والمسيحي بغير حق، وكان الكاثوليكي يحابى في الساحل كذلك، ولم يكن المسلم يحابى في حكومة الشام، ولا شكا مسيحي ولا يهودي من الحكومة ولا من الأهالي تعصباً عليه، ولا ظلماً له من المسلمين، ولم يكن المسلمون يرجون من الوزراء ورؤساء الحكومة المسلمين ما لا يرجون من

(*) المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٣١٣-٣١٧.

الوزراء والرؤساء من النصارى. وما أبرىء هذه الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية، وكان أكبر هذا الضعف في الوزراء والرؤساء بإزاء الملك فيصل وعشيرته والمقربين منه فإن هؤلاء قد اعتادوا على عهد سلطتهم العسكرية المطلقة ان يتصرفوا في الاعمال والأموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا، فصعب عليهم بعد اعلان الاستقلال ان يتقيدوا بقانون ونظام، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الأدبية والتكافل ما يؤهلهم لتقييدهم وتعويدهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية، إذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع اهواء الرؤساء والكبراء، ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال ان تقيد الملك براتب محدود لم يكن راضياً به على كثرته، وكان يستهلك راتب كل شهر في أوله أو قبل بدو هلاله، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة. وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها، واختلف مع الوزارة في عدة مسائل من أهمها انه كان يريد ارسال حملة من الجيش السوري الجديد لقتال ابن سعود إنجاداً لوالده - إذا ثبت ما كان أشيع من عزم الإخوان النجديين على الاستيلاء على المدينة المنورة - فلما كاشف الوزراء بذلك حاروا في أمرهم، وبعد تشاور وتدبر قرروا الرد عليه بأنه لا سبيل الى إرسال حملة من جند الحكومة، ولا انفاق شيء من مالها في هذا السبيل، وإنما يمكن جمع حملة متطوعة بمال الحجاز، وكان هذا أفضل موقف للوزارة الأتاسية مع الملك فيصل لشدة اهتمامه بهذا الأمر وتصريحه للاتاسي وغيره بأنه إذا وقع قتال بين والده وبين ابن سعود فإنه يغادر سورية ويذهب بنفسه للقتال سواء ساعدته حكومة الشام أم لا، ولكن لم يقع ما كان يتوقع ولو وقع فأصر فواتته الوزارة لعجزت عن التنفيذ وكان هذا رأيي إذ شاورتني في الأمر.

لو وجدت في الشام وزارة حازمة بصيرة لأمكنها أن تعمل في البلاد عملاً عظيماً في فرصة الاستقلال وارتفاع السيطرة العسكرية البريطانية عن المنطقة الشرقية، وقد كان لي أمل كبير في وزارة علي رضا باشا الركابي - لا أدري أكان للصلة الودية بيننا تأثير فيه أم لا - ولا أدري كنه السبب لخيبة هذا الامل. كان بعض الناس يبالغ لي في الطعن فيه وبعضهم يدافع عنه، ولم استطع الوقوف على حقيقة رأيه في موقف البلاد السياسي، ولا في ما يجب أن تكون عليه الحكومة على ما كان من احترامه إياي وحسن اعتقاده الذي هو فوق ما أشرت اليه في الفصل الذي قبل هذا، وإنما كنت أعجب لكلمة سمعتها منه مرة أو مرتين وهي ان استقلالنا مضمون وانكلترة وفرنسة متفقتان عليه!! وقد اقترحت عليه شيئاً واحداً من الاصلاح، وهو وضع إدارة منظمة للعشائر والقبائل بينت له بعض مسائلها وما يرجى منها، فأظهر لي منتهى الاستحسان لها، وطفق يماطل ويسوّف فيها مع إقناعي للملك فيصل وجوب العناية بها، وأمره إياه بتنفيذها، ولم يفعل. وقد كثر بعد الاستقلال المنتقدون له حتى صار أكثر اعضاء المؤتمر وأفراد حزب الجمعية التي ينتمي هو اليها وهو حزب الاستقلال العربي عليه، وانتهى ذلك بانحراف الملك عنه وعقدت اجتماعات سرية للبحث في إسقاط وزارته حضر بعضها الملك فيصل وتقرر فيها استبدال وزارة قويه بها، فتألفت

وزارة هاشم بك الأتاسي ودخل فيها الدكتور عبد الرحمن شهبندر والمرحوم يوسف بك العظمة وكان الكاتب هو المقترح الأول لادخالهما في هذه الوزارة. وأما الرئيس فاختاره الملك فيصل، وقد كان أحد اعضاء لجنة الشورى السرية.

قد استطاع هاشم بك بدماثته ولطفه إرضاء الملك، ولكنه لم يكن بالرئيس الذي دعاه في هذا الوقت المؤتمر ولا الأحزاب وفي مقدمتها حزب الاستقلال العربي الذي هو منه، لأن الجميع كانوا يطلبون وزارة دفاعية تصرف جل جهدها في الاستعداد للدفاع عن الاستقلال إذا اعتدي عليه، أو يكون الاستعداد لعدم الاعتداء. فلم يلبث ان ضايقه المؤتمر والحزب، وتوجه رأي الأكثرين الى وجوب تبديل وزارته وكثر الانتقاد في المؤتمر عليها، والاقتراحات في أمر استيضاحها عن موقف البلاد، والاستعداد للدفاع، وكنت أجتهد في حمل المؤتمر على الأناة والتروي والحزب الغالب يظاهرني ولما علم حزب الاستقلال بإنذار الجنرال غورو للملك فيصل اجتمعت الجمعية العامة له في الليلة الـ ٢٧ من شوال (١٣ يوليو) وانتخبت وفداً مؤلفاً من اعضاء اللجنة المركزية وسبعة من غيرهم لإبلاغ الملك فيصل وجوب تبديل الوزارة فإن لم يجب يكلف هاشم بك ان يستقيل ويقنع الملك بأن يكلف ياسين الهاشمي تأليف وزارة دفاعية. وكان كاتب هذا رئيساً لتلك الجلسة ثم للوفد، فلما بلّغنا الملك ذلك أجاب جواباً جافاً خلاصته أنه لا يعمل برأي جمعية ولا حزب ولا المؤتمر، وأجبته جواباً أشد من جوابه وأجف أو أجفى، ولا حاجة الآن الى تفصيل ذلك ثم كلفت رئيس الوزارة الاستقالة باسم الوطن واسم الإخوان فأجاب بالقبول - قال ولكن أليس يجب الاتفاق قبل ذلك على من يخلفنا لئلا يكونوا ممن تنكرون منهم ما لا تنكرون منا؟ فأنتم تثقون بوطنيتي ولا تشكون مني إلا الضعف عن النهوض بأعباء الحال الحاضرة، وربما كان الحلف الذي يرضاه الملك أضعف وغير موثوق بوطنيته، وقال الملك لن يولي الهاشمي الوزارة بل اجتهدنا في إقناعه بأن يوليه وزارة الداخلية فأبى.

إنما موضوع كلامي هنا بيان ضعف الوزارة لا ترجمة الملك فيصل، ولا تاريخ تلك الأيام المفصل. وقد كنت كلمت الامير زيداً في ذلك إذ خلوت به مرتين في أيام فرصة عيد الفطر - إحداهما في داري والأخرى في البلاط - وكان يشكو من ذلك مثلنا - فقلت له: إن الاصلاح لن يكون إلا بترك الملك التدخل في أعمال الوزارة بنفوذه الشخصي - فاعتذر عن تدخل الملك بأن سببه ضعف الوزارة وعجزها، فقلت له: إنما يجب عليه إصلاحها لا التصرف الشخصي في جزئيات أعمالها الذي يزيدها خللاً. وقد كان الملك فيصل راضياً كل الرضى عن وزارة الأتاسي، ولا سيما وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذي كان من قبل يكرهه ويظن انه عدو له حتى انه قال لي يوماً: إنني لما عرفت شهبندر احتقرت جميع أهل الشام، ولكن رضاه في ذلك الوقت، كان سبباً لسخط جمهور الشعب.

وقد أفضى ضعف الحكومة ولينها وطمع الطامعين فيها الى ان تجرأ الساخطون عليها من الطامعين في المناصب والمواهب الملكية على الطعن فيها؛ وتأليف الاحزاب لمقاومتها، وكان بعض العلماء والعامة، يكثرون الطعن في وزير المعارف خاصة، ويزعمون انه

يريد إضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات فيها على التهتك، وطالما راجعوني في هذا قبل اعلان الاستقلال وبعده متوسلين بي الى السعي معهم لدى الامير ثم الملك بعزله، فكنت أنصح لهم بالتأني وأحسب حساباً لتعوّد الشعب الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعين منه في أعمالها ومناصبها، وأرى ان السعي لتلافي الخلل وإقناع الحكومة بإصلاح ما ينتقد عليها بحق أحسن عاقبة من أطماعهم فيها. وقد ذكرت رأيي هذا لمدير المعارف ثم وزيرها ليكون على بصيرة من أمره. ولم يقف تأثير ضعف الحكومة في الشعب عند هذا الحد بل أفضى خيراً بالساخطين والطامعين ان تجرأوا على السعي لهدم الاستقلال والتزلف الى الاجانب فقوي الحزب الوطني المتهم بموالاة فرنسة وهو الذي كان يرأسه عبد الرحمن باشا اليوسف. حتى انه بلغ الحكومة أنهم عزموا على تأليف وفد فيه سبعة من حملة العمائم، وسكنة الاثواب العباعب، يرسلونه الى باريس لطلب الانتداب الفرنسي على جميع البلاد السورية، ولم تفعل الحكومة شيئاً - وأغرب من هذا ان بعض الموظفين في بلاط الملك سرق دفتر الخزينة الخاصة مرتين ولم يشك أحد علم بذلك في سببه... ولم يعاقب بل لم يحاكم بل لم يجر في البلاط تحقيق بشأنه.

وكان بعض الوزراء كيوسف بك العظمة (رحمه الله) يخص وزير الداخلية بالتقصير في إيقاف الأحزاب المعارضة عند حدها فقلت لهم كلا إن هذا يطلب من الوزارة كلها لا من الداخلية وحدها.

أكتفي بهذه الخلاصة من بيان ضعفنا وتعليل عدم نجاحنا، عسى ان نعتبر به في مستقبل أمرنا، وأعيد القول بأن حكوماتنا كانت مع هذا خيراً من حكومتي المنطقتين الاخريين من بلادنا أمناً وعدلاً ومساواة وتقدماً في العلم والاقتصاد، وسأتكلم في الفصل الآتي على المؤتمر.

الرحلة السورية الثانية(*)

(١١)

المؤتمر السوري العام

انتخب اعضاء هذا المؤتمر في أوائل سنة ١٩١٩ من جميع الولايات والمتصرفيات السورية في المناطق الثلاث التي قسمها الحلفاء اليها وكان انتخابهم فيما عدا متصرفية جبل لبنان التي كانت مستقلة في ادارتها الداخلية على طريقة انتخاب مجلس المبعوثين العثماني بل انتخبهم المنتخبون الأولون الذين انتخبوا المبعوثين في الدورة الاخيرة، وأما جبل لبنان الذي لم يكن ينتخب منه اعضاء لمجلس المبعوثين فقد انتخب من بعض بلاده - لا كلها - اعضاء للموتمر انتخبهم الوجهاء وشيوخ الصلح الذين ينتخبون اعضاء مجلس ادارة لبنان.

وكان الغرض من تأليف هذا المؤتمر المنتخب بطريقة نيابية عن الشعب السوري كله ان يبين رأي الشعب السوري في مصير البلاد وشكل حكومتها وما يفرضه عليها دول الاحلاف من المساعدة... وقد اجتمع المؤتمر لأول مرة في دمشق عند مجيء اللجنة الامريكانية من أوربة في تلك السنة لاستفتاء الشعب السوري في ذلك. وخبر هذه اللجنة في تأليفها وامتناع دولتي فرنسة وانكلترة من الاشتراك فيها بعد ان كان قد تقرر جعلها مشتركة وطوافها مناطق البلاد واطلاعها على رأي جميع الطبقات والجماعات فيها بالمشافهة وقرار المؤتمر العام الذي قدمه لها في دمشق وإجماع الرأي العام في هذه المناطق كلها على طلب الاستقلال التام للبلاد كلها واتحادها ورفض كل مساعدة تنافي هذا الاستقلال - كل ذلك معروف مشهور قد نشر في جميع الجرائد السورية في ذلك الوقت ونقلته عنها الجرائد العربية بمصر وأمريكة وغيرها ونوه به كثير من الجرائد الافرنجية في البلاد المختلفة وسبق له ذكر في المنار وليس هو مما يعنينا هنا وإنما الذي نريد ان نقوله هو ان الجماعات والافراد أولي الشأن الذين قابلوا اللجنة الامركية في جميع المناطق قد أيدوا المؤتمر السوري العام فكان ذلك من الشهادات المتواترة على ثقة الشعب كله بالمؤتمر وكونه ينطق باسمه ويعبر عن رأيه.

(*) المنار ج ٢٢ (١٩٢٢) ص ٣٩٠ - ٣٩٦.

لأجل هذا قرر حزب الاستقلال العربي عند البحث في طريقة إعلان استقلال البلاد ان يكون المؤتمر السوري العام هو الذي يقوم به في العاصمة (دمشق) مستظهراً بعلمائها ورؤسائها الروحيين وكبار رجالها من جميع الطبقات والاحزاب ـ وأنه لا حاجة الى انتخاب جديد ـ كما اقترح بعضهم ـ وكذلك كان، وقد نشرنا خبره مفصلاً في وقته.

ولما اجتمع المؤتمر وأعلن الاستقلال أيده الشعب في جميع المناطق السورية وصارت له بمظاهرة الشعب له صفة الجمعية الوطنية التأسيسية، وقد كان من رأى الامير فيصل ان ينفض بعد إعلان الاستقلال وكاشف الذين يتولون مراجعته ومذاكرته في الامر من كبار اعضاء الحزب بذلك فلم يوافقه أحد وكاد يصر لولا ان قيل له إن هذا الامر لا يمكن البت فيه إلا بعد اجتماع المؤتمر والاتفاق مع الاكثر من اعضائه وهم من حزبنا على ما يحسن في ذلك؛ ثم كثر البحث في ذلك بعد اجتماعه وقبل الاتفاق على وضع صيغة إعلان الاستقلال حتى تم الاتفاق على الصيغة التي وضعت في قرار المؤتمر التاريخي الذي أعلن به الاستقلال ـ وقد نشرناه في المجلد الحادي والعشرين من المنار (ص ٤٤١) ـ وهذا نصها بعد ذكر اختيار فيصل ملكاً.

«وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس (أي المؤتمر) في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام الى ان تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على ان تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية».

فإن جعل الحكومة مسؤولة تجاه المجلس كان يراد وضعه مطلقاً فلم يقبل الامير فيصل بذلك وبعد المراجعة والإصغاء رضي بأن يكون ذلك مقيداً بما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام ورضي أكثر الاعضاء بذلك.

وبعد ان تألفت الحكومة وانتظمت جلسات المؤتمر اقترح بعض اعضائه وضع قرار بطلب تقديم الوزارة بيان خطتها للمؤتمر طلباً لاعتماده إياها من حيث هي حكومة نيابية بمقتضى قراره فقبل الاقتراح وتقرر بأغلبية كادت تكون اتفاقاً.

ولما بلّغ رئيس الوزارة قرار المؤتمر عرضه على الملك فأنكره وأبى ان تجيب الوزارة الطلب حتى أقنعته بذلك بعد مناظرة حادة حضرها إحسان بك الجابري رئيس أمنائه ـ وكان فيها ميالاً لرأيي ـ وسمع بعضها الأمير زيد.

ذلك أنني زرته صباحاً كالعادة فذكر لي قرار المؤتمر وقال انه ليس له هذا الحق لأنه ليس مجلساً نيابياً وإنني أمرت الوزارة بعدم إجابة طلبه. فقلت له يا مولاي إن هذا الاقتراح عرض فجأة في المؤتمر ولم يبحث حزبنا فيه ولا علم به قبل عرضه، وإنني لم أكن من المقرين له ولا المعارضين فيه لأنني لا أزال متردداً في الترجيح بين كفاية الوزارة وكفاية المؤتمر وناظر اليها بعين النقد والتجربة، ولكن يجب ان ينفذ قرار المؤتمر بعد ان قرره وبلغه لا يجوز رده البتة.

قال انه لا حق في هذا الطلب لأنه ليس مجلساً نيابياً ـ قلت بل له هذا الحق لأنه

أعظم سلطة من المجلس النيابي، إنه جمعية وطنية تأسيسية.

قال إنني أنا الذي أوجدته فلا أعطيه هذا الحق الذي يعرقل عمل الحكومة.

قلت بل هو الذي أوجدك، فقد كنت قائداً من قواد الحلفاء تحت قيادة الجنرال اللنبي فجعلك ملكاً لسوريا. نعم ان لك فضلاً بالسماح بجمعه إذ كانت تحكم هذه البلاد حكومة عسكرية باسم الحلفاء - أما وقد اجتمع باسم الأمّة وهي صاحبة السلطان الاعلى بمقتضى أصول الشرع الإسلامي الذي تدين الله به وبمقتضى جميع أصول القوانين العصرية الراقية، وقد اشترط في تأسيسه لهذه الحكومة التي اختارك ملكاً لها ان تكون مسؤولة تجاهه في كل ما يتعلق بأساس الاستقلال، وبرنامج الوزارة السياسي يتعلق بأساس الاستقلال مباشرة وبرنامجها الاداري يتعلق بحفظ الاستقلال بالتبع أيضاً. فأرجو ان لا تحدث لنا أزمة في أول طريقنا. وما تخشاه من عرقلة الحكومة بتدخل المؤتمر وسيطرته عليها فأمره سهل، فإن أكثرية المجلس من حزبنا وأعضاء الوزارة من حزبنا أيضاً ونحن نضمن التوفيق بينهما وعدم فتح هذا الباب الآن. وبعد التأمل في هذا الكلام الذي يعتقد اخلاص قائله وصدقه وعلمه بأن المؤتمر لا يسكت عن تنفيذ قراره رضي، ثم قدمت الوزارة بيانها على الوجه الذي يتفق مع رأي الحزب ونالت الاعتماد المطلوب ثم كان من أمرها بعد ذلك ما ذكرناه من قبل.

والغرض من ذكر هذه الحادثة بيان صفة المؤتمر لا التعريض بميل الملك فيصل الى الاستبداد، بل أقول إنني كنت أخاف ما يخاف هو من تحكم المؤتمر في الحكومة وعرقلته لأعمالها وهي في طور التكوّن، فإن استبداد الجماعة قد يكون أشد ضرراً من استبداد الافراد، والشواهد على هذا معروفة في التاريخ القديم والحديث، وحسبنا من الحديث استبداد الاتحاديين بالحكومة العثمانية الذي أدى الى هدم سلطنتها (أمبراطوريتها) العظيمة. وحب الاستبداد فطري في نفوس البشر خيارهم وشرارهم، وربما كان بعض الاخيار أمضى فيه وأثبت قدماً من غيرهم، لعذرهم أنفسهم فيه بما يجدون فيها من حسن النية، والشرير قد يلوم نفسه عليه إذا كان فيه بقية من الخير، ولا يصرف الناس عن الاستبداد إلا التقيد بشرع او قانون وراءه قوة تحافظ على تنفيذه وتراقب المنفذين له، وهذا معروف ولا يحتاج الى شرح، ولماكانت مراقبة الملوك وإيقافهم عند حدود الشرائع والقوانين مع الاعتراف لهم بالسلطة العليا من أشق الامور بل تكاد تكون متعذرة - سلبت الامم الراقية السلطتين منهم وجعلتهما للمجالس النياية وجماعة الوزراء... قلت مرة لمستر متشل إنس وكيل المالية بمصر في عهد كرومر: انكم قد ظلمتم الخديوي وقيدتم سلطته حتى لم تتركوا له من النفوذ الفعلي في الحكومة شيئاً. فقال: لكننا تركنا له جميع مظاهر الملك وعظمته وهل تريد ان نعطيه ما ليس لملكنا مثله فيستبد في الاعمال، فوالله لو أن ملكنا استطاع ان يستبد في أمر من الامور في يومه لما أخره الى الغد.

ومعقول ان يكون الملك فيصل أجدر من غيره بحب الاستبداد وقد صرّح بأنه ندم على ان لم يكن استبد في سورية ولكن من غرائزه وأخلاقه ما يصدّه عنه إذا كان طريقه غير

معبّد له، وآية لي على ذلك انه سمع مني ما ذكرت من معارضته فرجع الى قولي، ولم ينقص ذلك شيئاً من مودته واحترامه لي، ولو كان الاستبداد راسخاً فيه كرسوخه في كثير ممن نعرف من الامراء وكان قوي الشكيمة فيه لما استطعت معاشرته والعمل معه بعد ذلك، ولكان حقد علي بهذه المعارضة وكاد لي كيداً، إذا لم يستطع إيذائي جهراً، على انه رأى مني بعد ذلك معارضة أشد وأخشن ولم يكن ذلك بصارف له عن مكاشفتي عند توديعه ليلة خروجه من دمشق بأعمق أسراره التي أكد لي انه لم يذكرها لأخيه كما ذكرت ذلك من قبل ولعله لولا يقينه الصحيح بإخلاصي للأمّة وله وانني ليس لي أدنى هوى نفسي في ذلك - لما بقيت لي عنده هذه المودة، وقلّما تجد هذا عند غيره من الملوك والامراء، بل عند الافراد والنظراء، بل عند من دونهم؟ ونعود بعد هذا الاستطراد الى الكلام على المؤتمر.

المؤتمر والحكومة في سورية

قلت إنني كنت أخاف ما يخاف الملك فيصل من تحكم المؤتمر في الحكومة وعرقلته لأعمالها، وانني كنت أراقب كلاً منهما مراقبة المختبر الشاك في كفاية الفريقين وفي الترجيح بينهما، وقد تكون وجهة النظر عندي في ذلك مخالفة لوجهة النظر عند الملك فيصل، وقد بينت بالإجمال ما ظهر لي من كفاية الحكومة والانتقاد عليها بالاعتدال البريء من التحامل والمحاباة.

وأما المؤتمر فقد ظهر أنه ليس أدنى من المستوى الذي فيه الشعب بل هو مثال مطابق له، فقد كان الرأي العام فيه في مسألة الاستقلال التام الناجز ورفض كل سيطرة أجنبية هو رأي الشعب بعينه، بل لم يكن فيه أدنى مظهر للفئة القليلة في الامّة التي تميل الى قبول الوصاية الاجنبية الموقتة - وهل لدى الدول الطامحة الى ذلك سيطرة موقتة إلا عند العجز عن الدائمة؟ - وقد يلطفونها بتسميتها مساعدة، نعم قد اتهم أفراد من الاعضاء بأنهم من الحزب الوطني الذي ألفه بعض الاغنياء ولكن بعض وزراء الحكومة على قلتهم كانوا يصرحون لبعض الناس بأن رأيهم قبول الوصاية ومنهم ساطع بك الحصري وزير المعارف الذي كان أحد رسل الملك فيصل الى الجنرال غورو وعلاء الدين الدروبي قتيل خربة الغزالة وتقدم ذكر ذلك. بل كانت وطأة المؤتمر شديدة في مقاومة الانتداب في كل من سورية الجنوبية والشمالية ولم يكن هذا محل خلاف بين حزبيه ولا بين أحد من أفراده.

وكان فيه العدد الكافي من دارسي علم الحقوق وأصول القوانين ومن ذوي الإلمام بالشريعة الإسلامية ومن الاذكياء المتعلمين في مدارس الدولة العثمانية او بعض المدارس الاجنبية فكان بذلك كفؤاً لوضع القانون الأساسي للبلاد وأهلاً لوضع غيرها من القوانين او تنقيح القوانين العثمانية.

وكان فيه طائفة من المحافظين على القديم من أمور الأمّة وتقاليدها وطائفة من المولعين بالجديد الاوروبي وطائفة من المعتدلين بين جمود اولئك وخفة هؤلاء، ومن المولعين بالجديد من يودون السير من وراء حدود الدين وأن يستظهروا في ذلك بالقانون بل قاوم

كثيرون منهم تقييد الحرية الشخصية بشرط المحافظة على الآداب العامة وكان رأي بعضهم أنه شرط لا حاجة اليه لئلا يتوسل به الى منع السكر في المقاهي والملاهي واختلاط النساء بالرجال فيها، ورأي آخرين أنه شرط حسن ولكن لا ينبغي ذكره في القانون الاساسي فكان رأي الفريقين أفلج فرجع على رأي المخالفين لهم لأن أكثر هؤلاء كان ضعيف الفهم قليل الحزم.

أشرت آنفاً الى انه كان في المؤتمر حزبان، وهما حزب التقدم الذي يمثل حزب الاستقلال العربي وجمعيته وحزب الاعتدال، ثم انفرد افراد سمّوا أنفسهم حزب الاستقلال - أي الاستقلال في الرأي - ولكن الذين لا يتقيدون ببرنامج حزب يؤيدون الأكثر من أفراده إذا قرروه لا يمكن ان يؤلفوا حزباً من أنفسهم. ولو أمكن ان يكون هؤلاء حزباً لكنت منهم قبل ان أكون رئيس المؤتمر فإنني من أشد الناس استمساكاً باستقلالي في ما أراه هو الصواب، ولكن لم يكن لي مندوحة عن الاشتراك في تأليف حزب التقدم الذي يمثل الجماعة التي أنا مرتبط بمذهبها السياسي وهو استقلال البلاد العربية وقد انتخبت رئيساً لهذا الحزب عند تأسيسه، وكنت أستعين به على تنفيذ رأيي في المسائل الخلافية في اجتماعاته الخاصة فإن لم يتيسر لي اقناع الأكثرين في بعض المسائل ولم يتيسر لهم اقناعي فإنني أنفذ قرارهم عملاً بالنظام ولكنني لا أنصره بالاحتجاج له والدفاع عنه على منبر المؤتمر ولا في مناقشة الأفراد، بل كنت أصرح لهم بما أعتقد انه الصواب، وأقول هذا رأيي وذاك قرار الحزب. وقد استطعت بما لي من المكانة الشخصية عند الاخوان ان أقنعهم بإرجاء البتّ في بعض المسائل الخلافية الى أجل ساعدتنا فيه الأيام على الاتفاق فيها.

ولقد دعيت الى المساعدة على تأليف الحزب الآخر عند الشروع فيه على ان أكون رئيساً له فلم أقبل، وقد كان الداعي الاول الى تأليفه كتب أسماء أكثر الذين لا ينتمون الى حزب الاستقلال العربي ليدعوهم الى تأليف حزب مخالف له في المؤتمر لئلا ينفرد بالنفوذ فيه كما انفرد بالنفوذ في الحكومة وفي بلاط الملك، على ان يتقاسموا ليكوننّ إلباً واحداً وكلمة واحدة على كل ما يقررونه في ما بينهم لا يشذ أحد عن رفع صوته به، ولم أكن أعرف لهم رأياً جامعاً غير ما ذكرت وهو ما يتعذر عليّ على أنه قد دخل في حزبهم بعض اعضاء جماعتنا يرضى من حزبها بقصد الإصلاح وتفادياً من توسيع مسافة الخلاف، وقد كان أفراد هذا الحزب وهم الأقلون عدداً أكثر اتفاقاً وتناصراً من الآخرين وهم الأكثرون عدداً وعلماً الا في المسائل المهمة ومنهم أكثر أهل العلم والرأي والخطباء.

سيرتي في المؤتمر

ولما صرت رئيساً للمؤتمر وجب علي أن أساوي بين الحزبين في كل شيء يتعلق به وفي احترام أفرادهما حتى في خارجه وإعطاء كل ذي حق حقه، وإيتاء كل ذي فضل فضله، بل تركت رئاسة حزب التقدم مع المحافظة على نصر الجماعة التي ينتهي اليها، وقد كان الذين استاؤوا من تشديدي عليهم في حفظ نظام الجلسات او في المنع في بعض الاحيان

من الكلام والخطابة أكثرهم من أفراد جماعتنا وأقلهم من الحزب الآخر، بل ربما كان أكثرهم من أصدقائي وما كلهم من أفراد جماعتنا ولا كل أفراد جماعتنا منهم، ومن العادات الراسخة في نفسي ان اشتد مع الاصدقاء أيهم أشد حباً وإخلاصاً في الصداقة ما لا اشتد مع غيرهم في الاقناع بالحق والمطالبة بالوقوف عنده، لأنهم أقرب الى حسن الظن، وأبعد عن الظنة (التهمة) التي قد تبعث على مكابرة الحق، وكم أغضب عليّ هذا الخلق من صديق ساءني إغضابه، وسرّني استعتابه، وكم وجّه إليّ من عتب محب لم يتعذر عليّ إعتابه، وربما فاتني من ذلك ما أجهله أو أعذر نفسي بحسن النية فيه وان لم تعلم.
وقد اتهمني بعض من صاحبت وواددت من اعضاء المؤتمر وغيرهم بالمحاباة في تنفيذ وظيفة الرئاسة فيهم، وكانت هذه التهمة باطلة، فوايم الحق، انني كنت دائماً محافظاً على تحرّي الحق والعدل، ولكنني لا أبرّىء نفسي من التساهل أحياناً مداراة لبعض شديدي الانفعال والغضب او محبي المشاغبة كراهة ان تكثر فتسوء سمعة المؤتمر، ومنهم من أغراه ذلك باللجاج بالتمادي حتى اضطررت الى ما كنت أكره من الانذار وراء الانذار، الذي لا يبيح القانون فيه للرئيس اخراج المنذر من الجلسة بقوة الشرطة.

الرحلة الاوربية(*)

(١)

مقدمة:

كادت أوربة تسود العالم الأرضي وتستعبد جميع شعوب البشر وتسخّرها لخدمتها لولا أن تفلّت جلّ العالم الجديد في غربي الكرة (أميركة) من قبضة يدها وتلاه الشعب الياباني في شرقيها فساوى الشعوب الأوربية في العلم والصناعة والنظام، واتقان فنون الحرب وآلات القتال، ووسائل الثروة وتدبير المال. وأما سائر بلاد المشرق من آسيوية وافريقية فكانت خاضعة خانعة لدول الاستعمار الاوربية على تفاوت بينها في هذا الخضوع فمنها ما يعد ملكاً خالصاً لهن ومنها ما يسمى التصرف فيه حماية او احتلالاً ومنها ما يسمى مناطق نفوذ سياسية او اقتصادية او امتيازات دولية - دع النفوذ العلمي الذي سيطروا فيه على الافكار بتأثير مدارسهم وانتشار لغاتهم وبث مطبوعاتهم والنفوذ الديني الذي سيطروا فيه على القلوب والأرواح ببعثاتهم الدينية وما أنشئ لها من المدارس والمستشفيات والأندية وما يطبع لها من الكتب والصحف المنشوره، ولا تنس في هذا المقام تأثير تجارهم وسياحهم، ولا تأثير عاداتهم، وأزيائهم ولا أتحامى ذكر تأثير بغاياهم وفواجرهم، في افساد الاخلاق، وحاناتهم ومقامرهم واستنزاف الاموال.

فبهذه المزايا والصفات والمظاهر والأفعال حسنها وقبيحها تتجذب قلوب الناس الى رؤية بلاد هؤلاء الناس على اختلاف المقاصد والنيات فهي كعبة طلاب العلوم والفنون والصناعات، كما أنها هيكل عبّاد الشهوات والتمتع باللذات، فترى الناس يرحلون اليها من جميع أقطار الارض، أفراداً وثبات أي جماعات وأكثرهم يبتغون بالرحلة اليها التمتع بمشاهد عمرانها واحتساء كؤوس لذاتها، ومنهم من يؤمها للاستشفاء بهوائها ومياهها المعدنية، او لعرض نفسه على أطبائها أولي التخصّص في فروع الطب والجراحة، ومنهم من يلم بها لاستبضاع عروض التجارة او غير ذلك من الأعمال المالية، ومنهم من يهاجر اليها لطلب العلوم الكونية والقانونية، والفنون والصناعات المختلفة، ومنهم من يتسلل اليها للقيام بأعمال سياسية. ولعل أقل زائريها

---

(١) المنارج ٢٣ (١٩٢٢) ص ١١٤ - ١٢٠.

من ينوي تكميل عقله وتجاربه بالاختبار والاعتبار بما يرى ويسمع. وأرجو أن أكون من هذا القليل وان كان المحرك لهذه الرحلة والداعي الى جعلها في الزمن الذي وقعت فيه وإلى المكان الذي كان جلها فيه ليس إلا الخدمة السياسية لوطن المولد والتربية.

ذلك بأن حزب الاتحاد السوري - وهو أحد الأحزاب السياسية التي كنت من مؤسسيها والعاملين فيها قد قرر برأيي وموافقتي أن يدعو الأحزاب السورية الاستقلالية الى عقد مؤتمر سوري في مدينة (جنيف) من بلاد (سويسرة) حيث تجتمع جمعية الأمم - لأجل المطالبة بحق سورية في الحرية والاستقلال الصحيح المطلق من كل قيد ينافيه ولأجل جمع كلمة هذه الاحزاب وتعاونها على العمل دائماً - وبناء على هذا القرار نشر الحزب المنشور الآتي بإمضائي وامضاء رئيسه.

دعوة الحزب الى عقد مؤتمر سوري

«إن لجنة حزب الاتحاد السوري المركزية بمصر واثقة أنكم كنتم وما زلتم مواظبين على مبادئكم القويمة الوطنية ومساعيكم الشريفة الى أن تكلّل بالنجاح ويتحرر الوطن المحبوب ويصبح كما يريد أبناؤه الأحرار العاملون وطناً حراً مستقلاً زاهراً برجاله ناهضاً بهممهم سائراً كل يوم الى الأمام بفضل ما يبذله الأحرار العاملون في سبيله من التضحيات العديدة والمساعي الجليلة.

«وبعد فقد رأت لجنة حزب الاتحاد السوري التي كانت وما زالت تجاهد بجميع الطرق المشروعة للحصول على استقلال البلاد التام الذي هو أمنية كل سوري أبي النفس ان تتآزر جميع الاحزاب والجمعيات السورية التي تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد سواء في سورية نفسها أو في المهاجر البعيدة المتفرقة وتتفاهم في ما بينها على أسس المبادىء والمساعي معاً وترفع صوتها في وقت واحد للعالم المتمدن بأسره بجميع الطرق المشروعة طالبة الحصول على حقها الوطني الطبيعي المؤيد بكثير من العهود والوعود من أقطاب السياسة في العالم المتمدن كله.

«ولما كان مجلس عصبة الامم سيجتمع قريباً وينظر في شروط الوصاية المفروضة على سورية وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا فقد قررت لجنة حزب الاتحاد السوري ان تدعو الجمعيات والاحزاب السورية الى عقد مؤتمر سوري عام في (جنيف) مركز عصبة الأمم في ١٠ حزيران (يونيو) المقبل لتبرهن بكل ما لديها من الوثائق والحجج والأدلة على ما لسورية من الحق بالحرية والاستقلال وتتوسل بالوسائل المشروعة لدى مجلس عصبة الأمم لسماع رأي البلاد قبل ابرام الحكم عليها «فلجنة حزب الاتحاد السوري تدعوكم وتدعو سائر الجمعيات السورية للاشتراك في هذا المؤتمر وترجو منكم إشعارها بأسماء مندوبيكم وبميعاد سفرهم وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والسلام».

نائب الرئيس
محمد رشيد رضا

رئيس حزب الاتحاد السوري
ميشيل لطف الله

المانع والمقتضى والتعارف والترجيح

اتفق في اثناء نشرنا لهذه الدعوة ان مرض أولادي واحداً بعد آخر ثم توفي صغيرهم وكنا أرجأنا السفر انتظاراً للعلم بموعد اجتماع عصبة الامم الرسمي الذي كان عُيِّن ثم أرجىء ثم قرر أن يكون في أواخر شهر أغسطس فتقرر ان يسافر وفد حزبنا من الاسكندرية في ١٢ أغسطس. ثم اتفق ان أصيب ولدي محمد شفيع في أول أغسطس بحمّى معدية يحتاج علاجها الى دقة وعلم فكنت أتولى معالجته وتغذيته بنفسي على أن والدته كانت نفساء وقرب الموعد ولما ينقه من مرضه فترددت في السفر ثم رجحت ان اتربص ريثما ينقه الغلام وأسافر فلما حل الموعد رأيت ان مصلحة خدمة الوطن ينبغي ترجيحها على الأهل والولد، فعزمت وتوكلت وأزمعت الرحيل، تاركاً الاسرة تستقبل عيد الأضحى في حزن ونفاس وتمريض. كما تركت أعمال المطبعة التي هي مادة المعيشة، وغادرت القاهرة في اليوم الثامن من ذي الحجة (الموافق لليوم الثاني عشر من أغسطس) وهو يوم التروية ويليه يوم عرفة فعيد الأضحى فشق عليّ وعلى الأهل والعيال ولكن سفري لم يكن منه بد باتفاق الاخوان من أعضاء الحزب وغيرهم، وقد زارني قبله بيومين رئيس الحزب وبالغ في وصف ما يراه من ضرورة سفري وما في تأخيره عن هذا الوقت من الضرر.

سافرت في قطار الضحى السريع من القاهرة فألفيت في المركبة التي ركبتها من الدرجة الأولى ثلاثة من أصحابي علماء الشرع الأذكياء المشهورين وهم الشيخ محمد حسنين العدوي من هيئة كبار العلماء بالأزهر والشيخ محمد المراغي من قضاة المحكمة الشرعية العليا والشيخ محمد الضواهري شيخ الجامع الأحمدي بطنطا فجلست اليهم وقطعنا المسافة في البحث والمذاكرة في المسائل العلمية والاجتماعية ولا سيما مسألة ضعف المسلمين وأسبابه ووسائل معالجته وأهمها الاصلاح الديني.

سفر البحر من الاسكندرية

ولما بلغت الاسكندرية ذهبت الى أحد فنادقها المجاورة للبحر فتغديت فيه ثم سألت بالمسرّة (التليفون) عن الأمير ميشيل بك لطف الله[1] فعلمت أنه قد ذهب الى الباخرة التي اتفقنا على السفر فيها وانها تسافر من المرفأ عند انتهاء الساعة الثالثة بعد الظهر فيمّمتها فألفيته هو ورفيقنا جورج أفندي يوسف سالم ينتظران وكانا قد أرسلا رسولاً للبحث عني فصادفني بالقرب من الميناء فساعدني على إنهاء العمل المعتاد في الجمرك كالنظر في جواز السفر ورؤية الطبيب وما دون ذلك. ثم ركبت الباخرة.

الباخرة طليانية اسمها (كليوبطرة) وهي من البواخر المتوسطة في الكبر والاتقان فهي أكبر من بواخر الشركة الخديوية ودون الباخرة (عثمانية) منها إتقاناً ولكنها دون أكثر

---

(١) لقب «أمير» انعم به ملك الحجاز على رجال بيت لطف الله. وهذا الانعام اختراع له فيه مباحث اجتماعية وأدبية ليس هذا محل بيانها.

البواخر التي تنقل الركاب بين مصر وأوربة. وكانت لدولة النمسة فأخذت منها فيما أخذته دول الاحلاف من غنائم الحرب. وكان مجراها من مرساها في الموعد المضروب لها (الساعة ٣ بعد الظهر).

كان الرفيقان في شك من سمري معهما لما علما من الموانع التي أهمها تمريض ولدي ولكنهما استأجرا مخدعين في الدرجة الأولى في أحدهما سريران لي وليوسف سالم ان حضرت وإلا كان له وحده وهو واسع يمكن أن ينام فيه آخرون. وهذه الشركة في المخدع خير لي من الانفراد الذي كنت أفضله لو كنت أعرف لغة أصحاب الباخرة فرفيقي يتكلم بالفرنسية والانجليزية واتقانه للأخيرة أتم.

كان الهواء عند سفرنا لطيفاً لا يشكو منه الجالس على ظهرها ولكنه لا أثر له في مخادع النوم منها فلم أطق النوم في سرير مخدعنا لشدة الحر فنمت على ظهر الباخرة. وفي مساء اليوم الثاني (السبت) برد الهواء قليلاً وطفقت أحشاء البحر تضطرب على ما كان من خفة الهواء وضعف حركته فارتأى بعض الناس ان هذا أثر نوء جديد وهو الصواب فقد اشتدت الريح في ناشئة الليل وكانت باردة وأنشأ البحر يعبث بالسفينة فلما شعرت بالنودان لزمت كرسيّ الاستلقاء على ظهرها ولم أستطع العشاء مع الركاب على المائدة بل أكلت وأنا مستلق على الكرسي خشية الدوار الذي أدركتني بوادره ولكنها وقفت عند حدها ولله الحمد. على أن الريح اشتدت في اليوم الثالث وزاد بردها فلزمت المستلقى عامة نهاره وقد تكلفت طعام الغداء والعشاء وأنا عليه تكلفاً، وصلّيت الظهر والعصر قاعداً، ولم أذهل عن كونه يوم العيد فكبّرت الله تعالى في أوقات وتضرعت اليه داعياً إياه ان يشفي ولدي ويخلفني في أهلي ويلطف بنا وبمن معنا، وقيل لنا ان اضطراب البحر في هذا المكان المحاذي لقندية (كريد) معتاد. وفي اليوم الرابع (الاثنين) هدأت شدة الريح فصارت أقرب الى العنف. وزالت مقدمات الدوار ولله الحمد، وجملة القول ان السفينة لم تضطرب من هذه الريح لأنها شمالية غربية تناطح رأسها مناطحة ولو صدمتها من أحد جانبيها لكان النودان شديداً والدوار عتيداً.

كنت قد شرعت في كتابة بعض المقالات للمنار وكتاب مطوّل لأهل البيت فلما اضطرب وكان من تأثيره ما ذكرت تركت الكتابة ثم أتممت ذلك كله في يوم الثلاثاء إذ كان لطيف الحركة، معتدلاً بين البرد والحرارة، حتى كنا كأننا في جزيرة لا في سفينة، فطاب لنا الطعام والكلام.

لم يكن معنا من وجهاء المصريين في الباخرة غير أمين باشا يحيى أحد وجهاء الاسكندرية وهو أشد أنصار عدلي باشا ووفده الرسمي في الاسكندرية وكان قد اشتد سخطه على سعد باشا زغلول وكثر تحامله عليه فخالف في ذلك والده أحمد يحيى باشا الذي ما زال أقوى أنصار سعد باشا في الاسكندرية ومعه السواد الأعظم من جميع الطبقات، وبيني وبين كل من أحمد باشا وأمين باشا مودة قديمة فكنت أكلم أمين باشا في المسألة المصرية بلسان الصديق له المعتدل في المسائل العامة لا يطلب إلا الحق، وذكرت له

انني قد حررت القول في المسألة المصرية تحرير من يرجّح الحق والمصلحة العامة على كل شيء كما يعهد، وأنني وصفت كلاً من سعد باشا وعدلي باشا وصفاً لم أبخس فيه أحداً منهما شيئاً من حقه، وذكرت له بعض ما قلته فأحب أن يرى جزء المنار الذي نشر فيه ذلك قبل عودته من أوربة الى مصر، وقد اتفقنا على أن شدة التطاعن والتشاحن بين الأحزاب والزعماء مما يزيد في الشقاق وهو أسلحة الخصم، ويذهب بالوفاق وهو أمنع معاقل الأمّة.

وأما طعام الباخرة فقد كانت أنواعه كثيرة أجودها السمك الطري والدجاج وأردأها وأقلها الخضر، وقد كان جورج يوسف سالم يقرأ لي جريدة الطعام عند الجلوس على المائدة ويبين لي ما يخالطه منها لحم الخنزير لأختار بدلاً منه ليطلبه لي فكان هذا خير ما أشكره له من آداب الصحبة والمساعدة على أعباء السفر وهو أخبر الناس بها على ما أوتي من النشاط والهمة والمروءة في خدمة أصحابه.

قطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية وتريسته في خمسة أيام بلياليها إلا ثلاث ساعات ويقطعها غيرها من البواخر الجيدة في ثلاثة أيام وثلاث ساعات فقد كانت بطيئة السير والبحر رهو فلما اضطرب زاد بطؤها حتى لم تكن تقطع في الساعة إلا زهاء ١٢ ميلاً.

قلّما يحتاج المسافر الى أوربة في هذه البواخر الى بذل شيء من الجهد في معرفة القبلة فإن عامة سيرها الى جهة الغرب الشمالي فتكون مستديرة للقبلة فالذاهب الى أوربة يتجه الى مؤخرة السفينة والعائد من أوربة الى مصر يتجه الى مقدمتها، وقلما يتغير هذا الوضع.

تريسته وجمركها

وفي ضحوة يوم الاربعاء (١٣ ذي الحجة - ١٧ أغسطس) قابلنا ميناء (تريسته) ثم أرست السفينة في مرساها من المرفأ في وقت الظهر وكانوا قد هيّأوا طعام الغداء للركاب قبل موعده فتغدينا قبيل الظهر لنتمكن من النزول عند الوصول. فلم نلبث ان نزلنا فدخلنا إدارة الجمرك ففتح عماله بعض صناديقنا وأسفاطنا دون بعض، وقد فتح لي اثنان من خمس، ولم يفتش منهما شيء، ولأولئك العمال فراسة في الناس وفي متاعهم وأهم ما يبحثون عنه في من يجيء من مصر (سجاير الدخان) وكان الأمير ميشيل قد حمل معه صندوقاً كبيراً فيه ألوف من هذه السجاير المصرية ربما يبلغ مكسها ألوفاً من الليرات الطليانية لو كانت محمولة لتستهلك في إيطالية وإنما هي محمولة الى (سويسرة) وما يمر من بلاد الى أخرى يعطى المكس عنه في البلد المحمول اليه دون البلاد التي يمر منها، وقد مكثنا في إدارة الجمرك زمناً طويلاً لحل الرفيقين هذه المشكلة كما أوقفونا لأجلها عندما بلغنا نهاية حدود إيطالية وأول حدود سويسرة، فقبّح الله هذا الدخان ما أعظم ضرره وأكثر غوائله.

(تريسته) حاضرة من أعظم حواضر البحر في سواحل أوربة، على شاطىء الشمال

الشرقي من بحر الأدرياتيك، مرفأ واسع، في سفح جبل شامخ، فهي كبيروت او جونية من سفح لبنان، وأين مرفأ بيروت الصغير من مرفإها الكبير ذي الأرصفة الكثيرة، وكانت لدولة النمسة فلما مزقتها الحرب الأخيرة آلت في ما آل الى ايطاليا مع بواخرها، وهي في الأصل من حواضر بلادها.

كان أول عمل عملناه بعد الخروج من المكس ان أودعنا متاعنا في فندق (سافواي) من فنادقها الكبرى وبادرنا الى إرسال البرقيات الى أهلينا بمصر للاعلام بوصولنا وقد طلبت في برقيتي أن يخبروني بحالة محمد شفيع ببرقية يرسلونها الى جنيف وأودعنا في البريد ما كتبنا اليهم من تفصيل أخبار سفرنا وما كتبته من المقالات للمنار، ثم طوّفنا في البلد ساعة من الزمان وعدنا الى الفندق، وقد عهدنا الى يوسف بك سالم بأن يأخذ لنا تذاكر السفر في صبيحة اليوم التالي في السكة الحديدية لما له من الخبرة ومعرفة اللغة ففعل.

وأقول في هذا المقام ان الانسان لا يعرف قدر معرفة اللغات الأجنبية كما يجب إلا إذا سافر الى بلاد يعرف لغات أهلها فإن معرفته بذلك في بلاده بين قومه لا تعدو النظريات الفكرية وشهوة التكمل والتوسع في العلم فإذا سافر وصار بين قوم لا يعرف لغتهم شعر بنقص الجهل بتلك اللغة ورأى ان ما كان يعدّه كمالياً قد صار من الحاجيات او الضروريات - من الحاجيات إذا كان معه من الرفاق من يقضي له حاجة تارة ويترجم له كلام القوم أخرى - ومن الضروريات إذا فقد مثل هذا الرفيق، وإذا كفاه المترجم ما لا بد منه في شؤون طعامه وشرابه وتنقّله من مكان الى آخر في البر والبحر فهو لا يكفيه كل ما يحتاجه اليه من إفادة واستفادة و قلّما يوجد مترجم بين متحاورين يستطيع أن يوصل الى كل منهما ما في نفس الآخر من علم ورأي وحجة وشعور، بل كان الأستاذ الامام يخبرهم بأن المرء قلّما يستطيع أن يوصل الى نفس غيره بالخطاب أكثر من ٨٠ في المئة وبالكتاب تنعكس فإذا كان تبليغ المترجم عنه وسطاً بين تعبيره عن نفسه بالخطاب وتعبيره بالكتاب فقد يؤدي النصف أو أقل من النصف من نظريات السياسة والاجتماع والفلسفة والدين، وإنما يؤدي المراد كله في الأمور القطعية التي لا تختلف فيها الأفكار كأثمان السلع وجهات الطرق ومواعيد السفر وما أشبه ذلك.

الرحلة الاوربية

(٢)

السفر من تريسته

سافرنا من تريسته يوم الخميس في الربع الأخير من الساعة السابعة صباحاً (٦ س و ٤٥ د) في قطار أوربة الأكبر وكان موعده قبل ساعة ولكنه تأخر لتأخّر مجيئه من الآستانة.

سار بنا القطار في خيف شجير، من ذلك الجبل النضير، فكانت شجراؤه عن يميننا في الجبل وعن يسارنا فوق البحر، وما زال يتسلق بنا متلوياً كالأرقم في الأجم، حتى استوى على تلك السهول الفيحاء، والسهوب الشجراء، ذات المروج الخضراء، والرياض الغناء، الكثيرة النوار، والمفتحة الازهار، حتى كان الزمان قد استدار، فتحول الشطر الثاني من آب الى مثله من نيسان وأوائل ايار - وهي السهول المعروفة بسهول لومباردية -، وبعد أربع ساعات وصل الى مدينة البندقية (فينيسية) وهو يدخل اليها على طريق يبس في رقراق من الماء يسير فيه خمس دقائق يقطع فيها زهاء أربعة أميال (أو ٥ كيلو) عاد بنا القهقرى في ذلك الماء بعد وقوف دقائق في المحطة ثم وصلنا الى مدينة (ميلان) وقت العصر (الساعة ٣ و٤٥ دقيقة) ومكث في محطتها نصف ساعة تزود فيها ما يحتاج اليه من الفحم والماء، وبين البندقية وميلان بلاد وقرى كثيرة عامرة لا يقف عليها القطار العام السريع وإنما المواصلات بينها بالقطر الوطنية.

وأما هاتان المدينتان فهما من أعظم المدن ذات الصناعات الجميلة والآثار التاريخية التي يقصدهاالسياح من الاقطار ولو شئنالنقلنا من كتب التاريخ شيئاً من وصفها كما يفعل كثير من الناس في ما يكتبون في رحلاتهم، ولسنا من مستحسني هذه الطريقة بإطلاق، وإنما يحسن فيها تقييد بعض الشوارد المبعثرة، والنوادر التي تزدان بها المحاضرة، وما يستنبطه السائح من العبرة والفائدة، حتى في ما صورته الفكاهة والتسلية.

ومما لاحظته في نبات هذه الارض ان أكثر شجرها صغير ومتوسط العمر لعل أكبره لا يتجاوز عشر سنين وذلك أنهم يتناولونه بالقطع للاستفادة من خشبه ولكن بالقرب من ميلان أدواحاً عظيمة باسقة، كأنهم يستبقونها للزينة، ورأيتهم يختلون خلالها (أي يقطعون

حشيشها) بآلات تستأصله من وجه الارض ويجففونه ويجعلونه أكداساً كأكداس حصيد القمح والشعير، ولا يلبث ان ينمى مكانه ويطول لأن المكان مجاج الثرى ريان بالماء.

ولم أر في تلك الحقول الخضراء زرعاً غير الذرة وهي غضة حسنة النماء في ما قبل ميلان من الارض وأكثرها ضئيل في ما بعدها، وبالقرب من المدن والقرى حقول وبساتين مزروعة بقولاً كالفاصوليا والكرنب والطماطم وأما شجرها فمنه التفاح والكمّثرى وقد أينع ثمره وطابت فاكهته.

وأجمل مناظر هذه البلاد على الاطلاق البحيرات فقد مررنا ببعضها عن بعد وبعضها عن كثب، وإن أنس لا أنسى أصيل ذلك اليوم إذ بلغنا بحيرة ماجور او (ميجارو) فراعني ذلك المنظر البهيج، الذي لم أر له في ما سبق من عمري من شبيه ولا نظير، وإنما رأيت نظيره بعد ذلك في سويسرة، فأقول: إن مثل هذه البحيرة وبحيرة (لوسرن) من البحيرات التي بين الجبال هو أجمل ما خلقه الله في هذه الارض.

البحيرة واسعة، بين جبال شاهقة، مزدانة بالجنات الالفاف، والاجم الغبياء، من أدنى الغور المساوي للماء، الى الشماريخ التي تناطح السماء، وترى في ما يدنو منك من هذه الجنات، المعروشات منها وغير المعروشات، أصناف الأعناب وأنواع الثمرات، وهي ذات تعاريج كثيرة، وفيها جزائر صغيرة، بنيت فيها قصور نضيرة، يصلون اليها بزوارق جميلة، ومياهها زرقاء صافية، وهي تتسع في مكان وتضيق في آخر، وأخياف الجبال المحيطة بها تمتد على بعض الضفاف وتتقلص عن بعض، ولبعضها ألسنة مستطيلة فيها، ورؤوس مقنعة في بعض نواحيها، والقطار يسايرها في جوانبها، ويلتف على معاطفها، فيدنو ويبعد، ويغير وينجد، ويصوب ويصعد، ونحن فيه متلعو الرؤوس شاخصو الأبصار، نقلب الطرف ذات اليمين وذات اليسار، فمنظر البحيرة العجيب عن أيماننا، ومنظر الجبال الغريب عن شمائلنا، وفي كل منهما آيات للناظرين، ومعانٍ للمتفكرين، تثير في الخيال هواجس الشعر، وتنفث في الوهم رقى السحر، وتلقي في العقول معاني الفنون، وتوحي الى القلوب حقائق الايمان بمن يقول للشيء كن فيكون.

تذكرت برؤية تلك الجنات الغبياء، والرياض الفيحاء، وصفي لروضة من روضات الوطن في مقصورتي وهو:

وروضـــــةٍ تجلى بثـــوب سندس ... رصـعـهـا النَّوْرُ بأصناف الحُلى[1]

مـا صـوّح البـارحُ غضّ نجـمـهـا ... وناضـرُ الافنان منهـا مـا ذوَى[2]

---

(١) الروضة الموضع المعجب بالزهور قاله في المصباح وأصله مجتمع الماء ثم أطلق على ما يحدثه الماء من النبات والزهر وهو الترويض. والنور بالفتح زهر النبات والشجر واحده نورة فهو كتمر وثمرة وجمعه أنوار ونوار بوزن تفاح. والحلى بالكسر وبالضم جمع حلية بالكسر وهي ما يتزين به النساء من الجواهر. والترصيع تزيين الحلي والحلل بالجواهر التي شبه بها هنا أصناف النوار.

(٢) البارح الريح الحارة وتصويحها للنبات تجفيفه والنجم النبات الذي لا ساق له ويقابله الشجر وأشير اليه بالافنان وهي الاغصان. وذوى يذوي ذبل.

والباسقاتُ رفعت أكفها ... تستنزل الغيث وتطلب الندى[1]
تمتلج (الكربون) من ضرع الهوا ... تؤثرنا بالاكسجين المنتقى[2]
مدّت على الصعيد ظلاً وارفا ... فلا ذأى العودُ ولا الظلُّ أزى[3]
والشمسُ تبدو من خلال دوحها ... آونة تخفى وتارة تُرى[4]
كغادة وضاحة قد أتلعَتْ ... من خَلَل السُّجوف ترنو والكوى[5]
تلقي على الروض نثير عسجد ... فتحسب الروض عروساً تُجتلى[6]

وأين هذا الوصف القاصر، من هذا المنظر الناضر، والجمال الساحر، وأنى لي بتخيّل مثله في طرابلس والقملون، وان كانت كثيرة الجنات جارية العيون.

كل هذا الجمال والجلال، الذي تجلّى علينا بمناظر البحيرة وما يحيط بها من الجبال وما يزين ضفافها وجزائرها من القصور والفنادق، والجنات والحدائق، والفلك والزوارق، وما تولده من المعاني الشعرية، والخواطر الاجتماعية والروحية، لم تكن لتسيني أن ولدي مريض ما أدري ما فعل الله به، ولا لتصرفني عن الخوف عليه والدعاء له، ولا سيما في أعقاب الصلوات، وما وفقت له من تلاوة القرآن. والوضوء والصلاة في هذه القطر من أسهل الامور؛ ومعرفة القبلة فيها ميسور.

وانتهينا عند الساعة السابعة مساء الى محطة وقف فيها القطار نصف ساعة لانكسار مركبة الطعام هنالك وقد ظننا انها أصلحت في تلك المدة ولكن خاب الظن وبقينا بغير عشاء، على اننا مكثنا زمناً طويلاً في المحطة التي بعدها وهي آخر محطة طليانية وفيها مطعم عامّ، إلا اننا شغلنا عن الطعام فيها بعرض جوازات السفر وتفتيش الصناديق وبما اتخذ من المعاملات الجمركية بشأن لفائف التبغ التي يحملها الرفاق.

ثم سار القطار بنا ولم يلبث ان دخل في النفق الكبير الفاصل بين ايطالية وسويسرة ومكث في بطن الارض ٢٥ دقيقة ثم تجاوزه ووقف بنا بعد نصف ساعة في أول محطة سويسرية فمكثنا فيها مدة لأجل معاملات الأجوزة وقد أخذوها منا واعدين بإعادتها لنا في جنيف. ثم سرنا فوصلنا الى المدينة (لوزان) في منتصف الليل فلم ندرك القطار الذي

---

(١) الباسقات جمع باسق وباسقة وهو ما ارتفع وذهب في الأفق طولاً وارتفاعاً وأكثر ما استعمل في وصف النخل والسحاب والمراد هنا كل ما ارتفع من الشجر كالحور والسرو، وأكفها أغصانها المورقة، وارتفاع الشجر سبب من أسباب المطر، والندى المطر او ما دون الغيث من ماء السماء أي ما يتكاثف من بخار الماء بالتدريج فيحدث بللا. ومن الندى بمعنى الجود والسخاء. وفي اللفظ هنا تورية لطيفة، على ما فيه وفي ما قبله من استعارات طريفة.

(٢) تمتلج ترتضع والكربون عنصر كيماوي يكثر في الفحم. والاكسجين عنصر آخر يدخل في تركيب الهواء والماء وهو علة او سبب من أسباب حياة الحيوان والنبات، وباستنشاقه في الهواء يطهر الدم من المواد السامة والشجر ينتشق حمض الكربون السام من الهواء ويفرز الاكسجين النافع المطهر للدم منه ومن غيره.

(٣) الصعيد وجه الارض والظل الوارف المتسع الممتد. وذأى ذأياً وذأوا ذبل كذوى، وأزى يأزي وأزا يأزو تقبض وتقلص.

(٤) الدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة.

(٥) الغادة الحسناء الناعمة اللينة العنق والقوام واتلعت مدت عنقها متطاولة لتنظر. والسجوف جمع سجف بفتح السين وكسرها وهي الستور التي تنصب على الابواب والنوافذ مؤلفاً كل منها من سترين بينهما فرجة وقيل السجف الشق بين السترين المقرونين. والكوى بالضم جمع كوة وهي النافذة الصغيرة. والخلل بالتحريك ما بين الاشياء من فرجة. ورنا اليه وله رنا ورنوا، هو إطالة النظر مع سكون الطرف كنظر العاشق.

(٦) العسجد الذهب. والنثار والنثير ما ينثر أي يلقى متفرقاً وكانوا ينثرون الدنانير حول العروس.

يسافر ليلاً الى جنيف لتأخرنا عن الموعد فبتنا بقية ليلتنا في فندق (فيكتوريا) بقرب المحطة وقد طلبنا فيه طعاماً فقيل لنا أن المطعم قد أقفل ولا طعام إلا الخبز والجبن والزبد والمربى والفاكهة فجاؤونا من ذلك بأفضل أنواعه مع الماء المثلوج والثلج لتبريد الفاكهة وهي موز وتفاح وكمثرى فكان هذا العشاء أشهى وألذ من كل طعام أكلناه في أوربة إذ كان عقب جوع صحيح وتعب طويل.

أكلنا طعاماً لطيفاً لذيذاً، ونمنا نوماً هادئاً مريحاً، على سرر مرفوعة وفرش وثيرة نظيفة، ولكل حجرة من حجرات النوم حمام خاص، تمتعنا بها في ليلتنا وفي صبيحته.

كان الجو في ذلك اليوم الذي قطعنا به أرض ايطاليا يوم صيف معتدل، وان كانت أرضها أرض ربيع مدبر او مقبل، ولولا غمام رقيق كان يكفكف بعض أشعة الشمس، لعد هنالك من أيام الحر، وقد تغير الجو علينا في سويسرة بعد نصف الليل فهب الهواء البليل، ولما أصبحنا رأينا السحاب يتكاثف في الأفق، ثم طفق يجود برذاذ لطيف، ثم تكاثف السحاب قبل الظهر، واشتد المطر بعد العصر، فكان كما وصفه ابن دريد بقوله:

جَوْنٌ أعارته الجنوبُ جانباً	منها وواصتْ صَوبه يَد الصَّبا[1]
ناءَ يمانيَّاً فلما انتشرت	أحضانُه وامتدَّ كِسراه غَطا[2]
وجلّل الأفق فكل جانب	منها كأنْ من قُطره المُزْنُ حبا[3]
وطبَّق الارض فكل بقعة	منها تقولُ الغيث في هاتا ثوى[4]
إذا خبت بروقه عنت له	ريح الصبا تشب منه ماخبا[5]

---

(١) قوله جون صفة لمحذوف تقديره سحاب جون وهو فاعل لقوله سقى العقيق الخ في بيت سابق: والجون الاسود ويطلق على الابيض فهو من اسماء الاضداد التي يتعين المراد منها بالقرينة والمراد بالجنوب الريح التي تهب من جهة الجنوب فتجيء بالمطر، والصبا الريح الشرقية، وهي تتحد مع الجنوبية كثيراً وتشبهها كما ان الريح الغربية تتحد مع الشمالية وتشبهها ويكثر مجيء المطر بعدهما في نصف الارض الشمالي كما يكثر مجيء المطر بعد الاوليين في النصف الجنوبي، وواصاه وأصله والمعنى ان هذ السحاب بدأت الجنوب بإثارته بحركتها، ويتلقيحه ببردها ثم واصلت الصبا بهبوبها ما بدأت به أختها.

(٢) ناء نهض بثقل وجهد وبالأمر نهض به بتعب ومشقة، وأحضان الشيء نواحيه وأصله ما دون الإبط الى الكشح من الانسان، والكسر بكسر الكاف وفتحها ما تكسر وتدلى من الخباء الى جهة الارض، وهو استعارة جميلة. وغطا يغطو ارتفع وقيل انبسط، والمعنى ان هذا السحاب الجون ناء بحمل الماء حال كونه يمانياً اذ اليمن من بلاد العرب في الجنوب وقد بدأ ظهوره منها فلما انتشرت جوانبه بمواصاة الصبا ومواصلتها لعمل الجنوب فيه وامتد كسراه الجنوبي والشرقي في سائر الأفق ارتفع إذ خف حمله بما أفرغ من ثقله او انتشر وصار عاماً كما صرح به في البيتين التاليين لهذا.

(٣) جلل الأفق غطاء وعمّه بستره اياه، والمزن السحاب المطر. وحبا زحف ودنا يقال حبا الصبي إذا زحف، والمعنى انه يعد ان عم الافق وجلله صار كل قطر من اقطاره كأن المزن قد زحف يصيبه منه إذ لم يعد خاصاً بالجنوب حيث نهض ولا بالشرق حيث امتد.

(٤) طبق الارض غطاها وجلّلها بمطره كما سبق هو الافق بنفسه. وعده في الاساس مجازاً. فكل بقعة منها تقول ان الغيث قد ثوى في هذه دون غيرها كما يؤخذ من تقديم الظرف والمعنى يقتضيه.
وهاتا اسم اشارة للمؤنث معروف كهذه وهذي وتستعمل كلها بدون هاء التنبيه أيضاً.

(٥) خبا البرق سكن كالسراج اذا طفيء يقول اذا خبت بروق هذا الجون عنّت وعرضت له ريح الصبا فأعادت وميضه ولمعانه كما تشب النار السراج بعد انطفائه.

وإن ونت رعوده حدا بها … حادي الجنوب فحدت كما حدا[1]
كأن في أحضانه وبركه … بركاً تداعى بين سجر ورحى[2]
لم تر كالمزن سوماً بهلاً … تحسبها مرعية وهي سدى[3]
يقول للأجراز لما استوسقت … بسوقه ثقي بريء وجيا[4]
فأوسع الأحداب سيباء محسبا … وطبق البطنان بالماء الروى[5]
كأنما البيداء غب صوبه … بحر طما تيار ثم سجا[6]

---

(١) ونت ضعفت او فترت، وحدا الإبل وحدا بها غنى لها ينشطها على السير: وحادى الجنوب وفي رواية راعى الجنوب معناه الجنوب الذي هو كالحادي او الراعي للإبل لأنه هو الذي يسوق السحاب. يقول: وان وضعت او فترت رعوده انبرى له من ريح الجنوب عاصفة ما يصيح به كما يصيح حادي الإبل بها إذا ونت وضعف سيرها فعادت تجلجل بصوتها كأنها تجيبه عن حدائه بمثله. وليس المراد ان البرق ومض بتأثير ريح الصبا وحدها في السحاب والرعد يقصف بتأثير ريح الجنوب وحدها، بل المراد ان هذا السحاب الذي تعاونت الجنوب والصبا على اثارته ولفحته ببردها فحمل القطر ثم ألقى حمله على الارض تتعاون الريحان في شب بروقه وقصف رعوده يجمعها بين زوجي الكهربائية الايجابي والسلبي الذي يشب البرق فيحدث بشبوبه تفريغ الهواء الذي سبب الرعد. وفي الكلام من ظريف الاستعارات ما ترى وتسمع.

وقد فسر الاستعارا ت من مكنية وتمثيلية بالتشبيه الصريح في البيت التالي وبما بعده.

(٢) البرك الاول الصدر والثاني جماعة الابل الباركة وانما يقال برك البعير لأنه يلقي بصدره الى الأرض، وتداعى أصله تتداعى أي يدعو بعضها بعضاً والسجر والسجور حنين الناقة وجعله الراغب استعارة من سجر النار لالتهابها في العدو. وفي مجاز الاساس: سجرت الناقة سجراً وسجرت تسجيراً امدت حنينها في اثر ولدها وملأت به فاها. قال:

حنت الى برق فقلت لها قري … بعض الحنين فأن بحرك سائقي

وانما قيد الحنين هنا بالممتد الذي يملأ الفم لأن حقيقة السجر الملء يقال سجر التنور اذا املاها لهباً وسجر المطر الوادي اذا ملأه والبحر المسجور الممتلىء، وقوله «قري» في الشاهد أمر من الوقار والسكون يقول للناقة لا تجعلي حنينك ممتداً دائماً بل اكتفي ببعضه والتزمي أقله فإن سجرك يشوقني الى وطني ومن أحب فيه فاحن اليه كما تحنين الى فصيلك. والوحى كفتى الصوت الذي ينقضي بسرعة، والعجلة والسرعة ويقال الوحى الوحى والوحاء الوحاء في طلب النجدة والاغاثة السريعة. والمعنى كان ما في جوانب ذلك الجون وفي صدره وهو وسطه من قطع السحاب التي تجتمع وتفترق وتتحول من جانب من جوانب الافق الى آخر بين وميض البروق وقعقعة الرعود التي تمتد وتقوى أحياناً وتنقضي أحياناً بسرعة. كأن في ذلك. ابلا باركة يدعو بعضها بعضاً الى التحول والانتقال فتنتقل بين حنين خفي قصير وحنين ممتد طويل.

(٣) السوام الابل السائمة أي الراعية وأسامها رعاها فهو مسيم، والبهل التي لم تحلب فهي ملأى الضروع بالالبان وناقة باهل غير محلوبة ولا مصرورة اي ولا مربوطة الضرع، يحلبها من شاء، وقيل المتروكة الرعي، والسدى المهملة التي لا راعي لها، والمعنى ان هذه السحب الممطرة في كل مكان، التي تشبه السوام البهل المبذول لبنها لكل انسان، تحسبها في انتقالها وحركاتها بتأثير الرياح كالمرعية التي يسوقها الراعي الى حيث يشاء وهي في نفس الامر سدى مهملة لا راعي لها لأن الرياح ليس لها ارادة في تحريكها وسوقها.

(٤) الاجراز جمع جرز (بضمتين) وهي الارض اليابسة التي لا نبات فيها لجفافها، واستوسقت حملت من أوساق الماء ما جمعت، والتوسق جمع المتفرق ومنه الوسق بالضم للكيل المعلوم. والري بالكسر الشبع من الشرب، والحيا بالقصر يطلق على المطر وعلى ما ينشأ عنه من النبات والخصب والمعنى ظاهر.

(٥) الاحدب جمع حدب وهو ما ارتفع من الارض والبطنان بالضم جمع بطن، والسيب العطاء والمحسب الكافي الذي يحمل المعطى على ان يقول حسبي حسبي. والماء الروى بكسر الراء المشددة والقصر. الغزير المروي كروي ورواء بالفتح، والمعنى انه اروى ظاهر الارض وباطنها وأحدابها وأيفاعها التي ينحدر عنها الماء فلا ترتوي الا بالغزير المتصل.

(٦) البيداء الصحراء، وصوب المطر نزوله وانحداره، وطما ارتفع، وتياره موجه، وسجا سكن، والمعنى انّ البيداء كانت غب نزوله أي بعده كبحر ارتفع موجه واضطرب، وسكن بعد ذلك ثم ذهب، وبذلك كان رحمة لا نقمة.

هذا واننا كنا نريد ان نسافر الى جنيف قبل الظهر ولكن جاء منها لاستقبالنا من كان فيها من اخواننا السوريين - نجيب بك شقير وصلاح الدين افندي قاسم وتوفيق أفندي اليازجي الذي كان قد سبق من قبل حزبنا للاستعداد للمؤتمر فتأخرنا الى المساء، ولم تتمكن من التجوال في لوزان لشدة المطر، ثم سافرنا عند انتهاء الساعة الخامسة مساء والمطر يهطل والريح تمنعنا من فتح نوافذ القطار، ومناظر سويسرة تأخذ بأبصارنا ذات اليمين وذات اليسار، فوصلنا الى جنيف في خمسين دقيقة.

الرحلة الاوربية(*)

(٣)

الفنادق في سويسرة

كان الامير ميشيل بك لطف الله أوصى توفيق أفندي اليازجي بأن يحضر لنا حجرات في فندق من أرقى فنادق (جنيف) وأحسنها إذ كان بلغنا أن هذه الفنادق ستكتظ على كثرتها بالمسافرين عند اجتماع عصبة الأمم، وأن يستأجرها إذا توقف حجزها على استئجارها، وصحّ ما قيل من تسابق الناس الى مثل ذلك. فلما وصلنا الى جنيف ذهب بنا الى فندق انكلترة وهو من الفنادق الوسطى، وموقعه أمام البحيرة جميل، فلم يعجب الامير ميشيل بك وعاتب توفيقاً على إنزالنا فيه، فاعتذر بأن الخديوي كان ينزل فيه، فقلنا لعله كان يراه أعون له على التنكر، وقد نزل فيه في وقتنا الامير عزيز حسن. ثم عهد الامير ميشيل الى جورج أفندي يوسف سالم بأن يبحث لنا عن ٤ حجرات في فندق من الدرجة الاولى يكثر فيه كبار اعضاء جمعية الامم ليسهل التعرف بهم، ويكون وجودنا معهم مذكراً لهم دائماً بوجود وفد سوري يطالب باستقلال بلاده، وبعد جهد في البحث والتجوال وجد لنا مطلوبنا في فندق (دي برج) وكان الامير ميشيل قد أوصاه بأن يساوم صاحب الفندق في اجرة الحجرات وثمن الطعام وأجرة غسل الثياب فلم يعن بالتدقيق في ذلك بل رضي بأن نعاملهم بالتعريفة التي يطلبونها لظنه ان ذلك محدود كما يقولون. ثم تبيّن ان الامير ميشيل هو المصيب، وأنه أعلم بشؤون البلاد من سالم الذي هو أكثر منه أسفاراً وتجوالاً في الممالك كما قلنا من قبل، وانه كان يمكن أن يقتصد بالمساومة مبلغاً من الجنيهات لا ينبغي التسامح في مثله.

وقبل ان أبين الفائدة التي أقصد اليها من ذكر هذه المسألة أذكر دقيقة أخرى للأمير ميشيل هي دونها في باب الاقتصاد، ولكنها تدل على حذق وذكاء واختبار وهي ان أصحاب فندق فيكتوريا في مدينة لوزان لما قدموا لنا جريدة الطعام، وهي مطبوعة ألفينا فيها الاثمان المطبوعة مرمجة وبجانبها أثمان مكتوبة بالحبر هي أكثر منها فلم ينتبه أحد منا

(١) المنارج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٣٨٣ . ٣٩٠.

الى سبب ذلك غيره فقد قال ان هذه الاثمان المطبوعة هي أثمان الطعام لأهل البلد، وانهم انما زادوا فيها لأجلنا، فإن لأهل سويسرة حذقاً في اجتلاب الاموال من السياح لا يضارعهم فيه غيرهم، وسبب ذلك ان ما يربحونه من الاجانب معظمه من الذين يقصدون بلادهم من جميع أقطار العالم المدني للتمتع بمناظر جبالها ومروجها الخضراء، وبحيراتها الزرقاء، واستنشاق نسيمها العليل، وتفيؤ ظل حدائقها الظليل، فما ينفقه فيها السائحون والسائحات، هو عند أهلها من قبيل دخل الصادرات، وأما الصادرات التي تخرج منها الى غيرها فهي قليلة أهمها الساعات من المصنوعات المعدنية فهي أشهر بلاد أوربة اتقاناً لها، والزبدة والجبن والفاكهة من نتائج الزراعة.

هذا وان جميع الاسعار في بلاد سويسرة محدودة لجميع أنواع البضائع وأهلها يغلب عليهم الصدق والامانة، وقد قيل لنا ان أكثر بلاد اوربة ولا سيما العواصم والثغور العظيمة كباريس ومارسيلية يبيعون الغرباء بأسعار أعلى من الاسعار التي يبيعون بها الوطنيين، وأما سويسرة فقلّما تجد هذه المعاملة فيها للغرباء في غير الفنادق، ومن أسباب ذلك ان أكثر أصحابها من اليهود.

أما بعد فإن غرضنا من الالمام بهذا البحث تنبيه القرّاء الى ما يجب على المسافر من بلاده الى أوربة وغيرها من الدقة والاقتصاد في النفقة، وحفظ ماله ان يضيع في ما لا يفيد صاحبه حمداً في الدنيا ولا ثواباً في الآخرة، بل هو من إسراف الغباوة الذي يحتقر فاعله كل عاقل وقف على حاله.

ان من لا يعرف ميشيل لطف الله إذا سمع أنه يساوم في أثمان طعام الفنادق، وينبه من يوليه أمر نفقته الى أمثال هذه الدقائق، يظن أنه ممن يصحّ أن تكتب أخبارهم في نوادر البخلاء، أو أن الدافع له الى مثل هذا التوفير الفقر والاملاق، أما وكلّ من يعرف الرجل يعلم أنه من أكبر أهل النعمة والثراء، ومن أشهر الأجواد والاسخياء، وانه مقري الضيوف، ووهّاب الالوف، فكيف يفهمون بعد هذا منه، ما روينا من هذه الدقة في التوفير عنه؟.

لا شك ان سفهاء الوارثين المعروفين في هذه البلاد، وهم لا يعقلون معنى لكلمتي التوفير والاقتصاد، الذي عليه مدار ثروة الامم والافراد، يعدّون ذلك من الهنات المستهجنات، ويكثرون التنادر بها، واختراع النكات لها وأما أهل العلم والبصيرة، فهم الذين يقدرونه قدره، ويعلمون انه من العقل والحكمة، والشكر الذي تدوم به النعمة، وانني قبل التثريب على أولئك السفهاء المسرفين، أذكر لهم مثلاً من قصد الاجواد المتقدمين والمتأخرين.

روي في مناقب الامام الحسن السبط عليه السلام انه جاء المدينة المنورة تاجر من العراق بأحمال من أجود الثياب، فاشتراها منه الحسن بعد أن بالغ في المساومة معه ولم يترك من الربح الا القليل، ثم أخذ منها ثوباً او اثنين ووزع الباقي على الحاضرين، فقال له التاجر يا ابن رسول الله لقد بالغت في مساومتي حتى لم يكن لي من الربح على تعبي إلا

القليل وقد كنت أحق من هؤلاء الناس بمثل ما أعطيتهم. او ما هذا معناه. فقال له الحسن: «المغبون لا محمود ولامأجور» أي لا هو مهدي هدية فيحمد ولا متصدق فيؤجر. وهذا حديث مرفوع رواه الخطيب عن أبيه والطبراني عنه وأبو يعلى عن أخيه الحسين عليهم السلام.

وما رأيت أحداً من الاغنياء العقلاء أشبه بالأمير ميشيل في إنفاقه وتوفيره، من الشيخ قاسم آل ابراهيم التاجر العربي الشهير في بومبي (الهند) فقد عهدناه ينفق من سعته في الأعمال العامة كالمدارس والاعانات للدولة العثمانية فيهب المئات والألوف من الجنيهات، ولا يطمع أهل الكدية والاستجداء منه بدينار ولا درهم وإن وقف على بابه طول النهار، وأطراه بالبليغ من الاشعار، على ان ميشيل لطف الله كثيراً ما يعطي الشعراء والأدباء، ولكن دون ما يهب للمدارس والجمعيات الخيرية، والأعمال السياسية.

فأمثال هؤلاء الاغنياء هم الذين يعرفون كيف يحفظون نعمة الله عليهم بالثروة، ويكونون أهلا للمزيد والزكاء فيها على كثرة النفقة.

هذا وان ما يمكن توفيره من نفقات السفر في اوربة من غير إزراء بصاحبه، ولا نقص في تمتعه، ليس بالشيء التافه الذي يعتد به، وناهيك باختيار المواقع، ومساومة أصحاب المنازل والفنادق. وقد علمنا ان أهم سبب غلاء المواد الغذائية في سويسرة وغيرها وارتفاع أجور الفنادق هو جعل ورقها النقدي (بنك نوت) بسعر الذهب لا ينقص شيئاً. وقد كان هذا سبباً لقلّة قصد السائحين اليها بعد الحرب كما كان يعهد قبلها حتى سائحي الانكليز والاميركيين الذين هم أكثر الشعوب سياحة وأوسعهم فيها نفقة فقد تجوّلنا بعد فض مؤتمرنا في أشهر بلادها، ورأينا أشهر فنادقها فلم نجد إلا القليل من السائحين فيها، ولما ذهبنا الى المانية وجدنا الفنادق غاصة بالناس من أهل سويسرة وغيرهم، حتى انك لتطوف على الكثير منها فلا تجد لك حجرة فيها كما سيأتي في محله. وإنما كثر الغرباء في مدينة جنيف وحدها لما ذكرنا من اجتماع جمعية الأمم فيها، وكثرة قصد المشتغلين بالسياسة اليها.

الفرنك السويسري كالفرنك الفرنسي والليرة الايطالية وغيرهما من نقد دول الاتحاد اللاتيني، كلها متساوية في وزنها الفضي وسعرها الذهبي، ولكن التعامل العام قد انحصر منذ اشتعلت نار الحرب في الورق وهو مختلف السعر الآن حتى في البلاد التي يطبع فيها بحسب الثقة المالية قوة وضعفاً، والمعيار العام في أوربة لهذا الورق (البون) الانكليزي لأن مالية انكلترة أثبت من غيرها من الدول الاوربية التي اشتركت في الحرب ولا يعلوها في ذلك إلا الولايات المتحدة وسويسرة فإنها كالولايات المتحدة في سعر القطع ففرنكها لا يقل عن أربعة قروش مصرية صحيحة.

وإن شئت مثالاً من أمثلة غلاء الفنادق الغريب في سويسرة فاعلم ان ثمن البيضة في السوق قرشان مصريان كما أخبرنا توفيق أفندي اليازجي وهي في الفندق أغلى، وأن أجرة غسل بعض الثياب في شهر واحد قد يزيد على ثمنها ضعفاً أو ضعفين أو أكثر، فإن أجرة

غسل كل من المنديل والجورب وكيّه لا يقلّ عن فرنكين سويسريين كأجرة القميص واللباس وقد يكون في بعضها أكثر، أفليس شراء جديد بدلاً من المتسخ هنالك خيراً من غسله كلما استعمل كما هي العادة؟ وقد هال رياض بك الصلح انه دفع جنيهين أجرة لغسل ثيابه في الفندق الذي نقيم فيه (أوتيل دي برج) ومتوسط نفقة الطعام في سويسرة جنيه انكليزي او مصري في اليوم وفي فندقنا وما ماثله أكثر، وفي بعض مطاعم السوق أقل.

وهذا الفندق من أغلى الفنادق أجرة وطعاماً ان لم يكن أغلاها، والطعام فيه أجود وأكثر منه في فندق فيكتوريا الذي نزلنا فيه أولاً (وكتب أولاً فندق انكلترة سهواً وطبع) فالألوان هنالك قليلة وهنا كثيرة جداً، ولكن لكل يوم بل لكلّ وجبة ألواناً معدودة لها ثمن معين ومن طلب غيرها مما يوجد دائما رهن الطلب كالفراخ والسمك والطير وسائر اللحوم بأنواعها فعليه ان يدفع ثمنه. ومن عاف شيئاً من طعام الوجبة فله أن يطلب بدلاً منه بغير ثمن جديد، وكنت دائماً أطلب بدلاً من الالوان التي يدخل فيها لحم الخنزير، والجبن من وجبات الطعام يجوز ان يستبدل به بعض الفاكهة. وهي كثيرة وجيدة الا التين فإنه قليل ورديء، وقيل لنا انه يأتي من إسبانية وأكثر العنب غير جيّد أيضاً.

(استطراد في أغبياء الاغنياء المسرفين)

هؤلاء الاغنياء المسرفون هم الذين يبذرون الأموال في سبيل الشهوات المحرمة، والفخفخة الجديرين بأن يسلبوا ما وهبوا من النعمة، يتوهم الجاهل المغرور منهم ان الشرف والفخار، في استمالة الفواجر والفجار، وتملق سماسرة الفسق من قوّاد وخمّار، وشخوص الأبصار على موائد القمار، واطراء المخادعين من الطامعين والشطار، وتغرير السماسرة الاشرار، فتراه بينهم يعطي باليمين واليسار، ويشتري سلعة الدرهم بالدينار.

إلا أن هؤلاء الاغنياء الاغبياء، والمبذرين السفهاء، هم أعداء الله تعالى وأعداء دينه، وأعداء أوليائه من فضلاء الناس وخيارهم، وأولياء أعدائه من أشرارهم، وأعداء أمتهم ووطنهم، وأعداء ذوي قرباهم، ولا سيما أزواجهم وأولادهم، فهم إذاً أعدى أعداء أنفسهم.

أما كونهم أعداء الله وأعداء دينه فهو أنهم يكفرون نعمه عليهم بالمال وبالجوارح والمشاعر والحواس باستعمالها في ما يخالف شرعه الحكيم، ويضل عن صراطه المستقيم، وقد وصفهم في كتابه بقوله ﴿ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ ويدخلون في عموم قوله ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ ولا نطيل في تذكيرهم بآيات ربهم فهم عن ذكره معرضون.

وأما كونهم أعداء أولياء الله أهل الفضائل فهو أن الاسراف قد هبط بهم الى أسفل دركات الرذائل، وإنما يحب الانسان شبيهه، ويكره بمقتضى الطبع مخالفه وضده، ولهذا وصفهم الله بأنهم اخوان الشياطين، وهو يصدق بشياطين الانس والجن ولذلك جمع، فأما شياطين الجن فهي ما يجدون أثره في خواطرهم، ووساوس أنفسهم التي تزين لهم الفسق وتلبس عليهم الحقائق، بتسمية الرذائل بأسماء الفضائل، كتسمية الاسراف جوداً وكرماً،

وتملّق المنافقين (النصّابين) جاهاً ومجداً، وتهافت العواهر وخدمة الحانات والمواخير عزاً وشرفاً، وأما شياطين الانس فهم قرناء السوء المنافقون المتملقون الذين يتهافتون على الاغنياء المسرفين، ولا سيما الشبان الوارثين، فيزينون لهم في الظاهر، ما يوسوس به الشيطان في الباطن، فهم شر منه وأقدر على الإغواء. لأن التناسب بين شيطان الجن والشرير من الناس نفساني فقط، وأما التناسب بينه وبين شيطان الإنس فهو نفساني وجسداني، ذاك يشغل قلبه وخاطره، وهذا يملك باطنه وظاهره، فيشغل سمعه وبصره، وذوقه ولمسه، ويكون قدوة سيئة له في جميع الرذائل وشاغلاً بل منفراً له عن معاشرة الأفاضل.

وأما كونهم أعداء وطنهم وأمّتهم فله مظاهر كثيرة أدبية، كسوء القدوة في إفساد الاخلاق وشرحه يطول ـ واقتصادية كتحويل ثروة البلاد الى الأجانب. أنبأني نخلة باشا المطران في القسطنطينية سنة ١٣٢٩ قال أنبأني رجل من كبار الماليين في باريس ان متوسط ما تربحه باريس وحدها من المصريين في كل صيف ثلاثون مليون فرنك (وهو مليون ونصف مليون دينار (بنتو) فرنسي من الذهب) ومثل هذا الاحصاء خاص بما يمكن العلم به ويتناوله الاحصاء عادة كأجور الفنادق والملاهي والملاعب والحانات، وربما كان من مواخير البغاء الرسمية دون ما يعطى للاخدان، ويقال انه قلّما يوجد رجل من الذين اعتادوا الاصطياف في أوربة من المصريين لأجل التمتع بالشهوات ليس له خدن يكثر الاختلاف اليها في بيتها او تختلف اليه في البيت الذي يقيم فيه من الفنادق العامة أو الدور الخاصة التي يعرف واحدها (بالبنسيون).

وللقمار مقامر عامة يمكن إحصاء ربحها وخسائر الشعوب فيها ولكن المبتلين به لا يحصرون مقامرتهم فيها بل يقامرون أصدقاءهم وأخدانهم من النساء والرجال في البيوت والملاهي والمنتزهات، وقد بلغنا ان عمر باشا سلطان قد خسر بالمقامرة في صيف سنة واحدة (لعلها السنة التي مات فيها او السنة التي قبلها) ثلاثين ألف جنيه مصري.

إن أكثر الاغنياء الاغبياء ولا سيما الشبان الوارثين منهم يخوضون بحار هذه الموبقات بغير عقل ولا حساب ولا تقدير فهم ليسوا كالإفرنج الذين لهم من العلم والتربية ما يقف بهم عند حدود من الاقتصاد فيها كغيرها من النفقات المشروعة: بلغني ان المقامرين منهم يضعون في ميزانية نفقاتهم السنوية مبلغاً معيناً من الدخل يوزعونه على الأشهر لا يتجاوزون قسط الشهر ربحوا أم خسروا. والمقامرون ولا سيما المسلمين الجغرافيين او الرسميين من أهل بلادنا قلّما يقف أحد منهم عند حد أو يتقيد بنظام، وإن خسر دخل السنة كلها في أسابيع أو أيام، بل يقترض بعد ذلك بالربا الفاحش ويرهن أملاكه لعدم قدرته على كبح جماح نفسه، والوقوف بها عند حد من شهواته، ولو أن الجرائد تنشر أخبار هؤلاء السفهاء وما يخسرون في القمار وسائر طرق الفسق والفجور لكان لها تأثير عظيم في ردعهم، واعتبار الناس بسوء حالهم.

إن آخر ما سمعت من أخبار هؤلاء المسرفين خبر شاب من الوارثين كان قد أنفق مبلغاً

عظيماً في سبيل العلم فظننت أنه سيكون كالشيخ قاسم ابراهيم في جده وعقله في بذلهِ، وبعده عن اللهو الباطل وأهله، أو كالأمير لطف الله في جمعه بين منتهى أبهة التمتع بزينة الدنيا وطيباتها، وبين أعمال البر والمعروف مع النظام والتدبير فيهما، ولكن خاب الأمل فيه إذ علمت أنه غلا في الاسراف والتبذير غلواً كبيراً، لعله لا يدع له فتيلاً ولا نقيراً ولا قمطيراً، فهو ينفق أضعاف ما ترك له والده الحريص من الدخل الكبير، وطفق يقترض بالربا الفاحش ويرهن ويبيع، فحزنت وأنا لا أعرفه عليه، وتمنيت لو تخلص مثل هذه النصيحة اليه، وأن لا يكون إن نصح ممن قال الله فيهم (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون - ومن قال فيهم - ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون).

وكذلك ما ينفقه هؤلاء في وطنهم يتسرب أكثره الى جيوب الأجانب أيضاً فإنه إنما يذهب في الفجور وأكثر الفواجر منهم، والخمور وجميعها من صادرات بلادهم، والقمار وهم أصحاب القدح المعلّى فيه؛ أو بالديون وهم أصحاب المصارف ورؤوس الأموال له.

أي عداوة للوطن وجناية عليه أكبر من نزح ثروته منه وإعطائها للأجانب؟ ولو أن هؤلاء السفهاء يجعلون ما ينفقون في غير الضار لهم من شهواتهم وفي ما ينفع الوطن من المشروعات العلمية والعملية لأمكن لمصر ان تضارع أوربة وتباريها في زمن قصير، سواء كان هذا البذل تبرعاً في سبيل المصالح العامة او استغلالاً للمال في ما يرقي الزراعة والصناعة والتجارة ويحفظ ثروة البلاد من الضياع، ولو أنهم يشترون به سندات دين الحكومة وأسهم الشركات والمصارف العقارية وغيرها لأمكنهم إعتاق حكومتهم وأمّتهم من استرقاق الافرنج الاقتصادي لها وجعلها حرة مستقلة في إدارة ثروتها، والاستقلال الاقتصادي أنجح ذرائع الاستقلال السياسي إذا كان مفقوداً، وأقوى دعائمه إذا كان موجوداً.

وأما عداوة هؤلاء الاغنياء لأهلهم وأولادهم فهي أنهم أسوأ الناس قدوة لهم في الفساد الذي أشرنا اليه وأقلّهم عناية بتربيتهم الصالحة، فكثيراً ما يفنون ثروتهم كلها في حياتهم فلا يتركون لأولادهم ما يعيشون به كما اعتادوا فيكونون أشقى الناس ونتيجة ما ذكر أنهم أعدى أعداء أنفسهم والجناة عليها في دنياها وآخرتها.

إننا بالتجوال في أوربة ورؤية مناظرها الجميلة والتمتع بهوائها المعتدل في فصل الصيف ووجدان جميع أسباب الراحة عرفنا تجربة ذوق واختبار عذر أغنيائنا في إقبالهم على الاصطياف فيها هرباً من حر قطرهم وغباره ولكننا لا نرى لأحد منهم عذراً ما في انفاق شيء من ثروة الوطن في غير أثمان ما يتمتعون به من طيبات الرزق وأجور السكن والتنقل في البر والبحر، إلا ان يكون في ما فيه منفعة معنوية لهم او لأمتهم ووطنهم في علم او ثروة او سياسة، فإن في أوربة من ينابيع العلم ومصادر المعارف ومجال الأعمال السياسية ما ليس في مصر ولا في غيرها من البلاد ولكن لا يكاد يوجد فيها شيء من اللذات الجسدية لا يوجد مثله في مصر، وسيأتي بيان ما تمتاز به في مكان آخر.

الرحلة الاوربية(*)

(٤)

أحمد عزت باشا العابد

لما وصلنا الى جنيف كان قد جاءها من باريس احمد عزت باشا العابد من كبار وجهاء وأغنياء سورية والذي كان الكاتب الثاني عند السلطان عبد الحميد. فاجتمعنا به زائرين ودعوناه الى حضور المؤتمر فاعتذر بأنه مضطر الى السفر الى باريس لأعمال مالية يضره تأخيرها وقال إنه يشرح لنا رأيه في ما ينبغي ان نطلبه من تخفيف وطأة الوصاية على سورية وهو ما كان طلبه بنفسه من وزراء فرنسة. فرددت عليه بأننا نحن طلاب استقلال مطلق من قيود الوصاية لا طلاب وصاية خفيفة، وأكبر عار على السوريين ان يقبلوا الوصاية أو يسكتوا عن رفضها ويقعدوا عن السعي لدرء نائبتها.

ثم قلت له سراً إنني أعلم أنك تخاف الفرنسيس ان يضروك إذا اتحدت معنا وانتظمت في مؤتمرنا ويمكنك ان تتلافى هذا الضرر بأن تمنّ عليه بأنك حاولت ان تخدمهم بالتوسط بيننا وبينهم وجعل دخول المؤتمر وسيلة الى ذلك، ويمكنك ان تذكر ذلك لمن تلقاه منهم في باريس حتى الرئيس موسيو بريان فلعلهم يأذنون لك بالعودة الى هنا ومساعدتنا على هذه الخدمة الوطنية وأنت بمأمن من الضر والاعتداء على أموالك في الشام.

قال: وفي الباطن أكون مع من؟ قلت أنت بالطبع منا ومعنا في خدمة وطنك وكل يسلك طريقاً والغاية واحدة. فأعجبه هذا الرأي في ما ظهر لي من وجهه وقوله إذ قال إنه يجتهد أن يعود من باريس إذا تمكن من إتمام عمله قبل انفضاض المؤتمر.

كان هذا الحديث في يوم السبت (٢٠ أغسطس) وفي اليوم التالي زارنا قبل ذهابه الى المحطة للسفر الى باريس فأعدت الحديث معه في وجوب مساعدة المؤتمر بنفسه وماله، وأتيته بدلائل وآيات، دينيات وعقليات وأدبيات، حتى حلف لي بالطلاق بأنه سيجتهد في العودة الينا. وما أدري أيجتهد في إقناع الحكومة الفرنسية وارضائها بذلك أم في غير

(١) المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٤٤١ ـ ٤٥٩.

ذلك. وأما المساعدة المالية فقال أنه مستعد لها ولكن مثل هذا العمل يجب أن يشترك فيه جميع أغنياء البلاد ومن هو أكبر منهم كالملك حسين. قلت نعم ان ذلك واجب على الجميع وعلى الملك حسين وأولاده الذين كانوا من أسباب وقوع البلاء في هذه البلاد ولكن تقصير بعض الناس في ما يجب عليهم لا يكون عذراً لغيرهم، وعلى كل أحد ان يطالب نفسه بالواجب قبل أن ينظر الى غيره... وما أشبه هذا الكلام، الذي قابله بالتسليم والاستحسان، ثم سافر الى باريس ومنها الى الآستانة لأجل تعاهد أملاكه فيها ومطالبة الدولة بصرف ما يستحقه من المعاش (التقاعد) على ما هي عليه من الفقر وما منيت به من المصائب والنوائب ومنها فقد البلاد العربية كلها، على إن معظم ثروته العظيمة من خيرها وفضلها.

زيارة رئيس لجنة الوصايات في جمعية الامم

وفي أصيل يوم الأربعاء (٢٤ أغسطس) زرنا رئيس لجنة الوصايات لجمعية الأمم (موسيو رابار) وهو من علماء سويسرة وأغنيائها مستقل الفكر مهذب الأخلاق وكان توفيق أفندي اليازجي قد أخذ لنا موعداً منه بهذه الزيارة لأنه عرفه من قبل، وذهب معنا رفيقانا وهبي أفندي العيسي ويوسف أفندي سالم وأما الامير ميشيل فكان قد خرج من جنيف لزيارة شقيقته في مصطافها. وبعد التعارف دار الحديث بيني وبينه في مسألتنا وكان المترجم بيننا زميلنا وهبي أفندي العيسي وشاركه في ذلك الرفيقان الآخران.

بدأت الكلام ببيان نظرية الرئيس ويلسون في مشروع جمعية الأمم التي اقترحها ومكيدة الدولتين الاستعماريتين وخداعهما له بإدخال مسألة الوصاية (الانتداب) في عهدها ليكون منفذاً لهما الى ما تعاهدتا عليه من استعمار البلاد واقتسامها بينهما وان هذا مناف للغرض الأول منها وهو التسليم الدائم بحرية الأقوام. ثم انتقلت من ذلك الى سعي هاتين الدولتين الى ابطال ثقة الشعوب المعتدى عليها بجمعية الامم واقناعهم بأنها آلة في أيدي رجالهما؛ واننا مع ذلك لم نيأس من فائدتها ونفعها ولا نجزم بأنه يسهل عليهما تسخير هذا العدد العظيم من مندوبي الدول الكثيرة لتحقيق مطامع دولتين لولا مطامعهما لما وقعت أكثر الحروب في اوربة بجعلهم استعبادهما للأقوام قانونياً مؤيداً من العالم المدني كله.

ثم انتقلت من هذه المقدمات الى ان آمالنا في جمعية الأمم هي التي حملتنا على المجيء الى جنيف لأجل بيان حقيقة الحال في سورية وفلسطين لها. ثم شرحت له خلاصة تصرف الدولتين في سورية وفلسطين وانه من قبيل تصرف المالك في ملكه على ان وجودهما هنالك بحسب القانون الدولي احتلال مؤقت في بلاد الأعداء لأجل حفظ النظام الى ان يتم الصلح بينهما وبين الدولة صاحبة البلاد (ولا حاجة الى ذكر ما قيل هنا لأنه مما أودع بعد في النداء الذي وضعه المؤتمر وقدم للعصبة).

ومما سألني عنه موسيو رابار في أثناء الحديث: أرأيت إذا خرج الجيش المحتل من بلادكم وترك أمرها اليكم أتقدرون على حفظ الأمن فيها والقيام بشؤون الإدارة؟ قلت نعم

واستدلّ على قولي بالحق الواقع لا بدعاوى تحتمل المناقشة. ذلك بأن الترك قد جلوا عن سورية وتركوها لأهلها قبل وصول الحلفاء اليها ولم يبق فيها أحد من ضباطهم ولا من رجال الادارة والقضاء منهم وقد قام الاهالي السوريون بحفظ الامن وسائر أعمال الحكومة عدة أيام الى ان احتلها الجيش العربي المؤلف من السوريين وغيرهم وكانت جل الاعمال الادارية في أيديهم الى ان شاركهم الجيشان البريطاني والفرنسي في احتلال البلاد. ولم يقع في هذين العهدين خلل ولا تعد على أحد كما صار يقع كثيراً بعد احتلال الحلفاء. وذلك ان الحكومة كانت في عهد الترك بيد الاهالي ولم يكن فيها الا عدد قليل من موظفيهم يوجد فيها من أهلها من هم مثلهم وأرقى منهم كما يوجد في ولاياتهم من موظفينا مثلهم، فقال إن هذا شيء لم نكن نعرفه... وبعد انتهاء الحديث شكرنا له عنايته بسماع حديثنا وحسن لقائه لنا وودّعنا كما ودّعناه ببشاشة الاخلاص، وكنا كلما تلاقينا بعد ذلك يسلم بعضنا على بعض سلام الاصدقاء.

المؤتمر السوري الفلسطيني

لم نكد نلقي عصا التسيار في جنيف حتى بحثنا عن مكان لائق لنعقد فيه المؤتمر الذي دعونا اليه وجئنا هذا البلد لأجله فاهتدينا الى بهو عظيم في دار كبيرة لبلدية المدينة معدّة للاحتفالات والمراقص والمقاصف وغير ذلك من الاجتماعات العامة فطلبناه فأجيب طلبنا، وبادرنا الى عقد الجلسة الاولى في الموعد الذي ضربناه لعقده في الدعوة العامة اليه (٢٧ أغسطس) ولكن لم نلبث ان تلقّينا برقية من تريستة بامضاء (رياض الصلح) ينبىء فيها بأنه سيصل الينا غداً حاملاً وثائق التوكيل من بعض الاحزاب السورية لنفسه ولمندوبين آخرين، وبرقية أخرى من الوفد العربي الفلسطيني المقيم بلندن ينبىء فيها بأن شطر الوفد قد سافر الى جنيف لمشاركتنا في المؤتمر وبقي الشطر الآخر في لندن لمتابعة السعي في المسألة الفلسطينية من الوجهة البريطانية. وكنت قد كتبت الي الامير شكيب ارسلان عقب وصولي الى جنيف كتاباً الى برلين انبئه فيه بوصولنا وأسأله عن موعد مجيئه وكان على علم بالمشروع وبأنه من المختارين لحضوره فجاءني منه كتاب باستعداده للسفر وموافاتنا على جناح الطائر. (وبعد ذلك بأيام جاءت برقية من طعّان بك العماد مندوب حزب الاستقلال العربي في الارجنتين تنبىء بأنه قادم لحضور المؤتمر وكان قد وصل الى إيطالية.

لأجل ذلك جعلنا الجلسة الاولى بالفعل جلسة تحضيرية بحثنا فيها في النظام الاداري التمهيدي للعمل وقررنا انتظار الوفود الجائية والنظر في ما تحمله من أوراق اعتمادها وانتدابها لحضور المؤتمر من قبل أحزابها ثم تأليف المؤتمر من جميع المندوبين المعتمدين وجعل الجلسة الأولى للتعارف فانتخاب الرئيس ونائب الرئيس والكاتب العام (السكرتير) ومساعديه.

ثم لم تلبث الوفود ان حضرت في المواعيد التي أنبأت بها وكان وفد فلسطين مؤلفاً من الحاج توفيق حماد وأمين بك التميمي وشبلي أفندي الجمل ولما أخذنا بأطراف

الأحاديث بيننا علمنا أن وفدهم يرجّح التفاؤل على التشاؤم في قضيتهم، وانه يرجو رجاء قوياً ان تكون فلسطين أسبق البلاد العربية الى نيل الاستقلال، وهذا خلاف ما اعتقدوا نقيضه وقد كثر بعد ذلك البحث فيه.

استطراد في مكانة فلسطين عند الانكليز

ولما صرح لي بعضهم بذلك قلت إنني أتمنى ذلك إلا أنه لا يعقل ان يقع إلا بعد وقوع الإنكليز في هوة العجز فإن الدولة البريطانية الطامعة في البلاد العربية من مصر الى منتهى ساحل خليج فارس تهتم بأرض البلاد المقدسة (فلسطين) ما لا تهتم ببقعة أخرى من البلاد العربية لأسباب دينية وأدبية وتاريخية ومالية وجغرافية وحربية - فإنها مهد المسيحية، وميدان الحروب الصليبية الإسلامية، وحيث قهر ملكها (ريكارد) قلب الأسد في حربه مع السلطان صلاح الدين، وبها استمالت اليها اليهود وتمتعت بالملايين من أموالهم، واجتذبوا بسعيهم الولايات المتحدة الى انقاذها من المانيا وبكيدهم وقعت الثورة الاشتراكية في الاسطول الالماني الذي كان مستعداً لتدمير الأسطول البريطاني، ثم في العمال الذين ألجأوا الحكومة الألمانية الى طلب الصلح، على حين كانت ظافرة في الحرب - وهي مع ذلك متصلة بمصر والبحر الاحمر - فإذا كان لهذه البلاد كل هذه المزايا وترى بريطانية العظمى أنها قد فتحتها فتحاً أخذت به ثأر قلب الاسد والصليب واستخدمت في فتحها من المسلمين المحاربين الجنود - ومن العمال المصريين - في مد السكك الحديدية وأنابيب المياه وسائر الاعمال الحربية أضعاف من استخدمت من البريطانيين المسيحيين كما أنها إستعانت على هذا الفتح بنفوذ شريف مكة وأولاده وأنصارهم من الحجازيين والعراقيين والسوريين، - وإذا كانت جميع الكنائس البريطانية قد احتفلت بهذا الفتح الديني وافتخرت به - وإذا كان وزير بريطانية الأكبر قد صرح في مجلس أمتهم الأعظم بأن هذا الفتح خاتمة الحروب الصليبية - أي لا يرجى أن يكون بعد للمسلمين دولة قوية عزيزة تحارب في هذه البلاد بل ولا في غيرها - أرأيت مع هذا كله تسمح بريطانية العظمى مختارة بأن تكون هذه البلاد مستقلة تابعة لدولة عربية ذات أكثرية إسلامية ساحقة فتترك هذه المزايا راغبة عنها، وتغضب النصرانية في بلادها وسائر أوربة وأمريكة، وتنفر اليهود وهي في أشد الحاجة اليهم في تعزيز ماليتها والثقة بها؟؟ ولماذا تفعل هذا؟ ألأجل فضيلة الوفاء للعرب؟ أم لأجل ما يعتمد عليه ملك الحجاز من «الحسيات النجيبة البريطانية»؟؟.

الانكليز أقدر من خلق الله من الإنس والجن على الخداع فكيف وقد عززهم فيه خداع اليهود وكيدهم، ومن العجيب ان قد فضحت عواقب هذه الحرب كيدهم وخداعهم ومع هذا نرى أجدر الناس بالحذر من هذا الخداع لا يزال الكثير منهم مخدوعين.

ومن أساليب الخداع الانكليزي الخفية ما سبق موقظ الشرق وحكيمه السيد جمال الدين الى بيانه منذ عشرات من السنين: إذ قال لا يظلم الانكليز قوماً إلا ويقوم أفراد منهم يرفعون أصواتهم في الصحف وعلى مقاعد مجلسي النواب والأعيان باستنكار ذلك الظلم وعذل حكومتهم عليه ومطالبتهم إياها برفعه، لأجل ان تظل آمال المظلوم معلقة بهم،

لا يطلب العدل والرحمة إلا من قبلهم، ومن آفات هذه الخدعة انها تصرف المظلومين عن مقاومة الظلم بما آتاهم الله من القوى الذاتية وبسائر الوسائل التي تهديهم اليها سنن الله في الاجتماع البشري وتدعهم متكلين على خصمهم متوهمين انهم يجدون من قومه عوناً لهم عليه، ويحذرون ان يغضبوا ذلك العون الموهوم لئلا يخسروا عطفه، وكل مقاومة لحكومته لا بد ان تغضبه.

هذا ما كان من رأي السيد الحكيم في انتصار بعض رجال الانكليز لمن تظلمهم حكومتهم، وهو واقع ولكنه غير مطرد، وغرضه منه التحذير من الانخداع، ولم يبق ذو بصيرة ينخدع بعهودهم ووعودهم الرسمية بعد ان أظهرت عاقبة هذه الحرب من نكثهم وإخلافهم فيها، فكيف تنخدع بقول بعض الافراد وكتاب الصحف غير المسؤولين وان قالوا ما قالوا لمخالفتهم للحكومة في الرأي، أو انتصاراً لبعض الأحزاب على بعض؟ ولكن من الناس من (لا) تنفتح عين بصيرته إلا بعد طول التجربة بنفسه. وقد أطلنا في هذا الاستطراد لشدة الحاجة اليه في هذا الوقت، ولا نحسب إلا أن الوفد العربي الفلسطيني قد انتهى أو ينتهي في جهاده في لندن الى معرفة كنه هذا الأمر، وأنه أفاد في اطلاع كثيرمن خواص الشعب البريطاني على خطأ حكومته في المسألة الصهيونية.

اختلاف نظرتي الاتحاد السوري والوفد الفلسطيني

دارت المذاكرة بيننا وبين اعضاء الوفد الفلسطيني على مقاصد المؤتمر وغايته وإسمه فذكرناهم بأن دعوة حزب الاتحاد السوري الى عقد المؤتمر مبنية على قواعده الأساسية في استقلال البلاد السورية وحريتها وشكل حكومتها وأن لامندوحة عن تسميته بالمؤتمر السوري الأول، فقالوا ان الدول قد فصلت بعض مناطق البلاد من بعض ووضعت لكل منها اسماً فإذا أطلق اسم سورية الآن لا تدخل فلسطين في مسماه فنقترح ان يسمى المؤتمر السوري الفلسطيني بل نشترط ذلك، فقبلنا بعد جدال طويل وقالوا ان الوحدة السورية قد تتعارض مع الوحدة العربية التي يطلبها أهل فلسطين، وإذا استقلت فلسطين دون سورية أو قبلها كما ينتظر - فإن ارتباطها بالوحدة السورية يكون ارتباطاً ببلاد غير مستقلة فينا في استقلالها، فلا بد إذاً من طلب الوحدة العربية أو طلب الاستقلال لكل من سورية وفلسطين على حدتها، فعز هذا الطلب على الأمير ميشيل لطف الله لأنه رآه هادماً لأساس حزب الاتحاد السوري فلم يقبله، فوقع الخلاف، وطال فيه الجدال، وكان الامير شكيب في مقام التوفيق والجمع بين الرأيين، وذكر في هذا المقام مسألة لبنان، وان من أهله من سبقوا الفلسطينيين في رفض الاتحاد مع سائر سورية، وكنت أنا حريصاً على إرضاء كل من السوريين واللبنانيين وجعل المقصد الأهم جمع كلمة الجميع على الحرية والاستقلال التام الناجز وتفويض أمر الوحدة الى الرأي العام في الشعب بعد ان يصير أمره بيده، وأرى ان هذا ليس ناقضاً لأساس حزب الاتحاد السوري لأن له أن يظل يسعى الى إقناع الشعب برأيه في وجوب الوحدة والشعب هو صاحب الرأي الأخير في شكل حكومته ووحدة البلاد وعدمها، وأن مطالب الأحزاب والمؤتمرات لا تقيده بما لا يقتنع به.

وبعد طول البحث والمناقشة اتفقنا على الأساس الذي بنينا عليه أركان مطالب المؤتمر التي وضعناها بعد ذلك في النداء الذي وجهناه الى جمعية الأمم ومنها رفض الانتداب على كل من سورية وفلسطين ولبنان وما يلزمه من اخراج الجيوش المحتلة لها منها. وكنا نخشى ان يعارض الفلسطينيون في هذا، لا لأنهم يقبلون الانتداب ويرضونه - حاشاهم الله من ذلك بصدق وطنيتهم وإخلاص عقيدتهم - وإنما قيل ان من سياسة وفدهم في أوربة السكوت عن الانتداب والحملة على وعد بلفور بالوطن القومي لليهود عسى ان يستميلوا اليهم كثيراً من البريطانيين الذين يكرهون ان يكون لليهود نفوذ ممتاز في مهد النصرانية - ولكن موضع هذه السياسة لندن لا جنيف وقد رضي اعضاء الوفد كلهم برفض الانتداب ولله الحمد.

أقول «كلهم» تسجيلاً لهذه الفضيلة لكل فرد منهم إذ من المعلوم المعهود ان ما تقرره الجماعات بالبحث والتشاور لا يكون كله بإجماع منهم بل بعضه يكون باتفاق الرأي وبعضه بترجيح رأي الأكثرين على الأقلين وإن كان ينسب الى الجميع لأنهم بتضامنهم يعدّون كالشخص الواحد، وههنا أقول إن المطالب المدونة في نداء المؤتمر الآتي كلها متفق عليها بين الاحزاب وأفرادها وإنما كان الخلاف الذي هو ضروري في أمثال هذه المجامع محصوراً في بعض المسائل الجزئية، او في العبارة التي تؤدّى بها في لغتنا العربية او تنقل بها الى اللغة الفرنسية. مثال ذلك في الجزئيات القول بأن لبنان كان مستقلاً منذ أربعة عشر قرناً وهو قول أخذ من مذكرة زميلنا سليمان بك كنعان عضو مجلس إدارة لبنان والموكل من قبل ألوف من أهله، وأنا أول منكر لهذه الدعوى على التاريخ ولكن الاكثرين رأوا العضو اللبناني الذي نعدّه ركناً من الاركان متمسكاً بهذه الدعوى فوافقوه عليها لأنها لا تنقض شيئاً من مقاصدنا.

الجلسة الأولى للمؤتمر وانتخاب الرئيس

بعد الاتفاق على أساس مقاصد المؤتمر واسمه عقدنا الجلسة الرسمية الاولى (في ٢٧ أغسطس) وكان في أول ما وضع من برنامجها في الجلسة التمهيدية او التحضيرية انتخاب الرئيس ونائبين له الخ. وكنا قد تحدثنا قبل الجلسة في مسألة الرئاسة واتفق المسلمون منا على انتخاب الامير ميشيل لطف الله لعدة أسباب (أهمها) إثبات التكافل والتضامن الوطني بيننا في المسائل الوطنية العامة بحيث يتفق على ذلك جماعة منهم يكبرونه في السن منهم الامير العريق في مجد الإمارة التليد، المزين بمجد البراعة في السياسة والادب الطريف - كالأمير شكيب ارسلان - والوجيه الزعيم في وطنه بصفاته الذاتية ومجد أسرته - كالحاج توفيق بك حماد - وكذلك إحسان بك الجابري ومكانته في اسرته من وجهاء حلب وفي شخصه ومناصبه معروفة - والعالم الديني ذو النسب النبوي كصاحب المنار.

ومنها اننا كلنا نعترف بأن الامير ميشيل ليس له من المنافع في استقلال سورية مثل ما لنا ولا مثالنا ممن لهم في البلاد أهل وأملاك وأوقاف - ولا عليه من المضار في عدم

استقلالها مثل الذي علينا وعلى أمثالنا ـ فكان فضله في اجهاد النفس وبذل الوقت والمال في سبيل استقلالها أكبر من فضل غيره من الساعين الى ذلك، وناهيك بأكثر اغنياء البلاد الاشحة البخلاء الانذال، الذين لا يعملون ولا يساعدون العاملين ببذل قليل من المال.

هذا الاتفاق على الرئاسة منعنا ان نجعل الانتخاب سرياً بورق يكتب ولما صرّح بعضنا به وافق الآخرون بالاجماع ثم اقترح بعضهم ان يكون كل من صاحب المنار والحاج توفيق بك حماد نائبي رئيس والأمير شكيب الكاتب العام (السكرتير) فوافق الاعضاء على ذلك بالإجماع واختير توفيق أفندي اليازجي مساعداً، للسكرتير؛ ثم وقف الرئيس فشكر للاعضاء ثقتهم به وانتخابهم إياه بعبارة يزينها ما عهد فيه من الادب والتواضع، ثم انعقدت الجلسة وانتخبت اللجان للعمل، وتوالت بعدها الجلسات.

ولما كان المؤتمر قد قرر أن تدوّن أعماله في كتاب خاص يطبع نكتفي بهذه الخلاصة من خبر تكوينه ونقفي عليها بنشر النداء الذي وضعه في عدة جلسات ووزعه على رئيس جمعية الأمم وأعضائها وأرسله الى وزارات دولها والدول غير الممثلة فيها وإلى جرائد سويسرة وأشهر جرائد العالم ـ ليحفظ أثراً تاريخياً في مجلتنا وهذا نصه:

(نص النداء الذي قدمه المؤتمر الى المجمع الثاني العام لجمعية الأمم)

جنيف في ٢١ سبتمبر ١٩٢١.

الى سعادة هـ.ا. فان كارنبك رئيس المجمع الثاني العام لجمعية الأمم.

وإلى حضرات مندوبي الدول في هذا المجمع.

يا حضرة الرئيس ويا حضرات الاعضاء.

إننا نحن الموقعين أدناه ممثلي الاحزاب والفرق السياسية في سورية ولبنان ومعتمدي أهالي فلسطين من المسلمين والمسيحيين الناطقين بلسان أهالي هذه البلاد نتشرف بأن نلجأ الى سلطة جمعيتكم العليا باسم المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد الآن في جنيف في بسط الحالة السيئة التي آلت اليهما أمتنا واستمداد معونتكم لها بجعل الحقوق محترمة ومعترفاً بها.

نقرع باب جمعيتكم واثقين بالمبادىء التي كانت أساساً لبناء جمعية الامم، والتي أنعشت في جميع الاقطار آمالاً مشروعة، ألا وهي احترام القوميات وحق الأمم في تقرير مصيرها، وإقامة العدل ومراعاة الشرف في العلاقات الدولية، ونبذ سياسة الفتح، والدقة في رعاية العهود في الصلات المتبادلة بين الشعوب المنظمة.

نلجأ الى جمعيتكم عالمين انها بموجب الخصائص التي خوّلها إياها عهد جمعية الامم الموقع عليه في فرسايل في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ مرجع لقضيتنا هذه ولها فيها حق النظر والحكم وفقاً لروح هذا العهد.

ان سورية وفلسطين ولبنان تسألكم بادىء بدء الالتفات اليها والاعتراف بحقها في

طلب الاستقلال التام المطلق بمقتضى القواعد العامة لحقوق الشعوب والعهود الخاصة المقطوعة لها في السنوات الاخيرة.

ان الحرب الطويلة التي وضعت أوزارها وأنجبت جمعية الامم كانت صراعاً بين فكرتين ـ فكرة القوة والغصب وفكرة الحق والحرية ـ فالأمم التي كانت تقاتل تحت لواء الحق وضعت مبدأ استقلال الشعوب في طليعة مقاصدها من الحرب وكان كبراء رجال الأمم المتحالفة يعلنون واحداً بعد آخر على منابر مجالسهم النيابية ان الحرب لن تؤدي الى فتوحات جديدة او الى ضم أقطار جديدة، وإنما يجب ان تسفر عن ظفر الحضارة واستقلال الشعوب.

ولقد سمع الشعب السوري هذه التصريحات فتقبّلها بثقة تامة، وخاصة ما يضمن منها للشعوب الخاضعة للسلطة التركية السلامة التامة لحياتها وحرية الارتقاء بدون عائق (مواد الرئيس ولسون الاربع عشرة).

فالشعب السوري المؤيد بهذه التصريحات يمتّ الى الأمم بتاريخ ومقوّمات تؤهله ان يطالب بالاستفادة من تلك التصريحات وبالاعتراف بسيادته وفقاً للمبادىء التي كان لها الفوز.

وإذا كان تعريف الأمة ـ هو كما قرر كثير من كبار المشترعين ـ مجموع أفراد من عنصر واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة أولي إرث تاريخي شامل عام وشعور بإرادة تأليف جماعة سياسية واحدة فإن سورية إذاً أمّة وإذا كان تحديد القومية هو الشعور بأخوّة متينة واشجة العروق وحب متوارد لمسقط الرأس فالأمّة السورية هي ذات شعور قومي.

إن وحدة السلالة واللغة مؤكدتان بكون السحنة واحدة في جميع البلاد ويكون اللسان العربي لسان الجميع. والغرباء الذين في البلاد لا يتجاوزن واحداً في المائة، كما ان الحضارة العربية هي السائدة في البلاد وهي أحد فروع شجرة المدنية الذي كان مع الفرعين اليوناني والروماني أصل الهيئة الاجتماعية الحاضرة وسبب ازدهارها. ثم انها لم تقف في سيرها: فالتعليم العربي منتشر في جميع البلاد بعشرات من المدارس العليا ومئات من المدارس الثانوية وألوف من المدارس الابتدائية، وهناك مدرستان جامعتان و٦٢٠ مدرسة مختلفة الدرجة من مؤسسات الأجانب تضم مجهوداتها الى عمل المدارس الوطنية. وكان نحو من مئة جريدة تصدر في انحاء سورية الى حين انفجار الحرب العامة. ويقدّر عدد القارئين والكاتبين في أكثر المقاطعات بستين في المئة. وأما الطبقة المستنيرة من أدباء وشعراء ومؤلفين وحقوقيين وأطباء ومهندسين فعدد رجالهم عظيم، وكثيرون منهم نالوا شهاداتهم من أوروبا، ولهم في البلاد مركز رفيع. كما أن في البلاد جمعاً غفيراً من الضباط المتخرجين من المدارس الحربية في الآستانة وفي أوروبة قد أثبتوا كفاءتهم في تنظيم مصالح الأمن العام. ولما جلا الترك فجأة عن البلاد قام أهالي سورية بمهمة تنظيم بلادهم المحررة وتشكلت في الحال لجان إدارية في كل ناحية فوطدت أركان النظام والأمن العام الى ان احتلت جنود الحلفاء البلاد. ولما ألقيت بعد ذلك مقاليد الادارة في المنطقة

الداخلية الى حكومة وطنية كان الأمن والنظام فيها أثبت وأتم منه في المناطق المحتلة كما شهد بذلك الأجانب الذين زاروا البلاد في تلك الاثناء.

ان تراث مجد السوريين المشترك لغني عن الاشارة اليه. أيّ مدنية كانت أبهى وأبهر من حضارة عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي وخلفائهم. ومن ذا الذي لا يتذكر تألق أنوارها على سواحل بحر الروم ولا يشهد تأثيرها العالق بناصية الحمراء وبقباب كنائس بلرم (صقلية) الى اليوم. ولا يمكن إنكار ما في شعبنا من الكفاية السياسية والادراك السياسي حتى أن حياتنا الاقليمية وتقاليدنا المحلية ظلت باقية لنا في عهد الحكم التركي نفسه.

وفي سنة ١٩٠٨ أعلن الانتخاب العام (في السلطنة العثمانية) فتمتع السوريون بجميع حقوقه فكان عدد نواب العرب في الندوة العثمانية يتجاوز ثلث أعضائها وكان لهم دور مهم في جلساتها وفي لجانها. وكانت سورية قبل الحرب تقوم بنفقات ادارتها بل كانت الضرائب التي تدفعها تزيد عنها فتفيض على ميزانية السلطنة العامة.

إن شعور سورية القومي لم يزل ينمو منذ أوائل هذا العصر، وكانت الدعوة اليه تبث بنشاط من قِبل الصحف والجميعات الوطنية، وقد جاد فريق كبير من كبراء البلاد بأرواحهم على مشانق الترك تكفيراً عن جرم التفكر في استقلال وطنهم.

وان القومية السورية متجلية في ما وراء الحدود والبحار أيضاً فهناك جاليات سورية عديدة منتشرة في جميع القارات ولا سيما في العالم الجديد ولها صحفها وجمعياتها وأنديتها.

وعند نشوب الحرب أعلن الملك حسين الاول استقلال العرب بالاتفاق مع معظم الجمعيات السياسية في سورية، ومنذ سنة ١٩١٦ قامت القوات العربية بمساعدة الانكليز على هدم السلطنة التركية.

وكان المقاتلة من العرب واثقين بأنهم يسعون لاستقلالهم لأن الحلفاء كانوا يعلنون انهم يكافحون دفاعاً عن حقوق الشعوب ولم تكن آمال هؤلاء المقاتلة مبنية على تصريحات رجال السياسة فقط بل على الوعود الصريحة التي قطعها للملك حسين السر هنري مكماهون العميد البريطاني في مصر باسم انكلترة إحدى دول الحلفاء سنة ١٩١٥ وقد ضمنت هذه الوعود الاعتراف باستقلال بلادنا. فكل تلك الوعود والدماء التي أهرقت في سبيل الغاية المشتركة كانت تعزز الآمال بإنشاء دولة سورية قائمة على النظام والحرية والسلام.

ولكن لم يتم لسوء الحظ شيء مما كنا نؤمله حتى ان لبنان الذي كان يتمتع باستقلال ذاتي تام تضمنه الدول العظام قد سلب منه استقلاله. فطفق الشعب السوري ينظر الى ماضيه والخيبة ملء فؤاده.

ولم تمر شهور على اليوم الذي ضمن فيه السر هنري مكماهون للعرب استقلالهم السياسي حتى عقد اتفاق سري بين مسيو جورج بيكو المندوب الفرنسي والسر مارك سايكس ممثل الحكومة البريطانية ظل أصحابه ينكرونه على ما كان من تثبيته في ٩ مايو سنة ١٩١٦برسائل تبودلت بين مسيو بول كامبون والسير ادوارد غراي. هذا الاتفاق قضى

على وحدة سورية وشطرها الى منطقتي نفوذ احداهما فرنسية والأخرى انكليزية، وهو يسلب الحكومة العربية حريتها الاقتصادية بما أعطى للدولتين المتعاقدتين من حق الأولوية في المشروعات والقروض والسكك الحديدية. وشرّع لأهم مناطق الساحل إدارات فرنسية وانكليزية تتولى الأمور مباشرة او بشكل حماية حقيقية على الاقل.

وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ صدر تصريح من الحكومة البريطانية بوعد اليهود في فلسطين بامتيازات لا تتفق مع حقوق أصحاب البلاد.

ثم إنه بعد التوقيع على معاهدة فرسايل وعهد جمعية الأمم في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ وقع التواطؤ بين المستر لويد جورج والمسيو كليمانصو على ما يؤيد اتفاق سايكس - بيكو، وعلى قسمة سورية نهائياً الى مناطق غريب بعضها عن بعض.

وان الأمور التي جرت على أثر هذا الاتفاق والتي سنأتي على ذكرها في ما بعد قد حققت وياللأسف كل المخاوف التي أحدثها هذا الاتفاق.

على اننا نريد أن نوجه نظركم قبل كل شيء الى كون سورية التي هي أمّة حقيقية وقد وعدت بالاستقلال تستحق أن تطالبكم بالاعتراف بسلطانها القومي واستقلالها.

إن المادة الثامنة والعشرين من عهد جمعية الأمم تنص على «أن بعض الجماعات التي كانت من السلطنة العثمانية في ما سبق قد بلغت درجة من الارتقاء يمكن ان يعترف معها موقتاً بكونها أمة مستقلة على شرط ان تسترشد إدارتها بنصائح ومساعدة تستمدها من دولة منتدبة الى ان تصير أهلاً لأن تسير وحدها».

فهذا النص قد وضع بعض الجماعات تحت الانتداب وأما الجماعات الأخرى - كالحجاز وأرمينية مثلاً - فقد اعتبرت بالغة درجة كافية من الارتقاء تغنيها عن دولة منتدبة.

إلا أن سورية أيها السادة تقيم لكم الدليل على رشدها السياسي وحقها في السيادة تجنباً للانتداب كأرمينية والحجاز، فهي بما أهرقته من دماء خيرة ابنائها وبمظاهر مدنيتها الموروثة خلفاً عن سلف وبارتقاء تنظيماتها السياسية المحلية والايالية وبانتشار تجارتها وصناعتها - قد أثبتت أنها أمّة رشيدة قد بلغت أشدها وأهليتها للحرية فنطلب منكم ان تعلنوا في جمعيتكم بمقتضى الحق الذي لا يمكن ان يماريكم فيه أحد تحرير أمّة حقيقية من انتداب لا فائدة منه.

.٢.

نوجه اليكم هذه العريضة بأصدق عزيمة وأرسخ إيمان بأنكم سترون من الوقائع التي نبسطها لكم ما يجعلكم تعرفون الى أي حد قضى الانتداب الذي ينفّذون حكمه فينا على استقلالنا وكيف أصبح يهوي بنا الى درك مستعمرة من مستعمرات المنتدبين علينا.

جاء في الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين التي تعيّن حدود الانتداب المختص بالجماعات العثمانية ما يأتي:

(١) إن هذه الجماعات قد بلغت درجة من الارتقاء يصح معها الاعتراف بكونها أمّة مستقلة.

(٢) ان مهمة المنتدب قاصرة على المساعدة والنصح.

(٣) ان رغائب الجماعات يجب أن توضع أولاً موضع الاعتبار عند اختيار الدولة المنتدبة.

وسترون كما نرى ان هذه القيود المعيّنة في الانتداب لم يحترم شيء منها وان استقلالنا ليس سوى لغو من القول.

لقد قسمت بلادنا الى مناطق كما ذكر آنفاً عملاً بمعاهدة سايكس - بيكو المؤيدة باتفاق لويد جورج وكليمانصو في سنة ١٩١٩ فأخذ الانكليز فلسطين والساحل الفلسطيني وأخذ الفرنسيس ساحل سورية الشمالية واحتفظ الأمير فيصل بالمنطقة الداخلية - فأسفرت هذه الوقائع عن إحراج صدور الأهلين والتأم في دمشق مؤتمر سوري عام في شكل مجلس مؤسس يتألف من مندوبين انتخبوا من المناطق الثلاث - وقد عقد هذا المؤتمر برغبة الرأي العام الشديدة جلسة عامة وأعلن بالاتفاق مع الزعماء السياسيين والرؤساء الروحانيين من جميع الملل والنحل في ٨ مارس سنة ١٩٢٠ استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية أي مع فلسطين ولبنان ونادى بالأمير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد وانصرف الى سن القوانين وتنظيم الحكومة الوطنية التي كان لديها ممثلون للحكومات الأجنبية. على أن هذه السيادة على المنطقة الداخلية ما لبثت ان انتزعت في صيف سنة ١٩٢٠ كما تعلمون.

بعث الجنرال غورو بإنذار نهائي الى الملك فيصل في ١٤ يوليه سنة ١٩٢٠ طلب منه فيه حل جيشه وقبول سلطته بلا قيد ولا شرط. فلرغبة الملك في اجتناب سفك الدماء قبل شروط الإنذار على شدة المعارضة من المؤتمر والشعب ولكن الجنرال غورو انتحل لنفسه حجة تافهة للزحف بجيوشه على دمشق واحتلالها ففعل ولم يلبث ان عقد محاكم عسكرية حكمت حكماً غيابياً بالإعدام على ستة وثلاثين شخصاً من الوطنيين بدعوى التواطؤ مع العدو، وفرض على البلد غرامة حربية تدفع ذهباً وطفق يتصرف في البلاد بعد ذلك تصرف الفاتح.

وفي ١٠ يوليه سنة ١٩٢٠ اعتقلت السلطة العسكرية الفرنسية اعضاء مجلس لبنان الاداري المنتخب من الشعب اللبناني ودفعتهم الى مجلس حربي فرنساوي حكم عليهم بالنفي بسبب قرار أصدره ذلك المجلس اللبناني في ٩ يوليه سنة ١٩٢٠ طلب فيه المحافظة على استقلال لبنان وحياده العسكري وضمان الدول له. وعلاوة على ذلك أصدرت السلطة الفرنسية أمرها بإلغاء هذا المجلس فقضت بذلك على نظام التمثيل النيابي في جبل لبنان.

وقد قسم الشعب السوري الآن الى قسمين تحت سلطة سيدين مختلفين تتولاه ادارة عسكرية أشد وطأة من أيّ ادارة في أي بلاد مغلوبة في الحرب وقد زال كل ما كان يتمتع به الأهلون من الحرية في الولايات والالوية في زمن الترك.

مُنع العلم السوري ورفع على الأبنية الرسمية علم وضعته السلطة الفرنسية لكل من الدول التي أحدثتها ونقشت فيه العلم المثلث الألوان. ورفع العلم البريطاني في فلسطين،

واشتدت وطأة القسوة والارهاب عقاباً على أبسط الاحداث، وترون في الملحقات المربوطة بهذا مثالاً من المعاملات الجائرة التي يعامل بها أهالي بلادنا.

يخيل الى الإنسان انه في حلم عندما يسمع الجنرال غورو يصرح بأنه يوطد الوصاية بالدم، وعندما يرى ست قرى و١٧ مزرعة تدمر بسبب اعتداء شخصي (انظر الملحق الاول).

وأما ما كان في الامور التجارية والمالية فخيرات البلاد تستنزف بدون وازع. وثمة جيش من الموظفين يغلب في رجاله انهم أقل كفاية ودراية من سكان البلاد يسومون الأهالي أنواع الخسف (انظر الملحق الثالث) والمندوب السامي كحاكم بأمره بيده أوسع سلطة، والذين أرادوا القدوم الى أوربا من أهل وطننا طلباً للعدل حرموا حرية السفر.

نذكر لكم بمنتهى الحزن هذه الوقائع التي أنتجها إرخاء العنان لإدارة عسكرية مطلقة اليد ونغتنم هذه الفرصة لتوجيه نظر مندوبي الدولتين المحتلتين اليها.

إن لنا من عظيم الثقة بالشعبين الفرنسي والإنكليزي اللذين دافعا عن حرية الشعوب في اليونان وإيطاليا وبلجيكا والبلقان ما لا يجعل لنا سبيلاً الى الظن بأن الرأي العام فيهما لا يعطف علينا نفس ذلك العطف عندما يقف على الحقيقة.

نبسط هذه الوقائع لعصبة الامم فهي تقترف باسمها ولا شك أنكم تأبون أيها المندوبون أن يستعبد شعب بأسره باسم مقاصدكم السامية وباسم أوطانكم وباسم انتدابكم. العهد ناطق بأن مهمة المنتدب قاصرة على المساعدة والمشورة، ولم يكن في التصور ان يدخل في معناه إكراه أمّة مستقلة على الخضوع لمثل نظام المفوضية السامية المطلقة في التصرف بسلطة مماثلة لسلطة حاكم في مستعمرة.

ان أحد المؤلفين المرتابين في عاقبة عملكم قد عرّف الانتداب في كتاب حديث وضعه في حقوق الدول (مارسل موان - سراي - باريز ١٩٢١ صفحة ٧٢) فقال «هو مظهر من أخاديع السياسة الدولية يقصد به التلبيس في الاستيلاء على مستعمرة مشتهاة».

ولكن في نفوسنا من الاحترام لسمو الغاية التي تتوخاها جمعية الأمم ما لا يفسح لنا مجالاً للاعتقاد بأنكم لا تفندون هذا التعريف المعيب الذي طالما تشدق به شر خصوم جمعية الأمم.

ان السلطة التي تستمدونها من المواد ٣ و١١ و٢٢ من عصبة الأمم تخولكم ان تأخذوا قضية بلادنا هذه في أيديكم وتسيروا بها في سبيل الحق.

نتشرف بأن نلجأ الى سلطتكم العليا لنطلب منكم ان تجعلوا الدفاع عن حقوق لبنان واستقلاله تحت حمايتكم فهو مهدد بنظام الوصايات المذكور في المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم ومهدد أيضاً بالأسلوب الجائر الذي تفسر به الدولة المنتدبة نصوص الانتداب.

لقد كان لبنان منذ ١٤ قرناً ذا وحدة سياسية مستقلة متمتعاً بسيادته التامة وكانت الحكومة العثمانية كلما حاولت تحديد حقوقه تبوء بالفشل المبين.

ففي سنة ١٨٤٢ جربت تركيا وضع عمر باشا مندوباً سامياً فاضطر الى الرجوع بعد

قدومه ببضعة أشهر وهو الموظف الوحيد الذي رآه لبنان حتى سنة ١٨٦١.

وتجنباً لانفراد إحدى الدول العظمى في التحكم في لبنان وضع المجتمع الأوربي الدولي سنة ١٨٦١ نظاماً أساسياً له تقرر فيه مبدأ سيادته وحكمه الذاتي وهذا النظام مؤسس على النقط الآتية:

أ ـ الاستقلال الاداري والاقتصادي.

ب ـ الحياد السياسي.

ج ـ ضمان الدول له.

د ـ سيادة تركيا الاسمية.

ثم أن سيادة تركيا زالت بعد الحرب فلم يبق بد من أن تكون للبنان سيادته التامة مؤسسة على المبادىء الثلاثة الاولى المذكورة آنفاً، ولكن لم يكن شيء من هذا القبيل ويالأسف: ان استقلال لبنان قد خرق باحتلال الجنود الفرنسية البلاد احتلالاً عسكرياً وخرق بتحكم الادارة الفرنسية في جميع شؤون البلاد.

وهذان الخرقان من الأعمال القاضية على نظم لبنان الأساسية المحترمة من جميع الدول الى هذا العهد.

. ٣ .

ثم اننا نوجه نظركم الى إعطاء الحكومة البريطانية عهداً لليهود في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ بمنحهم وطناً قومياً في فلسطين وهذا العهد قد تكرر في المادة ٩٥ من معاهدة سيفر المعقودة في ١٠ أغسطس سنة ١٩٢١.

ان هذا العهد مخالف لحقوق الأمم ولا يتفق مع الوعود التي نالها الشعب العربي من السير هنري مكماهون المندوب البريطاني باسم الحلفاء.

كان الشعب السوري مستعداً دائماً لمقابلة الأجانب بحسن الوفادة ولكن لا يجوز اكراه العرب أصحاب البلاد منذ اجيال على اعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين (أنظر الملحق الثالث).

كان اليهود قبل عشرين قرناً قد ملكوا بين غيرهم من الشعوب قسماً من فلسطين فمهما يكن قدر ما نالته الحضارة من اليهود فليس ثمة مشترع ضليع يجرؤ على الادعاء ان تملكاً زال منذ عهد الامبراطور تيطس يخول سلائل أصحابه الأقدمين حقوقاً ضد الوطنيين أصحاب البلاد الشرعيين الآن؟ فإذا فتح الباب لمثل هذه الدعوى فإلى أين المنتهى؟ ألا يجب عندئذ أن يسمح للعرب باسترجاع الاندلس ولليونان باستعادة سيراقوسة المدينة في عهد أرخميدس؟.

. ٤ .

فالمؤتمر السوري الفلسطيني يطلب إذاً منكم أيها الرئيس والأعضاء الكرام ما يأتي:

(١) الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسورية ولبنان ولفلسطين.

(٢) الاعتراف بحق هذه البلاد في أن تتحد معاً بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وأن تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة (فيدراسيون).

(٣) إعلان إلغاء الانتداب حالاً.

(٤) جلاء الجنود الفرنسية والانكليزية عن سورية ولبنان وفلسطين.

(٥) الغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين.

فإذا لم يكن لدى عصبة الأمم الاستنارة الكافية وأرادت أن توقن أن ما بسطناه هو رغائب الشعب الحقيقية فنحن نرجوها ان ترسل الى سورية ولبنان وفلسطين لجنة تحقيق ذات سلطة كافية لتتمكن من اجراء تحقيق نزيه. وأن يعطى أهالي سورية من جمعية الأمم ضماناً بأن يكونوا آمنين من انتقام المحتلّين واضطهادهم إذا أبدوا آراءهم بحرّية، وذلك بأن تأمر بجلاء الجنود التي تضغط على الأهالي. وتفضلوا أيها السادة الرئيس والأعضاء بقبول فائق احترامنا.

الامير ميشيل لطف الله رئيس رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري ومندوبها

السيد رشيد رضا نائب رئيس رئيس المؤتمر السوري العامّ في دمشق. ونائب رئيس الاتحاد السوري ومندوبه.

الحاج توفيق حماد نائب رئيس مبعوث سابق. رئيس الجمعية الاسلامية المسيحية في نابلس (فلسطين) مندوب المؤتمر الفلسطيني الممثل للأهالي المسلمين والمسيحيين.

الامير شكيب ارسلان سكرتير عام مبعوث سورية سابقاً. مندوب حزب الاستقال العربي

سليمان كنعان عضو عضو مجلس لبنان الاداري. سكرتير سابق لسلطان تركية.

احسان الجابري عضو رئيس سابق لبلدية حلب ولتشريفات البلاط السوري. مندوب حزب الاستقلال العربي.

امين التميمي عضو عضو في الوفد العربي الفلسطيني ومندوبه. مستشار رئيس الوزارة في دمشق سابقاً. مفتش ملكيَ في السلطنة العثمانية سابقاً.

وهبي العيسي عضو رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ومندوبها.

شبلي الجمل عضو مندوب الوفد العربي الفلسطيني وسكرتيره وأحد أعضائه.

رياض الصلح عضو مندوب حزب الاستقلال العربي.

نجيب شقير عضو مندوب حزب الاستقلال العربي.

صلاح عزالدين عضو مندوب الجمعية السورية الوطنية في بوسطن.

طعان العماد عضو مندوب الحزب الوطني العربي في الارجنتين.

جورج يوسف سالم عضو مندوب حزب تحرير سورية في نيويورك.

توفيق اليازجي عضو مندوب استقلال سورية ووحدتها في سانتياغو (شيلي).

(المنار) صرفنا النظر عن نشر ملحقات هذا النداء في الرحلة وقد طبعت معه على حدة ووزعت مجاناً.

الرحلة الاوربية (*)

(٥)

حديثنا مع اعضاء جمعية الأمم.

كان مما قرره اعضاء المؤتمر السوري الفلسطيني قبل انفضاضه ان يسعى بعض اعضائه الى مقابلة اعضاء جمعية الأمم الذين يرجى ان يعطفوا على قضيتنا إذا عرفوا كنهها، والذين يرجى ان نستفيد من الحديث معهم فائدة تزيدنا بصيرة في أمرنا، فكتب الامير شكيب الى كثير منهم مكتوبات خاصة وطلب فيها تعيين وقت خاص لمقابلة وفد من اعضاء مؤتمرنا ويخبره به ـ من حيث انه هو (السكرتير) للمؤتمر ـ فأجاب كثير منهم الطلب وأبى المندوبان الفرنسيان واستكبرا ان يجيبا كأنهما لا يعترفان بأمر مؤتمر عقد، على ان حكومتهما قد كانت أشد اهتماماً بأمر المؤتمر من زميلتها حكومة انكلترة، فحملت صنائعها في سورية على توقيع عرائض ينكرون فيها ان يكون المؤتمر ممثلاً لهم ومعبّراً عن إرادتهم، فأجابها الى ذلك أيهم أشد نفاقاً من المستخدمين، وقليل من الجبناء الطامعين. وسنفصل أخبارهم في هذا مع غيرها في كتاب المؤتمر، الذي سيكون تاريخاً دقيقاً لهذا العمل. وكذلك مندوب الهند وأمره ليس بيده بل بيد سكرتيره الانكليزي. وإنما مراد انكلترة من وجوده كثرة أنصارها في الجمعية.

وكان ممن أجاب الطلب رئيس مجلس جمعية الأمم وهو مندوب الصين ورئيس الجمعية العامة وهو مندوب هولندة ومن الاعضاء البرنس أرفع الدولة مندوب إيران واللورد روبرت سيسل البريطاني الشهير مندوب حكومة الترانسفال والمستر فيشر مندوب الدولة البريطانية نفسها وكذا مندوبو ايطالية واسبانيا والبرازيل والارجنتين وغيرهم. وكنا نبسط لكل منهم قضيتنا وكان أشدهم عطفاً عليها وتمنياً لمساعدتنا مندوبا إيران والصين لما بيننا وبين شعوبهما من الجامعة الشرقية ويليهما مندوبو البرازيل والأرجنتين فمندوبا اسبانية وهولندة.

كان بسطنا للقضية لدى هؤلاء متشابهاً وكان الامير ميشيل يتكلم معهم باللين

(*) المنار ج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٥٥٣ . ٥٦٠.

والاعتدال ولا سيما مع الاوربيين منهم وكنت أنا والأمير شكيب نتكلم بشدة في رفض الانتداب وسوء الاعتقاد بالدولتين المتصديتين له ووصف سيرتهما، وكان سليمان بك كنعان، يزيد علينا بياناً في قضية لبنان، ومثله توفيق بك حماد وشبلي أفندي الجمل في الشكوى من الوطن القومي لليهود في فلسطين، ولا فائدة في استقصاء ما دار بيننا وبينهم كلهم في ذلك ولا بد من بيان نموذج منه.

مناقشتنا للورد سيسل

قابلنا اللورد روبرت سيسل في عصر يوم الجمعة (٣٠ سبتمبر) ومكثنا معه ساعة وربع ساعة وقد أفاض في الكلام معنا بطلاقة وحرية غريبة وهو جالس على كرسي بين الجالس والمستلقي. كما أجلس أنا في عامة الاوقات الا انني أتحامى هذه الجلسة إذاكنت مع بعض المتكلفين المحافظين على الرسوم فأترك راحتي مراعاة لهم، والظاهر ان الرأي العام في أوربة لا ينتقد مثل هذه العادة ولا يعدّها مخلّة بآداب المجلس، وإلا كان اللورد قليل الاحترام لنا، وكبراء الانكليز شديدو المحافظة على الآداب العامة على كبريائهم واعجابهم بأنفسهم.

بسطنا قضيتنا للورد وبيّنا له رأي أمتنا في الانتداب، وخصصنا بالذكر مسألتي فلسطين ولبنان، فقال: إن البلاد لا تزال بحسب القانون الدولي من بلاد العدوّ المحتلة، صاحبتها الدولة التركية وهي في حالة حرب مع دول الحلفاء لأنها لم تصدق على معاهدة سيفر التي أمضاها مندوبوها فلهذا لم تر جمعية الامم أن لها حقاً في النظر في صكوك الانتداب للبلاد المرموز لها بحرف (أ) المقدمة لها من انكلترة وفرنسة، وقد اقترحت أنا النظر فيها فلم يقبل اقتراحي.

(هذا نص كلامه وقد كانت الجرائد ذكرت ان كلاً من الدولتين وضعت صكاً لانتدابها ونشرت صك الانتداب للعراق ـ وهو سيىء جداً ـ ولم ينشر صك الانتداب لسورية لأنه أسوأ. والظاهر أنهما استرجعتا الصكين ثم استبدلتا غيرهما بهما في هذا العام وقد أقرهما مجلس عصبة الامم وان لم يكن له حق في ذلك بشهادة اللورد).

ثم قال اللورد: ان الغرض من الانتداب ان تكون البلاد المفروض عليها مستقلة في ادارتها وتساعدها الدولة المنتدبة حتى تستعد للاستقلال التام.

قلنا نعم هذا ما نص في عهد جمعية الامم ولكنه خداع كشفته سيرة الدولتين المستوليتين على البلاد، قبل أن يتم لهما أمر الانتداب، ومما ذكر في عهد الجمعية ان لأهل البلاد الحق الأول في اختيار الدولة المنتدبة ونشرت الدولتان بلاغاً رسمياً وعدتا فيه بالعمل برغبة الأهالي ثم أخلفتا الوعد، ولم تعتدّ برأي الأهالي في شيء.

قال نعم ولكن الدولتين احتاطتا لذلك فجعلتا الاتفاق بينهما حائلاً دون انتفاع أهل البلاد بهذا النص، وهو ان لا تقبل فرنسة الانتداب لفلسطين ولا العراق ولا تقبل بريطانية الانتداب لسورية، كما أنهما لا تمكنان دولة أخرى من التصدي لهذا الانتداب.

وقال جواباً عن كلام يتعلق بعدم تمكينهما جمعية الأمم من جعل الانتداب موافقاً

لروح عهدها ونصوصه: ان للجمعية ان تفعل ذلك بأن تطبق الانتداب على مبدإها وروح عهدها فلا تقبل ما يخالف ذلك.

ثم قال ان حكومة العراق الجديدة موافقة لروح جمعية الأمم وان انكلترة تنوي مساعدة هذه الحكومة باخلاص، وان سورية تستحق حكومة مثلها ـ لكنه اعترف بأن مسألة فلسطين مشكلة ودقيقة (أي غير متفقة مع نصوص جمعية الأمم ولا مع روحها) وقال ان انكلترة مضطرة الى الوفاء لليهود بوعد بلفور وإلى ارضاء العرب وحفظ حقوقهم، وهي ستجتهد في اختراع وسيلة لإرضاء الفريقين مع موافقة روح جمعية الامم في الانتداب.

هكذا قال اللورد ولكن صك الانتداب الذي ظهر أخيراً لم يرض إلا اليهود الصهيونيين وحدهم، وقد أغضب العرب وخفر عهود انكلترة لهم، وأخلف الوعود التي منتهم بها، ولم يوافق روح عصبة الأمم ولا نص موادها، فمن نصدق وبقول من نثق؟ ألاّ أننا لم نصدق قول اللورد ولكن كان يصدق مثله ومن دونه كثير من الفلسطينيين، حتى أتاهم اليقين.

ولما صرحنا للورد بأننا لا نقبل هذا الانتداب بحال من الأحوال، ولا نصدق الوعود والأقوال، نصح لنا بأن لا نعرقل مسألة الانتداب بل بأن نقبله ونطالب بجعله موافقاً لروح جمعية الأمم فإنه ضربة لازب (قال) ومعاهدة سيفر وان كانت ستعدل فبلاد العرب لن تعود الى الحكومة التركية. فليس أمامنا من نتكل عليه لإنصافنا من سوء التصرف في الانتداب الا جمعية الامم نفسها، لأنها هي صاحبة الحق في المراقبة على الدول المنتدبة ومحاسبتها على أعمالها.

قال هذا جواباً عما أطال به الأمير ميشيل من سوء التصرف في البلاد باسم الانتداب، فكأن اللورد توهم أنه يمكن ان نقبله إذا حسن التصرف فيه، وقد صرحت أنا والأمير شكيب بأننا لا يمكن ان نقبله كما تقدم، واننا إنما نذكر سوء التصرف فيه لإقامة الحجة من الآن على سوء النية للانتصاف.

وكان ملخص كلامي له: انه ليس في استطاعتنا أن نحجّ الدولتين ويكون لنا الفلج عليها في دائرة قانون هما الواضعتان له والحاكمتان به والمنفذتان له بالقوة، وإنما نشكو الى عصبة الأمم منذ الآن هذا الأمر ونبين لها انه مخالف لمبدإها وغايتها ـ ولا نخاطبه به بصفته البريطانية بل بكونه من كبار اعضاء العصبة الذين تشبعوا بروحها كما نسمع عنه، ونرى أن مثله ينبغي ان يعرف الروح السائدة في الشرق الآن ولا سيما سورية وفلسطين وسائر بلاد العرب، وان الحرب الاخيرة قد علمتهم ان الحياة يجب ان تكون رخيصة في سبيل الحرية، فهم لا يبالون ببذل دمائهم في سبيلها ـ وأنه قد ثبت عندهم أن هذا الانتداب استعمار واستعباد لا مساعدة لأجل استقلالهم، ولو كان مساعدة، لما قاوموه كل هذه المقاومة. وقد أجاب عن أول هذا الكلام ولم يجب عن الجملة الاخيرة بل قام على أثرها.

كلامي مع المندوب البريطاني

وأذكر مما قلته لمستر فيشر المندوب البريطاني في اثناء حديث وفدنا معه: ان أهل الشرق كانوا يثقون بالبريطانيين ما لا يثقون بغيرهم من الغربيين ولا الشرقيين، ويضربون

المثل بصدقهم ووفائهم. فإذا أراد أحد ان يقول قولاً فصلاً صادقاً لا رجوع فيه قال «كلمة انكليزية» وقد انقلب هذا الاعتقاد بعد الهدنة من الحرب العامة الى ضده فلم يعد أحد يثق بقول انكليزي ولا غيره من الأوربيين، بل خسرت أوربة كل ما كان من نفوذها الادبي.

ذلكم بأنكم في اثناء هذه الحرب قد ألقيتم على جميع الأمم والشعوب في الشرق والغرب درساً واحداً كان يتكرر كل يوم مدة أربع سنين، وهو أن الغرض من هذه الحرب بين حلفكم والحلف الجرماني هو نصر سلطان الحق وحرية الأمم والشعوب على سلطان القوة والاعتداء على الضعفاء واخضاعهم بالسلاح العسكري، ووعدتمونا معشر العرب وعوداً خاصة بأننا سنكون بانتصاركم أحراراً مستقلين، وقد امتزجت هذه الوعود بدمائنا وأعصابنا، كما صدقت الشعوب كلها تلك الدروس التي كانت تلقيها عليها برقيات روتر وهافاس كل يوم، وتشرحها وتفصلها جرائدكم وجرائد أحلافكم.

وما كان إلا أن وضعت الحرب أوزارها بخضوع أعدائكم لكم، ونزولهم على شروطكم في الهدنة والصلح، حتى نثلت الكنائن، وظهرت الدفائن، فعلم انكم إنما خشيتم ان تشارككم الدولة الالمانية بقوتها، في استعبادكم للشعوب واستعماركم لبلادها، فأردتم القضاء على قوتها لتنفردوا بذلك. وكان أسوأ الناس خيبة من اتخذتموهم واتخذوكم أصدقاء من مخدوعي الأمة العربية، فإنكم انتزعتم منها خير بلادها وأخصبها ومواطن مدنيتها وهي سورية والعراق فقسمتوها بينكم وبين حليفتكم فرنسة اقتسام الغنائم، وقهرتموها على الخضوع لحكمكم بالدبابات والطيارات والبنادق والمدافع.

واننا نرى انكم انما أسستم امبراطوريتكم العظيمة بالقوة المعنوية والادبية كالدهاء والحكمة واللين، وانكم ستكونون باستبدال القوة العسكرية الوحشية بها من الخاسرين، وإنني قد كتبت في اثبات هذه القضية مذكرة أرسلتها الى وزيركم الأكبر لويد جورج في العام الماضي أثبت فيها انه يمكن لكم ان تربحوا من الشعوب العربية والتركية والفارسية وغيرها من أمم الشرق بالصداقة وحسن المعاملة معها إذا تركتم لها استقلالها، أضعاف ما تتصورن من الربح منها باستعبادها واستذلالها والخداع بالأقوال، كتسمية الاستعمار بالانتداب، لم يبق له رواج عند أحد من الناس.

وقد انسل المندوب البريطاني من المناقشة في هذا الموضوع بأنه الآن عضو في جمعية الأمم لا في الوزارة البريطانية، وان الانتداب مقرر في عهد الجمعية وليس موكولاً الى اعضائها ليقرروه او يتركوه، وانما يطالبون بجعله مطابقاً للمبادىء والأحكام الموضوعة له.

ومما أضحكنا من كلام المندوب الايطالي انني لما غمزت الحلفاء باقتسام بلادنا باسم الانتداب قال: إننا نحن لم نأخذ شيئاً!!.

مندوب الصين

ومما قلته لمندوب الصين - وهو رئيس مجلس العصبة بالانتخابات وياله من رجل عالم عاقل حليم - لا يغرب عن علم سعادتكم ان الدول الغربية الطامعة تعدّ الشرق كلّه مباحاً لها، وترى انه ليس لشعوبه حق في الحرية القومية واستقلال الحكم، إلا من أثبت ذلك

لنفسه بالقوة الحربية القاهرة كاليابان، وما يمنعهم من العدوان على شعب شرقي ضعيف في عقر داره لسلب حريته واستغلال بلاده بيده - وأيديهم من فوقها - إلا التنازع في ما بينهم عليه. وقد بدأوا بعد هذه الحرب الوحشية باقتسام بلاد الشرق الاقصى، فأنتم بدفاعكم عن قضيتنا تدافعون عن أنفسكم:

من حلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته

فاعترف بصحة هذا القول وبوجوب تكافل الشرقيين، وتعاونهم على جعل آسية للآسيويين. وقد عني بنا أكثر من غيره.

مندوب ايران

ومما قلته لمندوب ايران - البرنس أرفع الدولة - ان خصم المسلمين الأكبر في الشرق بل خصم الشرق كله هو الدولة البريطانية، وهي مع المسلمين اليوم على طرفين متقابلين وان كانا يشتركان في انّ كلا منهما أقوى ما كان وأضعف ما كان في كل تاريخ حياته.

فأما الدولة البريطانية فقد خرجت من هذه الحرب وهي سيدة اوربة كلها - دع الشرق - فانها استراحت من خطر الاسطول الالماني الذي كان يهدد سيادتها البحرية بالزوال وأضافت الى مستعمراتها بلاداً واسعة غنية:.. ودكّت صروح الدولة العثمانية وجعلت أختها الدولة الايرانية تحت حمايتها، وأحاطت بجزيرة العرب من أطرافها، بعد ان أعلنت الحماية على مصر واحتلت العراق وفلسطين (البلاد المقدسة) وانفردت بالسلطان في البحر المتوسط، فصارت كل دولة وراءها كالخدم وراء المخدوم، ولكن هذه العظمة والرفعة هي منتهى ما يمكن ان تصل اليه ولا يطيق النوع البشري احتمال عظمة فوق هذه الا ان تنحدر وتتدهور. وقد بدت آيات الانحدار والسقوط، فقد ثارت عليها أرلندة ومصر والعراق ثورات دموية. وثارت فلسطين ثورة سياسية والهند ثورة اجتماعية . ونبت نجم الشقاق بينها وبين جارتها وأقوى حليفاتها الدولة الفرنسية، ورفضت ايران معاهداتها الاستعبادية، وصارت جارتها أفغانستان دولة مستقلة حربية، واستعادت الأمّة التركية قوتها الحربية. ووراء ذلك كله الروسية البلشفية. كل هذه المعضلات قد فاجأتها وهي في هذا الاوج من مجدها. فعجزت عن معالجة أدنى معضلة منها.

وأما المسلمون فقد انتهت هذه الحرب بالقضاء على ما بقي من دولهم المستقلة، واقتسام ما بقي من بلادهم بين الدول الظافرة، فبلغوا الحضيض الأسفل من الذلة والمسكنة. ولما كان الوقوف والسكون محالاً لم يبق الا ان يصعدوا ويرتقوا. وقد ظهرت طلائع الارتقاء بما أشرنا اليه من ثورات شعوبهم ونهوض حكوماتهم. فإذا كانوا قد اعتبروا بما كان من جناياتهم على أنفسهم، وتابوا كما نرجو من ذنوبهم، وتعاونت شعوبهم مع سائر شعوب الشرق على دفع الضيم والعدوان عنهم، فلا ريب في نظر الله اليهم ونصره إياهم. والمسلم لا ييأس من روح الله مهما تكن الخطوب والكوارث التي تساوره. لأن اليأس لا يجتمع مع الايمان بقدرة الله وعنايته وفضله في قلب واحد، وهذه آيات الله قد

ظهرت للمسلمين بتسخير الأمّة الروسية لدولتي الاسلام ـ العثمانية والايرانية ـ تنصرهما. وتشد أزرهما. وتساعدهما على درء الخطر البريطاني عنهما. بعدما كانت هي الخطر الاكبر عليهما؛ الساعية الى ثل عروشهما، وكانت الدولة البريطانية هي التي تقاومها في هذا. لا حباً فيهما. بل خوفاً ان تنازعها سلطانها البحري بالاستيلاء على الآستانة وتزحف على الهند من طريق ايران ـ او كما قال المثل ـ لا حباً في عليّ ولكن بغضاً في معاوية.

ثم نوهنا بنهضة الغازي مصطفى كمال باشا العسكرية والسياسية، ولا سيما عنايته بجمع الكلمة بين الشعوب الاسلامية والشرقية، فقال البرنس: لولا مصطفى كمال باشا لكان كل مسلم في الدنيا ذليلاً الآن.

وبهذه المناسبة أذكر انني قلت لأكثر من تكلمت معهم من اعضاء جمعية الأمم بالاشتراك مع بعض اخواني من وفد المؤتمر او منفرداً ولرئيس الجمعية خاصاً ـ وهو آخر من تكلم معه الوفد ـ ما ملخصه:

بعض كلامي لرئيس جمعية الامم

إن هذه الجمعية التي اقترح الرئيس ويلسون تأليفها من جميع أمم الحضارة لخير جميع البشر لا يليق بشرفهاوشرف اممها وحكوماتها وشرف المبدأ والغاية الموضوعين لعملها ان تكون آلة لدولتين استعماريتين تكفل لهما استعباد من استولتا عليه من قبل الحرب ومن تريدان الاستيلاء عليهم بعدها بإسم الانتداب منها، ولا سيما بلادنا العربية التي هي قلب الارض ومهد الأديان الكبرى في العالم وموضوع التنازع في النفوذ بين الدول الكبرى فإن هاتين الدولتين قد قلبتا الموضوع فحولتا الغاية المقصودة من الجمعية ضدها. وقد عز عليها ان تحتمل تبعة الاستيلاء على البلاد المقدسة ومهد الأديان السماوية الكبرى. فجعلت تبعته على عاتق هذه الجمعية وكلفتاها ان تكفل لهما هذه الغنيمة وما قبلها من غنائم الاستعمار الذي كان التنازع عليه علة هذه الحرب المخربة، ويخشى ان يفضي الى حرب شر منها هولاً وشر مآلا ـ ولا يصح منها ان تسفه نفسها وتحقرها بأن تعتذر عن هذه الجريمة بأنها متيدة بقانون وضعه لها هؤلاء الطامعون، فإن قانونها يجب ان يكون من وضعها، وأن يقرر بأصوات الاكثرين من اعضاء جمعيتها العامة، فإمّا ان تقبل الدول الطامعة ذلك وإما أن يفتضح رياؤها، وتلقى عليها وحدها تبعة ما ستجنيه على البشر مطامعها.

إذا كان البلقان هو مسعر نيران في الفتن والحرب في الغرب. فإن سورية وفلسطين وسائر بلاد العرب ستكون مسعر نيران الفتن والحرب في الغرب والشرق جميعاً. وإذا كانت انكلترة وفرنسة قد فقدتا في عاقبة هذه الحرب كل ما كان لهما من النفوذ الأدبي في المشرق، فستكون جمعية الأمم هي القاضية على نفوذ أوربة الادبي في العالم كله إذا رضيت ان تكون آلة لهما في ما ذكرنا. وإذا أصبحت أوربة لا تبالي بالنفوذ الادبي لاستحواذ الافكار المادية عليها ـ كما قال فيلسوفها الاكبر هربرت سبنسر ـ فلتعلم ان النفوذ المادي سيتبع النفوذ الادبي. فإن الشرق قد استيقظ وعرف نفسه. ولن يرضى بعد اليوم ان تكون شعوبه عبيداً أذلاء للطامعين المستعمرين. ولتعلمن نبأه بعد حين.

الرحلة الأوربية[*]

(٦)

السعي بالتوفيق بين الشرق والغرب

كان مما أقصد اليه في رحلتي هذه أن ألتقي بعض أحرار اوربة المستقلي الرأي فأستفيد من آرائهم وأفيدهم ما أحب أن يعرفوه عن بلاد الشرق عامة وبلادنا العربية خاصة وان أقترح عليهم السعي لإصلاح ذات بين الشرق والغرب بالعدل والإنصاف ومبادلة المنافع وعدول الدول المستعمرة عن مطامعها، وعن اصرارها على استعباد الشعوب الشرقية واغتصاب خيرات بلادها بالقوة العسكرية القاهرة، وأنها تجدد بهذه الحرب من يقظة هذه الشعوب وتعارفها، وتوجهها الى التعاون على دفع عدوان العادين عليها، وما يؤول اليه أمر هذه الاطماع الاستعمارية من الفتن والحروب بما تغرسه في قلوب المظلومين المقهورين من العداء وما تؤثره من الاحقاد، وإن خير الوسائل لتلافي هذه الشرور ان يعنى أحرار اوربة بإقناع رجال الدول المستعمرة او اكراههم بقوة شعوبهم الادبية ومجالسهم النيابية، على قاعدة حرية الشعوب وسيادتها القومية، ومساعدتها على ما تطلبه باختيارها من وسائل تعمير بلادها بالفنون العلمية والآلات الصناعية، في مقابلة الانتفاع منها بما في بلادها من فضل الاغذية ومواد الصناعة الأولية.

آراء أحرار اوربة في تنازع الشرق والغرب

لقيت افراداً من هؤلاء الأحرار في (جنيف) وغيرها وتحدثت معهم في هذا المقصد، فألفيتهم يعتقدون ان هذه الحرب لم تزد رجال السياسة في الدول الكبرى إلا رسوخاً في الطمع المردي والدسائس، وتمادياً في إثارة الفتن والشرور، وضراوة بسفك الدماء، ويعرفون كنه فساد ساسة هذه الدول ويتشاءمون بسوء عاقبتها، ولا يصدقون ما يدعيه هؤلاء الافاكون من الطعن في الشرقيين ولا سيما المسلمين والرغبة في إصلاح حالهم، ووقاية نصارى الشرق من تعصبهم، بل وقاية أوربة نفسها من سوء تأثير حريتهم واستقلالهم.

---

(١) المنارج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٦٣٥. ٦٤٠.

ذكرت في الفصل الذي قبل هذا أن آخر من لقينا من رجال جمعية الأمم في جنيف رئيسها العام، في هذا العام (١٩٢١) وفي هذا الاجتماع، ذكرت بعض حديثنا معه، وأذكر هنا ان سكرتيره الخاص (موسيو شولر) كان قد تعشى وسهر معنا في الليلة التي قابلنا الرئيس في نهارها (ليلة غرة صفر سنة ١٣٤٠) وقد دار السمر بيننا في الموضوع الذي بيّنته آنفاً فأعجبنا انصاف هذا الشاب واطلاعه على كثير من حقائق السياسة الأوربية المتعلقة بالشرق، ولا سيما الترك، ونذكر مجملاً من كلامه.

قال: كنت أصدق ما كانت تذيعه السياسة في أوربة عن توحش الترك وظلمهم للمسيحيين عامة والأرمن خاصة الى ان أتيح لي ان أذهب الى الآستانة واختبر الحال بنفسي، وحينئذ علمت ان اوربة على عدم تمسكها بالدين، هي المتعصبة على المسلمين، والكاذبة بما بثّته من الدعوة بأنهم اعداء المسيحيين، فقد مكثت في الآستانة زمناً طويلاً عاشرت فيه المسلمين ورأيت من حسن اخلاقهم وآدابهم، ما وقفت به على درجة التحامل عليهم، وأعترف بأن الحلفاء جعلوا مسألة الانتداب على البلاد العربية ذريعة الى ما ذكرتموه من طمعهم في استعمارها، واستعباد أهلها، وذكر لنا واقعة مما شاهده بنفسه في الآستانة من معاملة مسلمي الترك للأرمن.

قال: كان في الآستانة لجنة اميركية تسعى لتحرير الأرمن من رق الترك بزعمها، وقد بلغها ان أحد الباشوات قد اغتصب فتاة أرمنية وأكرهها على الإسلام، فسألوه عنها فاعترف بأن عنده بنتاً فقيرة يتيمة آواها ورباها وأحسن معاملتها، وهي تقيم في داره برضاها واختيارها، فطلبوا منه بكل غلظة وفظاظة ان يأتيهم بها ففعل، فسألوه عن قصتها فكان كلامها مصدقاً لما قاله الباشا على أكمل وجه وعلموا منها انها في سعادة وغبطة في عيشتها الراضية عنده وانها غير مكرهة على شيء ولا كارهة لشيء، ولا ممنوعة من الذهاب الى حيث تشاء. فسألوها إكراهه إياها على الإسلام، فقالت إنها لم يدعها أحد الى الإسلام، لا بالإكراه ولا بالاختيار، ولكنها ألفت الإسلام من تلقاء نفسها وصارت تذهب مع سيدات الدار (الهوانم) أحياناً الى المسجد إذا ذهبن اليه فلا يمنعنها إذا ذهبت، ولا يسألنها الذهاب إذا قعدت. فطلبوا منها ان تترك بيت الباشا وتتبعهم لأنه يجب ان تعود الى دينها، وتتزوج برجل من ابناء جنسها، فامتنعت فأكرهوها وأخذوها فوضعوها في مشغل كانوا يضعون فيه أمثالها لأجل تحصيل رزقهن بعملهن، فكانت كارهة لنقلها من نعيم مقيم، الى بؤس اليم وبعد أيام قليلة من تركها للدار جاء المكان الذي كانت فيه سيدة او سيدتان من حرم الباشا ومعهما عبد من الأغوات يحمل بقجاً من الحرير المزركش فيها حلل من الثياب النفيسة وعلب فيها حلي من الذهب والجواهر وقدمها للبنت الأرمنية، وقالت سيدته للبنت ولمن حولها ان هذه الحلي والحلل هي التي كانت هي وبناتها يتبرّعن بها للفتاة في الأعياد والمواسم ويحفظنها لها، لأجل تجهيزها بها عند زواجها، فهي قد صارت ملكها، ولا تطيب انفسهن لحرمانها منها!! فهذا مثال الاسترقاق والظلم الذي كان يسومه باشاوات الترك وحرمهم للأرمنيات!! وأما الأرمن الذين خدعهم الانكليز

والروس بالخروج على دولتهم بالسلاح والكيد لها والتحيز الى أعدائها وقت الحرب فلا يعقل ان يغفر لهم الترك ذلك.

وكان رئيس مؤتمرنا قد دعا مدير جريدة (تريبون دي جنيف) وسكرتيريه الى العشاء مع اعضاء المؤتمر في الفندق فأجابوا الدعوة، وقد رغب الي سكرتير قلم التحرير (موسيو ماتيل) ان أجلس بجنبه على المائدة لأجل الحديث معه فأجبت مرتاحاً ودار بيننا حديث طويل اتممناه في سمرنا بعد العشاء.

بدأت الحديث بأن بينت له خلاصة علاقة الشرق بالغرب، وما يود اقتباسه من علومه وفنونه وما يكره من أفكاره وشؤونه، وما ينكر من مدنيّته المادية، ومطامعه الاستعمارية، التي كان التنازع عليها موقداً لنار الحرب الأخيرة وينتظر ان يوقد نار حرب أخرى شر منها، إلا أن يتلافى عقلاء أوربة الاحرار هذا الخطر بمقاومة هذه السياسة، وارجاع الدول المستعمرة عن التمادي في هذه المطامع، وإقناعها بالاستفادة من بلادنا وإفادتها، مع ترك أمر الحكم فيها لأهلها.

قال: إنّ مدنيّتكم مدنيّة آداب وفضائل فحافظوا عليها فهي خير لكم من مدنيّة الغرب المادية الفاسدة التي هي كما ترى مظاهر رياء وزينة وشهوات.

قال: إننا راضون بآدابنا وفضائلنا ولا نريد ان نستبدل بها غيرها ولا سيما هذه الآداب والتقاليد والعادات المبنية على الأفكار المادية والشهوات النفسية، التي تبيح السكر والزنا والقمار. وسلب الأقوياء لحقوق الضعفاء، وإنما نريد ان نقتبس بعض الفنون والصناعات المساعدة على العمران.

قال: انكم لا تستطيعون ان تكونوا أمماً صناعية مثلنا فإن الشرق غير مستعد لذلك كالغرب، ثم إن هذه الصناعات من مفسدات الاخلاق أيضاً، فإذا أنشىء في الشرق معامل كمعامل أوربة فإنه يدخل فيها النظام المالي الاوربي والاحوال الاجتماعية الغربية المبنية على الطمع والنهب والمزاحمة وسائر المفاسد أي كمسألة العمال، واختلاط النساء والرجال، ومفاسدهما كثيرة معلومة.

قلت ـ وقد ظننت أنه مخادع لأنه سياسي: ان الشرق قد سبق الغرب الى الصناعات العظيمة الباقية آثارها من ألوف السنين في مصر وغيرها.. بل جميع أصناف البشر مستعدون لكل علم وصناعة، والشعوب التي سبقت لها مدنية صناعية يكون استعدادها أقوى بسبب تأثير الوراثة. وهذه أمّة اليابان شرقية وهي من الجنس الأصفر الذي كان يظن أنه أقل استعداداً من الأبيض الذي نحن منه مثلكم وقد ساوت أوربة في كل علم وصناعة.

قال: إنني أعني بأنكم لا تستطيعون ان تكونوا أمماً صناعية لعدم الداعية لا لضعف في الاستعداد الفطري، والداعية هي الحاجة التي تولدها كثرة السكان وعدم كفاية الارض لمعيشتهم ـ والشرقيون الأقدمون الذين ترقوا في الصناعة كالمصريين والاشوريين كانوا ممن ضاقت بهم بلادهم.

قلت - وأنا أريد اختصار البحث الاجتماعي والانتقال الى البحث السياسي -: إننا لا نحاول الآن أن نشيد معامل تغنينا عن كل صناعات أوربة وأمريكة فإن لهذه موانع اقتصادية عندنا تحول دون ربحنا منها، وفوزنا على مصنوعات الغرب التي تزاحمنا فيها، وإنما نحن محتاجون أشد الاحتياج الى بعض الفنون والصناعات الضرورية لترقية زراعتنا واستغلال أرضنا فيتضاعف ريعها، ونحن أعرف بما نحتاجه وما نحن مضطرون اليه منها، وإنما نريد أن نستفيد من أمثالكم الأحرار ما يجب السعي اليه منا ومنكم في علاقة بلادنا ببلادكم فإن حكوماتكم الاستعمارية لا تتركنا أحراراً في شؤون حياتنا حتى نختار لأنفسنا ما نحافظ به على مدنيّتنا ونقتبس ما نشاء من شعوبها وندع ما نشاء، وقد كنا جاهلين بكنه مطامعها وخفايا سياستها فعرفنا، ونائمين فاستيقظنا.

انني مغتبط بك لأنني رأيتك على رأينا في المدنيّة المادية ومفاسدها والظاهر أن أصحاب هذا الرأي في أوربة قليلون، وهو رأي شيخ فلاسفتها هربرت سبنسر فقد حدثنا عنه أستاذنا الامام الحكيم الشيخ محمد عبده المصري الشهير أنه لما زاره في آخر سياحة له في أوربة - (وكان ذلك في مصطافه بمدينة بريتن - في ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣) سأل الفيلسوف الامام: هل زرت انكلترة قبل هذه المرة؟ قال نعم زرتها منذ ١٩ سنة عقب الاحتلال البريطاني لأمور تتعلق بالاحتلال ومالية مصر ومسألة السودان. قال: هل رأيت في هذه المرة تغيراً في الأفكار؟ وما ترى من الفرق بين الانكليز اليوم والانكليز منذ عشرين سنة؟ قال: لم ألاق كثيراً من الناس هذه المرة لأنني حديث عهد ومثل هذا التغير يؤخذ العلم به عنكم قال الفيلسوف: الحق عند أوربة للقوة.

الامام: هكذا يعتقد الشرقيون ومظاهر القوة هي التي حملتهم على تقليد الاوربيين في ما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعه.

الفيلسوف: محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية فذهبت بالفضيلة، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم الى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك. وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض وتنتهي الى حرب طامة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم.

الامام: إني آمل ان يحول دون ذلك همم الفلاسفة واجتهادهم في تقرير مبادىء الحق والعدل ونصر الفضيلة.

الفيلسوف: وأما أنا فليس عندي مثل هذا الأمل فإن هذا التيار المادي لا بد أن يبلغ مده غاية حده.

(موسيو ماتيل) انني أنا أعتقد مثل هذا الاعتقاد ولست كالفيلسوف سبنسر وكثير من العقلاء يعتقدونه وهو لا يحتاج الى كل علم سبنسر وفلسفته، فإن الترف واتّباع الشهوات الذي هو أثر طبيعي للثروة وسعة الحضارة هو الذي أهلك الأمم السابقة وأزال حضارتها في الشرق والغرب كأممكم العربية والمصرية، وأممنا اليونانية والرومانية. وهو الذي لا بد أن يقضي على مدنيّتنا الحاضرة، فإن سنة الاجتماع في كل الأمم واحدة لا تتغير.

قلت: نحن نعتقد هذا من يعرف منا علم الاجتماع ومن لا يعرفه لأنه منصوص في القرآن في آيات منها قوله تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ وفي آيات أخرى ان لله سنناً في الأمم كقوله ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا﴾ وان هذه السنن لا تبديل لها ولا تحويل، ولكن الأمم الاوربية تعلم من هذه السنن ما لم يكن يعلمه من قبلها، حتى المسلمون الذين أرشدهم كتابهم اليها، وشرع بعض حكمائهم في جعلها علماً مدوناً كابن خلدون الفيلسوف العربي المشهور - ولكنهم ظلوا مقصرين في ذلك حتى وسع نطاق هذا العلم مثل الفيلسوف سبنسر وغيره فهم بإرشاد هذا العلم يجتهدون في اتقاء الهلاك اجتهاداً ربما يكون سبباً في تأخيره فنحن في هذه الفرصة يجب أن نتقي شر اعتدائهم علينا، ليطول أمد السلام فيكم وفينا.

قال: ان التأخير ليس بمستطاع وقد حكيت عن الفيلسوف سبنسر انه كان يائساً من تلافي مفاسد الافكار المادية ونصر الحق والفضيلة عليها. وأنا أخبرك بأنه يوجد كثير من عقلاء أوربة يعتقدون ان خرابها سيكون قريباً وأنه ربما يكون هذا الجيل آخر جيل فيها، وحجتهم عليها هذه الحرب الاخيرة.

قلت: ألا ترى أن من الممكن التوسل بأمثال هؤلاء العقلاء الى بث الدعوة في الشعوب الاوربية بإلزام حكوماتها ترك العدوان على حريتنا واستقلالنا، اكتفاء بمبادلة المنافع بينهم وبيننا، وتلافياً لما تولده المطامع في بلادنا من التنازع بين الدول الطامعة فيها، الذي يفضي الى الحرب الآتية،. وهي التي إذا وقعت ستكون القاضية.

قال: لا إمكان فهؤلاء السياسيون لا يحوّلهم عما تربوا ومرنوا عليه من المطامع والدسائس إلا القوة والقاهرة.

قلت: وبم تنصح لنا إذاً؟.

قال: اجمعوا كلمتكم وحافظوا على دينكم وآدابكم وفضائلكم، واستعدوا للاستفادة من الحرب الآتية، فإذاكانت شعوبكم تتبع رأي الزعماء العقلاء مثلكم فإنكم تستفيدون من فرصة الحرب الآتية، ما فاتكم مثله في الحرب الماضية؛ وإلا فلستم الآن بأهل للاستقلال ولا للحرية، بل تحتاجون الى تربية طويلة.

هذا ملخص حديثنا السياسي على المائدة وفي السمر بعدها، بل كان من حريته التامة ان صرح بما لا يجوز لي أن أنقله عنه إلا بإذنه، وهو يعتقد ان ساسة الغرب يكذبون في ما يرموننا به من العيوب ليحتجوا به على إقناع مجالسهم وأحرار شعوبهم بالاعتداء علينا. ومن مجاملته الأدبية لي قوله: انني أعتقد بتناسخ الارواح، وقد رأيت روحي قريبة من روحك ولكنها لم تبلغ درجتها في الارتقاء، وانني أرجو ان تدركها بعد موت وحياة أخرى فنلتقي في الحياة الثالثة تلاقي الاتحاد والمساواة، فأجبته بمجاملة تليق بالمقام وأثنيت على ما أفادنا، وما نصح به لنا، مغتبطاً باتفاقنا في الأفكار والآراء.

الرحلة الاوربية(*)

(٧)

بينت في السابق انه كان مما أرجو ان أخدم به أمّتنا وبلادنا الشرقية في أوربة ابلاغ من ألقى من أحرار الاوربيين حقيقة حال الشرق، وموقفه اليوم أمام الغرب، والاستعانة بهم على اصلاح ذات البين، وأنه جرى لي أحاديث مع بعض من لقيت منهم ذكرت بعضها، وكنت قبل ذلك كتبت مقالة في الموضوع أردت أن تكون بلاغاً عاماً لهم فلم يتيسر لي نشرها فإنني لما كلفت صاحبنا الشيخ علي الغاياتي ترجمتها قرأها وأعادها إليّ قائلاً: إنه لا يوجد جريدة في جنيف تقبل ان تنشرها، لشدة حكمها على انكلترا وفرنسة وهذا نصها.

﴿نداء الشرق لأحرار الغرب﴾

هذه صيحة حق، من جانب الشرق، يتموج بها الهواء في بهرة الغرب[1] مدينة جنيف الحرة، التي هي كالمنار في هذه البهرة، حيث جمعية الأمم، ومثابة[2] كل شعب مظلوم يشكو ممن ظلم، فعسى أن تخترق مسامع اعضاء هذه الجمعية، فتنفذ الى عقول حكيمة، وقلوب رحيمة، وعسى ان تردد صداها صحف هذه المدينة، فتصل الى أحرار جميع الشعوب الأوربية الكريمة، فتكون حجة لمحكمة الامم إذا أرادت ان تحكم بالحق، في ما اختلف فيه الغرب مع الشرق، ذلك يتوقف على سماع أقوال الخصمين، والنظر في مستندات الفريقين، وحجة عليها إذا هي حكمت للقوي القاهر، بمجرد دعواه على المقهور العاجز، يشهد بها عليها الاحرار العدول، ويسجلها عليها التاريخ الصحيح، حين ترى عاقبة هذا الحكم وتؤاخذ بسوء مغبته، يوم تعود الحرب جذعة[3] بهذه السياسة الخدعة،

(*) المنارج ٢٣ (١٩٢٢) ص ٦٩٦ - ٨٠٢.

(١) البهرة بوزن الغرفة الوسط والمراد انها أوسط اوربة.

(٢) المثابة مجتمع الناس الذين يختلفون اليه بدءاً وعوداً وهو من ثاب يثوب بمعنى عاد ورجع.

(٣) الجذعة بالتحريك الشابة الفتية وهي مؤنث الجذع وأصل استعماله في بهيمة الانعام.

الخبأة الطلعة[١] التي يسلك اخراتها[٢] ومضايقها المغرورون بقوتهم، المسرفون في مطامعهم، المتلذذون بعظمة استرقاق الشعوب، المتنعمون بما يسلبون فيها من الخزائن والجيوب، بل نرجو من هؤلاء الاحرار المنصفين، ان يجاهدوا هؤلاء الساسة الماكرين، ويؤلبوا عليهم هذه الشعوب التي أرهقوها بالجندية، وفوادح الضرائب المالية، فيتعاون العلماء والكتاب، والصناع والزراع، على قلب سياسة المطامع، المعززة بالبنادق والمدافع؛ المفضية الى حرب بعد حرب، لا تنتهي إلا بخراب الارض واهلاك الحرث والنسل.

أصيخوا أصيخوا أيها الأحرار الى ما يلقيه عليكم شرقي خبير بشؤون الشرق، وما يجب أن يتبدل من علاقته بالغرب، بما أحدثت هذه الحرب من الانقلاب الاجتماعي فيه، وأنتم أنتم الذين يمكنهم بهذا الانقلاب ان تكفروا سيئات هذه الحرب وفظائعها عن مدنيّتكم وشرف شعوبكم، وتأخذوا على أيدي دهاة سياسة الطمع والكبرياء ان يرهقوكم ويرهقوا العالم كله بحرب شر منها، إذا ظلوا متحكمين في أموالكم، وجنودكم وعمالكم، وظللتم مخدوعين بفصاحة خطبهم الخلابة، ومستعذبين لحلاوة أمانيهم الجذابة.

أيها الأحرار المتفكرون إنه ليقل فيكم من كان له علم أو المام بدخل هذه السياسة الأفّاكة[٣] المرائية، او سبر لغور مكرها وتلبيسها، وقد كنتم معذورين في الزمن الماضي بتصديقهم في زعمهم ان الاستعداد للحرب، هو الذي يمنع الحرب، وأن التنافس في الاستعمار الذي هو علة عللها ليس إلا مسابقة في خدمة الانسانية، بتحضير الشعوب الهمجية، ومباراة في العمران الذي يرفه معيشتكم ومعيشة هذه الشعوب جميعاً ليعم العلم والعمران، ويعيش البشر كلهم في رغد السلام.

أما الآن فلم يبق لكم عذر إذا استمررتم مخدوعين بخلابتهم، مستسلمين لكيدهم فقد فضحتهم هذه الحرب شر فضيحة، وكذبت دعواهم ان الاستعداد للحرب أنفى للحرب، ورأيتم كيف كان التزاحم على الاستعمار والتنافس في حب السيادة سبباً للمباراة في الاستعداد لها، وكيف كان هذا الاستعداد مضرماً لنارها، وسبباً لإزهاق أرواح الملايين من البشر، ولخراب ما عمّروه في العشرات بل المئات من السنين، ولضياع ما ربح المستعمرون بظلم الشعوب المستعبدة من الأموال، ثم لتشويه مدنية هذا العصر وسوء سمعتها.

الا إن تبعة هذه المصائب يجب أن تلقى على أكتاد[٤] رجال هذه السياسة السوءى، وان لم يثبت على أحد منهم بعينه إلقاء جذوة النار الأولى، فإنني على رأي الفيلسوف الاجتماعي (موسيو غوستاف لوبون) في تبرئة كل دولة من دولها، وكل رجل من هذه الدول ملوكها ووزرائها، من تعمّد بدء الحرب حتى المانية وعاهلها وروسية وقيصرها، وفي أن

(١) الخدعة الكثيرة الخداع والخبأة الكثيرة الاختباء والاستتار والطلعة الكثيرة الطلوع فهذه صيغ مبالغة معروفة وهي بضم ففتح (كهمزة لمزة) ويستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع بين الضدين الخبأة والطلعة انما يكون بالتعاقب والتناوب أي انها تختبىء تارة وتظهر أخرى كسلاحف البحر فالاختباء من الخوف والطلوع لاجل الاستطلاع.

(٢) الاخرات المضايق وأحدها خرت فهي كقفل واقفال.

(٣) الأفّاكه بالتشديد صيغة مبالغة من الأفك وهو صرف الشيء عن وجهة الحق بالكذب او التلبيس والتمويه، او المغالطة والتأويل.

(٤) الكتد ما بين الكتفين.

سببها الحق مجموع أعمالهم السياسية التي كانت كنقط ماء تقع في كأس لم تلبث أن طفحت ففاضت كما قال، أو كتجميع القوى الضاغطة يوجب الانفجار، أو كوضع البارود بجوار النار، لا يؤمن عليه الاحتراق، فإذا لم تؤاخذوا هؤلاء الساسة بما جنته سياستهم على البشر لعذركم إياهم بخطأ الاجتهاد، فلماذا تقرونهم على الاصرار على هذا الخطأ والاستمرار على هذه السياسة، وأنتم تعلمون أن المعلومات تتكرر بتكرار عللها، والمسببات تدوم بدوام أسبابها؟ فكيف وقد تجدد لهذه المصائب والدواهي أسباب جديدة أحدثتها الحرب ثم معاهدات الصلح، وهذه الاسباب نوعان: يقظة الشرق، وتأريث الحقد والانتقام بين أمم الغرب.

ما تعلّمه الشرق من الحرب والصلح

أيها الأحرار - اعلموا أن حرب المدنية المادية الاوربية وهدنتها، ومعاهدات الصلح ونتائجها، قد علّمت عوام شعوب الشرق ما لم يكن يعلمه إلا بعض خواصهم من سوء مقاصد الدول المستعمرة، حتى ساء الاعتقاد بالأمم الاوربية أنفسها، فهدمت في خمس سنين ما بني في العقول والقلوب من فضل هذه المدنية وعظمة أهلها في مدة قرن كامل - وعلمتها وجوب الاتحاد والتعاون بينها على اختلاف أديانها، ومذاهبها وأجناسها، على دفع عادية المستعمرين، القساة المتكبرين الظالمين المرائين - علمتها الاقتداء بهم في بذل النفس والنفيس، وعدم المبالاة بالموت في سبيل الحرية والاستقلال - علمتها أنهم لا يعرفون للحق ولا للعدل ولا للفضيلة ولا للإنسانية معنى، وان الشرف والمجد استبداد القوي بالضعيف واستعباده وتسخيره لعظمته وشهواته. - علمتها انهم كذابون مراؤون أفاكون، يسمّون الاشياء بأسماء أضدادها، يحسّنون بذلك سيئاتهم ويقبّحون حسنات غيرهم.

كان الشرق إذا أراد ان يؤكد صدق قوله او الوفاء بوعده يقول: «كلمة افرنجية، او انكليزية» وقد صاروا يطلقون هذا الوصف النسبي على ضد ما كانوا يطلقونه عليه تعميماً وتخصيصاً، ويعتقدون بحق ان الترك أصدق وأبر وأعدل وأرحم من الافرنج عامة، ومن الانكليز والفرنسيس خاصة، وكيف لا وقد وعدهم هؤلاء بالتحرير والاستقلال وعوداً عامة وخاصة بما أمطرت شركاتهم البرقية وجرائدهم الخافقين (الغرب والشرق) من وصف مبادئهم ومقاصدهم من الحرب، وبما كانت طياراتهم تلقيه في البلاد العربية من المنشورات والجرائد العربية الشارحة لهذه الوعود الموجزة. والمفصلة لمقاصد تلك المبادىء المجملة، وأهم تلك المنشورات ما كان باسم أمير مكة بالأمس وملكها اليوم، والأمير فيصل أحد قواد الحلفاء بالأمس وملك العراق من قِبَل بريطانية اليوم، وجريدة القبلة التي انشأتها حكومة الحجاز بعد الثورة العربية، وجريدة الكوكب التي كانت تصدرها السلطة البريطانية بمصر. فكان هذا وذاك وعوداً وعهوداً رسمية من الحلفاء تصدر من لدن ملوكهم وقوادهم، وتنشرها بردهم العسكرية وطياراتهم، فلا يمكن ان تكون من غيرهم.

ثم كانت عاقبتها احتلالاً عسكرياً قاهراً في سورية والعراق، معززاً بجميع آلات الحرب الحديثة مع بيع وطن فلسطين العربي لليهود، واستعباداً واستذلالاً للعرب من قِبل

المحررين المنقذين لهم، المنتدبين باسم جمعية الامم لمساعدتهم على النهضوض بأمر استقلالهم، بعدما أصابهم ما أصابهم من نوائب الحرب، ولكن هذه المساعدة اضطرت هؤلاء الاصدقاء المخدوعين الى ثورات ومقاومات دمرت مئات من المزارع والقرى، وقتلت عشرات الألوف في العراق وسورية.

جهل جمعية الامم بمكر الحلفاء بها

أيها الاحرار المنصفون: اننا نعلم انه لا يعزب عن علمكم أن التنافس في القوة المادية والتزاحم على المطامع الاستعمارية، هما اللذان أوقدا نار الحرب العامة، وان معاهدات الصلح السوءى في فرسايل وسان ريمو وسيفر هي التي نقضت تلك المبادىء وجعلت الظفر فتحاً وانتقاماً واستعماراً سيعيد الحرب جذعة، ولكن الذي يرتاب فيه كثير من الناس في الشرق والغرب هو علم محبي الحق والعدل من اعضاء جمعية الأمم الذين ليس لدولهم هوى ولا لأفرادهم ضلع مع أحد من الدول الظافرة القاهرة، بما يكيد لهم دهاة ساسة هذه الدول بمجلس الجمعية وما يلقون على عواتقهم من التبعة الثقيلة تجاه العالم الانساني: تبعة حكم جمعية الأمم لهم وإقرارها إياهم على قهرهم للشعوب المغلوبة في الغرب واستخدامهم إياها لمنافعهم باسم التعويضات، وعلى استعباد شعوب الشرق كلها باسم الانتداب، هذا الاسم الذي ابتدعوه ليكون مخرجاً لهم من تلك الوعود والعهود، ودعوى ان الحرب كانت بين مبدأين (المبدأ الجرماني الذي يبغي الاستعلاء على الأمم بالقوة ومبدأ الحلفاء الذين يبغون حرية الامم) وعلى جعل بناء السلم العام الدائم قائماً على اختصاص هؤلاء القاهرين الجائرين بالقوى الحربية، بأنواعها البرية والبحرية والجوية، ليدوم لهم القهر والاستعباد للمحرومين منها، والعاجزين عنها، أو يكفل لذات القوة الكبرى، ان يدوم لها الرجحان والكلمة العليا، الا وهي بريطانية العظمى، التي شرعت في تأسيس امبراطوريتين جديدتين كانت تحلم بهما من عهد بعيد، فجعلت حرب المبدأين وسيلة لتأسيسهما بقوة الجند والسلاح، وقوة الكيد والخداع، الاولى منهما الشطر الشرقي من افريقية، والثانية الشطر الغربي من آسية، ويدخل في هذه السيادة جميع المعاهد المقدسة للأديان السماوية، كما ان لها السيادة في الهند والتبت على أقدم معاهد الديانات الوثنية.

إنما يرتاب من أشرنا اليهم من الناس في علم من وصفنا من اعضاء جمعية الامم - وهم الاكثرون - بما ذكرنا من كيد ساسة الدول الظافرة لها ومكرهم بها، لأنهم يظنون ان الجمعية بجملتها راضية بنظامها، ملقية بقيادها الى مجلسها، كما تنقاد الرعية الجاهلة الى ملكها المستبد بها، ذلك المجلس الذي يفصل باسمها في أعظم المسائل تبعة وأسوأها عاقبة كمسألة الوصايات الانتدابية، أفيصدقون انها مساعدة، وهم يرون ما بينهم من المساومة والمنازعة، والمصارعة والمقارعة[1] ويقرأون بعض ما تجود به برقياتهم وصحفهم

---

(١) للمقارعة معنيان: ضرب كل للآخر وضرب القرعة بينهما على ما يختلفان عليه في قسمته.

من انباء المظاهرات والثورات على سلطتهم العسكرية القاسية، في البلاد المرزوءة بالوصاية بدعوى العطف عليها والرحمة بها، ومساعدتها على النهوض بأعباء حريتها واستقلالها، وما يعترفون به أحياناً من مقاومة ذلك بتدمير القرى والمزارع، بأكساف الطيارات وقذائف المدافع، التي تقتل العجزة والنساء والاطفال، وقلّما تصيب المتظاهرين او الثائرين من الرجال، ويفرض الغرامات الثقيلة على أهلها الوادعين الساكنين، وغير ذلك من ضروب القهر والاستعباد الذي شرحه تقرير المؤتمر السوري الفلسطيني وما ألحق به.

قواعد السلم بين الشرق والغرب

انني بعد بيان هذه الحقائق ألخّص لجمعية الأمم ولجميع أحرار الشعوب الاوربية آراء شعوب الشرق، وآمالهم في أحرار شعوب الغرب، وهي: -

(١) إن زعماء شعوب الشرق من علماء الحقوق والشرائع والخطباء والكتّاب والضباط الذين هم قادة الافكار وجنودهم من النابتة الجديدة المتعلمة قد أجمعوا على أن يكونوا أحراراً في بلادهم، مستقلين بأمر حكوماتهم، لا سيد عليهم سوى أنفسهم بل لا سيد إلا شرائع البلاد وقوانينها، والمساواة في العدل بين المقيمين فيها، سواء كانوا من أهلها او من المهاجرين اليها.

(٢) يرى هؤلاء الزعماء ان التعاون الانساني بين الشرق والغرب يجب ان ينحصر في استعانة الشرقيين بأهل الفنون الغربية على عمران بلادهم واستخراج كنوز الثروة منها بإصلاح الري وترقية الزراعة واستخراج المعادن وزيت البترول وغيره وبما يتوسل به الى ذلك من العلوم والفنون، وللغربيين في مقابلة ذلك ما يأخذه هؤلاء الفنيون من الأجور العظيمة، وما يجلبون من الأغذية لبلادهم، والمواد الأولية لمعاملهم، وما يربحون من بيع مصنوعاتهم الكثيرة، وبهذا دون غيره تكمل الروابط الانسانية بين الأمم والشعوب، ويعمّ العمران وستغنى عن سفك الدماء، وتأريث العداوة والبغضاء. بل يحلّ محلهما الحب والاخاء.

(٣) إذا وجد في أحرار الغرب من يساعد زعماء الشرق على هذا الاصلاح الانساني الذي هو أقوى ذرائع السلام في الارض، فأول ما يجب ان يبدأوا به إقناع دولتي انكلترة وفرنسة بتعديل معاهدات الصلح المتعلقة بالشرق بالحق والعدل او نسخها بخير منها، واستقلال الاقوام التي لا يمكن ان ترضى بأن يكون السلطان في بلادها لأجنبي عنها، كعرب الجزيرة والسوريين والعراقيين والمصريين والترك والفرس والافغانيين بأن ترفع الاحتلال العسكري من مصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق وتترك لأهل هذه البلاد الحرية التامة في شكل حكوماتها، برأي مجالس نيابية منتخبة من أهلها.

(٤) أن تكفّ الحكومة البريطانية عن الدسائس التي تبثها في اليمن وسائر جزيرة

العرب لإيقاع الشقاق والفتن بين امرائها واغراء بعضهم ببعض ومخادعتهم بعقد اتفاقات بينها وبينهم تتوسل بها الى العبث باستقلالهم عند سنوح الفرص.

(٥) إذا أعرض أحرار أوربة عن هذه الدعوة، او عجزوا عن اصلاح ذات بين الشرق والغرب، ورأى زعماء الشعوب الشرقية ان جمعية الامم رضيت لنفسها بأن تكون شرّ آلة وجدت في الارض، لهدم قواعد الحق والعدل، بكفالتها للقوي بالمال والسلاح كل ما يطمع فيه من الاضعف - فستكون عاقبة ذلك خراب اوربة بحرب أخرى، او بلشفية أضر من البلشفية الروسية وأضرى، واتحاد جميع شعوب الشرق. على الانتقام من جميع أمم الغرب، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

فهرس الأعلام والأماكن

ـ الألف ـ

ـ الباء ـ

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

ـ الجيم ـ

ـ الحاء ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الغين ـ

ـ الفاء ـ

فهرس المحتويات